وليد الكعبة

ثلاث وستون شمعة مضيئة في الحضارة الإنسانية

ميرزا محمد أمان

مكتبة فخراوي

وليد الكعبة

ثلاث وستون شمعة مضيئة في الحضارة الإنسانية

ميرزا محمد أمان

شبكة الفكر
alfeker.net

مكتبة فخراوي

إسم الكتاب: وليد الكعبة

المؤلف: ميرزا محمد أمان

الناشر: مكتبة فخراوي

الرقم الدولي للكتاب: ISBN 978-99901-543-1-3

رقم الإيداع: بإدارة المكتبات العامة: د.ع 7591/2009م

الطبعة الأولى 2009م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

مكتبة فخراوي

المنامة: مملكة البحرين - ص.ب: ١٦٤٣

هاتف: ١٧٥٩٣٢٥٥ - ١٧٥٩٣٣٥٥ - فاكس: ١٧٥٩٦٦٧٢

البريد الالكتروني: info@fakhrawi_com

موقع الانترنت : www.fakhrawi.com

إهـــداء

عدي و تيم لا أحـــاول ذكرهـم بسوء و لكني محب لهاشـــم
و ما يعتريـــــني في علي و رهطه إذا ذكروا في الله لومة لائـم
يقولون ما بال النصارى تحبهـم و أهل النهى من أعرب و أعاجـم
فقلت لهم إني لأحسب حبهـم سرى في قلوب الناس حتى البهائـم

إسحاق الموصلي

لأمير المؤمنين و سيد الوصيين و خليفة رسول رب العالمين و ابن عم سيد المرسلين و زوج فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين و إبنة خير النبيين و إلى أبنائه الغر الميامين أهدي هذا السعي المتواضع. و الله من وراء القصد.

المؤلف

مقـــدمة

ترددت كثيرا في الكتابة عن ليث الله الغالب، والشهاب الثاقب، أبي الأئمة الأطايب، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه وعلى آله أفضل التحية و أزكى السلام. فكلما عزمت على الكتابة عنه وجدت نفسي أقف أمام بحر لا منتهى له ولا قرار، و واحة وافرة الظل والثمار. تجمعت فيه جميع الخصال الحميدة، ايمان، ورجولة، وشجاعة، وإباء، ومعرفة، وبلاغة، وعلم، وفصاحة، وعدل، وسماحة وكل ما تشعب ونسب الى الخصال الحسنة والحميدة. وجدت نفسي أمام شخصية إنحنت أمامها هامات رجال عظماء، من علماء ومثقفين ومفكرين، مسلمين وغير مسلمين، عرب ومستعربين، شرقيين وغربيين. فما عساني وانا ما انا أن أضيف إلى ما قالوا وما كتبوا عن هذه الشخصية، وأنّا لي بمضاهاة ما قالوا وما كتبوا.

ما عساي أن أقول في من كان في بيت الله مولده، ومن من أسماء الله إشتق إسمه، ومن طهره الله تطهيرا، و أوكل تربيته إلى رسوله وجعل ولايته فرضا يلي ولاية الله و رسوله فقال سبحانه وتعالى في سورة المائدة، الآية ٥٥: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَ الذِّينَ آمَنُوا الذِّينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ﴾ ما عساي أن أقول في من انزل الله فيه "لا فتى إلا علي و لا سيف إلا ذو الفقار،" ومن الله في السماء من أفضل النساء زوجه وبسيدي شباب الجنة وريحانتي رسول الله صلى الله عليه وآله رزقه، وبالشهادة في بيت من بيوته ختم الله له، وجازاه بأن أعطاه الجنة منذ أن تصدق وأهل بيته بإفطارهم.

ما عساي أن أقول في من قال فيه رسول الله: "أنت أخي و وزيري و وصيي وقاضي ديني...وأنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي...أنا ولي لمن والاك وعدو لمن عاداك...حبك إيمان وبغضك كفر ونفاق...أنت مولى كل مؤمن ومؤمنة...بسيف علي قام الدين وبسيف علي يُقتل المارقون والناكثون... ضربة علي لعمرو تساوي عمل الثقلين إلى يوم القيامة...ولو لا خوفي أن تقول فيك أمتي ما قالت أمة عيسى فيه لقلت فيك ما أنت أهله." ومن عرّفه رسول الله عندما برز لعمر بن عبدود بأنه "الإيمان كله" الذي برز "للشرك كله" و المتمثل في خصمه.

ما عساي أن أقول فيمن تاه في معرفته من هم أوسع مني فكرا وأطول باعا وأقوى جنانا وأكثر علما وإطلاعا. من قال فيه الخليفة عمر: "لو لا علي لهلك عمر...ولا بقيت لمعضلة لم يكن لها أبو حسن علي." من قال فيه الفيلسوف اللبناني الأصل جبران خليل جبران: "إن علي بن أبي طالب هو أول عربي لازم الروح الكلية وجاورها وسامرها وهو أول عربي تناولت شفتاه صدى أغانيها فرددها على مسمع قوم لم يسمعوا بمثلها من ذي قبل فتاهوا بين مناهج بلاغته و ظلمات ماضيهم." ومن قال فيه ثوماس كارليل: "أما علي بن أبي طالب فلا يسعنا إلا أن نحبه ونتعشقه لأنه فتى كبير النفس جليل القدر يفيض وجدانه رحمة وبرا ويتلظى فؤاده نجدة وحماسة وكان أشجع من ليث ولكنها شجاعة ممزوجة برقة ولطف ورأفة وحنان. وإنه لشدة عدله حسب أن كل إنسان عادلا مثله." و من قال فيه روكس بن زائد العزيزي مؤلف كتاب "الإمام علي: أسد الإسلام وقديسه": "إن إنقسام الناس فيه دليل على عظمته."

ما عساي أن أقول في من قال فيه المؤلفون وسطّر فيه الشعراء من مسلمين ومسيحيين، من عصر النبوة إلى يومنا هذا، وسيواصلون ذلك حتى قيام الساعة، ملاحم لم يُسّطر مثلها في غيره. فمن ملحمة حسّان بن ثابت يوم غدير خم إلى ملحمة "العلوية المباركة" لعبد المسيح الأنطاكي رئيس تحرير

جريدة العمران المصرية والتي تعتبر أكبر ملحمة في الشعر العربي حيث حوت ٥٥٩٥ بيتا، إلى ملحمة "عيد الغدير" للأديب اللبناني بوليس سلامة وغيرهم من الأدباء و الشعراء.

شخصية كشخصية الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام كُتب حولها الكثير من المؤلفات وقيل فيها الكثير من الشعر والنثر و وقف أمامها عمالقة الفكر والأدب حائرين لا بد أن تُفرمل إرادة شخص مثلي عشق الإمام وتاه في بحور علمه وأحنى الهام خجلا من الظهور بوجهه أمام تلك الشخصية وخشي ورود منهلها. ولقد دعيت كثيرا للمشاركة في مناسبات خاصة بالإمام كمولده عليه السلام وعيد الغدير الأغر وكان الإعتذار هو الجواب دائما.

مرة واحدة لم أتمكن فيها من الإعتذار عن دعوة للمشاركة في إحتفال بعيد الغدير لأن الدعوة جاءت من شخص أعلى مني رتبة ومقاما ومن أدين له بخدمات لن أنساها ما حييت. وكانت إستجابتي لتلك الدعوة المفتاح الذي ولّد لي الجرأة في الكتابة عن هذه الشخصية العظيمة.

ففي عام ١٩٨٦ ميلادية كنت في زيارة للولايات المتحدة وكان برنامج الزيارة يشمل زيارة بعض المراكز الإسلامية وسألني منسق البرنامج في واشنطن إن كان لدي مركز إسلامي أو أكثر محددين أرغب في زيارتهم. فطلبت منه أن يضع مركزين إسلاميين في ولاية ميشيغان واحد في ديترويت وآخر في لانسنغ الشرقية القريبين من بعضهما. وطلبت أن تشمل الزيارة إجتماع مع أخي وصديقي المرحوم الشيخ محمد جواد شري إمام المركز الإسلامي في ديترويت. وبعد يومين أفادني منسق البرنامج بأن الزيارة إلى ديترويت قد تم ترتيبها وكالعادة نقل لي ترحيبا من فضيلة الشيخ وطلبا منه بإستضافتي في منزله. إتصلت بفضيلته من واشنطن مسلما عليه و شاكرا له ترحيبه بي وعرضه إستضافتي في منزله لكني إعتذرت لفضيلته عن الإستضافة لأسباب

تتعلق بجدول الزيارة وما شمله من لقاءات أخرى يمتد بعضها إلى ساعات متأخرة من الليل. تفهم سماحته السبب وأنهينا المكالمة على أن نلتقي في التاريخ الذي إتفقنا عليه.

بعد أيام وصلت إلى ديترويت وإتصلت بفيضلة الشيخ محمد وإتفقنا على الإجتماع في اليوم التالي. في الإجتماع تفاجأت بأننا على مقربة من عيد الغدير وأنه سيحل بعد يومين. وقال لي فضيلته: "ولقد أضفت إسمك على قائمة المشاركين في الحفل." أوضحت لفضيلته رغبتي في ذلك ولكنني أخبرته بأنني كلما أردت القيام بذلك تنتابني الرهبة وأشعر بأنني أقل من أن أقول في الإمام كلمة واحدة. حاولت الإعتذار ولكن فضيلته كان مصرا. ولما لم يجد أملا في إقناعي قال لي: لا بأس ولكن ما رأيك في حلقة نقاش مع بعض أعضاء المركز؟ طبعا كان الجواب بالإيجاب فلم أقدر على الإستمرار في رفض عروض من أكن له كل الإحترام والتقدير وأدين له بخدمات جليلة قدمها لي. أهداني آخر كتبه عن الإمام عليه السلام وبعدها رجعت بعدها إلى الفندق على أن نجتمع صباح اليوم التالي وأن أحضر الإحتفال بعيد الغدير في مساء نفس اليوم.

ذهبت صباح اليوم الثاني إلى مكتب سماحته وبعد تناول القهوة التركية قال لي سماحته بأن الرهبة عند الكتابة عن أمير المؤمنين أو الخطابة حوله أمر طبيعي ينتاب حتى قادة القلم وأرباب الفصاحة و البلاغة من أدباء وشعراء وغيرهم. وأضاف قائلا لكنه ما إن يلج الكاتب أو المتحدث أو الخطيب أو الشاعر بحر أمير المؤمنين عليه السلام حتى تتلاشى تلك الرهبة حيث تُذهبها روعة الكنوز العلوية التي يبدأ الكاتب والمتحدث والخطيب والشاعر يتنقل بينها ويغرف منها. عرفت، أو هكذا بدا لي، بأن سماحته يحاول أن يهيأني للقاء الذي سيبدأ بعد قريب. وأخذنا نتحث عن أمير المؤمنين عليه السلام وأخبرني سماحته عن نجاحات حققها في الولايات المتحدة الأميركية

بفضل أمير المؤمنين عليه السلام وببركة السير على منهجه وشرح ذلك المنهج لمن يجتمع بهم من الأميركيين من مسؤولين وغيرهم.

بعدها ذهبنا إلى قاعة الإجتماع الملحقة بالمسجد. دخلنا القاعة وسلمنا على الحاضرين ثم قام سماحته بتعريفي للحاضرين وتعريفهم لي حيث ضمّ الجمع أحد إداريي المركز وإثنين من الأخوة المسيحيين الذين كانوا جيرانا للمسجد وثلاثة من الأخوة السنة. بعد التعارف تكلم فضيلته عن الإمام أمير المؤمنين وعن سماحته ومعاملته للبشر بالتساوي بغض النظر عن دينهم وعرقهم ولونهم وجنسهم ولغتهم. وأعطى أدلة علي مواقف حدثت للإمام مع مسلمين وغير مسلمين ومسيحيين ويهود وحتى مع أناس لا دين لهم. وما إن جاء دوري في الكلام حتى وجدت نفسي أتكلم عن الإمام بما كنت أعرفه وما قرأته وما سمعته عنه وكلما تكلمت زادت جرعة الجرأة عندي وإنفتحت أمامي أبوابا لم أتوقعها وتذكرت أقوالا ومواقف للإمام أمير المؤمنين كانت غائبة عن بالي. وواصلنا النقاش الرزين والهادئ والممتع ولم يقطع ذلك النقاش إلا أذان الظهر. فتفرقنا على أن نبقى على إتصال مهما إستطعنا.

عندها علمت بأن ما قاله سماحة الشيخ محمد جواد شري رحمه الله في بداية لقائي معه لم يكن فقط ليُعدّني للقاء ولكن ليوصل إلي حقيقة كنت جاهلها وهي الحالة التي تنتاب الكاتب والخطيب والشاعر الذي يتصدى للحديث عن شخصية الإمام. علمت بأن ما كان ينتابني هي نفس الحالة التي وصفها روكس العزيزي بقوله أنها الهيبة التي "تصيب من يريد أن يخوض البحر و هو يرى البحر للمرة الأولى في حياته." وأن تلك الهيبة ستزول تدريجيا كلما شعر بدفئ ذلك البحر ورأى لآلئه و كنوزه.

في أواخر ١٩٨٦ وبعد رجوعي من الولايات المتحدة بدأت في الكتابة عن أمير المؤمنين عليه السلام. ولكن إرتباطات العمل حالت دون تمكني من

تخصيص وقت كاف للكتابة. وبعد أن تقاعدت في أواخر عام ٢٠٠١ قررت المضي في إنهاء ما بدأت الكتابة فيه حول الإمام عليه السلام. وكان الأمر كما قال فضيلة الشيخ محمد جواد شري رحمه الله. ما إن يبدأ القلم في الكتابة حتى يجد الطريق ممهدا أمامه مليئا بالمادة و الكلمة.

أثناء الكتابة أخذت أسأل نفسي عن عنوان ما أكتب. طافت أمامي عناوين كثيرة إخترت منها "وليد الكعبة" لكونه شرفا لم ينله أحد قبل الإمام ولن يناله أحد بعده. أما لماذا الفصول الثلاثة والستون فهي بعدد سنوات عمره الشريف سلام الله عليه الذي حوّل كل سنة منه إلى شمعة تحيط بها شموع كثيرة أصغر منها منبثقة من الشمعة الأم تُضيء الظلمة التي كانت تعيش فيها البشرية وتُقدم لها علما وهدى وتطورا يُنير دربها ويهديها لإيجاد حضارة هي من أسمى الحضارات وأغناها و أكملها.

ميرزا محمد أمان

الشمعة الأولى
ولادة النور في بيت النور

في صبيحة الثاني عشر من شهر رجب، بعد عام الفيل بثلاثين سنة، وقبل الهجرة الشريفة بثلاث وعشرين سنة، شعرت السيدة الفاضلة فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف زوجة أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بألم لم تألفه من قبل. ألم مصحوب بلذة لم تعهدها من قبل. لا هو بألم المخاض المعهود فتطلب قابلة ولا هو بلذة صافية من غير ألم فتعتبره إستمرارا للشعور الطيب واللذيذ الذي عرفته منذ أن حملت بالجنين الذي في بطنها.

إحتارت الهاشمية في أمرها حيث صعب عليها فهم ومعرفة سبب ذلك الألم الفريد من نوعه. أخذت تفكر في من تلجأ إليه ناشدة تفسيرا لما تشعر به فلم تهتدي إلى من بإستطاعته مساعدتها. فموضوعها غير طبيعي وتحتاج أولا لمن يُصّدقها فيما تقول لأن ما ستقوله وما ستصفه من شعور يصعُب على من حولها تصديقه وفهمه ولربما إتهمها سامعها بالجنون لغرابة ما ستقول. حيرة مبعثها: إن هي بثّت ما بها لأي من المحيطين بها ربما لن تحصل على ما تريد ولربما قاد بثها لما بها إلى إستهزاء الناس بها لأنه ليس بإستطاعة أي منهم تفّهم أمرها فهو أمر غير طبيعي وغير مألوف، وإن هي سكتت خافت من عواقب ذلك الألم على ما في بطنها وعليها.

بينما هي تفّكر في حالها وما بها من ألم وإذا بفطرتها النقية الطاهرة وإيمانها الراسخ بخالقها وثقتها في قدرته وقربه من عباده يدفعها ويرشدها إلى الذهاب إلى بيت ربها، إلى الكعبة الشريفة، واللجوء إلى خالقها تسأله كشف ضرّها وتهوين ما نزل بها من ألم. إرتاحت للفكرة وشعرت بأن مجرد

وصول عقلها إلى هذه الفكرة هو بحد ذاته تصديقا لإيمانها بخالقها وثقتها في مساعدته.

هرعت إلى بيت الله العتيق في خطوات غلبت عليها السكينة والوقار وهي واثقة من الحصول على العلاج داعية ربّ السماء الشفاء من ما تعانيه. وصلت إلى الكعبة المشرفّة وأخذت تطوف حولها بسكينة ووقار داعية خالقها بإيمان وإصطبار أن يمّن عليها بالشفاء بحرمة البيت ومن بناه. وبينما هي تطوف بالبيت بتضرع وخشوع وإذا بجدار الكعبة ينشّق أمامها بما يسع لشخص أن ينفذ من خلاله وشعرت وكأنّما دافع يدفعها دفعا للولوج من ذلك الشق إلى داخل الكعبة. لحظات وإذا هي وسط الكعبة المشّرفة. تنظر خلفها، إلى الشق الذي في الجدار، فتراه يعود إلى ما كان عليه سابقا من إلتئام وتماسك. أخذت تنظر يمينا وشمالا فلم ترى أحدا حولها وأنها لوحدها داخل الكعبة المشرّفة. لكنه بالرغم من وجودها لوحدها داخل الكعبة لم ينتابها خوف ولا حزن كما يحصل عادة في مثل تلك الحالة الإنفرادية والإنعزالية. وما زاد من تعجبها أكثر أنه بالرغم من عدم وجود فتحات للنور والهواء في جدران الكعبة إلا أن النور والهواء العليل يملآن محيط الكعبة من الداخل.

جلست في جانب من جوانب الكعبة المشّرفة تمعن النظر فيما حولها وقد أنساها وجودها داخل الكعبة الألم الذي كانت تشعر به والذي دفعها إلى المجيئ إلى الكعبة. وبينما هي تفّكر في وضعها وإذا بألم البطن الذي كانت تشعر به يزداد شيئا فشيئا. توجهت إلى ربّها بالدعاء متوسلة بأبيها إبراهيم الخليل (عليه و على نبينا و آله أفضل الصلاة و السلام) أن يشفيها. دقائق معدودة وإذا بالألم يتحول بقدرة الله سبحانه وتعالى إلى شعور مريح يتغلب فيه الإحساس باللذة على مرارة الألم. وكلما زاد الإحساس بالألم زاد الشعور بالإرتياح. حالة غريبة جمعت الضدّين في وقت و مكان واحد. حالة فريدة من نوعها لا توجد و لا تتكرر إلا في حالة واحدة وهي حالة الشهادة، عندما

يسعى المقاتل في سبيل الله إلى الشهادة فتتحول عندها حرارة السيف إلى لّذة وإرتياح مبعثه الشعور بقرب تحقيق المراد ونيل رضا رب العباد.

بينما السيدة الهاشمية الفاضلة فاطمة بنت أسد في تلك الحالة، وإذا بها تتوصل إلى معرفة ما بها تلقائيا، وكأنما هناك من يلهمها ويخبرها بحقيقة ما بها. عرفت بأنه المخاض الذي يأتي النساء عند الولادة وأن موعد خروج الجنين الذي في بطنها قد قرب. وهنا أيضا يزداد همها لمعرفتها بأنها ستحتاج إلى مساعدة نسائية وإلى أدوات وتجهيزات لم تكن متوفرة لديها في ذلك الوقت ولا يسعها إحضارها وهي في تلك الحالة وفي ذلك الموضع والمكان. ولكن وكما حدث في المرة السابقة، تتدخل القدرة الإلهية ويتم زيادة جرعة قوة الإيمان بالله عند الهاشمية ليمكنها من التحمّل والصبر والإعتقاد بأن ما نزل هو من الله الذي لا رادّ لمشيئته ولا إعتراض على حكمه. فيقوى إيمانها ويتولد لديها الشعور والقناعة بأن الذي دعاها لبيته وشقّ لها بابا خاصا بها تولج منه إلى داخل كعبته الطاهرة لن يتخّلى عنها لأنه لو أراد ذلك لما دعاها وأدخلها بيته وهو القادر على ذلك ولا لأحد عليه حق ولا حتى عتاب.

جلست فاطمة وأخذت تدعو ربها قائلة: "ربي إني مؤمنة بك وبما جاء من عندك من رسل وكتب وإني مصّدقة بكلام جدي ابراهيم الخليل وأنه بنى البيت العتيق فبحق الذي بنى هذا البيت وبحق هذا الجنين الذي يكلمني ويؤنسني في بطني والذي فتحت بيتك لأجله وإستقبلته فيه إلا ما يسّرت علي ولادتي." ثم سلّمت أمرها لله وأخذت تواصل الصلاة والإبتهال والتضرع والشكر لله راضية بما يقضي ويقدّر. وما هي إلا لحظات قلائل وإذا بها تضع مولودها بيسر وسهولة. تنظر إليه فإذا به تارة ينظر إليها مبتسما وتارة يوجه وجهه نحو خالقه كمن يقدم الشكر له بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن والدته. أخذته إلى صدرها وجعلت تقبّله وتقلّبه وإذا به طاهرا مطّهرا لا أثر لدم ولا لأوساخ عليه.

تذّكرت عندها بأن الولادة لا بد وأن تكون قد خلّفت بعض الدم أو ما شابهه. فإنتابها الخجل من المُضيف وتحركت تريد تنظيف المكان. أخذت تنظر عن يمينها وشمالها وتحتها فلم ترى أثرا لما يصاحب الولادة من دم ومخلفات. لم يقودها ذلك للتعجب فإيمانها بخالقها أقوى من أي ظن ووسواس. أنزلت مولودها جانبا وخرّت إلى ربّها ساجدة له شاكرة منّه وفضله وما حباها به من كرم وعون وضيافة لم تحصل عليها إمرأة قبلها ولا بعدها. وبعد أن قضت وطرها من العبادة وتقديم واجب الشكر لخالقها ومضيفها وراحمها ومغيثها حملت مولودها وأخذت تفكّر في الخروج وهي تدعو ربها أن ييّسر عليها خروجها من بيته كما يسّر عليها دخوله. ويأبى الله سبحانه وتعالى إلا أن يتم نعمته عليها. فينشق الجدار مرة أخرى مؤذنا لها بالخروج، تماما كما رحّب بها عند الدخول. تأخذ فاطمة إبنها وتخرج من البيت العتيق وفمها يختلج بذكر الله وحمده وثنائه.

ذلك ما كان من أمرها. أما ما كان من أمر أبي طالب فإنه لما إفتقد زوجته أخذ يسأل عنها نسوة المنزل والذين بدورهم أخذوا يسألون الجيران لعدم معرفهتم بما حصل لها. و أخيرا جاءهم من يخبرهم بأن نسوة من قريش رأوا فاطمة متجهة نحو الكعبة المشرّفة. ذهب أبوطالب مع بعض النسوة إلى البيت العتيق وبعد أن طافوا أخذوا يسألون من تواجد في بيت الله عن فاطمة بنت أسد. كل الأجوبة التي حصلوا عليها لم تكن شافية ولا وافية حيث أجمعت كلها على ان آخر مرة تمت رؤية فاطمة كانت وهي تطوف بالبيت الحرام. لم يرها أحد مغادرة للبيت الشريف. فبقي أبوطالب متحيرا فيما سمع، لا يفقه له تفسيرا ولم يستطع فهمه. فالكل يجمع على أنهم رأووا فاطمة تطوف بالبيت الحرام ولكن لم يرها أحد مغادرة للبيت الحرام، وباب الكعبة مغلق من الخارج حيث لا يمكن لأحد ان يدخل من غير ان يفتح القفل، ولا أثر

لها ـ في البيت. فأين ذهبت؟ وبعد أن تعب أبوطالب ورفاقه من البحث رجعوا إلى منازلهم حائرين لا حيلة لهم إلا الدعاء لها بالسلامة والرجوع إلى المنزل بخير.

ـ في منزل أبي طالب إجتمع الهاشميون يصبّرون أباطالب ويحاولون تخفيف ما به من خوف على مصير زوجته العزيزة الغالية فاطمة بنت أسد. وبينما هم يتسامرون ويسلّون أباطالب وإذا بمناد ينادي: "بشراك أبا طالب هذه فاطم أقبلت تحمل لك قرة عين." نهض الجميع نحو مصدر الصوت وإذا هم يرون فاطمة بنت أسد تحمل وليدها مقبلة نحوهم. رحّب أبو طالب بها وأدخلها البيت وبعد أن إطمأن على سلامتها سألها أين كانت ومالذي حصل لها. فأخبرته بما كان من أمرها ومالذي حصل لها. دهش أبوطالب مما سمع ولكن دهشته لم يكن مبعثها عدم التصديق أو رفض لما سمع. فهو الآخر لا يقل عن فاطمة إيمانا بالله وبمحبته للبيت الحرام. دهشته مبعثها مكانة المولود العظيمة وتيقنه بأن موضوع ولادته ـ في بيت الله لم يكن إعتباطا ولا صدفة وإنما ترتيب ربّاني مخطط له من قبل الله تعالى وأن لهذا المولود شأن عند الله سبحانه وتعالى. وهذا ما يفسّر مواقفه التي تلت ولادة ابنه وخاصة عند تسمية المولود.

الشمعة الثانية
إسمه من شامخ عليا

بعد أن إطمأن أبو طالب وإرتاح باله تناول المولود من أمه، قبّله وضمّه إلى صدره وأخذه لأبنائه وعشيرته المجتمعين عنده ومن قدم إلى منزله من أجل التهنئة. وبعد أن طاف به على الحضور سأله بعض من كان حاضرا عن الإسم الذي سيعطيه للمولود. فقال لهم بأن إسمه سيُعلن في الغد وفي بيت الله الحرام، حيث كان مولده. فالمولود ليس مولودا عاديا. انه مقرب من الله سبحانه وتعالى الذي فتح له باب بيته الذي لم يفتحه لأحد قبله ولا بعده.

في صباح اليوم الثاني حمل أبو طالب وليده على صدره وأخذ بيد زوجه فاطمة بنت أسد وخرج إلى الأبطح. فلما رأى أبناؤه وعشيرته وجيرانه ذلك لحقوا به ليعرفوا مالذي سيصنع أبوطالب بالولد وليعرفوا الطريقة التي سيختار بها أبوطالب إسما لإبنه. انشغل الحضور في محاولة معرفة الطريقة التي سيسمى بها المولود وأخذ كل فريق يتكهن بالطريقة. البعض ذهب الى انه سيضرب الحصى وبعض آخر قال انه سيستطلع النجوم وآخرون قالوا انه سيلجأ للحساب وفئة قالت انه سيسأل آلهتهم أن تسميه. وكلها طرق كانت سائدة ومستخدمة في مثل تلك المناسبة في ذلك الزمن.

وصل الموكب المهيب إلى الأبطح فأجلي أبوطالب زوجته فاطمة في ناحية ثم أدار بوجهه نحو من أتى معه وطلب منهم أن يسكتواو يستمعوا إليه. فلما سكتوا قام ببعض الصلوات والدعاء ثم أخذ الطفل من أمه وذهب به قريبا من

الكعبة المشرفة ثم رفع كفيه والطفل عليهما نحو السماء شاكرا ربه على نعمته وأخذ يخاطب ربه قائلا:

يا رب يا ذا الغســـق الـدّجيي	و القمـر المنبلج المضـيّ
بيّن لنا من حكمك المقضـــــي	ماذا تــراه في إسم هذا الصبيّ

بعدها قبّل المولود وسكت و كأنما كان ينتظر ردا ممن قام بمناجاته. وبينما هو ينزل إبنه من بطن كفيه وإذا به وجميع من حضر يرون جسما يشبه السحابة ينزل بسرعة إلى الأرض وكلما قرب من الأرض تبيّن كنهه وإزداد وضوحا. فلّما وصل قريبا من هاماتهم وجدوه لوحا يتوسطه نور يشع بياضا ولمعانا. واصل اللوح نزوله التدريجي السلس حتى وقع بين يدي أبي طالب. سلّم أبوطالب الطفل إلى والدته وإستلم اللوح فقبله ونظر إلى منبع النور وإذا هي أحرف صُفّت في كلمات نيرة. قرأ تلك الكلمات و إذا هي:

خصصتما بالولـد الذكيــــي	و الطـاهـر المنتجب الـرضيي
إسمــــه من شـامخ علـــــي	عـليٌّ إشتّـق مِـنَ العلي

سجد أبو طالب لله شكرا لإستجابته لطلبه وبعد أن فرغ من سجوده عرض اللوح على الحضور وقال لهم بأن هذا ما كان يعنيه بالأمس عندما طلب منهم التريث حتى هذا اليوم لمعرفة إسم المولود. عرف أبوطالب بما حباه الله من النباهة وصدق الحدس بأن ولادة إبنه في الكعبة المشرفة وبالطريقة التي أخبرته بها زوجته فاطمة لم تكن إعتباطا أومجرد صدفة. لقد كانت بمشيئة الله ولأمر هو عالمه وقاضيه. لذلك رأى من الواجب عليه أن يترك تسمية الإبن لمن رتّب ولادته وهيأ له طريقة خروجه إلى الدنيا.

طاف أبو طالب باللوح على الحضور ثم أخذ الولد واللوح وذهب وفاطمة بجانبه والجمع خلفه إلى الكعبة المشّرفة. طاف بالكعبة المشرفة ثم إستدعى

من ساعده وعلّق اللوح بداخل الكعبة، وهو أمر إعتادت العرب وقريش خاصة فعله عندما يريدون الإحتفاظ بالأوراق والمستندات المهمة والمعاهدات. وتمّ تعليق اللوح وبقي هناك حتى أيّام عبد الملك بن مروان حيث أخذه وذهب به إلى حيث لا يُعلم مكانه، كما في المصادر المذكورة آخر الكتاب.

بعد أن علّق أبو طالب اللوح طاف بالبيت مع إبنه وزوجه ثم رجع إلى داره وأمر بإقامة الولائم إحتفاء بالمولود العزيز و عى أهل مكّة لتلك الولائم. وما كان أبوطالب لينسى أو ليستثني حبيبه وإبن أخيه والمقّرب إلى قلبه من دون كل الناس رسول الله، محمد بن عبدالله صلى الله عليه و آله وسلم من تلك الوليمة الكبيرة. بل كان أول المدعوين وأول القادمين وأول المباركين والمهنئين لعمّه الغالي والعزيز عليه والذي يبادله حبا بحب وإحتراما بإحترام وتصديقا بتصديق. فعلاقة العم بإبن أخيه وصلت إلى مرحلة فاقت علاقة الأب بإبنه. علاقة أقوى من كونها علاقة فطرية وطبيعية كتلك التي تكون بين عم وإبن أخيه. فبالنسبة إلى أبي طالب فإن محمدا بالإضافة إلى كونه إبن أخيه الغالي الذي تيّتم من صغره هو عنده الإبن الأمين والصادق والشجاع والمحبوب في قومه ومجتمعه والحكيم الذي ترجع له قريش وأهل مكة في حلّ قضاياها، خاصة ما إستعصى منها على قضاتها وحكمائها. وفوق ذلك كله هناك دافع آخر يدفع أبا طالب ليس فقط لمحبة إبن أخيه بل أيضا لتفضيله حتى على أبنائه. مبعث ذلك الحب هو التصديق والإيمان بأن له مكانة عند خالقه تفوق مكانة المؤمنين والصادقين والشجعان والحكماء والصالحين. وهذا ما ظهر جليا فيما بعد حيث ترجم أبوطالب مواقفه المؤيدة والمناصرة والداعمة لإبن أخيه إلى أجراءات عملية عبرت عن مكانته وشرحت رسالته و شدّت من أزره وساعدته في تبليغ رسالته وشجعته على مواصلة دعوته. فجهر بإيمانه بالرسالة المحمدية حينا وكتمه أحيانا كثيرة حتى إعتقد بعضهم أنه مات كافرا. لكنه من جانبه هو لم يكن همّه ما تقول الناس عنه وما تعتقد فيه. كان همّه حماية

إبن أخيه كإبن ونبي مرسل آمن وصدّق هو بما جاء به صلى الله عليه و أله و سلّم وعرف تكليفه التكويني والشرعي تجاه الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم. فقام بدفع الأذى عنه ومهّد له الطريق إلى نشر رسالة السماء التي آمن بها وصدّقها و طبّقها قولا و فعلا. كيف لا وهو القائل:

إن إبن آمنة النبـــــي محمـــدا	عنـدي يفـوق منـازل الأولاد
لمّـا تعلّق بالزمـــــــام رحمتـه	و العيس قد قلصــن بالأزواد

ولما سأله بعض شيوخ قريش عن مكانة محمد بن عبد الله عنده قال:

ألا إن خير الناس نفسا و والـدا	إذا عـد سادات البرية أحمــد
نبّـــــي الإله و الكريم بأصلـه	و أخلاقه و هو الرشيـد المؤيـد

أما عن موقفه من الرسالة المحدية ورأيه فيها فقد قال:

و لقد علمت بأن ديـــن محمـد	من خير أديـان البرية دينــا
و الله لن يصلـوا إليك بجمعهم	حتى أوّسـد في التراب دفينــا

ولما بُشّر بإسلام أخيه الحمزة بن عبد المطلب فرح بإسلامه وهنّأه وحثه على بذل الغالي والنفيس في سبيل الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وآله و سلّم و قال:

فصبرا أبا يعلى على دين أحمــد	و كن مظهرا للدين وُفقت صابـرا
وحُط من أتى بالحق من عند ربه	بصدق و عزم و لا تكن حمزُ كافـرا
فقد سّرني إذ قلت إنك مؤمـــــن	فكن لرسول الله في الله ناصــرا
و باد قريـــــشا بالذي قد أتيتـه	جهارا و قل: ما كان أحمد ساحـرا

وفي نصره للدعوة الإلهية التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم قال:

ليعلم خيـــار الناس أن محمـدا	نبي كموسى و المسيح بن مريـم
أتانا بهــــدي مثل ما أتيا بـه	فكل بأمر الله يهدي و يعصــم
أمين حبيب في العباد مســـوم	بخاتم رب قاهـر في الخواتـم
نبـــي أتاه الوحـــي من عند ربـه	ومن قال "لا" يقرع بها سن نـادم

ثم قبل مفارقته الدنيا يوصي إخوته وأبنائه بأن يكملوا المسيرة التي إبتدأها في حماية الرسول فيقول: "ألا وإني أوصيكم بمحمد خيرا فإنه الأمين في قريش و الصادق في العرب وهو الجامع لكل ما أوصيكم به. ولقد جاء بأمر قبله الجنان وأخفاه اللسان مخافة الشنآن. والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد ولا يهتدي بهديه أحد إلا سعد. ولو كان في العمر بقية لكففت عنه الهزاهز ولدفعت عنه الدواهي. وأنتم يا معشر بني هاشم اجيبوا محمدا وصدقوه تفلحوا وترشدوا. انصروا محمدا فإنه الهادي إلى سواء السبيل." ثم يقول:

أوصي بنصــــر نبـي الخير أربعة	إبني عليـا و شيـخ القوم عباسا
و حمزة الأســـد الحامي حقيقتـه	و جعفرا أن تـذودوا دونـه الناسـا
كـــونوا فداء لكم أمي و ما ولدت	في نصر أحمد دون الناس أتراســا

لذلك كان إبن الأخ الغالي هو أول المدعويين الى وليمة ابن عمه علي ومقعده في صدر المجلس يعلو على مقاعد الآخرين وينتصب بارزا بين أماكن الحاضرين.

الشمعة الثالثة

اللقاء الأول بين النبوة و الإمامة

في بيت أبي طالب كان اللقاء الأول بين الرسول صلى الله عليه وأله وسلّم وبين علي بن أبي طالب عليه السلام. فبعد أن إستقر بالرسول ووجهاء بني هاشم المقام قام أبوطالب وذهب إلى داخل الدار لإحضار المولود العزيز الذي جاء الجميع ليباركوا مولده ويحضروا الوليمة الكبيرة التي أقيمت على شرف قدومه. لم يدم غياب أبوطالب عن الجمع من ضيوفه طويلا، فسرعان ما عاد حاملا المولود الجديد بين يديه والإبتسامة على وجهه. وكانت العادة والبروتكول في مثل تلك الحالة يقتضيان أن يكون أول من يستقبل المولود ويهنّئه هو شيخ العشيرة أو الأكبر سنّا بين الحضور ثم يقوم هو بدوره بتسليمه لمن بعده وهكذا. وهذا ما كان يتوقعه الحضور وما كان يدور في خلد أبي طالب أيضا. ولكن بمجرد أن دخل أبوطالب بإبنه على القوم وجد نفسه ومن غير أن يقصد وعلى عكس ما كان في باله يخطو نحو إبن أخيه المصطفى محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم وكلما قرب منه يرى إبتسامة المولود تكبر فيرفع رأسه وينظر إلى إبن أخيه وإذا به هو الآخر يقف مستعدا لإستقبال القادم العزيز وكأنما الإثنان، المولود وإبن عمه محمد بن عبدالله، على موعد طال إنتظاره وتاقا سويا لتحققه.

وصل أبوطالب إلى حيث يجلس إبن أخيه محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلّم وناوله المولود الذي بدا وكأنه إنتشى فرحا بتحقيق المرام. فأخذ المولود يبتسم في وجه إبن عمه محمد بن عبدالله والمصطفى يبادله

الإبتسامه بأفضل منها وسط دهشة وإستغراب الحضور. نعم هم يجّلون محمدا ويحترمونه ويقدمونه حتى على أنفسهم. ولكن هم يعملون ذلك لعلمهم بأنه يستحق ذلك وأكثر منه لما قدّمه لهم ولمجتمعهم من خدمات جليلة ولما عرفوا عنه من أمانة وصدق حديث ورفيع خلق. أما هذا الطفل حديث الولادة فمن أين له معرفة ما يعرفونه هم عن محمد وهو الذي يراه ويسمعه لأول مرة في حياته. ثم كيف لطفل عمره أيام قلائل أن يعي ما يعونه عن سلوك تلك الشخصية العظيمة ويقّدر دورها في المجتمع وهو مازال طفلا بالكاد يعي ما حوله. وكلما زاد تعلق الإثنين ببعضهما البعض زاد إستعجاب وإستغراب القوم من عملهما.

أخذ رسول الله محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلّم يقبّل المولود ثم قربّ أذنه اليمنى وتفوّه بكلمات جعلت الصبي يطرب فرحا عند سماعها ثم كرر عمل الشيء نفسه بالأذن اليسرى، وكلما تحركت شفاه رسول الله صلى الله عليه وآله بدت الإبتسامة والإرتياح والفرحة على وجه المولود علي بين أبي طالب وبدا للحضور وكأّنما الإثنان يكلمان بعضهما البعض ويتحادثان وكأنهما من سن واحدة أو متقاربة.

طال الإنتظار بالحضور فهم من ناحية ينتظرون وصول دورهم في إستقبال المولود ومن ناحية أخرى يريدون من الرسول صلى الله عليه وأله وسلّم أن ينهي ما هو فيه مع علي بن أبي طالب ليوجّهوا له أسئلتهم وإستفساراتهم حول ما حصل بينه وبين إبن عمه. ولقد وعى أبوطالب لما في نفوس القوم وتحرك ليرضي ضيوفه. تقّرب من إبن أخيه رسول الله باسطا يده في محاولة منه لأخذ إبنه منه وتسليمه إلى غيره من الضيوف. فلما أحّس الوليد بذلك تعّلق بالرسول ونظر إليه وكأنه يرجوه أن لا يتركه. فقبّله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، كأنما يريد طمأنته ويؤكد له بأن ذلك هو أول إجتماع بينهما وأنه الخطوة الأولى واللقاء الأول فقط وأن اليوم الذي يصبحان فيه

سويا مع بعضهما البعض قلبا وقالبا آت عن قريب. قبل المولود بعرض الرسول ووعده وذهب إلى ذراع والده الذي أخذ يطوف به بين الحضور الذين بدورهم إستقبلوه بما يستحق من التعظيم و التبريك.

بعد أن فرغ أبو طالب من المرور بإبنه على القوم أخذه وذهب به إلى أمه فاطمة بنت أسد التي هي الأخرى طال إنتظارها لولدها. فلما أقبل به سألته عن سبب التأخير فأخبرها بما رأى من حرارة لقاء بين إبنه وبين إبن أخيه محمد بن عبدالله. نظر أبوطالب إلى وجه زوجه فاطمة وإذا به يرى الإرتياح والسعادة على وجهها وكأنها نالت ما كانت ترغب فيه وتحقق لها ما كانت ترجوه. فعلامات الدهشة التي كان يتوقعها، والتي هي الرد الطبيعي لمن في مثل حالتها وسمعت ما قاله لها، قد حلّت محلها إبتسامة كلها رضا وقبول وشكر لما حصل. يعلم أنها تُحب بن أخيه ومن أقوى الداعمين والناصرين له وأن إبن أخيه هو الآخر يبادلها حبا بحب وأنه كان يعتبرها في مقام والدته بل إنه يناديها بالفعل بوالدته ولكن في رأيه كل ذلك لا يكون سببا لإستبدال علامات الدهشة التي خلّفها لقاء محمد بعلي بإبتسامة رضا وقبول و شكر. سألها أبوطالب عن سر عدم إندهاشها لما حدث فأجابته برد مقتضب مصحوبا بإبتسامة: "ما كنت لأرغب في أكثر من ذلك، أن يكون إبني الحبيب (تعني بذلك محمدا بن عبد الله) هو المفضّل عند إبني علي." ولعلمه بما تكنّه فاطمة بنت أسد من حب لإبن أخيه محمد قنع أبوطالب بجوابها وتركها عائدا إلى ضيوفه ليكمل واجب الضيافة.

الشمعة الرابعة
من رسول الله كالصنو من الصنو و الذراع من الجسد

إنتهت وليمة أبوطالب وعاد الضيوف إلى منازلهم وكذلك عاد رسول الله صلى الله عليه وآله إلى منزله فرحا بقدوم إبن عمّه علي بن أبي طالب عليه السلام. ولكن رجوعه إلى منزله لا يعني وضع حد للقاء الحبيبين – محمد بن عبدالله و علي بن أبي طالب - كما هو الحال مع باقي الضيوف. كان الرسول وبحكم تردده على بيت كفيله وعمّه أبي طالب وبحكم تردد فاطمة بنت أسد على بيت رسول الله بحكم أنها المكلّفة برعايته كثير اللقاء بعلي بن أبي طالب. فلم يمر عليهما يوم واحد لم يلتقيا فيه. وكما هو الحال في لقائهما الأول تتكرر مشاهد الشوق في كل لقاء يجمعهما وبنفس درجة حرارة اللقاء التي حدثت في اللقاء الأول.

بالبرغم من إتصالهما المستمر مع بعضهما البعض وتكرار لقاءاتهما إلا أن ما في نفسيهما وما يرغبان فيه كان أكثر من مجرد لقاء لا يدوم طويلا كما يرغبان. كانا يتوقان للبقاء مع بعضهما البعض بصفة دائمة ومستمرة. لأجل ذلك كان الرسول صلى الله عليه وأله وسلّم يطلب من فاطمة بنت أسد، وفي أكثر من مرة، أن تترك له تربية الإمام علي عليه السلام وتذهب هي لقضاء حاجات المنزل فتستجيب برحابة صدر لطلبه فيقوم الرسول بإطعامه وهزّ مهده و مناغاته.

وهكذا تربى الإمام علي بن ابي طالب في بيت حبيبه وابن عمه رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم و نشأ و ترعرع على يديه. ولما جاوز مرحلة الفطام واستطاع السير لوحده جعل من بيت ابن عمه رسول الله مقرا وبيتا دائما له، وماشجعه على ذلك رضا والديه بما يعمل. تفتقده امه فلا تدير بالا لذلك لعلمها بأن الطفل قد استيقظ من نومه وذهب الى حيث يريد ويحب وحيث تريد هي وتحب. يأتي ابوه فيسأل عنه فتقول له الأم: عند ابني محمد تجده. يرتاح الوالد لذلك كثيرا فما يطمع في اكثر من ان يرافق مولوده ابن اخيه ويتخلق بأخلاقه وهو الذي يحترمه ويجله ويثمن اخلاقه. وهكذا قيض الله سبحانه وتعالى للمولود بيئة تربوية لا مثيل لها. طفل يحب ابن عمه ولا يقوى على الإبتعاد عنه، وأم تعتبر ابن عم ابنها ابنا لها تفخر به وبتبنيه وأب يفخر بإبن اخيه وبأخلاقه وله في قلبه مكانة عظيمة يسعد برؤية إبنه يتربى في احضان ابن الأخ الذي يعز ويقدر.

و يأبى الله سبحانه و تعالى إلا أن يلّبي طلب ورغبة خير خلقه. فيمر أهل مكة بسنة قحط تزيد من معاناتهم وخاصة العائلات كبيرة العدد كثيرة المسؤوليات كعائلة أبي طالب. فبالإضافة إلى كثرة عدد أفراد عائلته فإن أبا طالب كان سيد القوم وكريمهم وكان كل ما في يده هو لغيره من المحتاجين والمعوزين و الضيوف. لذلك كان أول واكثر المتضررين من القحط والأزمة الإقتصادية الخانقة. فلما رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلّم معاناة عمه وكفيله وحبيب قلبه أبي طالب ذهب إلى عمّه العباس يبحث معه ويستشيره فيما يجب فعله للتخفيف من وقع الأزمة على أبي طالب. رحّب العبّاس بأريحية ونبل إبن أخيه وإهتمامه بأمور العائلة وأخذ يتشاور معه فيما يجب فعله. فقال العباس لإبن أخيه أنت صاحب المبادرة فهل عندك إقتراح محدد لعلاج المشكلة؟ فإقترح الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم أن يذهبا إلى أبي طالب ويأخذا من

ولده إثنان يقومان بإحتضانهما وتربيتهما ويقدمان له ما بوسعهما ليستعين به على تربية أبنائه الباقين ويقوم بواجباته ومهامه في مجتمعه.

رحّب العباس بإقتراح ابن أخيه واثنى عليه ثم قال له هلّم لنذهب الآن ونرى رأي أبي طالب في هذا الإقتراح. قاما من وقتهما وذهبا إلى أبي طالب وما أن رآهما حتى تبسّم مرحبا بهما فهما من احب افراد عائلته له وكان يستبشر بطلعتهما ويعتبرها فأل خير وتفريج كرب وهم. فسأله العباس عن سر ابتسامته فقال له أبوطالب: لا يطمح القلب ولا تتطلع العين إلى أكثر من طلعتكما يا حبيباي. جلس الثلاثة يتباحثون في ما يمر به أهل مكة من قحط وضائقة وما الذي بإمكان العائلة الهاشمية الأبيّة عمله لتخفيف وقع الأزمة على المجتمع الهاشمي والقرشي بصفة عامة وعلى العائلة الهاشمية بصفة خاصة. بعدها تقدم العباس بعرض إقتراح إبن أخيه محمد بن عبد الله على أخيه أبي طالب. رحّب أبو طالب بإقتراحهما وقال لهما إن من تختاورنهما من أبنائي لمحظوظان حيث أنه ما من طفل إلا ويطمح في أن يكون أحدكما له أبا. فسأل الرسول صلى الله عليه و آله عمّه العباس عن من يختار فقال العباس: "جعفرا" وقال الرسول وأنا آخذ "عليا" فأجابهما أبوطالب إلى ما طلبا.

قام أبوطالب و إستدعى إبنيه جعفر وعلي فلما جيء بهما سلّم جعفرا إلى أخيه العباس وعليا إلى إبن أخيه محمد. أخذ الرسول صلى الله عليه وآله عليا إلى صدره وعانقه ثم شكر عمّه على ثقته وإستأذنه بالإنصراف. أما فاطمة بنت أسد فإنها أخذت تراقب تعلّق إبنيها ببعضهما البعض وتشكر الله على أن منّ عليها بهذه النعمة وهي إندماج إبنها الغالي مع أغلى وأعز شخص عندها، إبنها الذي لم تنجبه، محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلّم.

أخذ الرسول عليا إلى منزله وجعل يربيه بدنيا وروحيا حتى قوي إرتباطهما مع بعضهما البعض و أصبحا فرعان نبتا من أصل واحد وشجرة

واحدة ونما سويا تماما كما عبّر عن ذلك الإمام علي عليه السلام عندما وصف علاقته برسول الله صلى الله عليه وآله و سلّم في إحدى خطبه في نهج البلاغة حيث قال: "وأنا من رسول الله كالصنو من الصنو والذراع من العضد."

تلك كانت بالفعل تربية محمد صلى الله عليه وآله وسلّم لعلي بن أبي طالب عليه السلام. لقد شاء الله لعلي ومنذ خروجه إلى الدنيا أن يكون جزءا من العالم الفاضل الذي يحياه رسول الله. يتخلّق بأخلاق الرسول لا أخلاق المجتمع الجاهلي آنذاك ويسير سيرة الرسول لا سيرة أبي جهل و أبي لهب وأبي سفيان ومن حذى حذوهم وسلك طريقهم. هرب بجسده وبروحه من مجتمع جاهل ترتكب فيه الآثام وتسوده الخرافات إلى عالم فاضل تسوده الأخلاق الفاضلة والممارسات الإنسانية الطيبة الراقية والقيم الفاضلة العليا. هرب من البربرية والجاهلية إلى الحضارة وسمو الروح والعقل والجسد واللسان. هرب الى أحضان الفضيلة والحياة التي كلها شموخ وإباء وكرم وسخاء وإيمان وتقوى وحب وعطف. هرب الى حيث تميل نفسه وطبيعته وقلبه و روحه. هرب الى البيت والبيئة التي لا يستطيع العيش في غيرهما. هرب الى حيث القلوب فاتحة ابوابها له قبل الأذرع والأحضان. ولم يخيب المضيف والمقصود ظن الضيف والقاصد. فبادل الحب بحب أكبر منه والشوق بشوق أعظم فنشأت بين المدرس والمربي الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وبين الإبن والتلميذ علي بن أبي طالب عليه السلام علاقة قوية بحيث أصبحا لا يفارق أحدهما اللآخر إلا عندما يكون الفراق أمرا لا بد منه. وهذا ما عبّر عنه أمير المؤمنين بإتباع الفصيل أثر أمه حيث قال: "ولقد كنت أتبعه (يعني رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم) اتباع الفصيل أثر أمه."

الشمعة الخامسة
هروب الى الله و رسوله

نعم تبع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله و سلّم كما يتبع الفصيل أمه التي لا غنى له عنها، كما قال سلام الله عليه. هرب إلى الله وإلى رسوله من مجتمع نفر منه منذ أن تعرّف عليه وعرفه وعرف عنه. عرف أنه ما خُلق عبثا حيث اللعب واللهو وإنما ليؤدي دورا خُلق من أجله وله. وجد أن أسلوب العيش والحياة في المجتمع الذي كان يُحيط به ويعيش فيه لا يمكن أن يرقى به إلى المستوى الذي ينشده ويطمح فيه. عرف بأن المجتمع وأسلوب الحياة المتبع فيه لا يمكن أن يأخذه إلى تأدية الدور الحقيقي الذي خُلق من أجله. فهرب من ذلك المجتمع وهرع إلى من بيده الحل ومن بإستطاعته أن يأخذ بيده ويُبلغه مناه.

بمجرد أن دخل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بيت الرسول صلى الله عليه وآله و سلّم عرف أن ذلك هو المحيط والبيئة اللتان كان ينشدهما ويتطلع الى العيش فيهما. فإستقبل حرارة الترحيب النبوي بشوق ورغبة وتقدير وتبجيل وإحترام. فسلّم نفسه سلام الله عليه إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلّم ووضع نفسه في موقع الإبن البار الذي يثق في محبة والده له ويعشق تربيته وسيرته وسلوكه والتلميذ المطيع الذي يثق في مقدرة وحنكة وحكمة وعلم مدرسه. أعار ابن عمه واباه بالتبني ومدرسه سمعه ونظره وعقله وقلبه وقرر ان يكون الإبن البار والتلميذ المجتهد والمتربي الوفي والرفيق المخلص.

من جانبه لمس الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم محبة وولاء الإبن الذي تسلمه من عمه فأبت شيمته النبوية وأخلاقه الربانية وأريحيته الهاشمية إلا أن يأخذ بيد ذلك الإبن البار والتلميذ المخلص ويُبّلغه مقصده ومرماه ويرقى به وبروحه سموا وعلوا وعلما وكرما وشجاعة وعظمة وكبرياء وكل ما ينشده العظماء العقلاء من طموح مشروع. تلاقت الرغبتان المحمدية والعلوية في نقطة واحدة هي تأدية الدور الذي من أجله وله خُلقا وكأنما أن هناك يد خفية وإرادة غير مرئية تدفعهما الى ذلك الإتجاه والمسار. فأخذا يلتصقان أكثر وأكثر وتزداد آراؤهما وأفكارهما إلتصاقا وامتزجا حتى أصبحا كيانا واحدا وفكرا واحدا وقلبا واحدا ورؤية واحدة وتفكيرا واحدا.

من خلال تلك العلاقة بين المربي والمُرّبى خلقت شخصية أمير المؤمنين عليه السلام. شخصية وضع أركانها وأسسها وبناها وقام بتغذيتها و سهر على تربيتها وتنشأتها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكفى به مؤسسا ومربيا ومدرسا وموجها. إذا كان الأمين، بشهادة الكل من محب ومبغض ومؤيد ومعارض، هو المربي فما عسى أن تكون تربيته. وإذا كان الصادق حسب شهادة كل من عرفه هو المتعهد فكيف تكون نتيجة عهدته؟ وإذا كان الشجاع والقوي والمقدام هو المدرب فكيف ستكون نتيجة تدريبه؟ وإذا كان صاحب الرأي السديد في مجتمعه ومن لا يبلغ صواب رأيه أيا كان هو المدرس فكيف سيكون مستوى تلميذه المخلص لمدرسه؟ وإذا كان الكريم في قومه هو المثل الأعلى للإبن فكيف سيكون الإبن؟ وإذا كان العادل والمحسن والعافي و الكاظم للغيظ والرحيم هو الرفيق والقدوة فكيف تكون شخصية المرافق وكيف تكون أخلاق تلك الشخصية؟

نشأ أمير المؤمنين عليه السلام في بيت يملؤه الحب والمودة والرحمة والشجاعة وكل خلق فاضل كريم فكانت شخصيته نتاج حقيقي لتلك البيئة

والبيت. فبالإضافة إلى أخلاق الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم التي أخذ ينهل منها ويتحلى بها عاش العلاقة الإنسانية الراقية التي كانت تربط الرسول بزوجته خديجة رضوان الله عليها. عاش الإنموذج والمثال الحقيقي للعلاقة الإنسانية التي كان الرسول وخديجة يمثلانها ورأى كيف يجب أن تكون العلاقة بين أفراد الأسرة الواحدة وخاصة بين عمودي الأسرة. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأخذه إلى لقاءاته مع عشيرته وقومه ومن خلال تلك اللقاءات تعلم كيف يجب ان تكون العلاقة بين الإنسان وقومه وعشيرته. و ان الرسول يأخذه معه لفض النزاعات في المجتمع ومن حضوره تلك المناسبات والأحداث تعلم كيف يجب أن يؤدي دوره الحقيقي في المجتمع.

يُخبرنا أمير المؤمنين عليه السلام عن تلك التربية في خطبته المعروفة "بالقاصعة" في نهج البلاغة فيقول:

> وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضعي مِنْ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ: وَضَعَنِي فِي حِجْرِه وَأَنَا وليدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِه، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِه، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ، وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيه، وَمَا وَجَدَ لي كَذْبَةً فِي قَوْل، وَلاَ خَطْلَةً فِي فِعْل. وَلَقَدْ قَرَنَ اللهُ تَعَالَى به صلى الله عليه وآله مِنْ لَدُنْ (أَنْ) كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَك مِنْ مَلاَئِكَتِه يَسْلُكُ بِه طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلاَقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّه، يَرْفَعُ لي فِي كُلِّ يَوْم عَلَماً مِنْ أَخْلاقِه، وَيَأْمُرُني بِالاقْتِدَاءِ بِه. وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَة بِحِرَاءَ، فَأَرَاهُ وَلاَ يَرَاهُ غَيْري، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذ فِي الإِسْلاَمِ غَيْرَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ. وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْه صلى الله عليه وآله فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله مَا هذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: «هذَا الشَّيْطَانُ

قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِه، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلاَّ أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيّ، وَلَكِنَّكَ وَزِيرٌ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْر».

لم يبخل عليه الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم بشيء من معرفة أو خلق حسن أو ممارسة صائبة أو حكمة أو مشاركة. لقد نمّى فيه الروح الطامحة للفضيلة والفضائل وأشبع رغباته الإنسانية الفاضلة واستجاب لتطلعاته الفطرية السمحة. فنشأ عليه السلام كما أرد الله سبحانه وتعالى له وكما رتب له رسول الله وكما رغب هو أن يكون. ملما بالفضائل عاملا بها، ناهيا عن الرذائل تاركا لها، مصلحا في المجتمع و ناشرا للمحبة والتعاون، عونا للمظلوم وخصما للظالم، محبا للعلم وطالبا له ومحثا عليه، محاميا و مدافعا عن كل القيم الفاضلة التي جاء بها الإسلام.

الشمعة السادسة

أول المصّدقين و أصدق المؤمنين

"خلقني الله من غير أن يشاور أبا طالب فما حاجتي إلى مشاورته لكي أعبد الله"

في العاشرة من عمره يدخل الإمام علي عليه السلام يوما بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ويذهب إلى المكان الذي إعتاد الذهاب إليه عندما يدخل البيت الطاهر فيجد محمدا صلى الله عليه و آله وسلم و خديجة عليها السلام يتوجهان بوجهيهما إلى ناحية المشرق ويقومان بأعمال لم يعهدها من قبل من ركوع وسجود وقنوت وغير ذلك. وقف يراقبهما ويرى ما يعملان وقلبه منشرح لما يقومان به ويهفو لعمل ما يعملان. أخذ يركز النظر مستمتعا بما يشاهد حيث كانت روحه وقلبه يؤديان نفس الحركات حتى وإن لم يقم الجسم بترجمتها. وبعد أن أتما عملهما وما كانا يقومان به واستويا في جلوسهما تقدم إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم وسلم عليه ثم سأله عن العمل الذي كانا يقومان به مستفهما: لمن تسجدان؟ فأجابه الرسول بأنهما كانا يُصّليان لله وقال: "إنا نسجد لله الذي بعثني نبيا وأمرني أن أدعو الناس إليه."

بعد أن أعطى الرسول صلى الله عليه وآله تعريفا وافيا عن عبادة الله دعا الإمام علي عليه السلام إلى الجلوس بجانبه وأخذ يتلو عليه بعض آيات الذكر الحكيم والإمام يسمع بإنتباه وإهتمام شديدين وقد أخذ جمال الآيات والتلاوة منه مأخذه. بعد أن فرغ الرسول من التلاوة وجد الإمام علي عليه السلام نفسه يردد ما سمعه من الرسول من آيات قرآنية حيث حفظها نصا

وتلاوة تماما كما سمعها من الرسول. ولما رأى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إستعداد ابن عمه الروحي والذهني لقبول دعوة الله سبحانه وتعالى ودينه دعاه إلى الدخول في الإسلام. فطلب الإمام من الرسول أن يمهله يوما أو إثنان حتى يشاور أباه أبا طالب. فخلال تربية الرسول له ومنذ ان تسلمه من أبيه غرس فيه البر بالوالدين والرجوع الى الأب للمشورة والإستئذان في كل عمل يقوم به. أراد الرسول بذلك إيصال رسالة مفادها بأنه كونه المربي لا يعني ان رباط الأبوة الطبيعي قد قطع وأن قيامه بدور الأب لا يلغي دور الأب الحقيقي والطبيعي. لذلك لما رأى أن الإمام يود الرجوع الى أبيه ليشاوره فرح بتحقيق النتيجة التي غرسها في تلميذه فقنع برده وتمنى له التوفيق. أمضى الأمام بقية اليوم مع الرسول حتى نهاية الجلسة ولما حان موعد الخلود الى الراحة ودع الرسول وذهب الى داره ثم آوى الى فراشه.

لما خلى بنفسه وجد أن صوت الرسول وهو يرتل الآيات ويدعو ربه يأبى مفارقته. فأخذ يعيد الشريط بينه وبين نفسه ويستمتع بحلاوة الآيات وروحانية الدعاء. وجد نفسه مشدودا لصوت الحق الذي لم يكن يعرف غيره منذ ولادته ولم يستطع أي صوت آخر من الأصوات النشاز التي كانت تملأ المجتمع القرشي من الوصول إلى قلبه. ثم فجأة تذكر وعده للرسول بأن يشاور أباه وأخذ يمعن الفكر في هذا الموضوع. فهو من ناحية يحب أباه ويجله ويعظمه ويرى أن من حق الوالد على الولد أن يشاوره قبل إتخاذ أي قرار. لكنه في المقابل يرى أن الإستشارة يجب أن تكون عندما يكون هناك إلتباس أو إشتباه بالأمر. أما حين يكون الأمر واضحا جليا فالإستشارة عندها تكون سذاجة ومضيعة للوقت. والأمر بالنسبة له واضح لا لبس فيه. فبالإضافة إلى ميل قلبه إلى الرسالة هي أمر إلهي وعليه أن يستجيب له من غير تردد. والأمر الأهم من ذلك كله هو أنه إذا إستشار أباه وجبت عليه طاعته فيما يأمر به وعليه قبول نتيجة الإستشارة. ماذا لو أن أباه أشار عليه بعدم قبول دعوة ابن عمه وحبيبه؟ حينها تكون نتيجة

المشورة الوقوع في حرج ومأزق أخلاقي لا يسمح لنفسه الوقوع فيه. عنها يكون قبوله المشورة معناه معصية الخالق وعدم قبوله لها معناه معصية أبيه وعدم قبوله بجواب ورأي سبق وأن طلبه من أبيه و ذلك يعد سوء تربية يترفع بنفسه عنها. فهو إذا أمام خيارين. الخيار الأول هو أن يقبل بالأمر من غير الرجوع إلى أبيه فيطيع من تجب طاعته أولا. وفي هذه الحالة يترك الأمر لوالده فإن قبل هو الآخر بالأمر لاحقا فبكل تأكيد سيفرح لسبق إبنه للحق. وإن كان غير ذلك فهو قد أطاع الله وهو خالقه وخالق أبا طالب والأولى بالطاعة وقد تجنب الإحراج ومعصية أمر الوالد لو أنه إستشاره وكان ردّه سلبيا. أما الخيار الثاني فهو أن يبقى على موقفه وان يستشير أباه وبعدها يقرر، إما أن يقبل مشورة أبيه إن كانت كما أراد أو أن يرفضها ويغضب أبيه إن لم تكن كما أراد ورغب. وجد أن العقل والمنطق والخلق الذي تربى عليه يدفعه لإختيار الخيار الأول لأنه الأسلم والأصوب

فرح الإمام لما توصل إليه وحمد الله الذي هداه الى الطريق الصحيح. لم تغمض عيناه تلك الليلة بل بقي على فراشه ينتظر قدوم الصباح بفارغ صبر وشوق. فلما أصبح وحان موعد جلوس الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في مجلسه المعتاد خرج من داره وذهب للقاء الرسول وهو فرح مستبشر. فلما نظر إليه الرسول رحب به وعلم بما في قلب إبن عمه الغالي، سيماهم في وجوههم. ولما وصل الإمام إلى حيث يجلس الرسول قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. فقال له الرسول: وهل إستشرت أباك؟ فقال: لقد خلقني الله من غير أن يشاور أبا طالب فما حاجتي إلى مشاورته لكي أعبد الله.

قبّل الرسول ابن عمه في جبهته وهنأه بما حباه الله به من عقل وسداد رأي ودعى له برضا الله ورضا الوالدين عنه. وبذلك، وكما رواه وأجمع عليه كل أصحاب الحديث والسير والكتاب، أصبح الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أول ذكر آمن بالرسول وصدّق برسالته.

تمر الأيام ويدخل في عصر أحد الأيام يحي بن عفيف، أحد وجهاء الحجاز، مكة المكرمة قاصدا إبتياع ثياب وعطر لعائلته فيلتقي بأحد أصدقائه القرشيين وبعد تبادل التحية يسأل يحي صديقه عن محل للقماش يمكن الوثوق به لجودة المعروض فيه ولأمانة بائعه فيرشده إلى محل العبّاس بن عبد المطلب عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ويقول له بأن محل العبّاس مشهور في المجتمع المكي بجودة بضائعه كما أن صاحبه هو من التجار الصادقين والمؤتمنين وأصحاب الثقة. وكان يحي سبق وأن إلتقى بالعباس وأُعجب بحسن خُلقه ومنطقه وأريحيته لكنه لم يكن يعلم بأنه تاجر قماش. لذلك بمجرد أن سمع تزكية صديقه لمحل العباس ومدحه لمالك المحل شعر بأنه وجد ضالته.

شكر يحي صديقه وتوجه إلى حيث يجلس العباس بن عبدالمطلب ويعرض بضاعته. ما إن وصل يحي إلى المحل حتى قام العباس هاشا في وجه القادم وتبادل معه التحية ثم دعاه للجلوس. جلس يحي وأخذ يتجاذب الحديث مع العباس و يتخلل الحديث أسئلة عن القماش والبضاعة المعروضة والأجود من بينها. وكانت محلة العباس تطل على الكعبة مباشرة. فبينما هو يتبادل الحديث مع العباس وإذا به ينظر إلى أمر لم يألفه من قبل. رأى شابا يصل إلى الكعبة فيرمي ببصره إلى السماء ثم يستقبل الكعبة. وبعد فترة بسيطة جاء غلام فعمل نفس الشيء ووقف على يمين الشاب. ثم لم يلبث إلا يسيرا حتى جاءت إمرأة فقامت خلفهما. فركع الشاب وركع الغلام وكذلك المرأة. رفع الشاب ظهره وإستقام فعمل الغلام والمرأة نفس الشيء. ثم سجد الشاب وتبعه في السجود الصبي و المرأة.

نظر يحي إلى العباس وقال متعجبا لما يشاهد: يا عباس إن هذا لأمر جديد عظيم؟ فأجابه العباس: نعم، إنه لأمر عظيم. أتدري من هذا الشاب؟ قال يحي: لا. قال العباس: هذا محمد بن عبدالله إبن أخي. أتدري من

الغلام؟ فأجاب يحي بالنفي. فقال العباس: ذلك علي بن أبي طالب، أبن أخي. أما الإمرأة فهي خديجة بنت خويلد زوجة إبن أخي محمد بن عبد الله. ثم واصل العباس حديثه وشرحه ليحي مخبرا إياه بالدين الجديد الذي جاء به محمد بن عبدالله قائلا: إن إبن أخي محمد بن عبد الله أخبرني أن ربّه ربّ السماء والأرض أمره بهذا الدين الجديد وكلفه بتبليغه للناس ونشره، وأن ما على الأرض كلها أحد على هذا الدين (حتى ذلك الوقت) غير هؤلاء الثلاثة – محمد وعلي و خديجة."

تعجب يحي لما يرى وأخذ يسأل العباس عن ردة فعل قريش وموقفها من الدين المحمدي الجديد والعباس يجيبه ويخبره بمضايقات قريش وأذاها للنبي ومحاربتها لدينه ولكل ما جاء به. واصل العباس و يحي حديثهما بينما أول المسلمين الثلاثة يؤدون صلاتهم ودعائهم في بيت ربهم وخالقهم لا يأبهون بنظرات المارة وأحاديثهم.

الشمعة السابعة
مكّسر الأصنام و مزيلها عن بيت الله الحرام

في ضحى يوم من أيام الربيع المكي يطلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم من علي بن أبي طالب عليه السلام أن يصحبه إلى مأمورية ينوي القيام بها ويرغب ان يشاركه حبيبه وابن عمه فيها ليشاركه الفضيلة والأجر والثواب. وكعادته وبدون تردد يجيبه الإمام إلى ذلك فرحا مستبشرا لعلمه بأن ما يقوم به رسول الله هو أمر من الله وفي سبيل الله. فهو الذي اعتاد ان يخرج مع الرسول من غير أن يسأل الرسول عن الجهة التي يقصدها والمأمورية التي يرغب في القيام بها لثقته المطلقة في الرسول ولعلمه بأن الرسول لا يعمل إلا الخير ولأن صحبة رسول الله ومرافقته عنده تساوي الكثير. فبعد ان يحضى بمراده وينال طلبته التي لا يرغب في أكثر منها وهي صحبة الرسول لا يهمه إلى أين يذهب ومالذي سيعمل ولا يهمه حتى مقدار الجهد الذي سيبذله خلال تلك الصحبة ومشقة العمل الذي سيؤديه خلالها. كل شيء يهون ما دام هو برفقة الرسول عاملا بأمره.

يخرج الإثنان من بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم جنبا الى جنب الرسول يتلو بعض الآيات ويخبر علي بما أخبره به جبرئيل عليه السلام عن الرب الجليل من قرب انتشار الدعوة الإسلامية وعلي ينصت بإهتمام و غبة في أن يكون له دور في تحقيق ذلك الهدف وهو نشر الدعوة الى الله. أخذا يسيران حتى قربا من الكعبة المشرفة فلما رأى الرسول الكعبة قام بتحيتها وعلي يعمل مثله وهما يتابعان سيرهما نحو الكعبة. لما أصبحا ملاصقين لجدارها نظر

الرسول إلى علي وسأله عن ما إذا كان يعرف ما جاءا من أجله. فأجابه الإمام بالنفي. فقال له الرسول بأنه جاء ليسقط ويزيل ويكّسر الأصنام المعلّقة على الكعبة. فيجيبه علي بإبتسامة ملؤها الرضا والموافقة وقال له بأنه ما على وجه الأرض أبغض عنده من تلك الأصنام التي تضر ولا تنفع وتميت القلوب وتعمي الأبصار.

أخذا يطوفان بالكعبة المشرفة ينتظران خلو البيت من الزوار والرواد وهما يدعيان ربهما بالتوفيق لهما في مهمتهما. ولما تأكدا بأن البيت خلا من الزوار والرواد ولم يبق في البيت العتيق وحول الكعبة سواهما نظر رسول الله صلى الله عليه وأله وسلّم إلى أمير المرمنين عليه السلام وأخبره بأنه حان الوقت ليقوما بمهمتهما وما جاءا من أجله. فأجابه الإمام إلى ذلك وطلب منه ان يخبره بما يتوجب عليه عمله فهو طوع أمره ورهن اشارته.

نظر الرسول الى علي بعين ملؤها الفخر والإعتزاز بإبن العم الوفي والإبن البار والمسلم القوي. ولما قربا من جدار الكعبة أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليا عليه السلام أن يثني ركبتيه فأجابه بالسمع والطاعة وفعل ما أمره رسول الله. صعد الرسول على منكبي الإمام وأمره النهوض ولكن الإمام بان عليه الضعف وعدم الإستطاعة لحمل الرسول. فلما رأى الرسول ذلك نزل من على ظهر الإمام وثنى ركبتيه وأمر الإمام أن يصعد ولما فعل قام الرسول ورفع عليا عاليا حيث اصبح بإستطاعته الوصول الى ابعد صنم معلق بالكعبة. ثم أمر الرسول عليا بأن يسقط الأصنام ويكسرها صنما صنما. يخبرنا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن تلك الحادثة فيقول: "فصعد رسول الله على منكبي فنهضت به. فلما رأى ضعفي نزل وقال لي قم. فقمت وجلس (وأثنى ركبتيه) وقال لي إصعد على منكبي فصعدت على منكبيه فنهض بي فخُيّل لي أني لو شئت لنلت السماء. فصعدت على الكعبة وكان عليها تمثال كبير من نحاس فجعلت أعالجه يمينا ويسارا لأزيله حتى إستمكنت منه. فقال

لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إقذفه. فقذفت به إلى الأرض فتكّسر كما تتكّسر القوارير."

ابتدأ أمير المؤمنين عليه السلام بالصنم الأكبر فأزاله عن ظهر الكعبة وهوى به الى الأرض مهشما قطعا صغيرة. بعدها إتجه إلى باقي الأصنام وجعل يُزيلها و يُكّسرها واحدا بعد الآخر حتى أزالها كلها عن بيت الله الحرام. ولما إنتهى منها نزل من على منكبي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقبله. ثم بعد ذلك قاما سويا بإزالة بقايا وأنقاض الأصنام المكسرة عن بيت الله الحرام ورميا بها خارجا ثم تواريا عن الأنظار خشية أن يراهما أحد، كما يخبر بذلك أمير المؤمنين عليه السلام.

الشمعة الثامنة
أخاً ووزيراً وناصراً لرسولِ الله صَلى الله عَليهِ وآله وسلّم

في الثالثة عشر من عمر علي عليه السلام، أي بعد ثلاث سنين من بدء النبوة، يأتي الأمر الإلهي للرسول صلى الله عليه وآله وسلم يخبره بأنه آن الأوان لنقل الدعوة من السر إلى الجهر ومن الخفاء للعلن. لقد إنتهت المرحلة الأولى التي تطلبت نشر الرسالة السماوية سرا بين أقرب المقربين والتي كانت بمثابة الإعداد لنشر الدعوة ولضمان الناصر والداعم والمساعد في نشرها استعدادا وتهيئة الى المرحلة الثانية والمهمة. فبعد ان دخل في الإسلام من بإستطاعتهم تأييد الرسول ودعمه والوقوف معه وحمايته ومساندته فإن الدعوة أصبحت مؤهلة لأن تنتقل من السر إلى الجهر. كما أنه آن الأوان ليقوم الرسول صلى الله عليه وآله و سلم بإنشاء الدولة الإسلامية وبتشكيل حكومتها التي ستتولى نشر الرسالة الإلهية تطبيقها وحمايتها وحماية مبادئها وقيمها والمنتسبين اليها ورعاية شؤونهم ومصالحهم وتكون قادرة على بناء المجتمع الإسلامي الحديث على الأسس السليمة والقيم والمبادئ الفاضلة التي تتضمنها الرسالة السماوية. وكان على الرسول الأكرم، وبأمر من الله، القيام بثلاثة أمور رئيسية.

الأمر الأول هو الجهر بالدعوة تدريجيا مبتدأ بالعشيرة ومتبعا ليونة العريكة والبراءة من عبادة الأوثان والشرك بالله، حيث أمره الله سبحانه وتعالى رسوله في سورة الشعراء، الآيات ٢١٤ - ٢١٦: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ.

و اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ.﴾ فالعشيرة هي القاعدة الرئيسية لإنطلاق أي عمل او دعوة او مفهوم. كما أنه بالإضافة إلى كون العشيرة هي الأكثر تعاطفا ومساندة، في حال قبولهم الدعوة، والأقل شراسة في ردة الفعل، في حلة عدم قبولهم بها، هم أيضا الأولى بالنصيحة والمعروف، وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض. هذا بالإضافة إلى أن الوضع السائد حينها كان قبلي الفكر والتفكير و الإتجاه والعمل. ففقدان المرء لدعم عشيرته، أو على الأقل أكثريتهم، يسلبه غطاء الهيبة ويجعله صيدا سهلا لخصومه ويجعل إستجابة الآخرين لدعوته صعبة إن لم يكن مستحيلة. لذلك جاء الأمر الإلهي له بالجهر بالدعوة والبدء بالعشيرة.

الأمر الثاني أن يختار من هو في قوة إيمانه وصلابته لكي يكون وزيرا يسانده في نشر الرسالة ووتأسيس الدولة والمجتمع. فلا يمكن لشخص بمفرده من بسط دعوة بهذا الحجم وهذه الأهمية وإنشاء دولة ومجتمع. ولكي يكون الشخص الذي يتم اختياره وزيرا فعّالا لا بد أن يكون من المؤمنين والمصّدقين بالدعوة إيمانا وتصديقا قويين. ويجب على الرسول أن يحدد لذلك الوزير مهامه الوظيفية ليكون المرشح أو المترشح لهذا المنصب على علم ودراية بالوظيفة التي يتقدم لها وبالمهام والأعمال المطلوبة منه والمسؤوليات والواجبات التي تمليها هذه الوظيفة.

الأمر الثالث هو أن يحدد هوية الدولة ويضع معالمها ومبادئها التي أوحاها الله سبحانه و تعالى بها له. فلا بد من وجود خطة معدة لقيام الدولة وبنائها بناء سليما وسلسا وقويا. فالرسول يعيش في مجتمع تربى على العنف ولا مكان فيه لغير القوي وصاحب الجاه والمنصب. لذلك فإن عليه تبديد تلك الفكرة وتثبيت حقيقة أن القوة الجسدية لا بد لها أن تكون مصحوبة بقوة العقل والمنطق و الحق. عليه أن يبدأ بنشر المبادئ والقيم والخصال الحميدة ومكارم الأخلاق ثم بعد ذلك يوجد القوة العسكرية التي تحمي تلك المبادئ والقيم. عليه

أن يستبدل قوة البطش والتدمير بقوة نشر العدالة والتعمير. ومن أجل تحقيق هذه الأهداف يتوجب عليه أولا، وبمساعدة الوزير الذي سيعينه، إعداد كوادر مؤهلة قادرة على تنفيذ المهام وسن قوانين وتشريعات تحكم الحياة الإجتماعية وتحفظ المجتمع وبعدها إيجاد آلية لتنفيذ تلك القوانين والتشريعات.

أعدّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم الخطوط العريضة للدولة وشرع في تلبية أوامر الله بما في ذلك إنشاء الدولة. فقام بالدعوة إلى أول مؤتمر إسلامي يعقد من أجل نشر رسالة السماء. فدعى صلى الله عليه وآله وسلم أبناء عبد المطلب وصنع لهم مدّا من الطعام. فلبوا دعوته المباركة وحضروا إلى وليمته المتواضعة التي كانت عبارة عن شيئا من الطعام قليلا من اللبن. وبعد أن تكامل الحضور قام الرسول وأحضر الطعام وقدمه إليهم. وبالرغم من بساطة المائدة إلى أن رائحة الأكل فاقت طيبا روائح أفضل الموائد وأكبرها. فأكلوا حتى شبعوا والطعام والشراب على حاله لم يتغير وكأنه لم يُمّس.

وبعد أن فرغوا من الطعام والشراب إستأذنهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في أن يوجه لهم نداء فقالوا بأجمعهم: قل ما تشاء يا محمد. فقال: "يا بني عبد المطلب، إني والله ما أعلم أن شابا من العرب جاء قومه بأفضل ما جئتكم به. إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة. يا بني عبد المطلب إني بُعثت إليكم خاصة وإلى الناس عامة." ثم قرأ عليهم كلام الله سبحانه وتعالى وأمره له بأن ينذر عشيرته الأقربين. ثم واصل حديثه قائلا: "وقد رأيتم من هذه الآية ما قد رأيتم، فأيّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي وصاحبي ووزيري وخليفتي فيكم؟"

سكت الجميع ولم يتقدم أحد منهم. فلما رأى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وكان آنذاك أصغر الحضور سنا، ذلك منهم قام وقال: أنا يا رسول الله. فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: أجلس يا علي

بارك الله فيك. وأعاد الرسول مناشدته ودعوته إلى أبناء عبد المطلب ثلاث مرات وفي كل مرة لم يجرؤ أحد على قبول المنصب الذي عرضه الرسول سوى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. حتى لما خاطبهم واحدا واحدا و دعاهم فردا فردا أخذوا يتعللون بعلل تُعرب عن تخوفهم من حمل الأمانة لثقلها ولعدم قناعة البعض بها ولعدم إقتناع البعض الآخر بتمكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من نشر رسالته وتكوين دولته. إنتظر الرسول فترة من الوقت لعل أحدا منهم يراجع نفسه ويغيّر موقفه ولكن من غير جدوى. فلما رأى الرسول تقاعس القوم وتخوفهم من المشاركة العملية في بناء الدولة وتحمل صعابها ومشاقها قام وأخذ بيد علي وقال: "أنت أنت. أنت أخي وصاحبي ووارثي ووزيري وخليفتي." ثم أدار بوجهه نحو القوم وقال لهم: "إنه أخي و وصييي وخليفتي فيكم فأسمعوا له وأطيعوا."

بعد أن فرغ الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم من خطابه دخل الحضور في نقاش حول جرأة الإمام أمير المؤمنين فمنهم من قال بأن محبته لمحمد أنسته أن محمدا بحر من الكرم والعطاء ومن الصعب أن يجاريه أحد وأن يتعهد أحد بأن يقوم بما يقوم به. ومنهم من قال إن عليا ما زال يافعا لا يعلم ما هو مقدم عليه. ثم بعد ذلك أخذوا يتناقشون في ما طلبه الرسول منهم في بدء كلامه وهو قبولهم الإسلام والدخول فيه. وإختلفت في هذا الشأن أيضا مواقفهم. فمنهم من قبل الدعوة وإكتفى بأن يكون مؤمنا بها وناصرا وداعما لها كحمزة والعباس وأبي طالب وغيرهم. ومنهم من خرج من الإجتماع من دون أن يتخذ قرارا واضحا. و منهم من رفضها وقرر محاربتها كأبي جهل وأتباعه. ومنهم من أخذ يستهزئ بها كذلك الذي قال لأبي طالب ساخرا: هنيئا لك يا أبا طالب فقد أمرك إبن أخيك أن تسمع لإبنك و تطيع."

بالرغم من العراقيل التي واجهت المؤتمر الإسلامي الأول إلا أنه نجح في نواح عديدة وكانت له نتائج إيجابية كثيرة. النتيجة الأولى هو الجهر

بالدعوة والنتيجة الثانية تكوين الدولة الإسلامية والنتيجة الثالثة إنظمام شجعان البيت الهاشمي وبعض قادته و وجهائه للدعوة كحمزة بن عبد المطلب والعباس وأبي طالب وغيرهم. وهذا ما أعطى دفعة قوية للدعوة وساعد على نشر الإسلام خارج البيت الهاشمي ومنه إلى المجتمع القرشي بصفة عامة. وبفضل هذه النتائج الإيجابية بدأ الإسلام ينتشر بسرعة أذهلت الشرك وزعمائه وأعوانهم.

مؤاخاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم لعلي بن أبي طالب عليه السلام مرت بمرحلتين. مرحلة إنشائية وتأسيسية ومرحلة تجديدية وتأكيدية. المرحلة الأولى وهي المرحلة الإنشائية هي التي تمت في المؤتمر الإسلامي الأول بمكة المكرمة أو ما عرف بمؤتمر الدار، كما سبق ذكره. فلقد نصب الرسول صلى الله عليه وأله وسلّم الإمام أمير المؤمنين أخا و وزيرا و وصيا. عينه في هذا المنصب بعد أن كان هو الشخص الوحيد بين الحضور الذي قبل عرض الرسول. عينه بعد أن رفض الجميع هذا المنصب مع علمهم بأهميته ووجاهته.

أما المرحلة الثانية، المرحلة التجديدية والتأكيدية فقد كانت في المدينة المنورة، بعد هجرة الرسول إليها. فبعد أن وقفت الدولة الإسلامية على قدميها أراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم أن يشيع جو التآخي بين المسلمين وأن يؤسس لمجتمع متحاب ومتماسك، يشد بعضه أزر بعض ويرحم القوي منهم الضعيف و يهب أفراده لمساعدة بعضهم البعض كلما دعت الحاجة لذلك. أراد أن يؤسس مجتمعا لا فضل فيه لمهاجر على أنصاري إلا بالتقوى. فكما ذكرت كل السير، وخاصة السيرة الحلبية والسيرة النبوية لإبن هشام، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم دعا إلى إجتماع عام يضم المهاجرين والأنصار. وبعد أن إجتمعوا قام فيهم خطيبا يشرح لهم فوائد الوحدة والإخاء ويحذرهم من عواقب التشرذم والتخاصم. ثم قال لهم: "تآخوا في الله اخوين اخوين." فأخذ الحمزة بن عبد المطلب عم الرسول زيد بن حارثة مولى رسول الله أخا

له، وإتخذ أبو بكر خارجة بن زهير أخا له وإتخذ عمر بن الخطاب عتبان بن مالك أخا له وأبو عبيدة أخذ سعد بن معاذ و هكذا باقي الأنصار والمهاجرين. أما رسول الله صلى الله عليه و آله وسلّم فإنه أخذ بيد علي بن أبي طالب عليه السلام فرفعها قائلا: "هذا أخي."

كل أصحاب السير إتفقوا على صحة هذه الرواية ونقلوها بمعنى واحدا، نقلا واحدا لا خلف و لا اختلاف فيه، مما يدل على تواترها وصحتها. إختلاف أصحاب السير كان في الأسلوب والترتيب فقط وليس في المعنى أو صحة الواقعة. فبعضهم روى بأن رسول الله لما أمر المهاجرين و الأنصار بالتآخي بدأ بنفسه مؤاخيا علي بن أبي طالب والبعض الآخر ذكر بأن الرسول أمر المهاجرين بالتآخي وبعد أن إتخذ كل واحد منهم أخا له رفع رسول الله يد علي بن أبي طالب وأعلنه أخا له. والأرجح هو الأول لعدة أسباب. فما كان لرسول الله صلى الله عليه وآله و سلّم أن يأمر قومه بأمر إلا ويبدأ بنفسه ومن هنا جاء الأمر الإلهي والنبوي القاضي بالتأسي برسول الله: "ولكم في رسول الله أسوة حسنة." السبب الثاني هو أن الرسول يعلم بأن ما من أحد من المهاجرين والأنصار إلا ويحب أن يتخذ من علي أخا له. فإن تركه للقوم فلا بد لأحدهم أن يأخذه أخا له وإن حدث ذلك فقد تم الفصل بين رئيس الدولة والوزير والخليفة، ولم يكن ذلك ليسمح به رسول الله. كما أن الرسول لا بد أن يؤاخي أحدا، إذ لا يعقل أن يأمر المسلمين بأمر يستثني نفسه من، وعندها سيتوجب عليه أخذ أخا له غير علي، ومن غير علي يقوي على أخوة رسول الله التي عجز عنها شجعان قريش ووجهائها يوم الدار؟ لهذه الأسباب، ولأسباب كثيرة غيرها من أهمها الأهلية والكفاءة والشجاعة والإقدام وقوة الإيمان بالله ورسوله، بدأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم بنفسه وإتخذ عليا أخا له ثم دعا المهاجرين والأنصار ليختاروا بعد ذلك من شاؤوا.

فها هو أمير المؤمنين عليه السلام يُعبّر عن شكره لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لإختياره أخا له من بين الجميع ويتعهد له بأن يكون عند حسن ظنه فيقول:

أقيك بنفسي أيهـــا المصطفى الذي	هدانا به الرحمن من غُمّة الجهل
و تفديك حوبائي و ما قدر مهجتي	لمن أنتمي فيه إلى الفرع و الأصل
و من ضمني مذ كنت طفـــلا و يافعا	و أنعشني بالعلّ منه و بالنهـل
و من جــــــــدّه جدي و عمّه أبــي	و من نجله نجلي و من بنته أهلي
ومن حين آخى بين من كان حاضرا	دعاني و آخاني و بيّن من فضلي
لك الفضل، إنـي ما حيــيت لشاكر	لإتمام ما أوليت يا خاتم الرسل

إن التشابه الروحي والأخلاقي والفكري والمبدئي، بالإضافة إلى قرابة الدم، أسباب قوية دفعت النبي صلى الله عليه وآله وسلّم لأن يبدأ بنفسه فيؤاخي عليا عليه السلام من دون القوم. كما أن هناك سبب آخر و هو تأكيد ما تم الإتفاق عليه يوم الدار عندما عرض المؤاخاة والمؤازرة على عشيرته فلم يرغب فيها غير علي وبناء عليه تم إختياره أخا و وزيرا. وحيث أن غالبية المسلمين لم يحضروا مؤتمر الدار رأى الرسول أن ينتهز فرصة المؤاخاة هذه ليؤكد ما تم الإتاق عليه سابقا ويخبر من لم يحضر ذلك المؤتمر ولم يعلم بالإتفاق بمكانة علي من رسول الله. وهذا ما ذكره المؤرخون والرواة. يروي جميعهم بأن الرسول بعد المؤاخاة نظر إلى علي وقال له: "أنت يا علي أخي وصاحبي و رفيقي في الجنة."

وكما عرض الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على قريش والمسلمين بصفة عامة في مؤتمر الدار في بداية الدعوة مسألة مؤاخاته ومؤازرته والقيام بدوره أثناء غيابه عرضها عليهم قبل وفاته و التحاقه بربه سبحانه وتعالى. فعندما تيقن من دنو أجله و هو على فراش المرض الذي توفي فيه سأل الحضور

وخص بالسؤال عمومته وأبنائهم مثل العباس بن عبد المطلب وسألهم من منهم يرضى بأن يكون وصيه وحامل مشعله بعده ومؤد لأماناته ومواصلا لدوره. وتتكرر النتيجة وكأنما أراد الله و رسوله ان يبين للقوم مكانة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وقوة ايمانه ورباطة جأشه وتميزه وإمتيازه عنهم. الفرق الوحيد بين الحادثتين هو ان القوم في الحادثة الأولى، مؤتمر الدار، لم يقبلوا عرض الرسول ولم يتكلموا كلمة واحدة بل صمتوا خوفا وتهيبا من الجواب. أما في الحادثة الثانية، في دار الرسول يوم عادوه في مرضه الذي توفي فيه، فكان الجواب الذي تفضل به العباس أقوى وأبلغ من السكوت. قال العباس: إن عمك كبير السن وذو عيال كثيرة وأنت تضاهي الريح كرما وسخاء فكيف لي أن أقوم بما تقوم به؟ شكر الرسول عمه وعرض السؤال على علي فكان الجواب الذي أثلج صدر الرسول: نعم يا رسول الله فداك أبي و أمي. فدعا رسول الله عليا وضمه الى صدره وقال له أنت أنت يا أبا الحسن.

السؤال الذي يطرح نفسه ونترك الإجابة لكل ذي موقف منصف وأمين هو: هل هي مصادفة ان يقوم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بدعوة القوم لمؤاخاته ومؤازرته وتحمل مسؤولياته في بداية الدعوة وقبل إلتحاقه بالرفيق الأعلى؟ وهل هي مصادفة انه في الحالتين يصمت الجميع ولا يتقدم لهذا المنصب سوى أمير المؤمنين عليه السلام؟

الشمعة التاسعة

خيرفاد لخيرهاد

بعد المؤتمر الإسلامي الأول، أو ما عُرف بمؤتمر الدار، أخذ الإسلام ينتشر سريعا والدولة الإسلامية تزداد قوة بدخول بعض شجعان العرب وفرسانهم الإسلام. وأخذت قواعد الدولة تزداد رسوخا وذلك بفضل إنضمام الكثير من جهابذة اللغة والمحّدثين والشجعان والوجهاء إلى الدولة الإسلامية. وينتقل الإسلام إلى المدن والقرى المحيطة بمكة المكرمة ويحسن إسلام الكثيرين ممن سمعوا بالدعوة المحمدية بحيث اصبحوا على استعداد للمشاركة في نشرها والدفاع عنها. كما قام البعض منهم بدعوة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لزيارتهم للتبرك بزيارته ولتعليمهم اصول دينهم و في حالة عدم تمكنه من ذلك أن يرسل اليهم من يرتضيه ليُعّلمهم شرائع دينهم وقيمه و مبادئه و يؤسس قواعد المجتمع الجديد.

في المقابل يراقب المشركون من قريش وغيرها ما يحصل للدولة الإسلامية من إنتشار وقوة فيزداد غيظهم وسخطهم على النبي صلى الله عليه وآله و سلم وعلى دعوته، خاصة بعد أن تجرأ وهدم أصنامهم وسفّه معتقداتهم وأباطيلهم واقنع مجموعة كبيرة ممن كانوا يشاركونهم المعتقد بأن يهجروا عبادة الأوثان والشرك بالله ويدخلوا في الإسلام. فتقوم مجموعة من قادتهم وشياطينهم بتدارس الأمر و التّفكر في كيفية وضع حد لإنتشار الإسلام ونمو الدولة الإسلامية. يجتمعون تارة في دار ابي جهل وتارة أخرى في دار ابي سفيان لتدارس الوضع والمصير الأسود الذي ينتظر وثنيتهم. في واحد من تلك الإجتماعات قرر مشركي قريش ضرورة وضع حد لذلك التطور، وبسرعة قبل أن يشتد عود الإسلام وتصبح عندها مجابهته عملية صعبة وربما مستحيلة.

ولأن الأمر، كما إعتقدوا، مهم و يخص الأمة القرشية ككل والوثنية بصفة عامة، رأوا ان يشركوا وجهاء القبائل كلها وان تكون لقاءاتهم في السر حتى لا ينفضح أمرهم و يفشل تخطيطهم.

بعد ان دعوا من وثقوا من دعمه ومساندته وقوة وثنيته وعصبيته قرر زعماء الشرك الإجتماع سرا في بيت زعيمهم أبي جهل للتشاور في أمرهم والتوصل إلى قرار يضع حدا لنمو شعبية الرسول وإنتشار رسالته. في الإجتماع كان محور الحديث هو القدرة الهائلة عند الرسول لإقناع اللآخرين بدعوته والدخول فيها. بعضهم أرجع ذلك الى تاريخه الناصع في المجتمع وما عرف عنه من أمانة وصدق حديث وبلاغة وقوة حجة. والبعض الآخر ارجع السبب الى ما إدعاه "قوة سحره." اختلفوا في السبب الذي مكّن الرسول من نشر دعوته بتلك السرعة ولكنهم اتفقوا على أن القضاء على الدعوة لا يمكن إلا عن طريق واحد و هو القضاء على مؤسسها وناشرها. فكان قرارهم الذي أجمعوا عليه بالإجماع هو القضاء على محمد إذا لا يمكن القضاء على رسالته ما دام هو على قيد الحياة وأن القضاء عليه معناه القضاء على رسالته. وافقوا بالإجماع على ذلك القرار وعلى ضرورة تنفيذه في أسرع وقت ولكنهم اختلفوا في كيفية تنفيذه. برزت لديهم مشكلة وهي من سيتولى تنفيذ تلك العملية ومن لديه الجرأة لقتل محمد. فما من زعيم قبيلة يرغب في أن تكون قبيلته هي المطالبة بدم الرسول، خاصة ومحمد له تلك المكانة البارزة والمحبة القوية في عشيرته وقومه، وأن قبيلته سوف لن يهدأ لها بال حتى تثأر من قاتله، وغضب هاشم، قبيلة النبي، معروفة عواقبه لدى الجميع.

بعد تداول للأمر توصلوا إلى قرار شيطاني الإيحاء يقضي بأن ترسل كل قبيلة شابا من عندها للمشاركة في قتل الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم، فيجتمعون في نقطة محددة في تاريخ محدد ثم ينطلقون كمجموعة واحدة إلى منزل الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم فيهجمون عليه ويقتلونه وبذلك

يشتركون جميعا في قتله ويضيع دمه بين القبائل ويكون من الصعب على هاشم الإقتصاص من كل القبائل فتقبل حينها بالدية، وذلك أمر مقدور عليه. إتفقوا أن يجتمعوا جميعا في دار أبي جهل وينتظروا حتى يخلد الرسول إلى الفراش فيهجموا عليه بأجمعهم و يقتلوه.

أوحى الله سبحانه و تعالى إلى نبيه يخبره بما يدبره له القوم و يأمره بالخروج من مكة والهجرة إلى المدينة بعد أن يأمر عليا بالمبيت على فراشه بدلا منه. وبعد أن صعد جبرئيل إلى السماء بعد تبليغ الرسالة، بعث الرسول إلى علي بن أبي طالب. فلما حضر بين يديه أخبره بما جاء به جبرئيل عليه السلام بأن الله سبحانه وتعالى أمره بأن ينام في فراشه بدلا منه. وبعد أن أنهى كلامه نظر الرسول إلى الإمام علي فرأى الحيرة على وجهه والتي سرعان ما أفصح عنها بسؤال ينُم عن صفاء نفس وروح و طيب سريرة وشجاعة لا مثيل لها. فقال: أو تسلمن يا رسول الله؟ نظر الرسول إليه فرحا فرحة الوالد بولده البار و قال: نعم يا علي. فما كان من علي إلا أن سجد لله شكرا وذهبت الحيرة من على وجهه و تبين بعد ذلك أن تلك الحيرة كانت بسبب الخوف على الرسول والتعجب من جرأة القوم الذين عرف صلفهم وطغيانهم وجبروتهم.

في الليلة الموعودة إجتمع المشركون في بيت أبي جهل وإنتظروا هناك يتسامرون وبعثوا من يرصد تحركات الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم و يأتيهم بأخباره أولا بأول. في الجهة المقابلة أمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم بالخروج من المنزل بعد أن نام علي بن أبي طالب مكانه. فخرج من داره وأرسل الله ريحا خفيفة أخلدت المتربصين أمام منزل الرسول للنوم فرآهم ولم يروه وخرج من بينهم وهو يتلو سورة يس. وبعد أن خرج من داره لقيه أبو بكر فحدّثه بما حصل وما يدبره له القوم وكيف ان الله أمره بأن يأمر عليا بأن ينام مكانه ويخرج هو من مكة. لما سمع أبو بكر حديث النبي دمعت عيناه وقال لا خير في أمة تأتمر عليك وسأل الرسول بأن يأذن له في مصاحبته.

أذن له الرسول وذهبا الى غار ثور، أو غار حراء.

أما المشركون فإنهم لما أفاقوا نظروا إلى فراش الرسول صلى الله عليه وآله وسلم خائفين من أن يكون قد خرج أثناء غفوتهم ولكنهم فرحوا لما رأووا أن الفراش ما زال كما هو وإعتقدوا أن النائم على الفراش هو رسول الله فواصلوا حراستهم كما أمروا.

وبعد أن غمضت العيون وهدأت الحركة تماما وصلت فرقة الإعدام المكونة من شياطين يمثلون مختلف القبائل. سألوا فرقة الحراسة عن الوضع فقيل لهم بأن محمدا ما زال نائما في فراشه. فسلّوا سيوفهم وهجموا على الدار. فلما أحس الإمام أمير المؤمنين بهم نهض من الفراش وإنتصب واقفا أمامهم ماشقا سيفه. أخذتهم الرهبة والرعب من هول المفاجأة وصاح أحدهم: أين محمد؟ فقال الإمام: لا أدري. أمرتموه بالخروج فخرج. فقال آخر: قل أين محمد وإلا قتلناك مكانه. غضب الإمام وقال للقائل: خسئت لا كان ذلك حتى تروى الأرض من دمك ودم أصحابك. فقال آخر، يعلم بقوة وإرادة الإمام عليه السلام: لم نأمر بقتلك وإلا فعلنا ذلك. فنزل الإمام علي من فراشه محاولا الهجوم على القوم ولكنهم فروا من أمامه خوفا من فضح أمرهم ومن مغبة قتال من لم يُأمروا بقتاله ومن عرفوا شجاعته وصلابته قوة بأسه. فرجعوا إلى قومهم خائبين.

بعد أن صلّى الإمام صلاة الصبح قام بتأدية الأمانات وردّ الودائع لإصحابها كما أمره رسول الله صلى الله عليه وأله وسلّم و فعل كل أمره بفعله وخرج بعدها ليلتحق بالرسول. و هذه أول إنابة فعلية للرسول قام بها علي وهو لم يتجاوز العشرين من عمره.

الشمعة العاشرة
زوجاً لسيدة نساءِ العالمين

في العام الثاني للهجرة المباركة يتقدم كثير من وجهاء قريش وأعيانها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم طالبين التشرف بالقرب منه وموافقته تزويجهم سيدة نساء العالمين إبنته الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام. فيكون رد الرسول واحدا في كل محاولة: لم يأذن ربي بذلك بعد. وبعد ان اشتهر بين الناس جواب الرسول لكل من تقدم لخطبة الزهراء عليها السلام توقف الناس عن طلب الزواج منها لعلمهم بأن للرسول ترتيب آخر بشأنها.

يروي السيد عبدالله شبّر في كتاب "جلاء العيون" نقلا عن الخوارزمي وغيره بأن أبا بكر وعمر وجمع من الصحابة كانوا جلوسا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم فتذاكروا أمر فاطمة الزهراء عليها السلام وكيف أن رسول الله ردّ طلب الكثير من الأشراف الذين تقدموا لخطبتها ولم يُلّب طلبهم. فقال أبو بكر: شخص واحد لم يتقدم لخطبتها وهو علي بن أبي طالب وأعتقد بأن ما منعه من ذلك إلا ضيق اليد وإنه ليقع في نفسي أنه لم يتقدم لهذا السبب. ثم وجّه خطابه إلى عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ وقال لهما: هل لكما في القيام معي إلى علي بن أبي طالب حتى نذكر له هذا وإن منعه ضيق اليد واسيناه واسعفناه؟ فقال له سعد بن معاذ: وفقك الله يا أبا بكر، فما زلت موفقا، قوموا بنا على بركة الله.

خرجوا من المسجد يلتمسون عليا فلم يجدوه في بيته وقيل لهم بأنه ذهب يسقي نخيلا لرجل من الأنصار بأجرة. فإنطلقوا إلى حيث يعمل علي بن أبي طالب في بستان الرجل الأنصاري. فلما وصلوا الى البستان سلّموا عليه فرد علي عليهم السلام ثم سألهم مستغربا مجيئهم: ما وراءكم ومالذي جئتم

له؟ فقال أبو بكر: يا علي، اننا نعلم انه لم تبق خصلة من خصال الخير إلا ولك فيها سابقة وفضل وأنت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمكان الذي عرفناه وعرفته انت من القرابة القريبة والمودة والصحبة والسابقة وقد خطب الأشراف من قريش إلى رسول الله إبنته فاطمة فردهم جميعا وقال إن أمرها إلى ربها إن شاء أن يزوجها زوجها. فما يمنعك أن تذكرها لرسول الله وتخطبها منه فإني أرجو أن يكون الله عزّ وجل ورسوله إنما يحبسانها عليك ولأجلك فتكون الظافر من بيننا بهذا الشرف العظيم والمصاهرة الجليلة.

نظر علي بن أبي طالب عليه السلام إلى أبي بكر وعيناه ملؤها دمع وقال: يا أبا بكر لقد هيجت مني ساكنا وأيقظتني لأمر ما كنت عنه غافلا والله إن فاطمة لموضع رغبة وما مثلي قعد عن مثلها غير أنه يمنعني من ذلك قلة ذات اليد. فقال أبوبكر: لا تقل هذا، فإن الدنيا وما فيها هي عند الله تعالى ورسوله هباء منثورا، ولا تنس مكانتك في قلوبنا جميعا فما يسعد أبابكر شيء أكثر من قضاء حاجة لك ان أمكنته من ذلك.

شكر أمير المؤمنين عليه السلام أبا بكر ووعده خيرا ثم إنصرف ومن جاء معه من عند الإمام أمير المؤمنين. أما أمير المؤمنين فبعد أن أكمل عمله وسقى من البستان ما أريد سقيه غادر النخل وأقبل إلى منزله. إغتسل وإستراح قليلا ثم خرج من منزله قاصدا حبيبه ومؤنسه ومدرسه وأباه الروحي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان الرسول ذلك اليوم في بيت زوجته أم سلمه ابنة أمية بن المغيرة المخزومي. ولما وصل بيت أم سلمة دق الباب فقالت أم سلمة: من بالباب. وقبل أن يجيبها أمير المؤمنين قال لها رسول الله قومي يا أم سلمة وإفتحي له الباب ودعيه يدخل فهذا رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله. فقالت أم سلمة: فداك أبي وأمي يا رسول الله من هذا الرجل الذي تذكره بما قلت وأنت لم تره بعد؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلّم: هذا رجل ليس بالخرق ولا بالنزق، هذا أخي وبن عمي وأحب الخلق إلي. فقامت

أم سلمة وفتحت الباب فإذا هي بعلي بن أبي طالب. تقول أم سلمة: فوالله ما دخل حتى تأكد من أني رجعت إلى خدري وعندما تيقن من ذلك دخل.

دخل أمير المؤمنين على رسول الله فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته. فقال له النبي: وعليك السلام يا علي، إجلس. تقول أم سلمة: فجلس علي عليه السلام بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجعل ينظر إلى الأرض كأنه قاصد لحاجة ويستحي أن يبديها لذلك هو مطرق إلى الأرض حياء من رسول الله. فكأن النبي علم ما في نفس علي فقال له: إني أرى أنك أتيت لحاجة فقل حاجتك وأبد ما في نفسك فكل حاجة لك عندي مقضية.

ويصف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بنفسه ذلك الموقف فيقول: فقلت فداك أبي وأمي إنك لتعلم أنك أخذتني من عمك أبي طالب ومن فاطمة بنت أسد وأنا صبي لا عقل لي فغذيتني بغذائك وأدبتني بأدبك فكنت إلي أفضل من أبي طالب ومن فاطمة بنت أسد في البّر والشفقة وأن الله تعالى هداني بك وعلى يديك وانقذتني مما كان عليه آبائي وأعمامي من الحيرة والشرك وإنك والله يا رسول الله ذخري وذخيرتي في الدنيا والآخرة ولقد أحببت مع ما شدّ الله من عضدي بك أن يكون لي بيت وأن تكون لي زوجة أسكن إليها وقد أتيتك خاطبا راغبا اخطب إليك ابنتك فاطمة فهل أنت مزوجي يا رسول الله.

تقول أم سلمة: نظرت إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا هو يتهلل فرحا وسرورا ثم تبسم في وجه علي وقال: وهل معك شيء أزوجك به؟ فقال علي: فداك أبي وأمي ما يخفى عليك من أمري شيء، لا أملك سوى سيفي ودرعي وناضحي (الفرس او البغل الذي يسقي عليه) وما أملك شيئا غير ذلك. فقال له رسول الله: يا علي أما سيفك فلا غنى لك عنه، تجاهد به في سبيل الله وتقاتل به أعداء الله وأعداء رسوله. وأما ناضحك فهو أيضا

لا غنى لك عنه، تنضح به على نخلك وأهلك وتحمل عليه رحلك في سفرك وترحالك. ولكني زوجتك بالدرع ورضيت بثمنه مهرا.

ثم قال رسول الله: ألا أبشرك يا علي؟ فقال علي: نعم فداك أبي وأمي بشرني فإنك لم تزل ميمون النقية مبارك الطلعة رشيد الأمر صلى الله عليك. فقال رسول الله: إبشر يا علي فإن الله عزّ وجل قد زوجكما في السماء من قبل أن أزوجك أنا في الأرض ولقد هبط عليّ في موضعي من قبل أن تأتيني ملك من السماء له وجوه شتّى وأجنحة شتّى لم أر قبله في الملائكة مثله فقال لي: السلام عليك يامحمد، ابشر بإجتماع الشمل وطهارة النسل. فقلت وما ذاك أيها الملك؟ فقال لي: يا محمد أنا سبطائيل الملك الموكل بإحدى قوائم العرش سألت ربي عزّ وجل أن يأذن لي في بشارتك وهذا جبرئيل في أثري يخبرك عن ربك عزّ وجل. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلمم: فما إستتم كلام الملك حتى هبط علي جبرئيل وقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته يا نبي الله. ثم أنه وضع في يدي حريرة بيضاء من حرير الجنة وفيها سطران مكتوبان بالنور. فقلت: حبيبي جبرئيل، ما هذه الحريرة وما هذه الخطوط؟ فقال جبرئيل عليه السلام: يا محمد، إن الله عزّوجل اطلع إلى الأرض إطلاعة فإختارك من خلقه فإبتعثك برسالته ثم إطلع إلى الأرض ثانية فإختار لك منها أخا و وزيرا وصاحبا وختنا فزوجه ابنتك فاطمة. فقلت: حبيبي جيرئيل ومن هذا الرجل؟ فقال جبرئيل: هو أخوك في الدنيا وابن عمك في النسب علي بن أبي طالب، وأن الله أوحى إلى الجنان أن تزخرف فتزخرفت وإلى شجرة طوبى أن إحملي فحملت وإلى الحور العين فتزينت وأمر الله الملائكة أن تجتمع في السماء الرابعة عند البيت المعمور فهبط من فوقها وصعد إليها من تحتها وأمر الله عزّوجل رضوان فنصب منبر الكرامة على باب البيت المعمور وهو الذي خطب عليه أدم يوم عرض الأسماء على الملائكة وهو منبر من نور فأوحى إلى ملك من ملائكة حججه يقال له راحيل أن يعلو ذلك المنبر وان يحمد الله

بمحامده ويمجده بتمجيده وأن يثني عليه بما هو أهله وليس في الملائكة أحسن منطقا ولا أحلى لغة من راحيل. فعلى المنبر وحمد ربه ومجّده وقدّسه وأثنى عليه بما أهله فإرتجت السماوات فرحا وسرورا. وقال راحيل في خطبته:

الحمد لله الأول قبل الأولين، الباقي بعد فناء العالمين، نحمده إذ جعلنا ملائكة روحانيين، وبربوبيته مذعنين، وله على ما أنعم علينا شاكرين، حجبنا من الذنوب، وسترنا من العيوب، وأسكننا في السماوات، وقربنا إلى السرادقات، وحجب عنّا النهم للشهوات، وجعل نهمتنا وشهوتنا في تقديسه وتسبيحه، الباسط حمته، الواهب نعمته، جل عن إلحاد أهل الأرض من المشركين، وتعالى بعظمته عن إفك الملحدين. أما بعد، فلقد إختار الملك الجبار صفوة كرمه وعبيد عظمته لأمته، سيدة النساء بنت خير النبيين وسيد المرسلين وامام المتقين فوصل حبله بحبل رجل من أهله، صاحبه المصدق دعوته، المبادر إلى كلمته، علي الوصول زوجا لفاطمة البتول، ابنة الرسول.

ويواصل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حديثه لأمير المؤمنين عليه السلام قائلا: ثم ان جبرئيل عليه السلام قال لي: يا محمد، إن الله عزّ وجل أمرني أن آمرك أن تزوج عليا بفاطمة وتبشرهما بغلامين زكيين نجيبين طاهرين طيبين خيرين فاضلين في الدنيا والآخرة. وما إن خرج جبرئيل، بعد أن أوصل رسالة ربي، حتى طرقت أنت الباب. ألا وإني منفذ فيك أمر ربي عزّوجل. إمض يا أبا الحسن أمامي فإني خارج إلى المسجد لأزوجك على رؤس الأشهاد وأذكر من فضلك ما تقر به عينك.

يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: خرجت من عند رسول الله صل الله عليه وآله وسلم وأنا فرح مسرور فأستقبلني أبو بكروعمر فقالا لي: ما وراءك؟ فقلت: زوجني رسول الله صلى الله عليه وآله إبنته فاطمة وأخبرني أن الله عزّوجل زوجنيها في السماء وهذا رسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم خارج في أثري ليظهر ذلك بحضرة الناس. ففرحا بذلك فرحا شديدا ورجعا معي إلى المسجد. فما توسطنا المسجد حتى لحق بنا رسول الله ووجهه يتهلل فرحا وسرورا و نادى بلال فأجابه قائلا لبيك يا رسول الله. فقال له الرسول: أدع لي المهاجرين و الأنصار. فقام بلال وعمل ما أمره الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم.

يواصل عدد كبير من الرواة والمؤرخين ومنهم السيد عبدالله شبّر نقلا عن الخوارزمي سرد ما حدث ذلك اليوم: لما إجتمع المهاجرون و الأنصار صعد رسول الله صلى الله عليه وآله المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: معاشر المسلمين، إن جبرئيل أتاني آنفا فأخبرني عن ربي عزّ وجل أنه جمع الملائكة عند البيت المعمور وأشهدهم جميعا أنه زوّج أمته فاطمة ابنة رسول الله من عبده علي بن أبي طالب وأمرني أن أزوجه في الأرض وأشهدكم على ذلك.

ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وآله من على المنبر وقال لعلي بن أبي طالب: قم يا أبا الحسن فإخطب أنت لنفسك. فقام علي عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله صلى الله عليه وآله وسلّم قائلا: الحمد لله شكرا لأنعمه وأياديه ولا إله إلا الله شهادة تبلغه وترضيه وصلى الله على محمد صلاة تزلفه وتحظيه. وبعد فإن النكاح مما أمر الله عزّوجل ورضيه، ومجلسنا هذا مما قضى الله ورضيه وقد زوجني رسول الله إبنته فاطمة وجعل صداقها درعي هذا وقد رضيت بذلك فإسألوه واشهدوا. فقال المسلمون لرسول الله صلى الله عليه وآله: زوجته يا رسول الله؟ فقال الرسول: نعم. فقالوا بارك الله لهما وعليهما وجمع شملهما.

ثم إلتفت الرسول إلى علي وقال له: قم يا علي فبع الدرع وإئتني بثمنه. فقام علي وذهب إلى السوق وقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخرج

من المسجد راجعا إلى منزله و كذلك فعل أكثر من كان في المسجد.

ذهب أمير المؤمنين إلى السوق باع الدرع ورجع إلى بيته بقيمته. وفي اليوم التالي ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في المسجد فأعطى رسول الله الدراهم التي حصل عليها ثمنا للدرع. فلما صارت بيد الرسول أخذ بعضا منها فأعطاه أبا بكر، وكان تاجر قماش، وقال له إبتع لفاطمة ما يصلحها من ثياب وأثاث ثم أعطى بعض الدراهم بلالا وأمره أن يشتري به طيبا لفاطمة ودفع الباقي لعلي ابن أبي طالب وأمره أن يعد به وليمة.

فإشتغل البيت النبوي والبيوت القريبة منه، قرابة ومحبة، في الإعداد لزواج أفضل شخصين بعد رسول الله. وبعد أن تم شراء جهاز فاطمة الزهراء عليها السلام وأعدت الترتيبات للزواج أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بتهيئة بيت للعروسين قريبا من بيته وفرشه بما تم شراؤه من جهاز. فأعد بيت الزوجية وهُيأ لإستقبال الزوجين. بعدها إستدعى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نساءه وأمرهن أن يُزين فاطمة الزهراء.

على الجانب الآخر إستدعى رسول الله صلى الله عليه وآله علي بن أبي طالب عليه السلام فلما حضر سأله إن كان مستعدا للزواج فأجابه بنعم. فقال له الرسول: إصنع لأهلك طعاما فاضلا، من عندنا اللحم والخبز وعليك التمر والسمن. فقام علي بن أبي طالب وإشترى التمر والسمن وجاء به إلى رسول الله وأمر الرسول بذبح كبش فلما ذبح شارك من حضر في طبخ الوليمة وأمر علي بن أبي طالب أن يدعو من أراد وأن يهيء نفسه للزواج.

خرج علي بن أبي طالب من عند رسول الله وذهب إلى المسجد ودعا الناس إلى وليمة زواجه في تلك الليلة وكان ذلك في الأول من شهر ذي الحجة

من العام الثاني للهجرة المباركة. ثم ذهب إلى بيته وأخذ يعد نفسه للمناسبة.

في المساء ذهب أمير المؤمنين إلى منزل رسول الله فهاله ما رأى. لقد حضر عدد من الناس يفوق العدد الذي توقعه بكثير وهو يعلم بأن ما تم إعداده من طعام لا يمكن أن يكون كافيا لمثل ذلك العدد من الحضور. فعلم رسول الله صلى لله عليه وآله وسلم ما بداخل نفس أمير المؤمنين فقال له بإبتاسمة ملؤها الفرحة والبشرى: لا عليك يا علي، إلي إلي، سأدعو الله بالبركة. فإرتاح علي من كلام الرسول لعلمه بما يعني دعاء الرسول. فلقد شهد بنفسه على ذلك في حادثة مشابهة وهي الوليمة التي أعدّها الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم للمشاركين في مؤتمر الدار. وهذا ما حصل بالفعل. جيئ بالطعام والشراب وأخذ المدعوون يأكلون ويشربون وبعد أن إنتهى آخر المدعوين من الأكل نظر علي عليه السلام إلى الطعام وإذا هو كما كان لم يتغير. فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالصحاف فأوتي بها إليه فملأها طعاما وأرسله إلى أزواجه وجيرانه ومن لم يحضر المأدبة.

إنصرف المدعوون ولم يبق مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم سوى علي بن أبي طالب عليه السلام. إستدعى الرسول أم سلمة فلما حضرت أمرها أن تأتي بفاطمة الزهراء عليها السلام. فذهبت إلى داخل الدار وسرعان ما رجعت ومعها فاطمة الزهراء. فلما وقفت بين يدي الرسول كشف الرداء عن وجهها حتى رآها علي بن أبي طالب ثم أخذ يدها ووضعها في يد علي وقال: بارك الله لك في إبنة رسول الله يا علي، نعم الزوجة يا علي. ثم إلتفت إلى إبنته الغالية وقال: بارك الله لك يا فاطمة، نعم البعل يافاطمة. إنطلقا إلى منزلكما ولا تحدثا أمرا حتى آتيكما.

قبّل أمير المؤمنين يد رسول الله وخرج من عنده و يده بيد فاطمة الزهراء عليها السلام. دخلا دارهما وجلسا ينتظران رسول الله مطرقين

برأسيهما إلى الأرض حياء. بعد فترة قصيرة جائهما رسول الله فلما جلس أمر إبنته فاطمة أن تأتيه بإناء فيه ماء. جاءت له بالماء فأخذ جرعة منه ثم قرأ عليه ودعا ربه بكلمات وأمر إبنته أن تدنو منه فلما دنت منه صبّ شيئا من ذلك الماء عليها وهو يقول: اللهم هذه إبنتي وأحب الخلق إلى اللهم وهذا أخي وأحب الخلق إلي اللهم إجعله لك وليا وبك حفيا وبارك له في أهله. اللهم إنهما أحب خلقك إلي فأحبهما وبارك في ذريتهما واجعل عليهما منك حافظا وإني أعيذهما بك وذريتهما من الشيطان الرجيم. ثم نظر الى علي وقال له: أدخل بأهلك، بارك الله لكما وفيكما ورحمة الله وبركاته عليكم إنه حميد مجيد. وقام مودعا لهما فقبّلا يديه وإنصرف عنهما.

بعد ثلاثة أيام جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لزيارتهما. فلما صار في وسط الدار طلب الخلوة بإبنته الزهراء عغليها السيلام فلما صار معها قال لها: كيف أنت يا بنية وكيف رأيت زوجك؟ قالت الزهراء: يا أبه إنه لخير زوج إلا أنه دخل علي نساء من قريش وقلن لي زوّجك أبوك رسول الله من فقير لا مال له. تبّسم رسول الله صلى الله عليه وآله في وجهها وقال لها: يا بنية، ما أبوك بفقير ولا بعلك بفقير ولقد عُرضت علي خزائن الأرض من الذهب والفضة وإخترت ما عند ربي عزّوجل. يا بنية لو تعلمين ما علم أبوك لسمجت الدنيا في عينيك. والله يا بنية ما ألوتك نصحا إن زوّجتك أقدمهم إسلاما وأكثرهم علما وأعظمهم حلما. يا بنية، إن الله عزوجل إطلع إلى الأرض إطلاعة فإختار من أهلها رجلين فجعل أحدهما أباك والآخر بعلك. يا بنية، نعم الزوج زوجك، لا تعصي له أمرا. فتهلل جه فاطمة الزهراء عليها السلام فرحا بما سمعته من أبيها عن زوجها. ثم أمر بعلي أن يدخل فلما دخل قال لبيك يا رسول الله. فقال الرسول: يا علي، أدخل بيتك والطف بزوجتك وارفق بها فإن فاطمة بضعة مني يؤلمني ما يؤلمها ويسرني ما يسرها. بعد ذلك

دعا لهما قائلا: استودعكما الله واستخلفه عليكما. ثم و دعهما وانصرف من عندهما.

الشمعة الحادية عشرة
بطل عجزت النساء أن يلدن أشجع منه

هزيمة المشركين يوم الفداء الأكبر والمبيت على الفراش لم تردع مردة قريش ومشركيهم عن حقدهم وغيّهم وطغيانهم وتكبرهم وعنادهم. بل على العكس من ذلك تماما زادتهم حقدا وتصّلبا وعنادا وتصميما على قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم والقضاء على رسالته السمحاء. فأخذوا يعدون العدة لقتال الرسول وجها لوجه هذه المرة، بعد أن فشلت كل محاولاتهم الغير مباشرة والكيدية ومؤامراتهم الجبانة. لقد قرروا أن يشنوا حربا لا هوادة فيها على الرسول الأكرم لا يرجعون منها إلا بعد القضاء على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتخلص منه وبالتالي من دعوته. بدأوا في اعداد جيش كبير وقوي للقيام بتلك المهمة كما بدؤا في توفير كل مقومات الغلبة والفوز بالمعركة غير مبالين بما ينفقون على تجهيز ذلك الجيش. هممهم الغلبة والفوز على محمد مهما كانت التكاليف والخسائر.

وصل خبر إستعداداتهم إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وعلم بما يدبره القوم فلم يكن ذلك بالمفاجئ له. فهو يعرف مسبقا الخطوات التي سيقوم بها مشركي قريش وأتباعهم. فالسنون التي قضاها بينهم وضعتهم امامه ككتاب مكشوف سهل القراءة والإدراك والفهم. عرف فيهم الصلف والغطرسة والأنانية والعصبية الجاهلية وغير ذلك من الخصال التي لم تكن بأقل قساوة من قساوة الصحراء التي كانوا يعيشون فيها. لذلك كانت أول وزارة أنشأها في حكومته هي وزارة الدفاع. كان يعرف بأن الرسالة الإلهية شاء الله لها أن تبدأ في مجتمع السيادة والغلبة فيه للقوي والقوة وفي مجتمع مكون من قبائل يعادي بعضها البعض ويغير بعضها على بعض لأتفه الأسباب

ويستحلون دماء بعضهم البعض لأجل ناقة أو أقل من ذلك ولا يسلم فيه المسالم والضعيف على عرضه وماله. لا وجود للقانون ولا للحريات ولاحام للحرمات في ذلك المجتمع. كان الرسول يعلم طبيعة مجتمعه و يعلم بأن تطبيق القانون والعدل والمساواة في مجتمع مثل ذلك المجتمع لا بد أن يكون مدعوما بالقوة التي لا يهاب أبناء المجتمع آنذاك غيرها. لذلك، ومنذ خروجه من مؤتمر الدار وبعد ان عرف رد القوم و خبر نواياهم، قام مباشرة بإنشاء وزارة للدفاع و جعل عليها أشجع الناس و أشدهم شكيمة و عزيمة و أقواهم إيمانا و تصديقا، طبعا بعد رسول الله، و من لا تأخذه في الله لومة لائم أمير المرمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

لم يفاجئه تكالب قوى الفوضى والشر من وثنية ومشركة وملحدة على الرسالة المحمدية وإعداد عدتها للإنقضاض عليه وعلى دولة الإسلام الفتية. بل على العكس من ذلك أخذ كل تحرك وقول لتلك القوى مأخذ الجد وأمر نائبه و وزير دفاعه بأن يسرع الخطى في بناء الجيش ويقوم بتجهيزه بما يحتاجه من عدة وعتاد بحيث يكون جاهزا اتم الجهوزية لأي طارئ وأي معركة او غارة او مجابهة تفرض عليه. فما كان من الوزير الشاب إلا أن أعطى أوامر الرسول كل إهتمامه وأخذ يعدّ العدة ويكوّن الجيش من الناحية العددية والتسليح و التدريب وترك أمر التوجيه والقيادة وإتخاذ القرار للقائد الأعلى و هو الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم.

في السنة الثانية للهجرة النبوية، على مهاجرها أفضل الصلاة والسلام، حشد المشركون جيشا قوامه تسعمائة وخمسون فارسا وتحركوا لقتال الرسول. و ما علم الرسول بنية القوم أمر جيشه بالتحرك لكي تكون المواجهة خارج المدينة بعيدة عن المنازل والمدنيين والنساء. إلتقى الجيشان عند بئر يقال له بدر. وبعد أن حطوا رحالهم بعث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى القوم من يحاول أن يثنيهم عما هم قادمون عليه، صيانة لدماء الناس وحفظا

لمتلكاتهم. ولكنهم إزدادوا غيّا وغرورا وعدّوا عرض الرسول ضعفا وخوفا من قوتهم. فأرسلوا من يقول إلى الرسول بأنهم لن يرجعوا عن ما جاؤا من اجله حتى يرجع هو عن الدين الذي جاء به. ووعدوه إن هو قبل بذلك فسيولونه عليهم ويجعلونه ملكا عليهم ويكونون كلهم سيوفا له تحارب بأمره وتجبى له الأموال وتُحنى له الهامات والرقاب بحيث يأمر وينهي في العباد والبلاد.

عرف الرسول صلى الله عليه وآله و سلّم بأن لا أمل في إصلاح القوم وردهم عن غيّهم فلقد ركبهم الغرور والصلف والعناد وأخذ الشرك منهم مأخذه. اصبحت آلهتهم التي يعبدونها خطا احمرا بالنسبة لهم لا لشيء سوى انها تدر اموالا عليهم من خلال صنعها وبيعها والنذور التي تنذر لها. يعلمون تمام العلم بأنها لا تضر ولا تنفع لكنهم ايضا يعلمون انها بقرة حلوب لا عنى لهم عن حليبها. ذلك بالنسبة للوثنيين. اما المشركين فهم ايضا يعلمون ببطلان دعوتهم، كما سنبينه لاحقا، لكنهم وهم من حرّف التوراة والإنجيل يعلمون ان الرجوع عن تزويرهم معناه خسارة مالية كبيرة لهم. فهم ما زوروا وحرفوا إلا ليكسبوا ويثروا ثراءا غير شرعيا وبعد ان تعودوا على مردود تزييفهم وتحريفهم لا يمكن ان يتخلوا عن الباطل الذي احدثوه او ان يضحوا بما تعودوا على جنيه من ربح سريع وسهل. كل تلك الحقائق كانت واضحة ومعروفة عند الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. لذلك أمر جيشه بالإستعداد للمواجهة وكان الجيش الإسلامي مكونا من ثلاثمائة وأربعة عشر فارسا بما فيهم الرسول وعشيرته. بعد ان اخذ الجيش الرسالي استعداده توجه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى ربه بالدعاء طالبا منه النصر و التأييد وقال: "اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها و فخرها تحاول أن تكّذب رسولك. اللهم إن تُهلك هذه العصابة (من المؤمنين) اليوم لا تُعبد بعدها أبدا."

تبدأ المعركة فيبرز عتبة بن ربيعة الأموي وإبنه الوليد وأخوه شيبة، وكانوا من أشجع فرسان المشركين، ويطلبون من الرسول صلى الله عليه وآله

وسلّم أن يرسل لهم من يعتقد بأنه كفؤ لهم ولمبارزتهم. نظر الرسول إلى عشيرته وأصحابه والكل منهم يتمنى أن يكون هو من يختاره الرسول لمبارزة أؤلئك اللئام. ولكن الرسول رأى أن يبدأ بالأقربين. لذلك إنتدب علي بن ابي طالب والحمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث. لبى الثلاثة طلب الرسول وامتشقوا سيوفهم وتقدموا لمبارزة الطغاة الثلاثة. فبرز علي إلى الوليد وتقاتلا طويلا حتى أظفر الله عليا عليه وقضى عليه. أما الحمزة فقد برز لعتبة وكان متدرعا بعدد من الدروع الواقية فأخذ الحمزة يبحث عن جزء من جسمه لم تغطيه الدروع فلم يجد سوى رقبته فكّر عليه وامكن السيف من رقبته وقتله. نظر علي والحمزة إلى عبيدة فإذا هو ما زال في كر وفر مع خصمه شيبة فذهبا إليه وأعاناه على قتل شيبة. لما فرغ الثلاثة من المهمة سلّما على بعضهما البعض مهنئين بعضهم البعض بنصر الله وقرروا العودة الى مقر قيادة جيش الرسول ليخبروا الرسول و يروا مالذي يقرره و الخطوات التي سيتخذها. في طريق العودة إلى صفوف جيش الرسول كمن مجموعة من بني عمومة شيبة لعبيدة بن الحارث الهاشمي فهاجموه من الخلف، بعد ان تأخر عن رفيقيه علي والحمزة لقضاء حاجة، وقتلوه. و كان أول شهيد في المعركة.

أسف الرسول لإستشهاد عبيدة وشكر عليا والحمزة وطلب من جيشه التريث حتى يرى مالذي سيقدم عليه جيش المشركين، وكله أمل بأن يكون قتل عتبة والوليد وشيبة رسالة تفيقهم من غيهم وصلفهم وعنادهم. ولكن ما حدث هو على العكس تماما. فلما قُتل عتبة والوليد وشيبة وهم من قادة وشجعان المشركين قرر جيش الكفر، وبردة فعل غير مدروسة الهجوم بأجمعهم على جيش الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم. فلما رأى الرسول ما كان من القوم أمر جيشه بخوض المعركة. وإبتدأت المواجهة والقتال بين الجيشين. وكان همّ شجعان المشركين وأبطالهم النيل من علي والحمزة والثأر لقتلاهم. فبرز حنظلة بن إبي سفيان إلى علي بن أبي طالب وتقاتلا طويلا حتى أرداه علي الى

الأرض صريعا. ثم أقبل إليه العاص بن سعيد فلم يكون نصيبه بأفضل من نصيب صاحبه. بعد ذلك جاء طُعيمة بن عدي محاولا النيل من علي و لكن عليا لم يمهله طويلا. وهكذا فعل الحمزة وباقي شجعان المسلمين مع صفوف جيش الشرك والضلال.

أما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم فإنه لما رأى إصرار جيش الشرك على مواصلة القتال مدّ بصره فإذا الوطيس قد حمى فأخذ كفا من التراب وقيل من الحصى ورمى به وجه المشركين قائلا: "شاهت الوجوه. اللهم أرعب قلوبهم و زلزل أقدامهم." وما أسرع ما إستجيب دعاء الرسول. فقد جعل المشركون يتهاوون إلى الأرض صرعى واحدا تلو الآخر وخاصة شجعانهم الذين هم في مقدمة الجيش. فلما رأى ما تبقى من المشركون كثرة قتلاهم وجرحاهم و ان القتل اصبح مصير من يبقى في ساحة المعركة فرّوا من المعركة لا يلوون على شيء. كان قتلى المشركين في هذه المعركة سبعين فارسا قتل الإمام أمير المؤمنين منهم عشرين واشترك مع المسلمون في قتل الخمسين الباقين.

كان لمعركة بدر وإنتصار المسلمين فيها الأثر البالغ في إرساء قواعد الدولة الإسلامية وتقوية شوكتها وبسط نفوذها وسلطتها. فمن الناحية النفسية أعطى الإنتصار دفعة معنوية كبيرة للمسلمين وفتح الباب لدخول اعداد كبيرة في الإسلام بما في ذلك عددا كبير من شجعان قريش و فرسانها. ومن الناحية الفنية فإن نتيجة الحرب أثبتت حنكة القائد وسلامة الإعداد الذي قام به وزير دفاعه ونجاح الخطط التي وضعها القائد ووزير الدفاع وبسالة المسلمين واستعدادهم للتضحية. ومن الناحية السياسية أثبتت قوة المبدأ و وجاهة الدعوة.

أما قريش فقد خرجت من المعركة بخسائر مادية ونفسية لم تكن في حسبانها ولا توقعاتها. فبالإضافة إلى خسرانها سبعين وقيل واحد وسبعين

قتيلا من شجعانها أَسر نفس العدد تقريبا من أثريائها وذوي النفوذ والجاه فيها. كل ذلك على أيدي جماعة كانت تعدّهم من ضعاف القوم وأقلهم بأسا وشكيمة. تلك الخسائر المادية والنفسية زرعت في نفوس المشركين الحقد والغضب والثأر و التصميم على إلحاق الأذى بالقوة الفتية التي تجرأت و وقفت ضدها و نالت من كبريائها و جبروتها.

أخذ المشركون يعدون العدة من جديد لبناء جيش أكثر عددا وعدة من الجيش الذي خاضوا به معركة بدر. فأرسلوا مندوبيهم إلى القبائل يحّفزونهم على قتال محمد و يطلبون منهم المشاركة بالرجال والأموال في معركة أطلقوا عليها اسم "معركة الثأر." بعد اشهر قليلة إستطاعت قريش أن تُكّون جيشا قوامه ثلاثة آلاف فارس من أشجع فرسان قريش ومن تحالف معها من المشركين والموتورين واليهود وأمنّت قريش لذلك الجيش العتاد والسلاح من التبرعات التي جمعها مندوبوها إلى القبائل ومن رسوم تمت جبايتها من القوافل لدعم معركة الثأر.

أما الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم فلم يكن دعم جيشه عددا وعدة وتطويره وتنميته بالشيء الصعب. فالإنتصار في بدر شجّع الكثير من المسلمين على الإنضمام إلى الجيش الإسلامي والتبرع له بسخاء ودعمه. ونتيجة لتلك الإستجابة وذلك الدعم السخي نما الجيش الإسلامي وإزداد عدده تلقائيا ومن دون الحاجة إلى الدعاية الإعلامية، كما هو الحال مع الجيش القرشي. كما زادت عدته وعتاده لإزدياد مصادر تمويله.

في السنة الثالثة للهجرة، أي بعد عام من معركة بدر، زحف الجيش القرشي إلى المدينة وخرج الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم بجيشه لملاقاة الجيش الغازي. ولما وصل جيش الرسول إلى الوادي الذي يقع بين سلسلة جبال أحد، على بُعد خمسة أميال من المدينة المنورة، أمر رسول الله جيشه

بالتوقف هناك. وكان قرار الرسول مبنيا على هدفين – هدف سياسي وهدف إستراتيجي. الهدف السياسي هو أنه صلى الله عليه وآله وسلّم أراد أن يبين للقوم، في المعسكرين، بأنه لم ولن يكون الداعي للقتال ولا البادئ به وأن فرق المسافة بين المدينة وجبال أحد، وهي خمسة أميال، وبين جبال أحد ومكة المكرمة وهي أكثر من ثلاثمائة ميل، تثبت بأن الجيش المكي هو الجيش الغازي والمعتدي ومن قدم للقتال وليس الجيش الإسلامي الذي ما زال في حدود مدينته وعند أسوارها. أما الهدف العسكري فهو الإستفادة من إرتفاع الجبال الشاهقة وإستخدامها كدروع طبيعية والتي لو تعدّاها لربما لم يحصل على أفضل من ذلك المكان وأنسب منه. لذلك طلب من جيشه ان يعسكر في ذلك المكان.

أما الجيش القرشي الآتي من مكة فإنه تفاجأ بوجود الجيش الإسلامي وقد تسّتر بجبال أحد صانعا له سدا منيعا يحرم جيش المشركين من التقدم نحو المدينة، وهو الهدف الذي كان خطط له المشركون حيث كانوا ينوون قتال الرسول في المدينة ليتسنى لهم إلحاق أكبر الخسائر البشرية والمادية وأفدحها بالرسول واتباعه ويتمكنوا من نشر الرعب بين العوائل المسلمة، أملا في ان يراجعوا انفسهم ويتخلوا عن الإسلام ونبيه.

خيّم الجيشان عند جبال أحد. وكما بدأ المشركون معركة بدر بالغطرسة والتبجح كذلك بدأوا معركة أحد، التي أخذت إسمها من إسم المنطقة التي وقعت فيها. برز طلحة بن أبي طلحة العبدي من بني عبد الدار حاملا لواء المشركين وتقدم نحو الجيش الإسلامي متحديا ونادى: يا محمد تزعمون أنكم تجهزوننا بأسيافكم إلى النار ونجهزكم بأسيافنا إلى الجنة فمن شاء أن يلحق بجنته فليبرز وسنسرع به إلى جنته. فلما سمع أمير المؤمنين تحّدي طلحة واستهزاءه من الإسلام وعقيدته طلب من رسول الله الإذن للرد عليه وعلى تطاوله على الرسول والمسلمين فأذن الرسول له. فبرز أمير المؤمنين عليه السلام وهو يقول:

يا طلح إن كنت كما تقـول لكم خيـول و لنـا نُصـول
فإثبت لننظـر أينا المقتول و أينـا أولـى بما تقـول
فقد أتـاك الأسـد الصؤُول بصـارم ليـس لـه فلـول
ينصـره القاهـر و الرسـول

عندما سمع طلحة قول الإمام وتحديه له أخذه الغرور فإمتشق سيفه وتقدم لقتال أمير المؤمنين عليه السلام. من ناحيته واصل الإمام تقدمه حتى صار الإثنان في وسط ساحة المعركة. اشتبكا الإثنان في قتال واشتباك جعل افراد المعسكرين في ترقب وخوف من نتيجته. فالمتحاربان يمثلان بحق معسكريهما من حيث القوة والموقع و خسارة أحدهما هي خسارة فادحة لمعسكره. وبعد قتال ضار و طويل تخلله كر و فر بين الرجلين عاجل الإمام أمير المؤمنين طلحة بضربة قاتلة أردته صريعا إلى الأرض يخور في دمه معجّلة به إلى منتهاه. ولّما خرّ طلحة إلى الأرض فرح النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكبّر وكبّر المسلمون بتكبيره.

لما سقط طلحة برز من بعده أخوه أبو سعد يريد الإنتقام لمقتل أخيه ولكنه خاب ظنه ولقي حتفه على يد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، تماما كما حصل لأخيه. بعدها عرف المشركون بأن القتال عن طريق المبارزة سوف لن يكون في صالحهم. لذلك قرروا بدء معركة شاملة. فهجم المشركون على جيش الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم وتقاتل الجيشان قتالا شديدا قتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام خلاله عددا كبيرا من قادة المشركين من بينهم إرطأة بن شرحبيل وشريح بن قارض ومولاهم صواب وغيرهم. وكذلك كان للحمزة والزبير نصيب وافر في قتل قادة الشرك. فقد قتل الحمزة عثمان بن طلحة وعاصم بن ثابت والحارث بن طلحة. أما الزبير فقد قتل كلاب بن حرب والجّلاس بن طلحة وكل أولئك من شجعان وفرسان المشركين.

بعد أن فرغ من قتال من برز لملاقاته ولما هرب و تلكأ الباقون من مبارزته توجه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى حاملي الألوية، ألوية الشرك، وأعمل فيهم سيفه ورمحه حتى أباد أكثرهم ونكّس الكثير من ألوية الشرك بعد سقوط حملتها إلى الأرض. ففي "الرياض النضرة" لمحب الدين الطبري أنه: "لما قتل علي عليه السلام أصحاب تلك الألوية نزل جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وقال له: يا رسول الله، إن هذه لهي المواساة. فقال النبي: إنه مني وأنا منه. فقال جبرئيل: وأنا إنشاء الله منكما.

على الجانب الآخر من المعركة كان هناك الحمزة بن عبدالمطلب، عم الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم، يقاتل المشركين أشد القتال. ينقض عليهم كالأسد فيسقط بسيفه من يسقط ويفر من أمامه من يفر. فلّما رأت هند، أم معاوية، بطولات الحمزة أغرت رجلا مشركا عُرف بدقة رميته يُقال له وحشي. وقيل أنه كان من جملة عبيدها المقربين منها وأنه كان أقرب لها من زوجها أبي سفيان. فوعدته بالحرية والمال إن هو قتل الحمزة. فكمن وحشي للحمزة ورمى الحمزة بحربة أصابته في مقتل وخّر صريعا إلى الأرض. ولما رأى أمير المؤمنين ما حصل لعمه الحمزة إتجه نحوه يريد قتل قاتله ولكن وحشي هرب وإختفى بين الجبال. فرجع الإمام إلى ساحة المعركة، لأن مبادئه و أخلاقه وقيمه الحربية تمنعه من اللحاق بفار من المعركة، حتى وإن كان له ثأر عند ذلك الفار. هذا بالإضافة إلى أنه خشي عاقبة ترك الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لوحده. فرجع إلى ساحة المعركة يقاتل المشركين ويدفعهم عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

أما وحشي فإنه ذهب مباشرة إلى هند يبشرها بقتل الحمزة ويطلب الجائزة الموعودة. فرحت هند بالخبر وشكرته وطلبت منه الإختباء بدارها حتى تنقضي المعركة وتضع الحرب أوزارها. ثم قامت وذهبت إلى ساحة

المعركة لتتشفى من قتل الحمزة. وقفت بالقرب من ساحة المعركة حتى سنحت لها فرصة رأت من خلالها الحمزة صريعا بين القتلى فذهبت إلى جثته خفية ولما وصلت لمحت نصلا من مخلفات المعركة فأخذته وبقرت به بطن الحمزة وإستخرجت كبده وأخذت تلوكها تشفيا وكفرا. ثم فرّت هاربة قبل أن يصل إليها أحد من جيش المسلمين.

فلما بلغ أمير المؤمنين عليه السلام ما فعلت هند وما تقوله من شماتة في مقتل الحمزة، حزن حزنا شديدا لما حصل لعمه ولما قامت به هند من تمثيل بجثته وشماتتها بقتله. إسترجع وقال لمن نقل له الخبر بأن الحمزة لا يضيره ما فعلت هند به فإنها مثّلت بجثة تركتها الروح وصعدت إلى عليين "ولكننا والله محزونون لذلك، فإنا لله وإنا إليه راجعون." وأنشأ يقول:

أتاني أن هند أخت صخر	دعت دركا و بشّرت الهنودا
فإن تفخر بحمزة حين ولّى	مع الشهداء محتسبا شهيدا
فإنّا قد قتلنا يوم بدر	أبا جهل و عتبة و الوليدا
و قتّلنا سراة الناس طرا	و غُنّمنا الولائد و العبيدا
و شيبة قد قتلنا يوم ذاكم	على أثوابه علقا جسيدا
فبوئي من جهنّم شر دار	عليها لم يجد عنها محيدا
و ما سيّان من هو في جحيم	يكون شرابه فيها صديدا
و من هو في الجنان يُدّر فيها	عليه الرزق مغتبطا حميدا

وبالرغم من قتل الحمزة، والذي أثّر بلا شك في معنويات المسلمين، إلا أن المسلمين واصلوا قتالهم الشرس محتسبين شهدائهم عند الله غير آبهين بإصاباتهم وبفضل عزيمتهم وتصميمهم وإيمانهم أنزلوا بالمشركين هزيمة منكرة لم يتوقعها المشركون الذين إعتقدوا بأن مقتل الحمزة سينال من عزيمة

المسلمين. لذلك لما رأى المشركون استبسال المسلمين وتصميمهم على النصر او الشهادة ولاحة الهزيمة أمام قادة جيش الشرك والضلال قرروا التراجع والهرب من ساحة المعركة ملتجئين الى الجبال للإختباء فيها علّها تحميهم من سيوف ونبال و رماح الإسلام.

لما فرّ المشركون من معسكرهم دخل المسلمون إلى المعسكر وأخذوا يجمعون الغنائم والأعتدة الكثيرة التي خلّفها الجيش المكي المنهزم. في أعلى الجبل كان هناك خمسون راميا وضعهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم قبل بدء الحرب لحماية المسلمين. فلما رأوا عملية جمع الغنائم من قبل إخوانهم من المسلمين سال لعابهم لها فتركوا قاعدتهم ونزلوا مسرعين من أعلى الجبل للمشاركة في عمليات جمع الغنائم.

إلتفت إليهم قائدهم، آمر الرماة، عبدالله بن جبير وصاح فيهم آمرا لهم بالرجوع إلى أماكنهم وعدم مغادرتها قبل أن يأذن الرسول لهم بذلك ولكنهم لم يلتفتوا لطلبه ولا لنصيحته. أخذ عبد الله يُذّكرهم بأن رسول الله أمره وأمرهم أن يبقوا في أمكانهم حتى يأمرهم هو بالنزول ولكن كل محاولات إبن جبير لم تجدي نفعا مع القوم.

لم يصغوا لقوله ولم يلتزموا بما أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم. كان همهم هو أن لا يكون نصيبهم من الغنائم أقل من نصيب زملائهم. لحداثة عهدهم بالإسلام لم يعووا حقيقة انه بعد تحقيق النصر سيقوم الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم بجمع تلك الغنائم بما في ذلك الغنائم التي تم الإستيلاء عليها وسيقسمها بالسوية عليهم وبذلك لن يستفيدوا كثيرا من تعبهم و مخالفتهم لأوامر الرسول. لحداثة عهدهم بالإسلام لم تمحى من ذاكرتهم عاداتهم في جمع الغنائم السلب والتي كانوا عليها قبل إسلامهم. مكنت تلك العادات من السيطرة على تفكيرهم واسلوبهم. سارعوا إلى ساحة

المعركة لجمع ما تصل إليه أيديهم من الغنائم وما تركه العدو خلفه من عدة وعتاد وزاد. تركوا مواقعهم وكشفوا بتلك المخالفة لتعليمات الرسول وأوامره ظهر جيش المسلمين.

لما رأى خالد بن الوليد، وكان قائدا في جيش المشركين آنذاك، ذلك أغار على المسلمين بعد أن إنكشف ظهرهم وتركوا سلاحهم من أجل جمع الغنائم. فأخذ هو وفرقته يصوبون سهامهم ونبالهم نحو المسلمين فيردونهم قتلى واحدا بعد الآخر. و رجع خالد بن الوليد بفرقته إلى ساحة المعركة مستأنفا القتال. ولما رأى المشركون ما يحققه خالد من تقدم في المعركة عادوا وإنظموا إليه وسيطروا على ساحة المعركة وأمسكوا بمفاتيح الفوز بها. فلّما رأى المسلمون ما يحل بهم وبجيشهم فروا بما حملوه من غنائم وتركوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم مع قلة قليلة أبت إلا أن تبقى مدافعة عن الرسول مؤتمرة بأمره ثابتة في الدفاع عنه. من بين أؤلئك القلة علي بن أبي طالب وأبو بكر و عبد الرحمن بن عوف و سعد بن أبي وقّاص و عبيدة بن الجراح والحبّاب بن المنذر وأبو دجانة و عاصم بن ثابت و الحارث بن الصمّة وسهل بن حنيف وسعد بن معاذ ومحمد بن مسلمة.

لا فتى إلا علي و لا سيف إلا ذو الفقار

رأى أُبي بن خلف ذلك من المسلمين فوجدها فرصة ملائمة لتحقيق وعده بقتل الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم. فهجم على الرسول يريد قتله. ولكن الرسول ضربه ضربة لم يقم بعدها. ورأى الرسول جماعة أخرى تريد النيل منه وهو مشغول يقاتل المشركين فنظر إلى علي وقال له: يا علي إكفنيهم. فحمل عليهم علي بن أبي طالب حتى فرّقهم تفريقا، قتل منهم من قتل وفر الباقون. وكذلك فعل علي مع أكثر من كتيبة جاءت لقتل الرسول. فكان

الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم كلما رأى كتيبة تقصده، وخاصة بعد أن إنكسرت رباعيته وسال الدم من رأسه وعلى وجهه، يقول لعلي عليه السلام إحمل عليهم. نظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وإذا بكتيبة مقبلة نحوه فقال لعلي: رُدّ عني هذه الكتيبة. يقول علي بن أبي طالب: فحملت عليها بسيفي أضربها يمينا وشمالا حتى ولوا الأدبار. فنظر لي رسول الله وقال: أما تسمع مديحك في السماء وأن ملكا يُقال له رضوان ينادي: لا فتى الا علي ولا سيف إلا ذو الفقار. فبكيت سرورا وحمدت الله على نعمه.

وكان جبرئيل عليه السلام يراقب ما يحصل ويرى إستماتة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وقد هزم كل من قصد النبي بالأذى فقال: إن هذه لهي المواساة. فقال الرسول: علي مني وأما منه. فقال جبرئيل: وأنا منكما.

أما ما كان من أمير المؤمنين فلم يكن له هدف سوى سلامة الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم. أخذ يحمل على القوم ويتركهم بين صريع وجريح وفار. وحول تلك المعركة وأحداثها يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

رأيت المشركين بغوا علينا ... و لجّوا في الغواية و الضلال
و قالوا نحن أكثر إذ نفرنا ... غداة الروع بالأسد الطوال
فإن يبغوا و يفتخروا علينا ... بحمزة و هو في الغرف العوالي
فقد أودى بعتبة يوم بدر ... و قد أبلى و جاهد غير آلي
و قد فللت خيولهم ببدر ... و أتبعت الهزيمة بالرجال
و قد غادرت كبشهم جهارا ... بحمد الله طلحة في المجال
فتلّ لوجهه فرفعت عنه ... رقيق الحد حُودث بالصقال
كأن الملح خالط إذ ما ... تلظى كالعقيقة في الظلال

بفضل بسالة الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم وشجاعة القلة القليلة من المسلمين الذين بقوا مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم و ي مقدمتهم أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام خاف المشركون من إنقلاب الوضع ضدهم فإكتفوا بما حصلوا عليه ورجع خالد بن الوليد إلى قواعده قانعا بما ألحقه من قتل في صفوف المسلمين وخوفا أن يتحول ما إعتقده وعدّه نصرا على المسلمين إلى هزيمة منكرة تكون هي الهزيمة الثالثة بعد الهزيمة يوم مبيت علي على الفراش والهزيمة في معركة بدر. فهرب بما تبقى من جيش لديه ورجع من حيث أتى. أما المسلمون فإنهم قاموا بدفن قتلاهم وتضميد جراح جرحاهم ثم حملوا من استطاعوا حمله و رجعوا إلى المدينة و قد نجى الله رسوله والمسلمين من هزيمة كانت على وشك الوقوع.

وبالرغم من الخسائر البشرية التي تكبدها المسلمون عناء المعركة وضرواة القتال فيها إلا أن أمير المؤمنين عليه السلام خرج من المعركة وهو يشعر بالكثير من الفخر والإعتزاز. يكفيه فخرا انه أنقذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مخططات المشركين واحبط محاولاتهم للقضاء عليه. رجع إلى منزله وسيفه ما زال يقطر دما ولما دخل داره سلّمه إلى زوجته فاطمة الزهراء عليها السلام وقال لها: إغسلي عنه الدم فوالله لقد صدقني اليوم ثم أنشأ:

أفاطم هاك السيف غير ذميم	فلست برعديد و لا بلئيم
أفاطم قد أبليت في نصر أحمد	و مرضاة رب بالعباد رحيم
أريد ثواب الله لا شيئ غيره	و رضوانه في جنة و نعيم
و كنت أسمو إذا الحرب شمرت	و قامت على ساق بغير مليم
أممت بن عبد الدار حتى ضربته	بذي رونق يفري العظام صميم
فغادرته بالقاع فإنفض جمعه	عباديد من ذي قانط و كليم

و سيفي بكفي كالشهـــاب أهـزه		أحز به من عاتق و صميـم
فما زلت حتى فض ربي جموعهم		و أشفيت منهم صدر كل حليـم

بعد أيام من إنتهاء معركة أُحد عرف المشركون بأنه بالرغم من أنهم كانت لهم الغلبة على جيش الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في بعض فترات المعركة وأنهم كبّدوا معسكر الرسول أكثر من سبعين قتيلا على رأسهم عملاق الشجعان الحمزة بن عبد المطلب وأن عدد قتلى جيش الرسول يفوق عدد قتلاهم يوم بدر وهو ما عدّوه إنتقاما لقتلامهم في بدر، إلا ان ذلك النصر كان باهت اللون، لا رائحة ولا طعم ولا قيمة حقيقية له. فإذا أضافوا ما قتل وجرح واسر منهم يوم أُحد إلى ما قُتل وجرح واسر منهم يوم بدر فاق عدد ضحاياهم عدد ضحايا جيش المسلمين. صحيح أن معسكر الرسول خسر بطلا وهو الحمزة ولكنهم، وكما بيّن أمير المؤمنين عليه السلام، خسروا أكثر من بطل من شجعانهم بل خسروا أكثر أبطالهم وفوارسهم. كما أن اهدافهم التي وضعوها وعلى رأسها القضاء على الرسول و رسالته، لم يتحقق ولا حتى جزء بسيط منها. هدفهم الأساسي من وراء شن الحرب كان قتل الرسول وكبار معاونيه وخاصة علي بن أبي طالب والقضاء على الدولة الإسلامية والدين الإسلامي. وكل هذه الأهداف، وبالرغم من الخسائر البشرية التي لحقت بالجيش الإسلامي إلا أنها ما زالت قوية متماسكة وفي صورة وحالة هي أقوى من ما كانت عليه سابقا، قبل تلك الحرب. لقد زاد عداء المشركين للدولة الإسلامية وتربصهم بها وحربهم عليها من قوة وعزيمة وتصميم المسلمين ومنح الدولة الإسلامية المزيد من قواعد ومقومات البقاء والديمومة.

نظر المشركون حولهم فوجدوا بأنهم ربما ربحوا معركة أو جزءا منها ولكنهم بكل تأكيد لم يربحوا الحرب ضد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وضد دولته، ولم يحققوا أمانيهم وأهدافهم وما طمحوا فيه من إنتقام. فقرروا التخطيط مجددا لحرب أكثر ضراوة وشراسة ضد جيش الرسول صلى الله

عليه وآله وسلم تكون هي القاصمة، حسب رأيهم. فأخذوا يفكرون في حجم وعدد وقوة وكيفية الحرب القادمة.

علموا بأن هناك قبائل خارج مكة تشاركهم أمنيتهم الرئيسية وهي القضاء على محمد صلى الله عليه وآله وسلّم. وقد خاض بعض تلك القبائل معارك وصدامات حربية وإعلامية مع الرسول وفاز الرسول عليهم في كل تلك الصدامات والمواجهات، مما خلق عندهم حالة من الحقد على الرسول تماثل تلك الحالة التي يعيشها مشركوا قريش. وأصبحت تلك القبائل موتورة ومتربصة بالرسول تتمنى الإنتقام منه في أسرع وقت ولا يهمها ما تدفعه من ثمن في سبيل ذلك. فقرر مشركوا قريش اللجوء إلى تلك القبائل ودعوتها للمشاركة في تجهيز جيش كثير العدد و قوي العدة ليقاتل الرسول وأتباعه وينتقم و يثأر لقتلى الطرفين.

على الجانب الآخر كان هناك اليهود الذين عاهدوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم مرارا ونقضوا عهودهم بعد ذلك مما إضطر الرسول إلى تلقينهم دروسا لنقضهم العهود وجعلهم يدفعون ثمن طغيانهم ونقضهم للعهود والمواثيق. هؤلاء أيضا فكّروا في نفس ما فكّر به الجيش القرشي و هو الإنتقام من الرسول.

في السنة الخامسة للهجرة قرر اليهمود إرسال وفود منهم إلى العرب المشركين يدعونهم إلى مشاركتهم الحرب على رسول الله. وإختاروا لهذه المهمة أفضل شجعانهم و متحدثيهم مثل حيي بن أخطب وكنانة بن الربيع وسلاّم بن أبي الحقيق ليتمكنوا من إقناع عرب قريش ومكة والحجاز بصفة عامة بالإنضمام إلى الجيش المقترح. ولما وصلت وفود اليهود إلى مكة ذهبوا إلى بيت زعيم المشركين أبي سفيان وإجتمعوا به و بممثلي قريش و دعوهم إلى قتال الرسول. وكانت المفاجأة بالنسبة لهم. لقد هالهم رد قريش الإيجابي

وموافقتهم الفورية على الإشتراك في حرب الرسول حتى قبل أن يشرح اليهود لهم الهدف والمردود الذي ينشدونه من تلك الحرب. لم يحتاج أعضاء الوفد اليهودي لتفعيل مقدرتهم على الخداع والمكر والتي من أجلها تم إختيارهم هم بالذات لهذه المهمة. فقد وجدوا أن قريش ليست بحاجة للدعوة للحرب، فذلك موقف إتخذته وقررت المضي في تنفيذه منذ مدة. كما أنها ليست في حاجة للدعوة للإنضمام إلى جيش اليهود لأن ذلك أيضا قرار إتخذ قبل وصول وفود اليهود إليهم، وأنه لو تمهل اليهود أياما قليلة لقامت قريش بنفسها بدعوتهم إلى نفس العمل و الغرض.

وافقت قريش على الإنضمام إلى الجيش اليهودي ووعدت بحشد أربعة آلاف مقاتل بقيادة أبي سفيان نفسه. فقام الوفد اليهودي من عندهم محققا ما جاء من أجله متفقا مع قريش على تحديد موعد الحرب لاحقا. و في طريق العودة مرّ الوفد اليهودي بقبائل عربية وثنية أخرى ولما عرضوا عليهم الإنضمام إلى الجيش المعد لم يترددوا هم الآخرون في قبول الدعوة، خاصة بعد أن علموا بقبول قريش لها. فوعدتهم غطفان بألف من الشجعان بقيادة عيينة بن حصن وكذلك فعلت بنو فزارة و بنو مرة وغيرهم. وما رجع الوفد اليهودي إلى بلاده إلا وقد تمّكن من حشد جيش قوامه أكثر من عشرة آلاف مقاتل تجّمعوا في جيش واحد عرف بجيش الأحزاب.

وصل خبر جيش الأحزاب إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم. فقرر كعادته عند حدوث مثل هذه التطورات والمناسبات أن يدعو قادة الدولة ورؤساء أركانها إلى إجتماع لبحث ذلك التطور. فلما إجتمع قادة المسلمين أخبرهم الرسول بنية المشركين وأن المشركين والوثنيين واليهود قد جهّزوا جيشا كبيرا لمحاربة الإسلام والمسلمين. وكما توقع الرسول لم يرتعد المسلمون و لم يخّوفهم ما سمعوا بل زادهم ذلك إيمانا وتصميما على حماية الدولة الإسلامية ورئيسها. فجعلوا يعملون تفكيرهم في الأمر و يبدون آراءهم والرسول يستمع

إليهم بحنكة القائد وحس الأب الرحيم وديمقراطية القائد الحر. فتقدم سلمان الفارسي (المحمدي) بإقتراح إلى رسول الله مفاده أن يُحفر حول المدينة خندقا يحميها من هجوم الأعداء ويجعلها عصّية عليهم. إستحسن الرسول الفكرة وعرضها على المسلمين فأبدوا موافقتهم عليها. فأقرها رسول الله وأمر بتنفيذها فورا. فقام أكثر من ثلاثة آلاف رجل بحفر خندق حول المدينة وبعد ستة أيام كانت المدينة محمية بذلك الخندق. وأخذ جيش الرسول يعد العدة لقتال القوم وينهي إستعدادته لمواجهتهم.

سار جيش المشركين والوثنيين واليهود نحو المدينة ولما وصلوها تفاجأوا بالخندق، وهو أمر لم يدر ببالهم. داروا حول المدينة فوجدوها محّصنة ممتنعة عليهم. جلس زعماؤهم وقادتهم يفكرون فيما يتوجب عليهم فعله. فإستقر رأيهم على أن يضربوا حصارا حول المدينة يمنعون الدخول إليها والخروج منها مهما كان السبب و يمنعون وصول المؤونة و الغذاء أيضا.

وكان ضمن صفوف الحيش الإسلامي من هم حديثوا عهد بالإسلام لم يتمكن الإيمان بعد من قلوبهم. فلما رأووا حصار القوم لهم أرجفوا وخافوا ودب الرعب في نفوسهم. ولم يحتفظوا بخوفهم لأنفسهم بل أخذوا ينشروا خوفهم وجبنهم في صفوف المسلمين التي لم تخلُ من المنافقين ومن يعبدون الله على حرف. وأخذ الناس يُجّبن بعضهم بعضا، إلا قليلا منهم ويتسللون من معسكر جيش المسلمين فرادى ومجموعات. بعضهم يستأذن النبي ويتذرع بحجج واهية وملّفقة وبعضهم يفر من غير إستأذان. وصلت حالتهم النفسية إلى أدنى مستوياتها لدرجة أن بعضهم شكك في قدرة الله على نصرهم، كما يخبرنا عن حالهم القرآن الكريم في سورة الأحزاب: ﴿ إِذْ جَاؤُوكُم مِنْ فَوْقِكُم وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُم وَ إِذْ زَاغَت الأَبْصَارُ وَ بَلَغَت القُلُوبُ الحَنَاجِر وَتَظُنُّونَ بِالله الظُنُونَا× هُنَالِكَ إِبْتُلِيَ المُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيْدا× وَإِذْ يَقُولُ المُنَافِقُونَ وَالذِّين فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا الله وَرَسُولَهُ إِلاَّ غُرُورَا× وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ

مِنْهُم يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُم، فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِي يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَة إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا. ﴾

وتفاقم الوضع النفسي عند عناصر الجيش الإسلامي وخاصة لما رأوا عمرو بن عبد ود، وهو أشجع فرسان عصره، وضرار بن الخطاب وعكرمة بن أبي جهل وقادة معروفين غيرهم قد تمكنوا من عبور الخندق إلى الضفة التي بها الجيش الإسلامي خارقين السد الذي شُيّد لحماية المدينة والجيش الإسلامي. إنتابهم الرعب وتوقعوا بأن يعبر باقي الجيش الغازي من النقطة التي عبر منها عمرو بن ود و زملاؤه. فلما رأى أمير المؤمنين عليه السلام وإخوانه من المؤمنين المخلصين حالة ضعاف النفوس والإيمان من المسلمين قرروا أن تكون لهم كلمة في الوضع. فأخذوا يبدون فرحتهم بقرب الفوز بإحدى الحسنيين النصر على المشركين أو الفوز بالشهادة والذهاب إلى الجنة التي أعدّها الله لعباده المتقين. وهم كما وصفهم الله سبحانه وتعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَلَمَّا رَأى المُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا الله وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ الله وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُم إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْليما× مِنَ المُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا الله عَلَيهُ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَه وَمِنْهُم مَنْ يَنْتَظِر وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا. ﴾

بعد أن شاهد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وقع جرأة عمرو بن عبد ود على نفوس المسلمين قام من وقته وأخذ معه ثلة من المؤمنين الأقوياء عقيدة وشكيمة وذهبوا جميعا إلى الثغرة التي أحدثها عمرو في الخندق، خط الدفاع للجيش الإسلامي، و رابط هو و رفاقه عند تلك الثغرة ليمنع من تُسّول له نفسه عمل ما عمله عمرو وليحاصر عمرو ويقطع عنه أي إتصال بجيشه. ولما وصل إلى تلك الثغرة صفّ جنوده وعمل منهم سدّا بشريا منيعا. فلما رأى المسلمون ذلك زال بعض من خوفهم وعلموا أنه إذا كان في صفوف جيش المشركين شجعان وأصحاب جرأة وإقدام مثل عمرو بن عبد ود فإن الجيش الإسلامي هو الآخر لا يفتقر إلى الشجعان ومن يتمتعون بالجرأة والإقدام مثل

علي بن ابي طالب. أما المشركون فقد تخلوا عن فكرة عمل ما عمله عمرو ووقفوا ينتظرون ما سيؤول له الأمر.

يحارب ويجاهد ويسالم في الله ولله

لمّا رأى عمرو بن ود ذلك خشي على قومه الإرباك و الضعف. فقرر أن يضع حدا لأثر الضربة الإستراتيجية التي وجهها علي بن أبي طالب له ولخططه. فجال بفرسه أمام القوم متحديا المسلمين قائلا: هل من مبارز؟ وجعل يكرر هذا النداء ثلاثا ولم يجرؤ أحد من إجابته. فأخذ يتبجح ويقول:

و لقـــــد بححت من النـداء — بجمعكـم هل من مبـارز
و وقفت إذ جبُـن الشجـــاع — بموقـف القـرن المناجـز
إنــي كـــذلك لـــم أزل — متسّـرعا نحـو الهزاهـز
إن الشجـــاعـة و السماحـة — في الفتــى خير الغرائـز

فلما رأى علي بن أبي طالب ذلك حزّ في نفسه تلكؤ المسلمين فقرر أن يوكل قيادة مركزه إلى أحد مساعديه ويذهب للقاء الرجل. استأذن علي عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المبارزة فأذن له. تقدم الى عمرو ودعاه للنزال قائلا:

يـا عمـرو ويحك قد أتـــاك — مُجيب صـوتك غير عاجـز
ذو نيـــة و بصيـــــرة — و الصـدق منجي كل فائـز
و لقد دعـوت إلـى البـــراز — فتى يجيـب إلى المبـارز
يعليـــك أبيض صـارما — كالملـح حتفـــا للمبـــارز
إنـي لأرجـــوا أن أقيـــم — عليـك نائحـة الجنائـز
مـن ضـــربة نجـلاء يبـ — قى صيتهـا عنـــد الهزائز

فقال عمرو في صلف وكبرياء: "لماذا تعرض نفسك للقتل. فوالله ما أُحب أن أقتلك." فقال له علي: "ولكني والله أحب أن أقتلك." غضب عمرو من رد علي و قال: "لك ذلك." فتنازلا وإقتتلا طويلا وما إتقشعت غبرة المعركة إلا وعمرو ملقى على الأرض يخور في دمه. فلما رأى عمرو أمير المؤمنين يقترب منه ليقضي عليه سبّه وكشف عن عورته. فتركه الإمام أمير المؤمنين يغتصب نفسه فليس من أخلاقه أن يجهز على جبان وصل به الجبن كشف عورته لينجو بحياته أو يُجهز على شخص شتمه لأنه إن قتله قد يبدوا الأمر بأنه قتله ليثأر لنفسه بعد شتمه، وهو الذي ما قاتل إلا لله و في سبيل الله. وها هو يعبر عن ذلك الموقف فيقول:

عبد الحجارة من سفـــــاهـة رأيه — و عبـدت ربّ محمـد بصـواب
فضربتـه و تركــــــــته مُتجـدلا — كالجذع بين دكادك و روابـي
و عففت عـــن أثوابه و لـو أنـــــني — كُــنت المُقطّر بزّني أثوابـي
لا تحســـبن الله خـاذل دينـــــه — و نبيــــه يا معشـر الأحـزاب
أعلـــيّ تقتحـم الفـــوارس هكـذا — عنهـم و عنـــي خبّروا أصحابـي
فاليوم تمنعنـي الفـــــرار حفيطتـي — و مصمـم في الـرأس ليس بنابـي
عـرف بن عبد ود حين أبصرصـــارما — يهتـز و أن الأمـــــر غيـر لعـاب
أرديت عمـرا إذ طغـى بمهنـــــــــد — صـافي الحديد مهـذب قضّـاب

رجع أمير المؤمنين عليه السلام إلى مقدمة معسكر المؤمنين بعد أن ترك بن ود يعالج سكرات الموت فإستقبله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إستقبال الأبطال وكبّر لنصر الله وكبّر المسلمون بتكبيرته. وهجم المسلمون على الجيش الغازي الذي أصابه الوهن بمقتل أشجع شجعانه وهزموهم شر هزيمة وكفى الله، بعلي بن أبي طالب، المؤمنين القتال.

بعد أن رجع جيش الشرك و الوثنية واليهودية على عقبيه خائب المسعى وخائر القوى، رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم أن يُلّقن اليهود درسا لن ينسوه. علم بأن السماحة والعفو لا تجدي مع قتلة الأنبياء ومثيري الفتن وناكثي العهود والمواثيق. لقد عقد معهم عهدا لم يوجد عهد في سماحته وتسامحه لا قبله و لا بعده، ولا حتى في أيامنا هذه. فمما ورد في عهد الرسول صلى الله عليه و آله و سلم لليهود: "ألا وإن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة (المساواة) غير مظلومين ولا متناصر عليهم. وإن يهود بني عوف أمة من المؤمنين. لليهود دينهم و للمسلمين دينهم. تصان مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه. و ليهود بني الحارث ويهود بني ساعدة ويهود بني جشم ويهود بني الأوس ويهود بني ثعلبة ولجفنة ولبني الشطة (و كلهم قبائل يهودية) مثل ما ليهود بني عوف. وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم. وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم."

وتلك وثيقة لم يكن اليهود ليحلموا بمثلها أبدا. لم يحصلوا على مثلها من قبل ولن يحصلوا ابدا. لقد منحتهم تلك الوثيقة وتلك المعاهدة حرية العبادة وصانت دماءهم وأموالهم ومنحتهم نفس الحقوق التي يتمتع بها المسلمون. ولكن المعروف لا يقدّره إلا من هو أهل له وبالتأكيد قتلة الأنبياء ليسوا بأهل له. فهم أمة، وكما وصفهم الله سبحانه وتعالى في كتابه المجيد، يخونون ولا يحترمون العهود والمواثيق. مذهبهم الفساد والإفساد. القتل والغدر عادتهم والفتنة سياستهم والفساد معاملتهم. لقد كانوا يرون، وكما هم إلى الآن، في المناخ الفوضوي والقبلي والجاهلي السائد في شبه الجزيرة العربية مرتعا خصبا لتجارتهم و نفوذهم. يرون بأن اي تغيير او تطوير لذلك المجتمع، و هو ما كان ينشده رسول الله صلى الله عليه وآله سلّم والإسلام، من شأنه حرمانهم من بيئة طيعة وسهلة تضاعف تجارتهم ونفوذهم. لم يكونوا يأبهون

بحرية العقيدة والديانة والتعايش السلمي الذي توفره لهم معاهدة الرسول. ما كان يهمهم هو عدم الوقوف أمام ممارساتهم الفاسدة والمفسدة. كانوا يأملون ويتمنون لو ان الرسول حارب العقيدة التي نسبوا انفسهم لها زورا و بهتانا ولم يحارب فسادهم وآثامهم وممارساتهم الإجرامية والمدمرة. أما ان يقف ضد انشطتهم الإجرامية فذلك أمر لا يمكنهم التغاضي عنه.

ومما زاد من شكيمة وتصلب وعناد يهود خيبر لجوء يهود بني قريضة إليهم وطلب حمايتهم من عقاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لهم. فبعد معركة الأحزاب قرر الرسول أن ينزل بهم عقابا صارما لخرقهم للمعاهدة التي أبرموها معه وإنظمامهم لجيش الأحزاب في إعلان الحرب على الإسلام والمسلمين، وهو أمر تعهدّوا أن لا يقوموا به. كان لا بد من توجيه صفعة لهم تردعهم وتمنعهم من تكرار خيانتهم وتجبرهم على احترام العهود والمواثيق. فما كان من الرسول إلا ان ارسل لهم كتيبة تُلّقنهم الدرس وتجعلهم يدفعون من دمائهم وأموالهم وممتلكاتهم ثمنا باهضا لخرقهم العهد ولتجييشهم الجيوش ضد المسلمين. فهربوا خوفا من القصاص وإلتجأوا إلى يهود خيبر يطلبون منهم العون والمساعدة. فتركهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنهم دخلوا في حماية يهود خيبر.

لكن اليهود هم اليهود. لم يراعوا إتفاقا ولا عهدا. إتفق يهود خيبر ومن دخل في حمايتهم وحلفهم من يهود بني قريضة على الإنتقام من المسلمين وذلك عن طريق التعرض لقوافل المسلمين التجارية وسلبها و قتل من فيها. فلما علم الرسول بأفعالهم أرسل لهم رسلا تُذّكرهم بالعهد الذي بينهم وبين المسلمين والذي ينص على إحترام وتأمين الخطوط والطرق التجارية والمدنية وعدم التعرض بسوء لمستخدمي تلك الطرق وعلى عدم إعانة ومساندة ودعم من يقوم بمحاربة طرف من الأطراف المّوقعة على صحيفة المعاهدة.

رجل يحب الله و رسوله و يحبه الله و رسوله

لم يكترث يهود خيبر برسل الرسول ولم يلتزموا بما عاهدوا الله و رسوله عليه. نبّههم الرسول إلى خطورة خرقهم للمعاهدة ومردودات ذلك الخرق عليهم. لكن كل محاولات الرسول لجعلهم يلتزمون بتعهداتهم ومواثيقهم التي قطعوها على أنفسهم باءت بالفشل. غرورهم دفعهم الى الإعتقاد بأن حصونهم المنيعة التي يتحصنون بداخلها ستحميهم من اي محاولة لملاحقتهم والقصاص منهم. ولما تأكد للرسول بأن يهود خيبر إعتبروا جنوحه للسلم و حل النزاعات بالطرق السلمية عجزا وضعفا منه خاصة بعد سلسلة الحروب التي خاضها وعرف أن أولئك القوم لا يفهمون إلا لغة واحدة وهي لغة السيف، عزم الرسول على أن يُلّقنهم هم أيضا درسا أسوة بأخوتهم بني قريضة، خاصة بعد أن أصبحوا يشكلون خطرا على أمن وسلامة الدولة الإسلامية وعلى حقوق وحريات المسلمين و المعاهدين الدينية و المدنية و الإقتصادية.

و لمرض الوزير الأول علي بن أبي طالب وملازمته الفراش نتيجة للمرض الذي بلي به كلّف الرسول صلى الله عليه وآله و سلّم قائدا آخر بإختيار أفضل عناصر الجيش الإسلامي. فجمع ذلك القائد حوالي ألف وستمائة مقاتل وأخبر الرسول بذلك. وفي اليوم التالي تحرك الرسول تصحبه تلك النخبة سائرا نحو الحصون. وبعد مسير ثلاثة أيام وصل إلى حصون خيبر ليلا. فأمر جيشه بالنزول حول الحصون فنزلوا وأقاموا معسكرهم.

في الصباح خرج سكان الحصون كعادتهم إلى أعمالهم ومتاجرهم ومزارعهم وإذا بهم يفاجأون بجيش الرسول محاصرا للقصور من كل ناحية. فرجعوا بسرعة إلى داخل الحصون وأخبروا زعمائهم وقفّلوا أبواب الحصون وأحكموا أقفالها. طال الحصار نتيجة لوجود مخزون وافر من المئوونة عند

اليهود، وكأنهم أعدوا أنفسهم لمثل ذلك الموقف. فلما رأى الرسول ذلك قرر البدء في المعركة والهجوم على اليهود داخل حصونهم وفتحها. فأعطى الراية إلى أحد قادته وتوجه ذلك القائد نحو أحد الحصون ويقال له "حصن ناعم" لكنه سرعان ما عاد من دون أن يستطيع فتحه أو حتى تحقيق نصر عسكري على اليهود. و هكذا فعل الرسول في اليوم الثاني والثالث والنتيجة هي نفسها كما كانت في اليوم الأول وفي المحاولة الأولى ومع القائد الذي أرسل أولا. لم يتكن أحد ممن أرسلهم من فتح الحصون إختراق تحصينات اليهود.

تسلل اليأس إلى عناصر الجيش الإسلامي وأصبح الرسول في وضع لا يحسد عليه. فهو من ناحية لا يستطيع أن يستمر في حصار القوم إلى ما لا نهاية ولا حتى إلى فترة أطول من الفترة التي مضت. فجيشه هو الآخر يحتاج إلى مؤونة وتزويد. ومن ناحية ثانية بعث أشجع فرسانه لكي يفتحوا الحصون ولكنهم عادوا خائبين. ومن ناحية ثالثة لا يستطيع أن يقود فرقة من الجيش ويذهب لفتح الحصون بنفسه ويترك باقي الجيش بدون قائد، فقد أثبت القوم عدم أهليتهم لتولي القيادة في غياب الرسول. ولا من الحكمة أن يذهب بكل الجيش إلى جهة واحدة من الحصن ويترك باقي الجهات من غير حراسة. وضع معقّد حلّه الوحيد يكمن في وجود ممثل كفؤ لرسول الله يكون في القوم كرسول الله فيهم. ولكن ذلك الممثل غير موجود في ذلك الوقت وفي ذلك الموقع.

جلس الرسول بين أصحابه وقد أصابهم اليأس. وبعد فترة من التفكير في الوضع منّ الله عليه بالحل فنظر إلى أصحابه مبتسما وقال لهم: "لأعطين الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، كرار غير فرار." إنفرجت أسارير القوم وأخذوا يتحدثون ويتساءلون عن من هو ذلك الرجل الذي عناه الرسول صلى الله عليه وأله وسلّم.

أما الرسول صلى الله عليه و له وسلّم لما كان الصباح أرسل من يأتيه بعلي بن أبي طالب. يروي الشيخان البخاري ومسلم عن سهل بن سعد انه قال: "فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، كل واحد منهم يرجو أن يعطاها. فقال الرسول: أين علي بن أبي طالب؟ فقالوا هو يا رسول الله يشتكي عينيه. فقال: أرسلوا إليه يأتي. فأتي به ولما قرب من رسول الله بصق الرسول في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به مرض. فأعطاه الراية وقال له سر على بركة الله. فقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال الرسول: أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم. ثم إدعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق لله. فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم."

وكان في معسكر الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم حسان بن ثابت، شاعر الرسول، فلما رأى ما صنع الرسول إستأذنه في أن يقول شعرا بالمناسبة. فأذن رسول الله له فقال:

و كــــان علي أرمد العين يبتغــي	دواء فلما لم يحس مداويـا
شفاه رســـول الله منه بتفلـــة	فبورك مرقيّـا و بورك راقيـا
و قـال سأعطي الراية اليوم صارمـا	كميّا محبا للرسول مواليـا
يُحــب إلهـــي و الإله يحبـــه	به يفتح الله الحصون الأوابيـا
فـــأصفى بها دون البرية كلهـا	عليا و سمّاه الوزير المؤاخيـا

يروي من كان مع علي عليه السلام في تلك الفرقة التي ذهبت لفتح الحصون بقيادته ومنهم سلمة الأكوع وأبو رافع وغيرهم من أن عليا لما دنى من الحصن خرج إليه بعض من أهله يعتقدون بأنه كسابقيه ممن بعثهم رسول الله. ولكن خاب أملهم. تصّدى لهم الإمام حتى أفنى معظمهم و هرب الباقون خوفا من القتل إلى داخل حصنهم وأقفلوا بابه. فأخبروا فارسهم الأول وقائد شجعانهم مرحبا بالأمر. فأرسل أحد شجعانه مع بعض أفراد الجيش لرد

ذلك الذي تجّرأ وتقدم يريد فتح حصونهم. ما إن فتح الباب وإلا بالإمام علي أمامه. فنشبت بينهما معركة حامية فقد فيها الإمام علي ترسه فمد يده إلى باب في الحصن فقلعه وجعل منه ترسا يحامي به عن نفسه و واصل القتال حتى قضى عل ذلك البطل اليهودي وفر الباقون لداخل الحصن. يقول رافع: "بعد أن فر اليهود إلى داخل الحصن رأيتني في نفر سبعة معي أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه."

فلما رجعوا إلى داخل الحصن ذهبوا وأخبروا قائدهم مرحب بالأمر وما كان من الرجل الذي يحاول فتح الحصن. لم يصدّق ما سمع لأن غروره دعاه للإعتقاد بأن ليس على وجه الأرض من هو أشجع ولا أقوى منه. فلبس لامة حربه وذهب في ثلة من أتباعه ومعاونيه إلى الباب. فتح الباب وأخذ يرتجز معتدا بنفسه قائلا:

قـــــد علمت خيبر أني مرحب ... شاكي السلاح بطل مجـرب
أطعـــــن أحيانا و حينا أضرب ... إذا الليـوث أقبلـت تلتهـب

وإذا به أمام أسد الله وأسد رسوله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. ويفاجأه الإمام برد لم يعهده من قبل من أحد:

أنا الذي سمتني أمي حيـــــدره ... ضرغام آجام و ليث قسورة
عبل الـــذراعين شديد القصـره ... كليث غابات شديد المنظـرة
أكيلكم بالسيف كيــــل السندرة ... أضربكم ضربا يبين الفقـرة
و أتـــــرك القرن بقاع جـزرة ... أضرب بالسيف رقاب الكفـرة
ضرب غلام ماجد حـــــزورة ... من يترك الحق يقّوم صعره
أقتل منكم سبعة أو عشـــــرة ... فكلكـم أهل فسوق فجـرة

وابتدأت المعركة بين مرحب والإمام أمير المؤمنين واشتدت واستمرت لساعات طويلة والإثنان في مجابهة بعضهما البعض ولسرعة حركة ودوران فرساهما في الميدان ثارت غبرة حجبتهما عن معسكريهما. فلم يعد بإمكان أي من المعسكرين رؤية صاحبه. وبعد فترة طال إنتظارها، خاصة من قبل معسكر الرسول، أخذت الغبرة تنقشع شيئا فشيئا مبدية أمير المؤمنين في وجهه علامات النصر ومرحب مجندل في المعركة.

رجع أمير المؤمنين إلى رسول الله راجيا أن يكون قد قدّم ما يرضى الله و رسوله. إستقبله رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم و قال: "لو لا أن يقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم لقلت فيك اليوم قولا لا تمر بملإ إلا أخذوا من تراب رجليك و من فاضل طهورك فيُشفون به ولكن حسبك أن تكون مني و أنا منك و أنت مني بمزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي."

الشمعة الثانية عشرة
وارث علم الرسول و المبين لأمته ما إختلفت فيه من بعده

رسم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لنفسه خطا ثابتا واضحا أناره وزيّنه بأخلاق القرآن والسيرة النبوية الشريفة وألزم نفسه السير على ذلك الخط. شرب من النبي صلى الله عليه وآله لغة ومعاني القرآن وعرف العبودية الحقيقية لله فأبى إلا أن يكون أفضل عباده وأقربهم اليه، بعد رسول الله. وما جوابه لسؤال الرسول صلى الله عليه وآله و سلّم عن النعم إلا شرحا منهجيا لذلك الخط الذي إختطه لنفسه عليه السلام.

يروي السيد محسن الأمين رضوان الله عليه نقلا عن مناقب ابن شهراشوب عن ابن عباس رضي الله عنه أن أُبي بن كعب قرأ مرة عند رسول الله صلى الله عليه وآله و سلّم: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ فقال النبي لقوم عنده وفيهم أبو بكر وأبوعبيدة وعمر وعثمان وعبد الرحمن وعدد آخر من كبار الصحابة: ما هي أول وآخر نعمة أسبغها الله عليكم وبلاكم بها. فجعل بعضهم يذكر نعمة المعاش وآخر الرياش وثالث ذكر نعمة الذرية ورابع الأزواج إلى غير ذلك من متاع الدنيا. فلما أمسكوا عن الكلام بعد أن قال كل ما عنده وابدى كل واحد منهم جوابه إلتفت النبي صلى الله عليه وآله وسلّم إلى أمير المؤمنين عليه السلام وإذا يقرأ في وجهه نظرة الإستئذان من الرسول بأن يقول رأيه الذي ابى ان يبديه إلا بعد ان يقول القوم مقالتهم ويأخذوا دورهم في الحديث و بعد ان يأمره الرسول بذلك. فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قل يا أبا الحسن.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: "أول نعمة علي أن خلقني ولم أكن شيئا مذكورا ثم أحسن إلي فجعلني حيا لا ميتا وأن أنشأني له الحمد في أحسن صورة وأعدل تركيب وأن جعلني متفكرا واعيا لا أبله ساهيا وأن جعل لي مشاعر أدرك بها ما ابتغيت وجعل في سراجا منيرا وأن هداني لدينه ولم يُضلني عن سبيله وأن جعل لي مردا في حياة لا إنقطاع لها وأن جعلني مالكا لا مملوكا وأن سخّر لي سماءه وأرضه وما فيهما وما بينهما من خلقه وأن جعلني ذكرا قوّاما على حلائله لا أنثى."

وكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم كلما ذكر علي نعمة من نعم الله عليه يقول: صدقت يا أبا الحسن. وبعد أن أكمل أمير المؤمنين ذكره لنعم الله قال له الرسول: وما ذا بعد ذلك؟ فقال أمير المؤمنين: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها. فتبسم رسول الله و قال: ليهنئك الحكمة و العلم يا أبا الحسن، أنت وارث علمي و المبين لأمتي ما إختلفت فيه من بعدي.

هكذا كان أمير المؤمنين عليه السلام ينظر إلى موقعه من الخالق. موقع المدين بدين لا يمكنه سداده مهما بذل في سبيل ذلك من جهد و وفاء. شكر الله الذي خلقه من العدم وهو القادر على أن لا يخلقه، وأعطاه الروح ولم يجعله يسقط من بطن أمه ميتا كما يحدث لبعض الأجنة، وأنشأه في أحسن وأتم صورة ولم يجعله معاقا كما يحدث لبعض خلقه، ومن عليه بنعمة العقل ولم يجعله من غير عقل، وهداه للإيمان ولم يزغ قلبه، وجعله حرا لا عبدا كما هو الحال مع بعض خلقه، وأن خلق له وسخر له كل ما في السماوات والأرض من حيوانات وطيور وأشجار وأسماك وغير ذلك من الكائنات وأن جعله ذكرا أمره في يده ولم يجعله أنثى أمرها في يد غيرها.

عرف خالقه فأخلص له وعرف فضل خالقه عليه فأخذ على نفسه

عهدا بأن يفي تلك النعم حقها من الشكر وأن يُسّخر تلك النعم في مرضاة الله ومصلحة عباده. فها هو في إحدى خطبه البليغة والمعروفة بخطبة الأشباح، بعد أن وصف الله و بديع خلقه بما هو أهله، يقول:

"اللهم أنت أهل الوصف الجميل والتعداد الكثير، إن تُؤّمل فخير مؤّمل وإن تُرج فأكرم مرجو. اللهم وقد بسطت لي فيما لا أمدح به غيرك ولا أثني به على أحد سواك ولا أوّجهه إلى معادن الخيبة ومواضع الريبة وعدلت بلساني عن مدائح الآدميين، والثناء على المربوبين المخلوقين. اللهم ولكل مُثن على من أثنى عليه مثوبة من جزاء أو عارفة من عطاء وقد رجوتك دليلا على ذخائر الرحمة وكنوز المغفرة. اللهم وهذا مقام من أفردك بالتوحيد الذي هو لك ولم ير مستحقا لها المحامد والممادح غيرك و بي فاقة إليك لا يُجبر مسكنتها إلا فضلك ولا ينعش من خلتها إلا منّك وجودك. فهب لنا في هذا المقام رضاك وأغننا عن مدّ الأيدي إلى سواك إنك على كل شيء قدير."

ولم يبخل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على الناس بما عنده من معرفة حقيقية لله سبحانه و تعالى. بل دعاهم لمشاركته طريقة عبادة ربه والسير معه على الطريق الذي إختطه لنفسه بعد ان عرف حقيقة وسبب وجوده والنعم التي أغدقها الموجد عليه والتي تستحق الشكر وفاء للمنعم وضمانا للديمومة. بين لهم خطا ان هم سلكوه فمن شأنه أن يوصلهم إلى مرضاة خالقهم وينير دربهم ويسعدهم في محياهم وآخرتهم. ففي جمع من أصحابه يخطب فيهم قائلا:

"إن أفضل ما توسّل به المتوسلون إلى الله سبحانه وتعالى الإيمان به وبرسوله والجهاد في سبيله فإنه ذروة الإسلام. وكلمة الإخلاص فإنها الفطرة. وإقام الصلاة فإنها الملة. وإيتاء الزكاة فإنها فريضة واجبة. وصوم شهر رمضان فإنه جنة من العقاب. وحج البيت وإعتماره فإنهما ينفيان الفقر

ويرحضان الذنب. وصلة الرحم فإنها مثراة في المال ومنسأة في الأجل. وصدقة السر فإنها تُكّفر الخطيئة. و صدقة العلانية فإنها تدفع ميتة السوء. وصنائع المعروف فإنها تقي مصارع الهوان. أفيضوا في ذكر الله فإنه أحسن الذكر وإرغبوا فيما وعد المتقين فإنه أصدق الوعد، وإقتدوا بهدي نبيكم فإنه أفضل الهدي وإستنوا بسنته فإنها أهدى السنن. وتعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص فإن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله بل الحجة عليه أعظم والحسرة له ألزم وهو عند الله ألوم."

ثم يُتبع ذلك ببيتين من الشعر يختزل فيهما كل ما قاله في تعريف التقوى والمتقين وأهميتهم ومكانتهم في الإسلام، فيقول:

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه	فلا تترك التقوى إتكالا على النسب
فقد رفع الإسلام سلمان فارس	و قد وضع الشرك الشريف أبا لهب

حاسب نفسه محاسبة دقيقة بحيث جعلها تجود بما تملك وتُغمض عينها عمّا هو بيد غيرها. وأقسم على أن يختار لها ما لا يطمع فيه غيرها. فقال: "والله لئن أبيت على حسك السعدان مسهّدا، أو أُجّر في الأغلال مصفدا أحب إلي من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالما لبعض العباد وغاصبا لشيء من الحطام، وكيف أظلم أحدا لنفس يسرع إلى البلى قفولها ويطول في الثرى حؤولها، والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت. ما لعلي ونعيم يفنى ولذة لا تبقى."

يذهب مع غلام له إلى السوق ليشتري قميصين فيعطي أفضلهما للغلام. يقول أبو النّوار، وهو أحد الباعة في سوق الكوفة، من العراق، التي اتخذها

أمير المؤمنين عاصمة الدولة الإسلامية عندما آلت إليه الخلافة: "بينما أنا في دكاني إذ أتاني علي بن أبي طالب ومعه غلام له. فبعد التحية والسلام إشترى قميصين من نوعين مختلفين وبعد أن دفع ثمنهما نظر إلى غلامه وقال له: اختر أيهما شئت. فأخذ الغلام أحدهما لعلمه بأن عليا لا يرجع في قوله ولا جدوى من مجادلته لذلك استجاب مباشرة الى أمر الإمام وأخذ القميص الذي يريد. بعدها، والكلام لأبي النوار، أخذ علي الآخر وذهبا.

لذلك فلا عجب أن يلتحق به ويسير على دربه أفضل صحابة الرسول الذين عرفوا ان خطه هو خط القرآن وخط الإسلام الصحيح وخط الرسول ومهما اجتهدوا وعملوا فإنهم لا يمكن ان يوجدوا لهم خطا أفضل من خط الإمام. وهذا ما بينه أحدهم وهو حجر بن عدي رضوان الله عليه فلما سُئل لماذا هو على خط أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام قال: آتوني بطريق أفضل من طريق علي وأنا أتبعه.

الشمعة الثالثة عشرة
نفس رسول لله وصفيّه وأمينه

وصل إلى سمع رسول الله صلى الله عليه وآله و سلّم أن مجموعة من سفهاء بعض المدن المحيطة بالمدينة المنورة تقطع الطريق على المسلمين وتتعمد إلحاق الأذى بهم. أرسل الرسول لهم عدة رُسل تُذّكرهم بالأخلاق والشهامة العربية وبالوعود والعهود التي قطعوها على أنفسهم بأن يحترموا حرية خطوط التجارة والتنقل ولكن القوم ركبوا شياطينهم واستهزؤا برسل الرسول اليهم. بعث لهم رسلا آخرين يحذرونهم من عواقب أعمال القرصنة التي يقومون بها ولكن كل مساعيه لإقناعهم بالتي هي أحسن لم تنفع معهم. في المرة الثالثة رأى الرسول صلى الله عليه وآله أن يرسل للقوم تحذيرا شديد اللهجة يتوعدهم بأن يعمل السيف فيهم إن لم يرجعوا عن غيهم ويتوقفو عن قطع الطريق وسلب الأموال ونشر الذعر وعدم الإستقرار في المجتمع. يقول أبو ذر (رض) لما رأى الرسول تعنت القوم أرسل لهم برسالة شديدة اللهجة هذا نصها: "لينتهن بنو وليعة أو لأبعثن عليهم رجلا كنفسي يُنّفذ فيهم أمري فيقتل المقاتلة منهم ويسبي ذراريهم."

لما سمع المسلمون رسالة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تمنى كل واحد منهم أن يكون هو الشخص المعني والذي رفعه الرسول إلى تلك الرتبة العالية وهي نفس رسول الله. فما من مسلم إلا و يتوق الى تلك الدرجة. يواصل أبو ذر (رض) سرده لتلك الواقعة فيقول: فما راعني إلا وكف أحد الصحابة على كتفي محاولا الإستفسار مني عن الشخص الذي يعنيه الرسول. فقلت للصحابي: ما إياك يعني ولا حتى أحدا من أصحابك. إنه بكل تأكيد يقصد خاصف النعل، وكان الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام آنذاك يخصف

نعلا له.

بعدها بأيام ولما تبين للرسول صلى الله عليه وآله و سلّم فشل مساعيه السلمية مع قُطّاع الطرق والقراصنة وأن القوم لم ينفع معهم حتى التحذير والوعيد أمر بتجهيز فرقة من الجيش الإسلامي وأمّر الإمام علي عليه السلام عليها وأمره بالتوجه إلى تلك الفئة الباغية ومخاطبتهم باللغة التي يفهمونها وردعهم بالطريقة الوحيدة الكفيلة بردعهم.

قاد الإمام فرقته وذهب الى قرى القوم قاطعي الطريق وخاطبهم بخطاب رسول الله وبأسلوبه محاولا مرة أخرى ثنيهم عن أعمالهم البربرية وإرجاعهم الى طريق الصواب ولكنهم لم يرتدعوا ولم يستجيبوا لمحاولاته السلمية التي عدّوها نصائح غير مرغوب فيها وإنذارات غير جادة. فلم رأى بدا من مقاتلهم حتى يعودوا لرشدهم. فقاتلهم الإمام قتالا خفيفا منتقى حيث عاقب من تزعم أعمال قطع الطريق ومن شجع عليها وترك من لا حول لهم ولا قوة. لم يقدر القوم المارقين تسامح الإمام أمير المؤمنين معهم بل إعتبروا ذلك تكتيكا سيكتفي من خلاله الإمام بما قتل ثم يرجع من غير ان ينال مراده و هو ابعادهم عن القرصنة. فما كان من الإمام إلا أن عمل السيف فيهم حتى عرفوا أن وعيد الرسول حق وصدق فقبل الكثير منهم الرجوع عن طريق الفساد أما الآخرون الذين فضلوا محاربة الإمام لم يحصلوا إلا على القتل وفقدان الأموال والممتلكات وسبي الذراري. ولما إنتهى الإمام من أداء المهمة رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليُصدق قوله فيه بأنه "نفس رسول الله." فما عمله الإمام مع القوم هو ما كان سيعمله الرسول لو أنه هو من حارب القوم.

وخرجت قبيلة من اليمن تُسمّى آل سرح عن طاعة والي المسلمين في اليمن وحاولوا شقّ صفوف المسلمين. فأرسل لهم الرسول صلى الله عليه وآله

وسلّم فلما حضروا بين يديه سألهم عن سبب إنشقاقهم ولما تبين له أن السبب هو نعرات جاهلية نصحهم بالتغلب على تراثهم الجاهلي وتغليب مصلحة الأمة والمسلمين بصفة عامة على المصالح الأنانية الشخصية. لكن وفد قبيلة آل سرح قرأ سماحة الرسول وتسامحه معهم خطأ فأخذ يماطل ويعطي الأعذار والحجج في عدم تطبيق ما طلبه الرسول منهم. فما كان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا أن وجّه لهم إنذارا شديد اللهجة علّهم يفيقون من غيّهم ويرجعوا الى قومهم متناسين احقادهم ونعراتهم الطائفية. وكان إنذار الرسول بالصيغة التي يفهمونها، محذرا من العواقب التي يخافونها. فما أقسى على الجاهلي في ذلك الوقت من أن تهدده بسبي عائلته. فقال في رسالته صلى الله عليه وآله وسلّم: "لتقيمن الصلاة ولتؤتون الزكاة ولتسمعّن ولتطيعن أو لأبعثن إليكم رجلا كنفسي يقاتل مقاتليكم ويسبي ذراريكم." فالرسول الذي جاء ليقضي على عادات جاهلية مقيته في مقدمتها السبي والقتل يترفع بنفسه عن القيام بمثل تلك الأعمال ولكنها اللغة التي يعرفها ويحترمها ويخافها أؤلئك الناس. لذلك توعدهم بما يصعب عليهم تحمله.

خرج الوفد من عند الرسول عائدا الى اليمن محملا برسالة واضحة وصريحة – إما ترك العصبية الجاهلية المبنية على التفرقة أو مواجهة السيف الذي إن أُعمل فيهم سوف لن يرجع الى غمده قبل أن يذيقهم الموت ويتمكن من أملاكهم وأهليهم. أما ما كان من أمر صحابة الرسول الذين حضروا ذلك المجلس فإنهم أخذوا يتساءلون عن الشخص الذي يقصده رسول الله والذي يعتبره كنفسه. كل واحد يتمنى أن يكون هو المقصود. في الخارج جلس الوفد اليمني هو الآخر يريد معرفة الشخص الذي عناه الرسول والذي إعتبره كنفسه. شاهد رئيس الوفد أحد الصحابة خارجا من مجلس الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم فسأله إن كان يعرف الشحص الذي عناه الرسول. فقال الصحابي: ما أظنه عنى غير علي بن أبي طالب، فما من أحد من الصحابة

بإمكانه تمثيل الرسول بالصورة التى ذكرها الرسول غير علي. وكان رئيس الوفد قد سمع بشجاعة علي وعرف أن الرسول لا يقول ما يقول جزافا وأن تهديده صحيح وهو إن أمر عليا ليحدث ما قاله الرسول وأكثر. فرجع رئيس الوفد الى مجلس الرسول طالبا الصفح واعدا بفتح صفحة جديدة في التعامل مع الوالي.

وفي جلسة صفاء و نقاء مع الصحابة أخذ الرسول صلى الله عليه وآله يخبرهم واحدا واحدا برتبهم في الدنيا ومكانتهم من رسول الله. يروى أحمد بن شعيب النسائي الشافعي عن عدد من الرواة الثقاة، بأن الرسول لما وصل إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال له: "أما أنت يا علي فأنت صفيي وأميني." ثم إتجه نحو القوم وقال: "علي مني و أنا منه."

نفس رسول الله في آية المباهلة

في السنة التاسعة للهجرة وبعد إجتماع مطول قرر عدد من مسيحي اليمن إرسال وفد إلى المدينة ليحاجوا رسول الله ويحاولوا تكذيبه وتسفيه ما جاء به من عند الله. وقرروا أن يضم الوفد أعيانهم وأعلمهم ومن لديهم المقدرة على مقارعة الحجة بالحجة. وبعد أن جمعوا نخبهم توجهوا إلى المدينة لمقابلة الرسول. ولما وصلوا المدينة إجتمعوا بالرسول في المسجد النبوي الشريف. وأخذوا يسألون الرسول عن الإسلام ولماذا جاء وكيف أنه إمتداد وتحديث لما سبقه من الديانات وخاصة النصرانية. كما اخبرهم عن موقف الإسلام من الرسل التي سبقت وخاصة نبي الله عيسى حيث ان الإسلام يعترف بجميع الديانات السابقة ويجل ويقدر الأنبياء التي عينها الله سبحانه وتعالى لحمل تلك الرسالات. وأجابهم الرسول عن كل أسئلتهم وإستفساراتهم. لكن الوفد لم يقتنع بما قاله الرسول وأخذ أعضاؤه يحاججون ويقدمون حججا لا

تنم إلا عن إستكبار وتعال مفادها بأنه مهما كان رد الرسول مقنعا فإن موقفهم السلبي من الإسلام لم ولن يتغير. وما كان ذلك لينطلي على رسول الله. فكان لا بد أن يأتيهم بحجة دامغة لا يستطيعون بعدها التفوه ولا حتى بكلمة واحدة ضد الإسلام.

وبينما الرسول صلى الله عليه وآله يفكر في حجة دامغة يأتيهم بها وإذا بجبرئيل ينزل من السماء ليخبر الرسول بأن الله سبحانه وتعالى قد أمره بأن يباهل القوم، وقرأ عليه: ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوا نَدعُ أَبْنَائَنَا وَأَبْنَائكُم وَنِسَائِنَا وَنِسَائكُم وَأَنْفُسنا وَأَنْفُسكُم ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَةَ اللهِ عَلى الكَاذِبِيْن. ﴾ وكانت المباهلة، أي دعاء فريقين مختصمين إلى الله بأن ينزل عذابه على الكاذب منهما تقليد شائع ومتبع في المجتمع الجاهلي ولما جاءت النصرانية أقرته كسبيل لإقرار الحجة وتحقيق البينة. لذلك جاء الرد من الله سبحانه وتعالى بما يتماشى وعقيدة الوفد وما هو متعارف ومعمول به في مجتمعهم.

إعتبر الوفد خلّو الرسول إلى نفسه وإمتناعه عنهم خلال فترة نزول الوحي عليه إقرارا بعجزه عن الرد. لكن فرحتهم الزائفة بالغلبة لم تدم طويلا. فسرعان ما نظر الرسول إلى الوفد، بعد صعود جبرئيل، وخاطبهم قائلا لهم: إن الله أمرني أن أباهلكم. تفاجأوا برد الرسول وسألوا أنفسهم كيف تأتى له معرفة المباهلة وكيف علم بأنهم من أشد المعتقدين بها والمصدقين بمفعولها. فلم تُسعفهم المفاجأة في التفكير ولم يتمكنوا من الرد على إقتراح الرسول. لذلك قرروا بأن يطلبوا مهلة من الرسول ليفكروا في كيفية الخروج من المأزق الذي أوقعوا أنفسهم فيه. فقالوا: يا أبا القاسم إمهلنا حتى نرجع إلى قومنا ثم نرجع إليك. فأجابهم الرسول إلى ما طلبوا.

خرج الوفد من عند الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم عائدا إلى اليمن.

في طريق عودتهم مروا بدير راهب يسكنه أحد القساوسة المشهورين يقال له عبد المسيح. وكان عبد المسيح بمثابة الأب الروحي و المرجع للمسيحيين بصفة عامة. سألهم عبد المسيح عن سبب ذهابهم إلى المدينة فأخبروه بخبرهم وما جرى بينهم وبين رسول الله ثم سألوه عن رأيه. فقال لهم: والله لقد عرفتم بأن محمدا نبي مرسل ولقد جاءكم بالكلام الفصل، خاصة في أمر المسيح. والله ما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم. إن فعلتم وقبلتم بما دعاكم إليه محمد سيكون في ذلك إستئصالكم ونهايتكم الأبدية. إني أرى أن تختاروا واحدة من إثنتين. إما الدخول في دينه والقبول بما جاء به أو البقاء على دينكم وموادعة الرجل وعقد صلح ومعاهدة معه.

دخل كلام عبد المسيح في قلوبهم وعلموا صوابه وعرفوا بأن لا حاجة إلى الذهاب إلى اليمن فقد حصلوا على الرد الوافي والجواب الكافي لما كان في بالهم، ولن يكون رد قساوسة اليمن بأفضل من رد عبد المسيح. فقرروا الرجوع إلى المدينة ولقاء الرسول وعرض موضوع إتفاقية الصلح بينه وبين المسيحيين في نجران واليمن.

لما قاربوا المدينة وجدوا أن رسول الله صلى الله عليه قد خرج إلى المباهلة محتضنا الحسين عليه السلام، آخذا بيد الحسن عليه السلام، وهما أبناء رسول الله الذين عناهم القرآن، وفاطمة عليها السلام تمشي خلفه، وهي نساء رسول الله التي عناها القرآن، وعلي عليه السلام إلى جانبه، وهو نفس رسول الله التي عناها القرآن. وجدوا الرسول يمشي بأهل بيته الى المباهلة وهو يقول: اللهم هؤلاء أهلي. ثم ينظر نحو أهله فيقول لهم: إذا دعوت فأمنوا. توقف القوم من هيبة ما رأووا وقال لهم أسقفهم: يا معشر النصارى، إني لأرى وجوها لو دعت الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله حالا إستجابة لدعائها. فلا تباهلوا فتهلكوا وتهلكوا قومكم معكم. إن باهلتم فلن يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة.

لما وصلوا عند رسول الله قالوا له: يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك، بل نعاهدك معاهدة يحترم من خلالها كل طرف خصوصيات وحقوق الطرف الآخر. قبل الرسول صلى الله عليه وآله عرضهم، فهو إنما بعث رحمة للعالمين داعيا إلى ربه بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة ومحاورا بالتي هي أحسن ومسئوولا عن تعمير الكون وسعادة كل من يعيش فيه.

وبذلك أصبح علي بن أبي طالب نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم بنص القرآن الكريم، فلا مكان لغيره في الآية الشريفة من سورة آل عمران، رقم ٦٢ ولم يحدث التاريخ بأن الرسول إتخذ غير علي كنفسه. فكل المؤرخين أجمعوا على أن الذين خرج بهم الرسول هم فاطمة وإبناها وبعلها فالأبناء هم الحسن والحسين والنساء مثّلتهم فاطمة ونفس رسول الله مثلها علي بن أبي طالب.

الشمعة الرابعة عشرة
"لا يؤدّي عني إلا علي"

عندما بدأ في إقامة الدولة الإسلامية رأى رسول الله صلى الله عليه وآله أن الحكمة تقتضي أن لا يقوم بتغيير عادات وممارسات المجتمع الجاهلي مرة واحدة وفي وقت واحد. فبعض تلك العادات والتقاليد لها جذورها الراسخة في أذهان المجتمع القرشي وأن السبيل الوحيد لتغييرها وضمان عدم العودة لها هو توصيل مضارها ونتائجها السلبية ومردوداتها العكسية إلى سمع وبصر وعقل من يمارسها داخل المجتمع القرشي لتكون عملية التخلي عن مثل تلك العادات السيئة ناتجة عن إقتناع بعدم صحتها والتأكد بأن الفائدة تكمن في تركها والتخلي عنها.

من تلك العادات السيئة الطواف بالبيت الحرام عراة وبالتصفير والعواء. ومن تلك العادات طواف المشركين بالكعبة المشرفة، ليس بغرض تبجيل الكعبة أو التبرك أو الدعاء بل من أجل الإستهزاء بها وبمن يؤمن بحرمتها وقدسيتها وإحترامها. بفضل إنتشار الإسلام ودخول عدد كبير من المسلمين في الإسلام أخذت عادة وتقليد الطواف بالبيت عراة تتقلص تدريجيا إذ لم يعد يمارسها إلا الوثنيون، بل وعدد قليل جدا منهم فقط. أما طواف المشركين بالبيت الحرام فقد وقع ضمن دائرة الإتفاقيات التي عقدها الرسول الكريم مع النصارى واليهود. فتلك الإتفاقيات ضمنت لهم حرية العبادة وحيث

أنهم يعتبرون الطواف بالبيت جزءا من عباداتهم، دخل ذلك في الإتفاقيات روحا وليس نصا على أن يكون الطواف بالبيت من أجل العبادة لا الإستهزاء والإزدراء والتقليل من حرمة البيت.

منهجية الرسول صلى الله عليه وآله و سلّم وسياسته في التعامل مع هاتين القضيتين أعطت في واحدة منها نتائج إيجابية جدا وفي الأخرى نتائج عكسية، لا لكون السياسة فاشلة ولكن لكون من قُصد بها لا تنفع معه الرحمة لأنه لا يسمع لصوت العقل والمحبة و يحسب التسامح والإصلاح ضعفا. لا يفهم إلا منطق القوة التي عاش في كنفها و رضع منها و تربى عليها وإتخذها وسيلة ومنهجا في تعامله مع الآخرين بما في ذلك من يشاركه العيش في نفس المجتمع والبيئة. فالطواف عراة وكما ذكرنا أخذت تنمحي تدريجيا بفضل تقبل الناس للطيب من اللباس واحترامهم لأنفسهم. لكن طواف المشركين لا زال مستمرا بفضل تمسك رسول الله بعهوده وإتفاقياته مع اليهود والنصارى وإحترامه لدياناتهم.

لكن اليهود، وكعادتهم في عدم احترام العهود والمواثيق خرقوا ما عاهدوا الرسول عليه فأخذوا يسيؤون للمسلمين أثناء الطواف ويستهزؤون بهم وبعباداتهم ويتعمدوا تشويش الجو العبادي للمسلين. رفع المسلمون الأمر للرسول صلى الله عليه وآله وسلّم فأرسل لزعمائهم يذكرهم بتعهداتهم والإتفاقيات التي عقدوها مع المسلمين. لم تجد رسائل الرسول وإنذاراته معهم نفعا. حاول أن يوسط أحبارهم ولكن تلك الوساطات لم تجد نفعا أيضا. قبل نهاية السنة التاسعة للهجرة النبوية الشريفة أراد الله سبحانه وتعالى حلّ رسوله من عهوده وإتفاقياته مع المشركين وذلك بعد أن بدأوا هم في نقضها وعدم الإلتزام ببعض أو غالبية بنودها. ولأن المشركين لم يتقيدوا بتلك الإتفاقيات وما نصت عليه وأن الكثير منهم ذهب إلى أبعد من ذلك وعمل خلاف ما تم الإتفاق عليه وأخذ يُحّشد الجيوش ضد المسلمين ويُحّرض الناس ضدهم، فلقد أراد الله

سبحانه وتعالى أن يجعل رسوله صلى الله عليه وآله في حل مما أبرمه من إتفاقيات معهم وأن ينقذه من الحساسية الدينية، عقابا لهم على نقضهم العهود والمواثيق وتثبيتا لأمر الله و دينه الذي إرتضاه لعباده .

فبينما الرسول صلى الله عليه وآله جالس في المدينة المنورة وقد قرب موسم الحج وإذا بجبرئيل عليه السلام ينزل عليه ويخبره ببراءة الله و رسوله من المشركين ومن الذين يحاربون الله ورسوله من المشركين والكفار وأن الله قد جعل الرسول في حل من كل عهد تعهد به لهم وكل إلتزام ألزم نفسه به نحوهم. وقرأ عليه سورة التوبة. فلما أدّى جبرئيل رسالته وصعد إلى السماء إستدعى رسول الله أبا بكر وأعطاه السورة وأمره أن يبلّغها للناس ويقرأها عليهم ويقول لهم بأن ذلك العام هو آخر عام يحج فيه المشركون وأنه إعتبارا من هذا العام سوف لن يسمح بالطواف بالبيت عراة، وهو ما كان يعمله الوثنيون وأن من كانت بينه وبين رسول الله مدة أو إتفاقية فأجله إلى مدته وأن الله ورسوله بريء من المشركين الذين نقضوا العهود والمواثيق التي أبرموها مع رسول الله. فأخذ أبو بكر السورة وذهب ليؤدي رسالة الرسول.

بعد مُغادرة أبي بكر بفترة بسيطة إستدعى رسول الله علي بن أبي طالب فلما حضر أمره أن يلحق بأبي بكر ويأخذ منه السورة ويقوم هو بالتبليغ بدلا منه وأمره أن يركب ناقته "العضباء" لتأدية هذه المهمة. إستجاب علي بن أبي طالب لأمر الرسول وإستقل الناقة وذهب مسرعا خلف أبي بكر حتى لحق به في بعض الطريق.

لما وصل إليه سلّم عليه، رد عليه أبي بكر التحية ثم سأله: أأمير أم مأمور؟ فقال له علي بأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أمره أن يأخذ السورة منه وأن يبلّغها بدلا منه. سأله أبو بكر إن كان يعرف السبب فقال له أمير المؤمنين بأنه لم يتعود سؤال الرسول عن أسباب أوامره له. فلم يكن أمام

أبي بكر سوى الإنصياع لأمر الرسول وتسليم السورة والمهمة إلى علي بن أبي طالب.

سلّم أبو بكر السورة والعهدة إلى علي بن أبي طالب وقفل راجعا إلى المدينة وكله حزن لما حدث، خوفا من أن يكون هناك سبب لا يعلمه دفع إلى عدم أهليته للقيام بهذه المهمة. فلما وصل المدينة ذهب مباشرة إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. دخل المسجد الشريف والكآبة بادية على وجهه. فلما رآه الرسول أمره بأن يدنو منه. فدنى أبو بكر من الرسول وسلّم عليه ثم سأله: أنزلت في آية يا رسول الله؟ تبسم رسول الله في وجهه، ليزيل عنه الوساوس، وقال له: كلا، لم ينزل فيك شيء، ولكن بعد إنصرافك نزل عليّ أخي جبرئيل وأخبرني عن الله عزّ وجل بأنه لا يؤدّي عني إلا أنا أو رجل من أهل بيتي. وبعد أن طمأن الرسول صلى الله عليه وآله أبا بكر بسلامة موقفه أمره بالرجوع من وقته إلى مكة وإمامة الحجاج، كما كان مخططا لذلك قبل نزول سورة براءة، و المساهمة في تعليم حجّاج بيت الله تعاليم دينهم و مساعدتهم في تعلم أمور و شؤون حجهم و الإجابة على مسائلهم وإستفساراتهم وما يحملونه معهم من مسائل كُلّفوا بالحصول على أجوبة لها من قبل من لم يستطع الحج من جيرانهم وأقربائهم ومعارفهم.

إرتاح أبو بكر لما سمعه من رسول الله فهو لم يشك يوما في مكانة علي بن أبي طالب من رسول الله ولم يسمح لنفسه بمقارنة علاقته بالرسول بعلاقة الرسول بعلي، وهو الذي عرف عنه أنه طلب من إبنته عائشة عدم مقارنة محبة الرسول لعلي بمحبته لها، لمّا إشتكت إليه ذلك، وقال لها إن لعلي منزلة عند الله ورسوله يغبطه عليها الأولون والآخرون. يعرف مكانة علي من رسول الله معرفة تامة ويفهم أسباب قوة تلك العلاقة التي لم ينل مثلها أي صحابي أو أي قريب لرسول الله. كما أنه يعلم بأن لعلي بن أبي طالب أدوارا لا يمكن لأحد غيره القيام بها. يعرف أبو بكر كل هذه الحقائق، لذلك لما طلب منه علي

تسليم السورة إليه كان خوفه هو من أن يكون عمل شيئا جعله غير صالح لأداء تلك المهمة وليس لماذا إختير علي بن أبي طالب دونه. كان السؤال الذي دار في خلده لماذا ليس أبو بكر ولم يكن لماذا علي دون أبي بكر. وهذا ما عبّر عنه سؤاله لعلي لما وصل إليه حيث قال له: أأمير أم مأمور. و هذه تدل على أنه كان مهيئا نفسه ليكون تحت إمرة علي لو طلب الرسول منه ذلك. لذلك لما سمع مقالة رسول الله فيه وتثبيته له على الحاج ودعائه له بالتوفيق إرتاحت نفسه وعاد لإكمال المهمة التي أرسله الرسول من أجلها وهي إمامة الحاج، وهي مهمة ليست بالهينة.

يقول النسائي فلمّا كان يوم التروية قام أبو بكر خطيبا في الناس وشرح لهم مناسكهم وعرّفهم أمور حجهم وأجاب على أسئلتهم وإستفساراتهم. وبعد أن فرغ من خطبته قام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فقرأ سورة براءة على الناس حتى ختمها ثم أخبرهم بأن رسول الله صلى الله عليه وآله أرسله بهذه السورة وأمره، عن ربه، بأن يبلغها لهم ويشرح لهم معانيها. وتكرر نفس الموقف ونفس الحدث يوم عرفة ويوم العيد وأيام التشريق – أبو بكر يخطب في الناس شارحا لهم أمور دينهم وحجهم وعلي يقرأ عليهم سورة براءة ويشرح معاني آياتها وأسباب نزولها.

الشمعة الخامسة عشرة
عيّنه الله ورسوله وليّا وهاديا

يحج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ومعه مجموعة من المسلمين والصحابة ويأتي في طريقه إلى مكان يقال له "الجحفة" وهو ما يعرف الآن "بميقات اهل الشام." وبعد أن يحرم جميع من معه يقوم صلى الله عليه وآله وسلّم خاطبا في الناس مبينا لهم شروط وفوائد الحج وما يهم المسلمين من أمر دينهم ودنياهم. تقول عائشة بنت سعد بن أبي وقاص: سمعت أبي يقول: بينما الرسول يخطب في المسلمين إذ إلتفت إلى الحشود وسألهم: "أيها الناس إني وليُّكم؟" فردوا بأجمعهم: "نعم، صدقت يا رسول الله، أنت وليُّنا." فأخذ بيد علي بن أبي طالب فرفعها وقال: "هذا وليّ ويؤدي عني ديني وأنا موال من والاه ومعاد من عاداه."

ويروي الشيخ أحمد بن شعيب النسائي في كتابه "خصائص أمير المؤمنين" عن عبدالله بن بريدة عن أبيه بريدة أنه، أي بريدة، قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم إلى اليمن مع خالد بن الوليد وبعث عليا رضى الله عنه على جيش آخر وقال: إن إلتقيتما فعلي على الناس وإن تفرقتما فكل واحد منكما على جنده. قال بريدة: فلقينا بني زيد من أهل اليمن وظهر المسلمون على المشركين فقتلنا المقاتلة وسبينا الذرية. فإصطفى علي لنفسه من السبي جارية فغضب خالد بن الوليد وكتب كتابا إلى النبي وأمرني أن

أحمل الكتاب وأَسلمه لرسول الله وأنال من علي. حملت الكتاب وتوجهت إلى المدينة و دخلت من حيني على رسول الله وسلمت عليه ودفعت إليه كتاب خالد ونلت من علي كما أمرني خالد. فلما سمع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مقالي تغّير وجهه و أشاح بوجهه عني. فقلت: يا رسول الله هذا مكانِ العائذ بك، بعثتني مع رجل وأمرتني بطاعته ولما أرسلني إليك أطعته وبّلغت ما أُرسلت به. فقال رسول الله: لا تقعن يا بريدة في علي فإن عليا مني وأنا منه و هو وليكم و ولي كل مؤمن ومؤمنة بعدي.

أما ما كان من أمر الجارية فإن أمير المؤمنين لم يصطفها لنفسه وإنما لما عرف أنها من بيت كرم وعز وله مكانته في المجتمع خاف عليها من السبي ومن تعرضها إلى ما يخدش عزتها ومكانتها بين الناس مستذكرا قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إرحموا عزيز قوم ذل." لذلك قام بعزلها جانبا عن بقية النساء وأكرم بقائها حتى رجع الجيش إلى المدينة.

لما رجعوا رفع أمر الجارية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مقترحا ان يتم إخلاء سبيلها حفظا لكرامتها وتقديرا لدور عائلتها في نشر الفضيلة والإحسان في المجتمع. فلما سمع رسول الله إقتراح علي تهلل وجهه فرحا وصادق على ذلك الإقتراح. يقول بريدة: مع أنني لم أشك في صحة و وجاهة موقف الرسول مني لما حملت إليه رسالة خالد إلا أنني لما رأيت ما دار بين علي والرسول عرفت كنه نصيحة الرسول لي صلى الله عليه وآله وسلم.

لم يكن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو الوحيد الذي أكدّ تعيين علي بن أبي طالب وليا و هاديا من قبل الله سبحانه و تعالى. فهناك عدد كبير من أصحاب الديانات السماوية التي سبقت الإسلام كالمسيحية، ذكروا بأنهم وجدوا في كتبهم ما يدل على تعيين علي بن أبي طالب وليا ووصيا لرسول الله. وما حادثة بئر ومسجد براثا في بغداد ولذي ما زال يحتضن آثار تلك الحادثة

إلى يومنا هذا إلا واحدة من الشواهد والدلائل الساطعة والدالة على ذلك.

في طريقهم إلى صفين، بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، عطش أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام فأخذوا يبحثون عن الماء فلم يجدوه. أخبروا الإمام فقرر أن يعدل بهم عن الطريق ويسلك طريقا فرعيا يؤدي إلى إحدى الضواحي المتاخمة لبغداد. وبعد أن ساروا قليلا على ذلك الطريق الفرعي لاح لهم دير راهب فتوجهوا إليه. لما قربوا من الدير سألوا الراهب إذا كان لديه ماء وعن أقرب مورد ماء منه. فأخبرهم بأن الذي لديه من الماء لا يكفيهم وخيولهم و دوابهم وأن بينهم و بين أقرب مكان للماء مسافة فرسخين.

قرروا التوجه نحو الجهة التي دلّهم عليها الراهب. ولكن ما إن تباعدوا قليلا عن الدير وإذا هم ببئر قديم مطمور. فأخبروا قائدهم وأميرهم الإمام علي عليه السلام فأمرهم بأن ينزلوا ويرفعوا التراب عن البئر. فنزلوا وأخذوا يرفعون الدغل والتراب. وبينما هم في مهمتهم إذ إعترضتهم صخرة كبيرة فإجتهدوا لرفعها فلم يتمكنوا من ذلك. فقالوا: يا أمير المؤمنين، ههنا صخرة كبيرة لا تعمل فيها المساحي. فقال عليه السلام: إن هذه الصخرة على الماء فحاولوا قلعها. فإجتهدوا جميعا يحاولون قلعها ولكنهم لم يستطيعوا حتى تحريكها من مكانها.

أخبروا أمير المؤمنين بذلك فأمرهم أن يبتعدوا ويفسحوا له طريقا إلى الصخرة ففعلوا. وتقدم أمير المؤمنين عليه السلام وحسر عن ذراعيه ثم وضع يديه تحت الصخرة فحركها ثم رفعها ورمى بها بعيدا عن البئر. فلما زالت عن مكانها ظهر لهم ماء زلال فتبادروا إليه وشربوا منه وسقوا دوابهم وملأوا قربهم.

وكان الراهب يراقب من بعيد ما يجري فلما رأى ما حصل أسرع إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فلما وصل عنده قال: أأنت نبي مرسل؟ قال الإمام: لا. قال الراهب: فملك مقرب؟ قال الإمام: ولا هذه. قال الراهب: فمن أنت إذا؟ قال أمير المؤمنين عليه السلام: أنا وصي رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلّم، خاتم النبيين وسيد المرسلين. قال الراهب: ابسط يدك أُسلم لله على يديك. فبسط أمير المؤمنين عليه السلام يده وصافحه الراهب وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأشهد أنك وصي الله ورسوله وولي الله وخليفته من بعده.

تعجب أصحاب أمير المؤمنين من فعل الراهب ولما رأى الراهب آثار الدهشة على وجوههم قال الراهب: يا أمير المؤمنين، لقد وجدنا في كتبنا أن بهذا البئر صخرة لا يعرف مكانها ولا يستطيع تحريكها من مكانها إلا نبي أو وصي نبي أو وليّ من أولياء الله يدعوا إلى الحق سبحانه وتعالى ويعرف آياته. ولما رأيتك فعلت ذلك تحقق ما قرأته في كتبنا وأنا أسلم على يديك عارفا بحقك ومُوال لك.

لما سمع أمير المؤمنين عليه السلام مقالة الراهب سجد لله شاكرا لأنعمه وبكى حتى إخضلت لحيته من الدموع ثم قال: الحمد لله الذي لم أكن عنده منسيا، الحمد لله الذي كنت في كتبه مذكورا. وبعد أن فرغ من سجوده أمر أصحابه أن يُنّظفوا حول البئر ليكون بإستطاعة المقيمين والمارة إستخامه. وبعد أن فعلوا إستراحوا ليومهم ثم ساروا إلى صفين بالشام والراهب معهم بعد أن أسلم وإستشهد في المعركة. وحول هذه الواقعة يقول السيد إسماعيل الحميري:

ولقـــــد سرى فيما يسير بليلــة	بعد العشاء بكربلا في موكـب
حتـــــــى أتى متبتلا في قائــم	ألقى قواعده بقاع مجـــدب

يأتيه ليـــــس بحيث يلقى عامـــر غير الوحوش و غير أصلع أشيب
فـــدنا فصاح به فأشرف مائـــلا كالنسر فوق شظية من مرقـب
هـــل قرب قائمك الذي أنتم بـــه ماء مصاب فقال ما من مشــرب
إلا بغــــــاية فرسخين و من لنـــا بالماء بين نقا و قي سبســـب
فثنى الأعنــــة نحو وعث فإجتلـى ملساء تبرق كاللجين المذهـب
قـــــال إقلبوها إنكم إن تقلبـــوا ترووا و لا تُروون إن لم تقلـب
فـــإعصوصبوا في قلعها فتمنعـت منهم تمنع صعبة لم تركــب
حتـــــــى إذا أعيتهم أهوى لهـــا كفا منى ترد المغالب تغلــب
فكأنها كرّت بكف حـــــــــزور عبل الذراع دعى بها في ملعــب
قال إشربـــوا من تحتها متسلسـلا عذبا يزيد على الألّذ الأعــذب
أعني ابن فاطمة الوصي و مـن يقل في فضله و فعاله لم يكــذب

و بعد رحيل الإمام أمير المؤمنين وصحبه عن المكان إنتقل إلى جوار البئر بعض العوائل العراقية وزرعوا وعمّروا المكان بعد أن توفر لهم عصب الحياة وبنوا مسجدا بجنب البئر وسُميت المنطقة والبئر والمسجد الذي بني بالضاحية منطقة ومسجد براثا. وفي بداية التسعينات من القرن الماضي قامت إدارة الأوقاف العراقية بإعادة بناء المسجد وتوسعته وأصبح الآن من المساجد المشهورة في بغداد تقام فيه صلاة الجماعة ويزوه المسلمون للتبرك وشرب الماء من بئر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

الشمعة السادسة عشرة
أذهب الله عنه الرجس و طهّره تطهيرا

أجمع غالبية المسلمين على أن للأمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ميزة إختص بها عن غيره من الصحابة وهي كونه الوحيد بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم الذي لم يعرف الشرك ولا عبادة الأوثان ولا الرجس ولا الفسوق ولا أي مثلمة من المثالم التي عرف بها المجتمع الجاهلي ومجتمع ما قبل الدعوة. لذلك اصبح الجميع ينادونه بكلمة لم ولن ينادى بها غيره وهي "كرّم الله وجهه" تكريما له و لسجله الناصع. فالكثير من المسلمين، بما فيهم كبار الصحابة ينادون بـ رضي الله عنه، عليه السلام، رحمه الله، إلى غير ذلك من الصفات و التسميات وعلي بن أبي طالب يشاركهم في تلك الصفات والمسميات. ولكن لم يشاركه أحد في "كرّم الله وجهه." والسبب في ذلك واضح وصريح ومعروف للجميع وهو أنه الشخص الوحيد، بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، الذي لم يسجد لصنم قط ولم يعرف غير الله ربا والإسلام دينا.

ذلك هو السبب الذي دفع المسلمين الى تكريم علي بن ابي طالب. أما السبب الأهم والذي لم يغب عن بال المسلمين وغيرهم والذي وحّد موقف المسلمين في هذه المسألة هو أن الله سبحانه وتعالى كرّم عليا قبل أن يُكّرمه الناس ورفع قدره وشأنه قبل أن يرفعه الناس وأعلى مقامه قبل أن يعليه الناس. فالله سبحانه وتعالى هو الذي أذهب عنه الرجس وطهره تطهيرا كما فعل ذلك مع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم مع فاطمة الزهراء وابنيها الحسن

والحسين عليهم السلام وأنزل قرآنا في ذلك وآية بقيت وستبقى ترددها على لسان كل مسلم مسلمة إلى يوم القيامة وهي آية التطهير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا.﴾ وهي الآية التي نزلت أثناء جود الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم تحت الكساء اليماني وبصحبته إبنته فاطمة الزهراء وابن عمه أمير المؤمنين وإبناهما الحسن والحسين عليهم السلام والذي يعرف التي تعرف "بحديث الكساء."

يروي عدد كبير من الثقاة من نقلة الحديث والمؤرخين من جميع المذاهب الإسلامية عن جابر بن عبدالله الأنصاري رضوان الله عليه وغيره من صحابة الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم انهم سمعوا فاطمة الزهراء عليها السلام تقول:

دخل علي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بعض الأيام فقال: السلام عليك يا فاطمة. فقلت و عليك السلام. فقال: إني لأجد في بدني ضعفا. فقلت له: أُعيذك بالله يا أبت من الضعف. فقال: يا فاطمة آتني بالكساء اليماني فغطني به. تقول فاطمة: فأتيته بالكساء اليماني فغطيته به وصرت أنظر إليه وإذا وجهه يتلألأ وكأنه البدر في ليلة تمامه وكماله. قالت فاطمة: فما كانت إلا ساعة وإذا بولدي الحسن عليه السلام قد أقبل وقال: السلام عليك يا أماه. فقلت: وعليك السلام يا قرة عيني وثمرة فؤادي. فقال لي: يا أماه، إني أشم عندك رائحة طيبة كأنها رائحة جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقلت: نعم يا ولدي إن جدك تحت الكساء. تقول فاطمة الزهراء عليها السلام: فأقبل الحسن عليه السلام نحو الكساء وقال: السلام عليك يا جداه، السلام عليك يا رسول الله، أتأذن لي أن أدخل معك تحت الكساء؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: وعليك السلام يا ولدي وصاحب حوضي، قد أذنت لك. فدخل معه تحت الكساء.

تقول الزهراء سلام الله عليها: فما كانت إلا ساعة وإذا بولدي الحسين عليه السلام أقبل وقال: السلام عليك يا أماه. فقلت وعليك السلام يا قرة عيني وثمرة فؤادي. فقال لي: يا أماه إني لأشم عندك رائحة طيبة كأنها رائحة جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقلت: نعم يا بني، إن جدك وأخاك تحت الكساء. قالت: فدنى الحسين عليه السلام من الكساء فقال: السلام عليك يا جداه، السلام عليك يا من إختاره الله، أتأذن لي أن أكون معكما تحت هذا الكساء؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلّم: وعليك السلام يا ولدي وشافع أمتي قد أذنت لك. فدخل معهما تحت الكساء.

تقول فاطمة الزهراء عليها السلام: فأقبل بعد ذلك أبو الحسن علي بن أبي طالب عليه السلام وقال: السلام عليك يا بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقلت: وعليك السلام يا أبا الحسن يا أمير المؤمنين. فقال: يا فاطمة إني لأشم عندك رائحة طيبة كأنها رائحة أخي وابن عمي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقلت: نعم، هاهو مع ولديك تحت الكساء. فأقبل أمير المؤمنين عليه السلام نحو الكساء وقال: السلام عليك يا رسول الله صلى الله عليك وآلك، أتأذن لي أن أكون معكم تحت هذا الكساء؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: وعليك السلام يا أخي وخليفتي وصاحب لوائي، قد أذنت لك. فدخل علي عليه السلام معهم تحت الكساء.

ثم أتيتُ وقلت: السلام عليك يا أبتاه، السلام عليك يا رسول الله صلى الله عليك وعلى آلك، أتأذن لي أن أدخل معكم تحت الكساء؟ فقال لها: وعليك السلام يا إبنتي وبضعتي، قد أذنت لك. فدخلت فاطمة معهم.

فلما إكتملوا جميعا تحت الكساء أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بطرفي الكساء وأومأ بيده اليمنى إلى السماء وقال: اللهم إن هؤلاء أهل بيتي وخاصتي وحامتي، لحمهم لحمي ودمهم دمي، يؤلمني ما يؤلمهم، يجرحني

ما يجرحهم، أنا حرب لمن حاربهم وسلم لمن سالمهم وعدو لمن عاداهم ومحب لمن أحبهم. إنهم مني وأنا منهم. فإجعل صلواتك وبركاتك ورحمتك وغفرانك ورضوانك علي وعليهم وأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

فسمع صلى الله عليه وآله نداء ربه سبحانه وتعالى مخاطبا ملائكته وسكان سماواته: يا ملائكتي ويا سكان سماواتي إني ما خلقت سماء مبنية ولا أرضا مدحية ولا قمرا منيرا ولاشمسا مضيئة ولافلكا يدور ولا بحرا يجري إلا في محبة هؤلاء الخمسة الذين هم تحت الكساء. فقال الأمين جبرئيل عليه السلام: يا رب ومن تحت الكساء؟ فقال الله عزّ وجل: هم أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة وهم فاطمة وأبوها وبعلها وبنوها. فقال جبرئيل: يا رب، أتأذن لي أن أهبط إلى الأرض لأبشرهم وأكون معهم سادسا؟ فقال الله عزّوجل: قد أذنت لك.

هبط الأمين جبرئيل وقال: السلام عليك يا رسول الله صلى الله عليك وعلى آلك. العلي الأعلى يقرئك السلام ويخصك بالتحية والإكرام ويقول لك: وعزتي وجلالي إني ما خلفت سماء مبنية ولا أرضا مدحية ولا قمرا منيرا ولا شمسا مضيئة ولا فلكا يدور ولا بحرا يجري ولا فُلكا تسري إلا لأجلكم، وقد أذن لي أن أدخل معكم تحت الكساء فهل تأذن لي أنت أن أدخل يا رسول الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: وعليك السلام يا أمين وحي الله، قد أذنت لك.

دخل جبرئيل معهم تحت الكساء فقال لهم: إن الله قد أوحى إليكم يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيْدُ الله لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهَلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُم تَطْهِيْرا.﴾

هذه الآية والمناسبة تبين من هم آل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا وهم الرسول وابن عمه وابنته وسبطاه، بإجماع المسلمين. فحديث الكساء يرويه الترمذي والحاكم والبيهقي ومسلم والأمام

أحمد في مسنده، بالإضافة إلى كل الرواة الشيعة.

ولم يقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند التأكيد على أهمية هذه الآية وهذا الحديث، بل أراد أن يُرّسخ ما جاء في الآية في قلوب وعقول المسلمين فأخذ يطبق ما جاء فيها عمليا وبإستمرار. يذكر السيوطي في الدر المنثور عن أبي الحمراء وهو من أصحاب رسول الله أنه قال: حفظت من رسول الله ثمانية أشهر بالمدينة ليس يخرج مرة إلى صلاة إلا أتي إلى باب علي فوضع يده على جنبتي الباب ثم قال: الصلاة الصلاة، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا.

وعن ابن عباس قال: شهدنا رسول الله تسعة أشهر يأتي كل يوم باب علي بن أبي طالب عند وقت كل صلاة فيقول: السلام عليكم ورحمة الله أهل البيت، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ويطهركم تطهيرا. وهكذا روى أيضا الإمام مالك وغيره من أئمة المسلمين.

طهارة علي بن أبي طالب وأهل البيت عليهم السلام طهارة سماوية رافقتهم منذ كانوا أنوارا محدقين بعرش الرحمن حتى إنتقالهم في الأصلاب الشامخة ونزولهم إلى أرض الدنيا وبعد خروجهم منها وإنتقالهم لدار الآخرة وستبقى إلى أبد الآبدين. طهارة ربانية بمشيئة إلهية لا يستطيع إنسان مهما أوتي من البيان وصفها أو الوصول إلى غايتها. و فيهم يقول أبو نوّاس:

مطهرون نقيـــــات ثيــابهـــم	تجري الصلاة عليهم أينما ذكروا
من لــم يكن علويا حــين تنسبــه	فما له من قديم الدهر مفتخـر
فالله لما بـــــدا خلقا فأتقنـــه	صفاكم واصطفاكم أيها البشـر
فـــــأنتم الملأ الاعلى وعندكـم	علم الكتاب وما جاءت به السـور

الشمعة السابعة عشرة
باب مدينة علـم رسول الله

يقول عبدالله بن مسعود بينما المسلمون مجتمعون مع رسول الله صلى الله عليه وآله و لم في مسجده إذ إستدعى علي بن أبي طالب عليه السلام. فلما قرب منه قام رسول الله وإختلى بعلي لفترة من الوقت والمسلمون يراقبون وهم في شوق لمعرفة ما يدور بينهما. وبعد فترة أنهيا خلوتهما وعاد الرسول إلى صدر المسجد. فتوجه بن مسعود وبعض الأصحاب إلى علي بن أبي طالب وسألوه: مالذي عهد به إليك رسول الله؟ فقال: علّمني ألف باب من العلم، يُفتح لي من كل باب ألف باب. ويضيف ابن مسعود: ثم أدرنا سمعنا إلى رسول الله وسمعناه يقول: "أنا مدينة العلم و علي بابها فمن أراد العلم فليأت من الباب."

لم يكن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليختار علي بن أبي طالب لحمل علمه لأنه ابن عمه أو لأنه زوج إبنته ولكن لكونه المؤهل الوحيد بين الناس لحمل هذه الأمانة المهمة والصعبة والقادر على تأديتها دون غيره. فلقد أعدّه منذ صغره لتولي هذه المسؤولية الصعبة والشاقة. فعلم رسول الله لا يمكن لأي بشر حمله، ما لم يُعد ويهيأ لذلك إعدادا وتهيئة دقيقة ومنظمة. هذا بالإضافة إلى كون علمه أمانة يحتاج إلى من يصونها وتركة تحتاج إلى من يُنّميها ويستثمر فيها ولها ويوصلها إلى مستحقيها بالتمام والكمال وبالصورة التي تليق بالمُؤتمن والمؤتمن و لأمانة نفسها. لذلك جاء إعداد رسول الله لعلي بن أبي طالب ليكون قادرا لحمل هذه الأمانة الصعبة والكبيرة وصيانتها وتنميتها. وبعد أن أصبح علي قادرا على ذلك أعلنها الرسول صريحة واضحة جلية بأنه مدينة العلم وعلي بابها ومن أراد الدخول إلى تلك المدينة الوارفة

والمثمرة عليه الدخول من الباب وإتباع الإرشادات التي يضعها القيّم على تلك الدوحة ومتعهدها.

وكان أمير المؤمنين عليه السلام عند مستوى المسئولية والقدرة على تحمّل الأمانة. لقد أثبت وبالطرق الحية و الملموسة أن إختيار الرسول له لم يأت من فراغ أو لقرابة أو مصاهرة أو مجاملة بل لأنه بالفعل هو المؤهل الوحيد بين القوم لأن يكون مستودع علم الرسول. لم يقنع الإمام بالمحافظة على الأمانة التي أودعه إياها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلّم بل أخذ يُنّمي ما منحه الله سبحانه وتعالى له عن طريق رسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلّم ثم يقوم بشرحه وتبسيطه للناس بحيث يجعله مشاعا للناس ينهلون منه أينما وكيفما و متى ما أرادوا. ولم يكتف بذلك، بل ذهب هو بنفسه إليهم يُعلمهم ويُثقفهم ويعرض عليهم علمه ويجعل ما عنده من علم قريبا منهم وسهّل لهم طرق الوصول إليه و الغرف منه.

فبعد أن أخذ الإسلام في الإنتشار وقوية شوكة المسلمين شرع الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وبمساعدة بن عمّه عبدالله بن العباس وعدد من الصحابة في تثقيف وتعليم المجتمع الإسلامي محاولا إنقاذ ذلك المجتمع من الجهالة والإنتقال به إلى صفوف التحّضر والرقي. فوضع برنامجا لتعليم أبناء المجتمع وتلقيهم علوم دينهم ودنياهم وإتفق مع بن عباس على التناوب في إلقاء المحاضرات. وكان إهتمامه عليه السلام منصبا على الناشئة من أبناء المسلمين ومن لم يخالط الشرك والجهالة بعد عقولهم أو لم يتمكنا منهم. فأوجد جيلا شابا شغوفا بالمعرفة متطلعا إلى نهل المزيد منها باذلا أقصى الجهود في سبيل تحصيل العلم و الثقافة.

ولما رأى أن اللغة العربية تحتاج إلى عملية ضبط، بعد أن أصبحت

عرضة لغزو الكلمات الأعجمية مما أحدث بها بعض التشوهات، إبتكر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام علم النحو ودعا أبا الأسود الدؤلي، وهو من المهتمين باللغة، وعلّمه أصول النحو وطلب منه نشر هذا العلم قائلا له: إنح هذا النحو. وبذلك كان أول مبتكر لهذا العلم وأول من أخذ على عاتقه حماية لغة الضاد من الغزو الأعجمي لمفرداتها و كلماتها.

ثم ركّز بعد ذلك على علم الفصاحة و البلاغة وأقام حلقات متخصصة في بحث و دراسة علم البلاغة والبيان. وإستخدم الجانب الديني في هذا الموضوع ليقرب هذا العلم من ناشديه و الراغبين فيه. ويتفق علماء اللغة بأن إستخدام أمير المؤمنين عليه السلام للدين في نشر علم البلاغة والبيان دليل على حكمة وحنكة هذا المدرس العظيم والموجه الفذ والمربي الفاضل. فبإستخدامه قنوات معرفة الله وشكره على أنعمه و التعرف على مخلوقاته وكيف خلقها وأنشأها أوصل لتلامذته عدة علوم في وقت واحد و في درس واحد. فهو بذلك كرّس الجانب الديني ونمّاه عند مستقبلي ذلك العلم وعلّمهم البلاغة وحسن الكلام والمنطق وأعطاهم دروسا في الطبيعة والفيزياء والتاريخ والعلوم الأخرى عن طريق شرحه لعملية الخلق وكيفية خلقها وفوائد المخلوقات. وهذه وسيلة تعليم وإيضاح وتبسيط في توصيل المعلومة لم يتوصل إليها أحد قبله ولم يحدثنا التاريخ بعد بأن هناك من إستخدمها بعده.

فمن خطبه ومحاضراته الفريدة والبليغة والشاملة والعلمية والشارحة لعلم الطبيعة والفيزياء والفلك خطبة بيّن فيها كيف خلق الله السماوات والأرضين والماء والهواء والكائنات وكيف خلق الملائكة وأبا البشر آدم وكيف إصطفى رسله وخلقهم وبعثهم حتى وصلت الرسالة إلى النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلّم. يقول عليه السلام في تلك الخطبة: "الحَمْدُ للهِ الَّذي لاَ يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ القَائِلُونَ، وَلا يُحْصي نَعْمَاءَهُ العَادُّونَ، ولاَ يُؤَدِّي حَقَّهُ الُمجْتَهِدُونَ، الَّذِي لاَ يُدْرِكُهُ بُعْدُ الهِمَمِ، وَلاَ يَنَالُهُ غَوْصُ الفِطَنِ، الَّذِي لَيْسَ

لصفَته حَدٌّ مَحْدُودٌ، وَلاَ نَعتٌ مَوْجُودٌ، وَلا وَقتٌ مَعْدُودٌ، وَلا أَجَلٌ مَمْدُودٌ. فَطَرَ الخَلائَقَ بقُدْرَته، وَنَشَرَ الرِّيَاحَ برَحْمَته، وَوَتَّدَ بالصُّخُور مَيدَانَ أَرْضه. أَوّلُ الدِّين مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ مَعْرِفَته التَّصْديقُ به، وَكَمَالُ التَّصْديق به تَوْحيدُهُ، وَكَمَالُ تَوْحيده الاْخْلاصُ لَهُ، وَكَمَالُ الاْخْلاص لَهُ نَفْيُ الصِّفَات عَنْهُ، لشَهَادَة كُلِّ صفَة أَنَّها غَيْرُ المَوْصُوف، وَشَهَادَة كُلِّ مَوْصُوف أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَة، فَمَنْ وَصَفَ اللهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ،وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَد جَزَّأَهُ، وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهلَهُ، وَمَنْ جَهلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إلَيْه، وَمَنْ أَشَارَ إلَيْه فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ قَالَ: «فيمَ» فَقَدْ ضَمَّنَهُ، وَمَنْ قَالَ: «عَلامَ؟» فَقَدْ أَخْلَى منْهُ.

كائنٌ لاَ عَنْ حَدَث، مَوْجُودٌ لاَ عَنْ عَدَم، مَعَ كُلِّ شَيْء لاَ بمُقَارَنَة، وَغَيْرُ كُلِّ شيء لا بمُزَايَلَة، فَاعلٌ لا بمَعْنَى الْحَرَكَات وَالآلة، بَصيرٌ إذْ لاَ مَنْظُورَ إلَيْه منْ خَلْقه، مُتَوَحِّدٌ إذْ لاَ سَكَنَ يَسْتَأْنسُ به وَلاَ يَسْتَوْحشُ لفَقْده. أَنْشَأَ الخَلْقَ إنْشَاءً، وَابْتَدَأَهُ ابْتدَاءً، بلاَ رَوِيَّة أَجَالَهَا، وَلاَ تَجْربَة اسْتَفَادَهَا، وَلاَ حَرَكَة أَحْدَثَهَا، وَلاَ هَمَامَة نَفْس اضْطَرَبَ فيهَا.

أَحَالَ الأشياءَ لأَوْقَاتهَا، وَلاَمَ بَيْنَ مُخْتَلفَاتهَا، وَغَرَّزَ غَرائزَهَا، وَأَلزَمَهَا أَشْبَاحَهَا، عَالماً بهَا قَبْلَ ابْتدَائهَا، مُحيطاً بحُدُودها وَانْتهَائهَا، عَارفاً بقَرَائنها وَأَحْنَائهَا. ثُمَّ أَنْشَأَ ـ سُبْحَانَهُ ـ فَتْقَ الأَجْوَاء، وَشَقَّ الأَرْجَاء، وَسَكَائكَ الهَوَاء، فأَجازَ فيهَا مَاءً مُتَلاطماً تَيَّارُهُ، مُتَراكماً زَخَّارُهُ، حَمَلَهُ عَلَى مَتْن الرِّيح العَاصفَة، وَالزَّعْزَع القَاصفَة، فَأَمَرَها بردِّه، وَسَلَّطَهَا عَلَى شَدِّه، وَقَرَنَهَا إلَى حَدِّه، الهَوَاءُ منْ تَحْتهَا فَتيقٌ، وَالمَاءُ منْ فَوْقهَا دَفيقٌ.

ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ ريحاً اعْتَقَمَ مَهَبَّهَا، وَأَدَامَ مُرَبَّهَا، وَأَعْصَفَ مَجْرَاها، وَأَبْعَدَ مَنْشَاهَا، فَأَمَرَها بتَصْفيق المَاء الزَّخَّار، وَإثَارَة مَوْج البحَار، فَمَخَضَتْهُ مَخْضَ السِّقَاء، وَعَصَفَتْ به عَصْفَهَا بالفَضَاء، تَرُدُّ أَوَّلَهُ عَلَى آخره، وَسَاجيَهُ عَلَى مَائره، حَتَّى عَبَّ عُبَابُهُ، وَرَمَى بالزَّبَد رُكَامُهُ، فَرَفَعَهُ في هَوَاء مُنْفَتق، وَجَوّ

مُنْفَهِق، فَسَوَّى مِنْهُ سَبْعَ سَموات، جَعَلَ سُفْلاهُنَّ مَوْجاً مَكْفُوفاً، وَعُلْيَاهُنَّ سَقْفاً مَحْفُوظاً، وَسَمْكاً مَرْفُوعاً، بِغَيْر عَمَد يَدْعَمُهَا، وَلا دِسَار يَنْظِمُهَا. ثُمَّ زَيَّنَهَا بِزِينَة الكَوَاكِب، وَضِيَاء الثَّوَاقِب، وَأَجْرَى فِيهَا سِرَاجاً مُسْتَطِيراً، وَقَمَراً مُنِيراً: فِي فَلَك دَائِر، وَسَقْف سَائِر، وَرَقِيم مَائِر.

ثُمَّ فَتَقَ مَا بَيْنَ السَّموات العُلاَ، فَمَلاَهُنَّ أَطْواراً مِنْ مَلائكَته: مِنْهُمْ سُجُودٌ لاَيَرْكَعُونَ، وَرُكُوعٌ لاَ يَنْتَصِبُونَ، وَصَافُّونَ لاَ يَتَزَايَلُونَ، وَمُسَبِّحُونَ لاَ يَسْأَمُونَ، لاَ يَغْشَاهُمْ نَوْمُ العُيُونِ، وَلاَ سَهْوُ العُقُولِ، وَلاَ فَتْرَةُ الأَبْدَانِ، وَلاَ غَفْلَةُ النِّسْيَانِ. وَمِنْهُمْ أُمَنَاءُ عَلَى وَحْيِه، وأَلسِنَةٌ إِلَى رُسُلِه، وَمُخْتَلِفُونَ بِقَضَائِه وَأَمْرِه. وَمِنْهُمُ الحَفَظَةُ لِعِبَادِه، وَالسَّدَنَةُ لأَبْوَابِ جِنَانِه. وَمِنْهُمُ الثَّابِتَةُ فِي الأَرَضِينَ السُّفْلَى أَقْدَامُهُمْ، وَالمَارِقَةُ مِنَ السَّمَاءِ العُلْيَا أَعْنَاقُهُمْ، والخَارِجَةُ مِنَ الأَقْطَارِ أَرْكَانُهُمْ، وَالمُنَاسِبَةُ لِقَوَائِم العَرْش أَكْتَافُهُمْ، نَاكِسَةٌ دُونَهُ أَبْصارُهُمْ، مُتَلَفِّعُونَ تَحْتَهُ بِأَجْنِحَتِهِمْ، مَضْرُوبَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ دُونَهُمْ حُجُبُ العِزَّة، وَأَسْتَارُ القُدْرَة، لاَ يَتَوَهَّمُونَ رَبَّهُمْ بِالتَّصْوِير، وَلاَ يُجْرُونَ عَلَيْه صِفَاتِ المَصْنُوعِينَ، وَلاَ يَحُدُّونَهُ بِالأَمَاكِنِ، وَلاَ يُشِيرُونَ إِلَيْه بِالنَّظَائِر.

ثُمَّ جَمَعَ سُبْحَانَهُ مِنْ حَزْنِ الأَرْض وَسَهْلِهَا، وَعَذْبِهَا وَسَبَخِهَا، تُرْبَةً سَنَّهَا بِالمَاء حَتَّى خَلَصَتْ، وَلاَطَهَا بِالبَلَّة حَتَّى لَزَبَتْ، فَجَبَلَ مِنْهَا صُورَةً ذَاتَ أَحْنَاء وَوُصُول، وَأَعْضَاء وَفُصُول: أَجْمَدَهَا حَتَّى اسْتَمْسَكَتْ، وَأَصْلَدَهَا حَتَّى صَلْصَلَتْ، لِوَقْت مَعْدُود، وَأَجَل مَعْلُوم، ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِه فَمَثُلَتْ إِنْسَاناً ذَا أَذْهَان يُجِيلُهَا، وَفِكَر يَتَصَرَّفُ بِهَا، وَجَوَارِحَ يَخْتَدِمُهَا، وَأَدَوَات يُقَلِّبُهَا، وَمَعْرِفَة يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِل، وَالأَذْوَاق وَالمَشَامِّ، وَالأَلْوَانِ وَالأَجْنَاس، مَعْجُوناً بِطِينَة الأَلْوَانِ المُخْتَلِفَة، وَالأَشْبَاه المُؤْتَلِفَة، وَالأَضْدَاد المُتَعَادِيَة، وَالأَخْلاط المُتَبَايِنَة، مِنَ الحَرِّ وَالبَرْد، وَالبَلَّة وَالجُمُود، وَالمَسَاءَة وَالسُّرُور، وَاسْتَأْدَى اللهُ سُبْحَانَهُ المَلائكَةَ وَدِيعَتَهُ لَدَيْهِمْ، وَعَهْدَ وَصِيَّتِه إِلَيْهِمْ، فِي الإِذْعَانِ بِالسُّجُود لَهُ، وَالخُنُوعِ لِتَكْرِمَتِه، فَقَالَ عزَّمن قائل: (اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ) وَقَبِيلَهُ،

اعْتَرَتْهُمُ الحَمِيَّةُ، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِمُ الشِّقْوَةُ، وَتَعَزَّزُوا بِخِلْقَةِ النَّارِ، وَاسْتَوْهَنُوا خَلْقَ الصَّلْصَالِ، فَأَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَى النَّظِرَةَ اسْتِحْقَاقاً لِلسُّخْطَةِ، وَاسْتِتْمَاماً لِلْبَلِيَّةِ، وَإِنْجَازاً لِلْعِدَةِ، فَقَالَ: (إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ).

ثُمَّ أَسْكَنَ سُبْحَانَهُ آدَمَ دَاراً أَرْغَدَ فِيهَا عَيْشَهُ، وَآمَنَ فِيهَا مَحَلَّتَهُ، وَحَذَّرَهُ إِبْلِيسَ وَعَدَاوَتَهُ، فَاغْتَرَّهُ عَدُوُّهُ نَفَاسَةً عَلَيْهِ بِدَارِ الْمُقَامِ، وَمُرَافَقَةِ الأَبْرَارِ، فَبَاعَ الْيَقِينَ بِشَكِّهِ، وَالعَزِيمَةَ بِوَهْنِهِ، وَاسْتَبْدَلَ بِالْجَذَلِ وَجَلاً، وَبِالاغْتِرَارِ نَدَماً. ثُمَّ بَسَطَ اللهُ سُبْحَانَهُ لَهُ فِي تَوْبَتِهِ، وَلَقَّاهُ كَلِمَةَ رَحْمَتِهِ، وَوَعَدَهُ المَرَدَّ إِلَى جَنَّتِهِ، فَأَهْبَطَهُ إِلَى دَارِ البَلِيَّةِ، وَتَنَاسُلِ الذُّرِّيَّةِ.

وَاصْطَفَى سُبْحَانَهُ مِنْ وَلَدِهِ أَنْبِيَاءَ أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ، وَعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ، لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِهِ عَهْدَ اللهِ إِلَيْهِمْ، فَجَهِلُوا حَقَّهُ، وَاتَّخَذُوا الأَنْدَادَ مَعَهُ، وَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، وَاقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ، فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ، وَيُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ: مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ، وَمِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ، وَمَعَايِشَ تُحْيِيهِمْ، وَآجَالٍ تُفْنِيهِمْ، وَأَوْصَابٍ تُهْرِمُهُمْ، وَأَحْدَاثٍ تَتَابَعُ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يُخْلِ اللهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ، أَوْ حُجَّةٍ لازِمَةٍ، أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ، رُسُلٌ لا تُقَصِّرُ بِهِمْ قِلَّةُ عَدَدِهِمْ، وَلاَ كَثْرَةُ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ: مِنْ سَابِقٍ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَهُ، أَوْ غَابِرٍ عَرَّفَهُ مَنْ قَبْلَهُ.

عَلَى ذَلِكَ نَسَلَتِ الْقُرُونُ، وَمَضَتِ الدُّهُورُ، وَسَلَفَتِ الآبَاءُ، وَخَلَفَتِ الأَبْنَاءُ. إِلَى أَنْ بَعَثَ اللهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّداً (صلى الله عليه وآله) لإِنْجَازِ عِدَتِهِ وَتَمَامِ نُبُوَّتِهِ، مَأْخُوذاً عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ، مَشْهُورَةً سِمَاتُهُ، كَرِيماً مِيلادُهُ. وَأَهْلُ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وَأَهْوَاءٌ مُنْتَشِرَةٌ، وَطَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ، بَيْنَ مُشَبِّهٍ لِلَّهِ بِخَلْقِهِ، أَوْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ، فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلاَلَةِ،

وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكانِهِ مِنَ الجَهَالَةِ.»

هذه الخطبة أو المحاضرة ما هي إلا واحدة من خطب ومحاضرات وكتب ووصايا وتوجيهات ألقاها وأصدرها عليه السلام في مسعاه لتعليم وتثقيف الأمة الإسلامية. من تلك الخطب أيضا الخطبة المعروفة بخطبة «الأشباح» يصف فيها كيفية خلق السماوات والأرض والسحاب وخطبة أخرى في «كيفية خلق الإنسان» وخطبة غيرها في وصف الخفاش وخطب كثيرة في محاسن الأخلاق إلى غير ذلك من الخطب والمحاضرات والكتب التي جمعها الشريف الرضي (رض) في نهج البلاغة.

بالإضافة إلى ذلك إستخدم الدعاء أيضا لنشر المعرفة والثقافة وما «دعاء كميل» الذي علّمه إلى كميل بن زياد النخعي إلا واحدا من تلك الأدعية الكثيرة الجامعة للعبادة والمعرفة و الثقافة والعلم و الإيمان. وكذلك هو الحال مع دعاء الصباح وغيره مع الأدعية المروية عنه عليه السلام.

كما كان عليه السلام أول من أنشأ علم تدريب المُدرب، أي تهيئة مدرسين يقومون بنشر العلوم الدينية و الدنيوية. فقسّم و قت محاضراته إلى فترتين. في الفترة الأولى تكون محاضراته عامة وموجهة إلى عامة الناس. و ي الفترة الثانية تكون المحاضرات مركّزة وموجهة إلى مجموعة مختارة ممن منّ الله عليهم برجاحة العقل والذكاء من الأصحاب مثل عمار بن ياسر وميثم التمّار ومحمد بن أبي بكر وآخرين غيرهم وذلك بغرض إعدادهم كمدرسين وعلماء و قادة مجتمع و مثقفين.

ولم يكن عليه السلام مختصا بعلم دون غيره فهو أستاذ كل العلوم وكل نواحي المعرفة. فهو المعلم و المربي وأفضل عالم بعلوم القضاء والتشريح والجينيات والوراثة والتاريخ والقضاء والإقتصاد والسياسة والعلوم الحربية

وغيرها من العلوم التي لم يسبقه أحد إليها. و سنتطرق إلى كل علم في بابه.

عرف أن العلم هو مفتاح الخير والنمو والتقدم ونشر الفضيلة وهو أيضا الطريق الذي يقود إلى معرفة الله سبحانه وتعالى معرفة صحيحة وحقيقية. فكان هدفه الرئيسي وبرنامجه الأساسي. وضع أسسا واضحة ومشجعه تستقطب إهتمام المسلمين بطلب العلم وجعل العلم والمعرفة معيارا لتقييم الإنسان مخالفا وكاسرا بذلك القاعدة والمعايير السائدة في ذلك الوقت وفي المجتمع القرشي بالذات كالنسب والمال والجاه. فهاهو يقول:

النـاس من جهـــــة التمثال أكفـاء	أبوهـم آدم و الأم حـــواء
نفس كـــــــنفس و أرواح مشاكلـــة	و أعظُم خُلقت فيها و أعضـــاء
و إنمـــــــــا أمهات الناس أوعيـــة	مستودعات و للأحسـاب آبـاء
فإن يكـن لهـم من أصلهم شـــرف	يفاخرون به فالطيـن و المـاء
مالفضل إلا لأهل العـــــلم إنهــم	على الهـدى لمن إستهـدى أدلاء
و قيمـة المرء مـــا قد كان يحسنـــه	و للرجال على الأفعال أسمـــاء
و ضدُّ كل إمرء ما كـــــان يجهلـــه	و الجاهلـون لأهل العلـم أعـداء
و إن أتيت بفخــــــر من ذوي نسـب	فإن نسبتنـا جـود و عليـاء
فقم بعلم و لا تطلـب بــــــه بـدلا	فالنـاس موتـى و أهـل العلم أحيـاء

وعن علمه عليه السلام وتعهده العلماء يروي كُمَيْل بن زياد قائلا: أخذ بيدي أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فأخرجني إلى الجبّان (المقبرة)، فلمّا أصحر (صار في الصحراء) تنفّس الصّعَدَاء، ثمّ قال: «يَا كُمَيْل بْن زِيَاد، إنَّ هذه الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ، فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا، فَاحْفَظْ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ: النَّاسُ ثَلاَثَةٌ: فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاة، وَهَمَجٌ رَعَاعٌ، أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِق، يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيح، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْجَؤُوا إِلَى رُكْن وَثِيق. يَا كُمَيْلُ، الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ المَالِ: الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ المَالَ، وَالمَالُ

تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ، وَالْعِلْمُ يَزْكُوعَلَى الإِنْفَاقِ، وَصَنِيعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِه. يَا كُمَيْل بْن زِيَاد، مَعْرِفَةُ الْعِلْم دِينٌ يُدَانُ بِه، بِه يَكْسِبُ الإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِه، وَجَمِيلَ الأُحْدُوثَة بَعْدَ وَفَاتِه، وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ، وَالْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْه. يَا كُمَيْل بْن زِيَاد، هَلَكَ خُزَّانُ الأَمْوَال وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ: أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ، أَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوب مَوْجُودَةٌ. هَا إِنَّ هَا هُنَا لَعِلْماً جَمّاً (وَأَشَارَ إِلى صَدره) لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً! بَلَى أَصَبْتُ لَقِناً غَيْرَ مَأْمُون عَلَيْه، مُسْتَعْمِلاً آلَةَ الدِّين لِلدُّنْيَا، وَمُسْتَظْهِراً بِنِعَمِ اللَّه عَلَى عِبَادِه، وَبِحُجَجِه عَلَى أَوْلِيَائِه، أَوْ مُنْقَاداً لِحَمَلَةِ الْحَقِّ، لا بَصِيرَةَ لَهُ فِي أَحْنَائِه، يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِه لأَوَّلِ عَارِض مِنْ شُبْهَة. أَلا لا ذَا وَلاَ ذَاكَ! أَوْ مَنْهُوماً بِاللَّذَّة، سَلِسَ الْقِيَاد لِلشَّهْوَة، أَوْ مُغْرَماً بِالْجَمْع وَالادِّخَار، لَيْسَا مِنْ رُعَاة الدِّين فِي شَيْء، أَقْرَبُ شَيْء شَبَهاً بِهِمَا الأَنْعَامُ السَّائِمَةُ! كَذلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ بِمَوْت حَامِلِيه. اللَّهُمَّ بَلَى! لا تَخْلُو الأَرْضُ مِنْ قَائِم للَّه بِحُجَّة، إِمَّا ظَاهِراً مَشْهُوراً، أَوْ خَائِفاً مَغْمُوراً، لِئَلاَّ تَبْطُلَ حُجَجُ اللَّه وَبَيِّنَاتُهُ. وَكَمْ ذَا وَأَيْنَ أُولَئِكَ؟ أُولئِكَ - وَاللَّه - الأَقَلُّونَ عَدَداً، وَالأَعْظَمُونَ قَدْراً، يَحْفَظُ اللَّه بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِه، حَتَّى يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ، وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوب أَشْبَاهِهِمْ، هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَة الْبَصِيرَة، وَبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِين، وَاسْتَلانُوا مَا اسْتَوْعَرَهُ الْمُتْرَفُونَ، وَأَنِسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ، وَصَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَان أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الأَعْلَى، أُولئِكَ خُلَفَاءُ اللَّه فِي أَرْضِه، وَالدُّعَاةُ إِلَى دِينِه، آه آه شَوْقاً إِلَى رُؤْيَتِهِمْ! انْصَرِفْ إِذَا شِئْتَ.»

الشمعة الثامنة عشرة
قمة الإخلاص والحب لله وللرسول

الحب يبلغ الكمال والمثالية عندما يكون متبادلا بين أطرافه. كل طرف يبادل الطرف الآخر نفس المستوى والقوة من الحب والمودة والعشق. وهكذا كان حال الحب بين الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وبين الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلّم. هذة العلاقة ثلاثية القطب قدّمت أروع الأمثلة وافضلها على الحب الصحيح والسليم وقدّمت صورا وأمثلة واضحة ورائعة على الحب الحقيقي كيف ينشأ وكيف يتم تعهده والمحافظة عليه وصيانته وتقويته.

في البحار للمجلسي وخصائص أمير المؤمنين عليه السلام للنسائي وكتب ومراجع كثيرة غيرها عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عن آبائه عن علي بن أبي طالب عليهم السلام أن أمير المؤمنين قال: كنت أنا ورسول الله صلى الله عليه وآله في المسجد بعد أن صلى الفجر ثم نهض ونهضت معه وكان صلى الله عليه وآله إذا أراد أن يتجه إلى موضع أعلمني بذلك وكان إذا أبطأ في ذلك الموضع صرت إليه لأعرف خبره لأنه ينقاد قلبي على فراقه ساعة واحدة. فقال لي: أنا متجه إلى بيت عائشة. فمضى رسول الله ومضيت (رجعت) إلى بيت فاطمة عليها السلام. فلم أزل معها ومعانا الحسن والحسين وأنا وهي مسروران بهما.

ثم نهضت وصرت إلى باب عائشة فطرقت الباب فقالت لي عائشة: من هنا؟ فقلت لها: أنا علي. فقالت إن النبي راقد. فإنصرفت. ثم قلت النبي راقد وعائشة في الدار (يقظة)؟ فرجعت وطرقت الباب فقالت لي: من

هذا؟ فقلت لها: أنا علي. فقالت: إن النبي على حاجة. فإنثنيت مستحيا من دق الباب ولكني وجدت في صدري ما لا أستطيع عليه صبرا. فرجعت مسرعا فدققت الباب دقا عنيفا. فقالت لي عائشة: من هذا؟ فقلت: أنا علي. فسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: يا عائشة إفتحي له الباب. ففتحت لي الباب ودخلت. فقال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إقعد يا أبا الحسن أحدثك بما أنا فيه وتحدثني بإبطائك عني. فقلت: يا رسول الله، حدثني فإن حديثك حسن.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا أبا الحسن كنت في كتمة من ألم الجوع، فلما دخلت بيت عائشة وأطلت القعود ليس عندها شيء تأتي به. فمددت يدي وسألت الله القريب المجيب، فهبط جبرئيل عليه السلام ومعه هذا الطير. ووضع رسول الله صلى الله عليه وآله يده على طائر وضع أمامه وقال إن جبرئيل قال: إن الله سبحانه وتعالى أمرني أن آخذ هذا الطير إليك وهو أطيب طعام في الجنة فأتيتك به يا محمد. ويواصل رسول الله حديثه قائلا: فحمدت الله عزوجل كثيرا، وبعد أن عرج أخي جبرئيل رفعت يدي إلى السماء وقلت: اللهم يسر لي عبدا يحبك ويحبني يأكل معي من هذا الطير، فمكثت مليا فلم أر أحدا يطرق الباب. بعدها سمعت طرقك الباب وإرتفاع صوتك فقلت لعائشة: أدخلي عليا. فدخلت، فلم أزل حامدا لله حتى بلغت إلي إذ كنت تحب الله وتحبني ويحبك الله وأُحبك فكل معي يا علي.

يقول علي بن أبي طالب عليه السلام: فلما أكلت أنا والنبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لي: يا علي حدثني (عن سبب تأخيرك). فقلت: يا رسول الله لم أزل منذ فارقتك مع فاطمة والحسن والحسين مسرورين جميعا ثم نهضت أريدك فطرقت الباب فقالت لي عائشة: من هذا. فقلت: أنا علي. فقالت إن النبي راقد فإنصرفت. فلما صرت في بعض الطريق قلت في نفسي: النبي راقد وعائشة في الدار، لا يكون هذا. فرجعت وطرقت الباب فقالت لي

عائشة: من هذا؟ فقلت: أنا علي. فقالت: إن النبي على حاجة. فإنصرفت مستحييا فلما إنتهيت إلى الموضع الذي رجعت منه في المرة الأولى وجدت في قلبي ما لا أستطيع عليه صبرا فرجعت. دققت الباب وسمعتك يا رسول الله تقول لعائشة: أدخلي عليا.

فقال النبي صلى الله عليه وآله و سلّم: أبى الله إلا أن يكون هذا. ثم نظر الى عائشة وسألها: يا حميراء، مالذي حمّلك على ذلك؟ فقالت عائشة: يا رسول الله سمعت دعائك فحببت أن يأتي أبي ليأكل معك من هذا الطير. فنظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعائشة نظرة رفق لأنه علم ما دفعها الى ذلك إلا حبها الفطري لأبيها وأمرها بأن تُغيّر موقفها من أمير المؤمنين لأنه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله. ثم قال لعلي: قم يا علي فقد وجبت صلاة الظهر. فقاما وذهبا إلى المسجد وأمر رسول الله صلى الله عليه بلال أن يرفع الأذان وصليا بعد ذلك.

وتمر السنون وينكث اليهود بعهودهم مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم، وهذا ديدنهم، فيقرر الرسول غزوهم وفتح حصونهم التي هي سبب غرورهم و تبجحهم. فهؤلاء قوم تغرّهم قوتهم ولا يمكن ترويضهم إلا بعد سلب تلك القوة منهم. فيذهب رسول الله إلى حصون اليهود في خيبر بالقرب من المدينة المنورة فيحاصرها. وبعد أن تم حصار الحصون دفع الرسول الراية إلى عدد من الأصحاب، كما بينا سابقا ، ولكنهم عجزوا عن فتحها وقفلوا خائبين. وبعد أن تلكأ الجميع قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قولته المشهورة: "سأعطي الراية غدا إلى رجل يحب الله ورسوله و يحبه الله ورسوله. لا يرجع حتى يفتح الله له وعلى يديه.» وكان ذلك الرجل هو علي بن أبي طالب عليه السلام الذي جيء به وبه ألم في عينه فمسح عليها الرسول فبرئت ثم حمل الراية وفتح الحصون.

ويكرر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تبيان ذلك الأمر، بأن علي بن أبي طالب عليه السلام يحب الله ورسوله ويحبه الله و سوله، في مواضع كثيرة منها في موقعة أحد وفي خطبته في غدير خم وفي مناسبات أخرى متعددة. ولم يكن الرسول يعمل ذلك جزافا ولا لأن علي بن أبي طالب إبن عمه بل لأن عليا عرف الله حق المعرفة فأحبه قبل أن يعبده وعبده بعد أن عرف أنه أهل للعبادة، كما يقول هو بنفسه حيث يصف عبادته لله بأنها ليست خوفا من ناره ولا طمعا في ثوابه وإنما وجده أهل للعبادة فعبده.

فالله سبحانه و تعالى بالنسبة للإمام علي عليه السلام ليس هو فقط الخالق والمتفضل والراحم والمنعم، بل أيضا هو المؤنس والمعشوق الذي لا يحس بالراحة والأمان إلا عنده والملجأ الذي لا يلتجىء إلا إليه والمقصد الذي يهدف اليه. فهاهو في أحد أدعيته يخاطب ربه قائلا: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ آنَسُ الآنِسِينَ لأَوْلِيَائِكَ، وَأَحْضَرُهُمْ بِالْكِفَايَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ، تُشَاهِدُهُمْ فِي سَرَائِرِهِمْ، وَتَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فِي ضَمَائِرِهِمْ، وَتَعْلَمُ مَبْلَغَ بَصَائِرِهِمْ، فَأَسْرَارُهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ، إِنْ أَوْحَشَتْهُمُ الْغُرْبَةُ آنَسَهُمْ ذِكْرُكَ، وَإِنْ صُبَّتْ عَلَيْهِمُ الْمَصَائِبُ لَجَأُوا إِلَى الاسْتِجَارَةِ بِكَ، عِلْماً بِأَنَّ أَزِمَّةَ الأُمُورِ بِيَدِكَ، وَمَصَادِرَهَا عَنْ قَضَائِكَ. اللَّهُمَّ إِنْ فَهِهْتُ عَنْ مَسْأَلَتِي، أَوْ عَمِيتُ عَنْ طِلْبَتِي، فَدُلَّنِي عَلَى مَصَالِحِي، وَخُذْ بِقَلْبِي إِلَى مَرَاشِدِي، فَلَيْسَ ذَاكَ بِنُكْرٍ مِنْ هِدَايَاتِكَ، وَلاَ بِبِدْعٍ مِنْ كِفَايَاتِكَ. اللَّهُمَّ احْمِلْنِي عَلَى عَفْوِكَ، وَلاَ تَحْمِلْنِي عَلَى عَدْلِكَ.»

لم تخلُ خطبة من خطبه عليه السلام ولا حديث من احاديثه من تعظيم خالقه وحبه له وذكر فضله ونعمه عليه. ففي خطبة من خطبه الكثيرة والمتعددة يبين عليه السلام حبه الواجب عليه لله سبحانه وتعالى ولماذا ذلك الحب واجب عليه وعلى غيره من الخلق فيقول: «الْحَمْدُ للهِ الَّذي بَطَنَ خَفِيَّاتِ الأُمُورِ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلاَمُ الظُّهُورِ، وَامْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ الْبَصِيرِ؛ فَلاَ عَيْنُ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ، وَلاَ قَلْبُ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُهُ، سَبَقَ فِي الْعُلُوِّ فَلاَ شَيءَ أَعْلَى مِنْهُ، وَقَرُبَ فِي الدُّنُوِّ فَلاَ

شَيْءَ أَقْرَبُ مِنْهُ، فَلاَ اسْتِعْلاَؤُهُ بَاعَدَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِه، وَلاَ قُرْبُهُ سَاوَاهُمْ فِي المَكَانِ بِه، لَمْ يُطْلِعِ العُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِه، وَلَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِه، فَهُوَ الَّذِي تَشْهَدُ لَهُ أَعْلاَمُ الْوُجُودِ، عَلَى إِقْرَارِ قَلْبِ ذِي الْجُحُودِ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُ الْمُشَبِّهُونَ بِهِ وَالْجَاحِدُونَ لَهُ عُلوّاً كَبِيراً!»

أحب الله حبا لم يصل إليه أحد غيره، بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. لذلك ليس جزافا أن يقول رسول الله فيه ما قال ويُميّزه عن بقية الأصحاب بأنه يحب الله ويُحبه الله. فكل الصحابة يعرفون الله ويحبونه ولكن ليس كما يعرفه ويحبه علي.

أما حبه لرسول الله صلى الله عليه وآله فلقد عرفه الداني والقاصي فهو الذي لم يذكر أي من المؤرخين وأرباب السير بأن عليا أجاب رسول الله يوما بغير «لبيك يا رسول الله، بأبي أنت و أمي.» وكلهم ذكروا إستبساله في الدفاع عن رسول الله في كل المواقع وأهمها يوم المبيت ويوم بدر وأحد، وما ذاك إلا لحبه لرسول الله. لم يكتف بحبه للرسول بل حث المسلمين على حب الرسول وبين لهم الأسباب التي تدعوه الى ذلك الحث، مبينا فضل الرسول ومكانته عند الله وكيف ان الله سبحانه وتعالى جعله سبب كل خير أنزله وينزله على البشرية.

وكما ضمّن الكثير من خطبه حمد الخالق سبحانه وتعالى وتمجيده ضمّنها أيضا فضل وبركات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، مجسدا حبه للرسول. ففي إحدى خطبه يصف إصطفاء الله لرسوله وفضل الرسول على البشرية قائلا: «حَتَّى أَفْضَتْ كَرَامَةُ الله سُبْحَانَهُ إِلَى مُحَمَّد (صلى الله عليه وآله)، فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ المَعَادِنِ مَنْبِتاً، وَأَعَزِّ الأَرُومَاتِ مَغْرِسا، مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءَهُ، وَانْتَجَبَ مِنْهَا أُمَنَاءَهُ. عِتْرَتُهُ خَيْرُ الْعِتَرِ، وَأُسْرَتُهُ خَيْرُ الأُسَرِ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ الشَّجَرِ؛ نَبَتَتْ فِي حَرَم، وَبَسَقَتْ فِي كَرَم،

لَهَا فُرُوعٌ طِوَالٌ، وَثَمَرٌ لاَيُنَالُ. فَهُوَ إِمَامُ مَنِ اتَّقَى، وَبَصِيرَةُ مَنِ اهْتَدَى، وسِرَاجٌ لَمَعَ ضَوْؤُهُ، وَشِهَابٌ سَطَعَ نُورُهُ وَزَنْدٌ بَرَقَ لَمْعُهُ؛ سِيرَتُهُ الْقَصْدُ، وَسُنَّتُهُ الرُّشْدُ، وَكَلاَمُهُ الْفَصْلُ، وَحُكْمُهُ الْعَدْلُ؛ أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَة مِنَ الرُّسُلِ، وَهَفْوَة عَنِ الْعَمَلِ، وَغَبَاوَة مِنَ الاُمَمِ...بَعَثَهُ وَالنَّاسُ ضُلاَّلٌ فِي حَيْرَة، وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنَة، قَدِ اسْتَهْوَتْهُمُ الاَهْوَاءُ، وَاسْتَزَلَّتْهُمُ الْكِبْرِيَاءُ، وَاسْتَخَفَّتْهُمُ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلاَءُ؛ حَيَارَى فِي زَلْزَال مَنَ الاْمْرِ، وَبَلاَء مِنَ الْجَهْلِ، فَبَالَغَ (صلى الله عليه وآله) فِي النَّصِيحَةِ، وَمَضَى عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَدَعَا إِلَى الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ.»

وفي خطبة أخرى يبدأ بدعاء الله للرسول مبينا فضل الرسول ومكانته ويُذيل دعائه بالطلب من الله ان يجمع بينه وبين الرسول الذي يحب ويعشق. يقول عليه السلام: « اللَّهُمَّ دَاحِيَ الْمَدْحُوَّاتِ، وَدَاعِمَ الْمَسْمُوكَاتِ، وَجَابِلَ الْقُلُوبِ عَلَى فِطْرَتِهَا: شَقِيِّهَا وَسَعِيدِهَا. اجْعَلْ شَرَائِفَ صَلَوَاتِكَ، وَنَوَامِيَ بَرَكَاتِكَ، عَلَى مُحَمَّد عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ، الْخَاتِمِ لِمَا سَبَقَ، وَالْفَاتِحِ لِمَا انْغَلَقَ، وَالْمُعْلِنِ الْحَقَّ بِالْحَقِّ، وَالدَّافِعِ جَيْشَاتِ الاْبَاطِيلِ، وَالدَّامِغِ صَوْلاَتِ الاْضَالِيلِ، كَمَا حُمِّلَ فَاضْطَلَعَ، قَائِماً بِأَمْرِكَ، مُسْتَوْفِزاً فِي مَرْضَاتِكَ، غَيْرَ نَاكِل عَنْ قُدُم، وَلاَ وَاه فِي عَزْم، وَاعِياً لِوَحْيِكَ، حَافِظاً لِعَهْدِكَ، مَاضِياً عَلَى نَفَاذِ أَمْرِكَ؛ حَتَّى أَوْرَى قَبَسَ الْقَابِسِ، وَأَضَاءَ الطَّرِيقَ لِلْخَابِطِ، وَهُدِيَتْ بِهِ الْقُلُوبُ بَعْدَ خَوْضَاتِ الْفِتَنِ، وَأَقَامَ مُوضِحَاتِ الاْعْلاَمِ، وَنَيِّرَاتِ الاْحْكَامِ، فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ، وَخَازِنُ عِلْمِكَ الْمَخْزُونِ، وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ، وَبَعِيثُكَ بِالْحَقِّ، وَرَسُولُكَ إِلَى الْخَلْقِ. اللَّهُمَّ افْسَحْ لَهُ مَفْسَحاً فِي ظِلِّكَ، وَاجْزِهِ مُضَاعَفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ. اللَّهُمَّ أَعْلِ عَلَى بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ، وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ مَنْزِلَتَهُ، وَأَتْمِمْ لَهُ نُورَهُ، وَاجْزِهِ مِنِ ابْتَعَاثِكَ لَهُ مَقْبُولَ الشَّهَادَةِ، مَرْضِيَّ الْمَقَالَةِ، ذَا مَنْطِق عَدْل، وَخُطّةٍ فَصْل. اللَّهُمَّ اجْمَعْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فِي بَرْدِ الْعَيْشِ، وَقَرَارِ النِّعْمَةِ، وَمُنَى الشَّهَوَاتِ، وَأَهْوَاءِ اللَّذَّاتِ، وَرَخَاءِ الدَّعَةِ وَمُنْتَهَى الطُّمَأْنِينَةِ، وَتُحَفِ الْكَرَامَةِ.»

لم يُحدّث التاريخ بأن أحدا وصف الله سبحانه وتعالى بما وصفه به

علي بن أبي طالب ولا أحدا قال في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما قاله فيه علي بن أبي طالب. وما ذلك إلا من فرط حبه لهما. ومن الطبيعي جدا أن يبادلاه حبا بحب أكبر منه. فالله سبحانه وتعالى هو الخالق والمحب لخلقه ورحمته تقتضي أن يكون هو السابق والمتفضل والمتكرم على عبده. لذلك فإن حبه لعلي لا بد أن يكون أكثر من حب علي له. كذلك هو الحال مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فحبه لعلي يفوق حب علي له. بهذا نال علي بن أبي طالب عليه السلام هذه المنزلة الرفيعة التي لم يحصل عليها أحد غيره «يُحب الله ورسوله ويُحبه الله ورسوله.»

الشمعة التاسعة عشرة
سدّ الرسول كل الأبواب إلا بابه

بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم إلى المدينة المنورة وإستقراره فيها، إتخذ من مسجده الشريف مكانا للتعليم والقاء المحاضرات والإلتقاء بالمسلمين، بالإضافة إلى إقامة الصلاة وأداء الفرائض. فكان مسجد الرسول هو المدرسة وقاعة المحاضرات وبيت الحكم والمجلس. وكان من الطبيعي ان يتواجد الرسول فيه طوال وقته العام. اصبح مسجد الرسول قبلة ومقصد كل المسلمين لا يمنعهم من الذهاب اليه إلا معايشهم وقضاء حوائجهم المعيشية والعائلية والشخصية. ولا غرابة في ذلك فهو المكان الذي يرون و يجتمعون فيه مع من يحبون ويجلون ومن لصحبته يتلهفون. هو المكان الذي يحصلون فيه على حقهم الشرعي وطلبهم من العلم و المعرفة وهو المكان الذي يتقاضون فيه وهو المكان الذي يجمعهم مع بعضهم البعض. وكانت لعدد من الصحابة دور قريبة من مسجده الشريف فقاموا بفتح أبواب لدورهم تؤدي مباشرة إلى المسجد، رغبة منهم في سرعة الوصول إلى المسجد وأن تنالهم بركات الجوار من الرسول والإطلال على مسجده الشريف.

وما كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم ليعترض على ذلك لعلمه بأن القوم إنما فعلوا ذلك إبتغاء المسارعة في تلبية نداء الحق وأن تدخل عليهم من خلال تلك الأبواب النفحات الربانية العطرة التي يزخر بها المسجد الشريف ماديا ومعنويا. بل على العكس من ذلك رحب بعملية فتح الأبواب على مسجده لما له من مردودات نفسية وروحية على صاحب البيت وقاطنيه. لكنه في يوم من الأيام نزل الأمين جبرئيل عليه السلام على الرسول الكريم يخبره بما لم

يكن في حسبان الرسول. أخبره بأن بعض أصحابه الذين لهم أبواب شارعة على المسجد أخذوا يتفاخرون بتلك الأبواب على بقية المسلمين ممن دورهم بعيدة عن المسجد وليس لها أبواب مشرعة عليه. مما حزّ في نفوس أولئك الأصحاب وجعل بعضهم يشعر بشيء من التمييز وعدم المساواة. أثر ذلك في نفس الرسول وأسف لعدم تمكن الإسلام من إجتثاث الرواسب الجاهلية من تمييز وتفرقة وتفاضل عند بعض اصحابه والمقربين منه. فلما شعر جبرئيل بوقع ذلك الوحي على الرسول سارع الى تكملة المهمة التي ارسله الله سبحانه وتعالى لتأديتها فأبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأن الله سبحانه وتعالى يأمره بأن يأمر المسلمين الذين لهم ابواب مفتوحة على المسجد بسدها كلها وان لا يبقي منها إلا باب واحد وهو باب منزل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

في اليوم التالي لنزول الأمين جبرئيل بالأمر الإلهي ذهب الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم إلى المسجد على عادته لأداء الصلاة والإجتماع بالمسلمين. و بعد أن فرغ من الصلاة أمر مؤذنه بلال بأن ينادي في المسلمين بالبقاء وعدم مغادرة المسجد لأمر يريد رسول الله ابلاغه لهم بأمر من الله سبحانه وتعالى. إمتثل من في المسجد لنداء بلال وطلب الرسول وبقوا في مكانهم ينتظرون كلام النبي الكريم وتوجيهاته وسماع ما يريد تبليغه لهم. بعد ان اكتمل جلوسهم جميعا أخبرهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بما كان من أمر جبرئيل وما أخبره عن ما يفعله بعض اصحاب الأبواب المفتوحة على المسجد من تفاخر و تعال. ثم أخبرهم بالأمر الإلهي الذي جاء به جبرئيل من عند الله سبحانه وتعالى وقال لهم رسول الله إن الله أمرني أن أسد جميع الأبواب المفتوحة على المسجد إلا باب واحد وأمرهم قائلا: سُدّوا كل هذه الأبواب المشرعة على المسجد، إلا باب علي بن أبي طالب.

إستعجب الحاضرون من أمر الرسول وأخذ بعضهم يتكلم في ذلك

همسا وبعضهم بعلو صوت معبرين عن رد فعلهم. كما أن بعضهم أخذ ينال من علي بن أبي طالب عليه السلام وبعض يحسده ويتهم النبي بمحاباته لأنه إبن عمه وزوج إبنته وأبو سبطيه. قليل منهم فقط كان يغبط أمير المؤمنين عليه السلام على النعمة والمكرمة الجديدة التي أكرمه الله سبحانه وتعالى بها. فلما سمع رسول الله ما يدور بين القوم من هرج ومرج، أمرهم بالسكوت فلما سكتوا قام و قال: «أما بعد، فإني أمرت بسدّ هذه الأبواب غير باب علي فقال فيه قائلكم. فوالله ما سددته و لا فتحته (من نفسي) ولكني أمرت بشيء فاتبعته.» ثم أمرهم بإتباع أمر ربهم و الإنصياع له. بعدها غادر المسجد قاصدا داره.

لما كان من الصباح أتاه عمّه العباس وكان غائبا في اليوم السابق ولم يحضر مقالة الرسول وأمره و إنما سمعه من الناس وبصورة حملت التحريف والتحريض و التجييش. فلما صار عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم قال: يا رسول الله، سمعت أنك أخرجت أصحابك وأعمامك وأسكنت هذا الغلام؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «ما أنا أمرت بإخراجكم ولا بإسكانه ولكن الله هو من أمر بذلك.» وأخبر العباس بما أخبره جبرئيل عن الله سبحانه وتعالى من أمر القوم واسباب المنع. وكان العباس، بما عرف عنه من فطنة وذكاء وسرعة بديهة وقوة إعتقاد، يعلم بأن رسول الله ما كان له أن يعمل ما عمل إلا بأمر الله سبحانه وتعالى ولكنه إنما أراد بذلك إسماع من فاته حديث الأمس ولم يعرف سبب المنع ومن هو المانع حتى يقطع الطريق على الأقاويل والشائعات والتأويلات التي أخذت تمتلئ بها دواوين المدينة ومجالسها خاصة وأن هناك باب واحد لم يشمله المنع وصاحب ذلك الباب ما زال بعض من المسلمين لم يقبل بتفضيله لصغر سنه وبعض يحسده على ما حباه الله من قرب ومحبة عند رسوله.

أما أبو رافع فله رواية أخرى عن نفس الحادثة لا تختلف عن الرواية

السابقة إلا في التفاصيل فقط. يقول أبو رافع: خطب النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال: «أيّها النّاس إنّ الله تعالى أمر موسى بن عمران أن يبني مسجداً طاهراً لا يسكنه إلاّ هو وهارون وابنا هارون شبر وشبير، وإنّ الله أمرني أن أبني مسجداً لا يسكنه إلاّ أنا وعليّ والحسن والحسين ، فسدوا هذه الأبواب الاّ باب عليّ.» فخرج الحمزة متأثرا، و كان لبيته المجاور لمسجد الرسول باب مشرع على المسجد، وقال : يا رسول الله أخرجت عمّك وأسكنت ابن عمّك! فقال الرسول: «ما أنا أخرجتك وأسكنته ولكنّ الله أسكنه.» فقال بعض الصحابة: دع لي كوّة أنظر فيها، فقال: «ليس ذلك لي.»

هذه الواقعة والرواية من الروايات المتواترة كثيرا في كتب ومراجع جميع المسلمين لدرجة أن بعض المسلمين والمؤرخين رواها عن أكثر من مصدر، كما هو الحال مع الحافظ أبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي الشافعي الذي روى هذه الرواية بطرق متعددة عن زيد بن أرقم وعن عمرو بن دينار وعن أحمد بن بجب الكوفي وعن عبدالله بن الرقيم وعن ابن عباس وكثيرين غيرهم.

عدم سد باب بيت أمير المؤمنين لم يأت إعتباطا و لا محاباة لعلي، كما ذهب إلى ذلك بعض ضعاف الإيمان و النفوس، ولا تقديرا لدوره في بناء الدولة الإسلامية فحسب. فحاشا للقدرة الإلهية المحاباة. كان هناك أكثر من سبب لإبقاء باب بيت علي بن أبي طالب مشرعا على المسجد. أول هذه الأسباب هو معرفة الله سبحانه وتعالى بنفس وأريحية أمير المؤمنين عليه السلام. فلا هو بالمغرور ولا المتكبر ولا هو من يتعالى على إخوانه المؤمنين، كما فعل بعض أؤلئك الذين كانت لهم أبواب مشّرعة على المسجد النبوي الشريف. السبب الثاني هو بُغية تفضيله وتمييزه عن باقي المسلمين وبيان رتبته ومكانته عند الله سبحانه وتعالى. السبب الثالث هو جعل طريق رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المسجد تمر ببت أمير المؤمنين لتأكيد رسالة إلهية محددة. وهو ما فعله

رسول الله. فكلما مر بالبيت العلوي وقف وطرق الباب ونادى: السلام عليكم يا آل بيت رسول الله، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ويطهركم تطهيرا. حتى روى الكثير من الرواة أنهم سمعوا ذلك من رسول الله أكثر من مرة. وفي هذا إثبات لمرتبة علي بن أبي طالب عليه السلام عند الله سبحانه و تعالى وطهارته وطهارة أهل بيته.

وإلى حديث سد الأبواب يشير السيّد الحميري في قصيدته المذهّبة قائلا:

صهرُ النبيّ وجارهُ في مسجدٍ	طهر بطيبة للرسولِ مطيّب
سيّان فيه عليهِ غير مذمّمٍ	ممشاه إن جنباً وإن لم يجنب

الشمعة العشرون
سيد البلغاء و إمام الفصحاء

في تقديمه لشرح نهج البلاغة يقول الشيخ الفاضل محمد عبده: «ليس في وسعي أن أصف هذا الكتاب (يعني نهج البلاغة) بأزيد مما دل عليه اسمه ولا أن آتي بشيء في بيان مزيته فوق ما أتى به صاحب الإختيار (الشريف الرضي). ولو لا أن غرائز الجبلة وقواضي الذمة تفرض علينا عرفان الجميل لصاحبه وشكر المحسن على إحسانه لما إحتجنا إلى التنبيه على ما أودع نهج البلاغة من فنون الفصاحة وما خص به من جوه البلاغة. خصوصا وهو لم يترك غرضا من أغراض الكلام إلا أصابه و لم يدع للفكر ممرا إلا أجابه.»

أما الشريف الرضي (رض) فيقول: «انّ ذلك (كتاب نهج البلاغة) يتضمّن من عجائب البلاغة، وغرائب الفصاحة، وجواهر العربية، وثواقب الكلم الدينية والدنيوية، ما لا يوجد مجتمعاً في كلام، ولا مجموعَ الاطراف في كتاب. إذ كان أميرالمؤمنين عليه السلام مشرَعَ الفصاحة وموردها، ومنشأ البلاغة ومولدها، ومنه ظهر مكنونها، وعنه أخذت قوانينُها، وعلى أمثلته حذا كلّ قائل و تكلم كل خطيب، وبكلامه استعان كلّ واعظ بليغ، ومع ذلك فقد سبق وقصروا، وتقدم وتأخروا، لانّ كلامه عليه السلام الكلامُ الذي عليه مَسْحة من العلم الالهي، وفيه عَبْقَة من الكلام النبوي.»

بالفعل نهج البلاغة حوى دررا لم يحويها أي كتاب غيره وبه من جواهر الكلم ما يغني عن غيره في هذا المجال. فلقد جسّد كتاب نهج البلاغة شخصية أمير المؤمنين عليه السلام الفكرية والثقافية والدينية والتربوية والبطولية والبلاغية والقضائية وقدمها في صور متعددة وكأنه يتكلم عن أكثر

من شخصية تجمعن في شخصية واحدة. فهو العالم الرباني الذي عرف كيف يعبد ربه حق عبادته بعد ان عرفه حق معرفته. وهو العالم الذي علم كيفية خلق الأشياء وتركيباتها والمغزى من خلقها. وهو المتكلم الفذ الذي حوى صدره بحور الكلم والمنطق والبلاغة. وهو الزعيم والسياسي المتمكن من الزعامة والسياسة والذي يخطط ويضع السياسات العسكرية والإقتصادية والإجتماعية ويُنّزهها عن أساليب المكر والخداع والفتك. وهو القاضي العادل الذي الذي لم تأخذه في قول الحق والعمل به لومة لائم ولم يلتفت الى عذل عاذل. الناس عنده امام القضاء والعطاء سواء.

نهج البلاغة موسوعة حوت جميع نواحي المعرفة وقدمتها للقارئ بأسلوب بليغ وموسيقي ترتاح لسماعه الأذن ويفتح القلب له أبوابه. يأخذ القارئ والباحث الى بحور المعرفة ويوصله إلى كنوزها ويساعده على أخذ ما يشاء وما يستطيع حمله من تلك الكنوز. وإنه إذ يوفر للعقل والفكر غذائهما وما يتطلعان إليه من المعرفة فإنه لا ينسى اللسان وعملية تهذيبه وإجادته للنطق والتعبير فيقوم برص الحروف رصا منسجما ومتناغما لينتج من تلك العملية كلمات تجعل لسان قائلها يُصدر شهذا ونغما تطرب له آذان سامعيه ومتلقيه.

وإذا كانت خطبه وكتبه ورسائله التي ضمّها كتاب نهج البلاغة بتلك الدرجة العالية من الإتقان البلاغي واللفظي فإن ممارساته الحياتية ومنطقه وحديثه اليومي والعملي هي الأخرى لم تكن أقل بلاغة أو فصاحة. فمنطقه الممارساتي هو نفسه ذلك المنطق الذي يستخدمه في خطبه وكتبه وأشعاره. لا إختلاف ولا تباين بين الفصاحة والبلاغة في الحديث مع الناس والفصاحة والبلاغة في الخطب والكتب. نفس العقل ونفس اللسان ونفس الروح أينما حلّ أو إرتحل. وهذه أيضا ميزة لم توجد في أحد بعد رسول الله صلى الله عليه و آله إلا في ابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

أتاه رجل فسأله: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن واجب وأوجب وعجيب وأعجب وصعب وأصعب وقريب وأقرب. إستعجب الحضور من سؤال الرجل وظن بعضهم بأن به مسّا أو نقصا من عقل. أما أمير المؤمنين عليه السلام فإنه إعتبر صيغة السؤال تنبئ عن شخص متمكن من لغته وقادر على العمل بها. فأراد الإمام أمير المؤمنين أن يجيبه بمستوى بلاغته ومنطقه فقال:

فرض على الناس أن يتوبوا ... لكن ترك الذنوب أوجب
والدهر في صرفه عجيب ... وغفلة الناس فيه أعجب
والصبر في النائبات صعب ... لكن فوت الثواب أصعب
و كل ما يرتجى قريب ... و الموت من كل ذلك أقرب

إلتفت إليه الرجل وشكره على جوابه الوافي والذي لم يكن يطمح بأفضل منه. ومن فرط إعجابه بمنطق أمير المؤمنين طمع في أن يسأله في شأن آخر، خاصة بعد ان لمس إستعداده لذلك. إستأذنه في سؤال آخر فأجابه الإمام إلى ذلك. فسأل الرجل: اسألك عن آفة هي شر أخواتها واسألك أيهما أفضل العلم أم العقل؟ فقال له الإمام عليه السلام:

إذا إجتمعت الآفات فالبخل شرها ... و شر من البُخل المواعيد و المطل
و لا خير في وعد إذا كان كاذبا ... و لا خير في قول إذا لم يكن فعل
إذا كنت ذا علم و لم تك عاقلا ... فأنت كذي نعل و ليس له رجل
و إن كنت ذا عقل و لم تك عالما ... فأنت كذي رجل و ليس له نعل
ألا إنما الإنسان غمد لعقله ... و لا خير في غمد إذا لم يكن به نصل

لما سمع السائل أجوبة الإمام قام وتقدم نحو أمير المؤمنين عليه السلام وقبل ما بين عينيه وقال: الله يعلم حيث يجعل رسالته. ثم ودّعه وذهب.

بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وصل إلى المدينة المنورة

جاثليق النصارى، وهو يعتبر مرجع المسيحيين، يطلب لقاء الرسول ليسأله بعض الأسئلة ليعرف إن كان حقا رسول من عند الله كما يدعي. فأخبره الناس بأن النبي قد إنتقل إلى جوار ربه. فطلب منهم أن يُدلوه على خليفته ليسأله الأسئلة التي قدم من أجلها. فأرشدوه إلى أبي بكر (رض). وبعد أن سلّم عليه سأله: أخبرنا أيها الخليفة عن فضلكم علينا في الدين؟ فقال أبوبكر: نحن مؤمنون و أنتم كفار والمؤمن خير من الكافر، والإيمان خير من الكفر. فقال الجاثليق: هذه دعوى تحتاج إلى حجة، فخّبرني أنت مؤمن عند الله أم عند نفسك؟ فقال أبو بكر: أنا مؤمن عند نفسي ولا أعلم بما لي عند الله. قال الجاثليق: فهل أنا كافر عندك على مثل ما أنت مؤمن أم أنا كافر عند الله؟ فقال أبوبكر: أنت كافر عندي، ولا علم لي بحالك عند الله. قال الجاثليق: فما أراك إلا شاكا فيّ وفي نفسك، ولست على يقين من دينك، فخبرني ألك عند الله منزلة في الجنة بما أنت عليه من الدين تعرفها؟ فقال أبوبكر: لي منزلة في الجنة أعرفها بالوعد ولا أعلم هل أصل إليها أم لا. فقال له الجاثليق: فأنت ترجو أن تكون لك منزلة في الجنة؟ فقال أبو بكر: أجل. فقال الجاثليق: فما أراك إلا راجيا وخائفا فما فضلك عليّ في العلم؟ هل إحتويت على علم النبي المبعوث؟ قال أبو بكر: لا ولكني أعلم منه ما قُيض لي علمه. قال الجاثليق: فكيف صرت خليفة للنبي وأنت لا تحيط علما بما تحتاج إليه أمته من علمه؟

يقول سلمان الفارسي رحمه الله: فخرج الجاثليق وهو يقول: دلوني على من أسأله عمّا أحتاج إليه إن كان دينكم دين حق ونبيكم نبي حق. فأخذته إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وأخبرت الإمام بما كان من أمر الجاثليق. دعا الإمام الجاثليق للجلوس وبعد ان رحّب به وذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونبي الله عيسى عليه السلام فصلى عليهما ثم وجّه خطابه الى الجاثليق قائلا: سل يا نصراني ما شئت، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة لا تسألني عمّا مضى ولا ما يكون إلا أخبرتك به عن نبي الهدى محمد صلى الله

عليه وآله وسلّم.

فقال الجاثليق: أسألك عما سألت عنه ذلك الشيخ، يعني أبابكر، أخبرني أمؤمن أنت عند الله أم عند نفسك؟ فقال أمير المؤمنين: أنا مؤمن عند الله كما أنا مؤمن في عقيدتي. فقال الجاثليق: الله أكبر، هذا كلام واثق بدينه، متحقق فيه بصحة يقينه، فخبرني عن منزلتك في الجنة؟ فقال: منزلتي مع النبي الأمي في الفردوس الأعلى لا أرتاب بذلك ولا أشك في وعد ربي. فقال الجاثليق: فبماذا عرفت الوعد لك بالمنزلة التي ذكرتها؟ فقال أمير المؤمنين: بالكتاب المنزل وصدق النبي المرسل وبالآيات الباهرات والمحجزات البينات. فقال الجاثليق: صدقت وصدق نبيك، هذا طريق الحجة لمن أراد الإحتجاج، فخبرني عن الله تعالى أين هو اليوم؟

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: يا نصراني، إن الله تعالى يجل عن الأين، ويتعالى عن المكان وكان فيما لم يزل ولامكان وهو اليوم على ذلك لم يتغير من حال إلى حال. فقال الجاثليق: أحسنت أيها العالم، فخبّرني عن الله تعالى أمدرك بالحواس عندك فيسألك المسترشد في طلبه استعمال الحواس أم كيف طريق المعرفة به إن لم يكن الأمر كذلك؟ فقال أمير المؤمنين: تعالى الملك الجبّار أن يوصف بمقدار أو تدركه الحواس أو يُقاس بالناس، والطريق إلى معرفة صنائعه الباهرة للعقول الدالة على ذوي الإعتبار بما هو منها مشهود ومعقول.

قال الجاثليق: صدقت، هذا والله هو الحق الذي ضلّ عنه التائهون في الجهالات، فأخبرني الآن عمّا قاله نبيكم في المسيح، وإنه مخلوق من أين ثبت له الخلق كيف نفى عنه الإلهية وأوجب فيه النقص، وقد عرفت ما يعتقد فيه كثير من المتدينين؟ فقال أمير المؤمنين: أثبت له الخلق بالتقدير الذي لزمه، والتصوير والتغيير من حال إلى حال، والزيادة التي لم ينفك منها والنقصان،

ولم أنف عنه النبوة ولا أخرجته من العصمة والكمال والتأييد وقد جاءنا عن الله تعالى بأنه مثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون.

فقال الجاثليق: هذا مما لا يُطعن فيه الآن غير أن الحجاج مما يشترك فيه الحجة على الخلق والمحجوج منهم فيما يثبت أيها العالم من الرعية الناقصة عندي. قال أمير المؤمنين: بما أخبرتك به من علمي بما كان وما يكون. قال الجاثليق: فهلم شيئا من ذكر ذلك أتحقق به من دعواك؟ فقال أمير المؤمنين: خرجت أيها النصراني من مستقرك (من بيتك ومدينتك) لمن قصدت بسؤالك له مضمرا خلاف ما أظهرت من الطلب والإسترشاد فأريت في منامك مقامي وحدثت فيه بكلامي وحذرت فيه من خلافي وأمرت فيه بإتباعي. نظر الجاثليق الى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ووجهه يتصبب عرقا مما يقوله أمير المؤمنين وكأنه كان حاضرا معه مشاركا له حلمه وقال بتواضع من أحس بالغلبة: صدقت والله الذي بعث المسيح ما إطلع على ما أخبرتني به إلا الله تعالى وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأنك وصي رسول الله وأحق الناس بمقامه.

هذه فقط نماذج بسيطة من أحداث ومناسبات مزج فيها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام العلم بالفصاحة والبلاغة النباهة و الفراسة والتي لولاها لتعرض الإسلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى الخطر. فالفصاحة والبلاغة كانت سلاح المجتمع القرشي والعربي بصفة عامة ووسيلته الرئيسية للإحتجاج والإحتكام. والغلبة دائما لمن يملك هذا السلاح ومن يجيده إجادة تامة. وهنا تصدق نبوؤة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلّم بأن علي بن أبي طالب سيحارب على بقاء وديمومة الإسلام كما حارب الرسول على إيجاده وتثبيته.

الشمعة الحادية و العشرون
حبّه إيمان وبغضه كفر ونفاق

يحدث عبدالله بن بريدة أن أباه كان من أشد الناس عداوة وبغضا للإمام علي عليه السلام. وكان من شدة عداوته وبغضه للإمام لا يصادق احدا إلا إذا تأكد بأن ذلك الشخص الذي يريد صداقته معاد لعلي ويضمر له الشر ويتمنى له الضرر. وانه لا يبغض احدا بقدر ما يبغض من يحب عليا ويواليه. وكان يتطلع الى اليوم والمناسبة التي تمكنه من التعبير عن بغضه وكرهه لعلي بن أبي طالب. وتشاء الصدف أن تأتيه المناسبة التي كان يتوق لها. ولكن تشاء الأقدار أيضا ان تكون لتلك المناسبة نتيجة غير تلك التي كان يتوقعها. صحيح أنها وفرت له فرصة للتعبير عن كرهه وبغضه للإمام إلا أن النتيجة لم تخطر على باله أبدا. الفرصة كانت في محضر النبي صلى الله عليه وآله و سلّم الذي عرف عنه مبادلة الإساءة بالإحسان والجهل بالمعرفة والتبيان. ففي محضر الرسول عبر بريده عن كرهه لعلي بن أبي طالب فما كان من الرسول إلا أن قام بتوضيح مكانة علي عند الله وعند رسوله فيتغير موقف بريدة الى النقيض تماما بعدما ما سمع قول الرسول في علي. وهذه هي الواقعة كما يرويها عبدالله عن أبيه بريدة. يقول بريدة:

لم يكن أحد في الناس أبغض إلي من علي بن أبي طالب. حتى انني اذا احببت رجلا من قريش لا أحبه إلا على بغض علي وإذا كرهت رجلا لا أكرهه إلا لحبه لعلي. وفي يوم من الأيام بُعث رجل على خيل (أُمّر على جيش) وطلب مني صحبته فقلت له لا أصحبك إلا على بغض علي فأجابني إلى ذلك. فذهبنا لمأموريتنا وأصبنا غنائم كثيرة وسبيا. فكتب صاحبي إلى رسول الله صلى الله

عليه وآله يخبره بذلك ويطلب أن يرسل إليه من يُخّمسه. فبعث النبي إلينا علي بن أبي طالب. فلما وصل قبلت به على مضض، فلم يكن في وسعي رفضه أو رفض تسليم الغنائم له وهو من أرسل الرسول الينا. فأخذ يقسّم الغنائم بعد أن أخرج حق الله ورسوله منها. وكان في السبي وصيفة هي من أفضل ما في السبي فصارت حسب قسمة علي في الخمس. ولما خمّس صارت في أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله و سلّم ولما خمّس نصيب أهل بيت النبي صارت في آل علي.

فما كان مني وصاحبي إلا أن إزددنا حنقنا وبغضا لعلي. فكتب صاحبي كتابا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلّم وبعثني به لكي أكون شاهدا ومصّدقا لما ورد في الكتاب. فقدمت إلى النبي وسلّمت عليه وقرأت عليه الكتاب وأنا أُصدّق على ما أقرأ. أقرأ الجملة ثم أعلق عليها قائلا: صدق صاحبي يا رسول الله. وبعد أن إنتهيت من قراءة الكتاب أمسك رسول الله بيدي وقال: يا بريدة، أتبغض عليا؟ قلت: نعم يا رسول الله. قال الرسول: لا تبغضه وإن كنت تحبه فإزدد له حبا فوالذي نفسي بيده لنصيب آل علي في الخمس أفضل من وصيفة وأن الله ليحب من أحب عليا ويبغض من أبغض عليا.

لما سمع بريدة كلام الرسول خجل من موقفه من علي خاصة بعد أن سمع وعرف مكانة علي عند الله وعند رسوله وأن الرسول يؤكد على ان حب علي بن ابي طالب إيمان وحق وبغضه كفر ونفاق. يقول بريدة: أحسست بأن يدا أخذت تغسل درن القلب وتطهره من الرواسب وتُعرضه لنفحات لم يعهدها من قبل. نفحات أزالت الدرن والضغائن ووضعت بدلا منه طمأنينة ومحبة لم اعهدها من قبل. ويواصل بريدة حديثه، كما رواه ابنه عنه، قائلا: فما كان أحد من الناس، بعد قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم هذا، أحب إلي من علي بن أبي طالب.

حب علي بن أبي طالب عليه السلام علامة يميز بها المؤمن من المنافق والمسلم من الكافر. فلا أحد من المسلمين يبغضه خاصة بعدما عرف من تضحياته ومساهماته المهمة في إقامة الدولة الإسلامية ونشر دين الله الذي إرتضى لعباده وبعدما عرف عدله وعلمه وسماحته واخلاقه الرفيعة. لا يملك المؤمن إلا ان يحبه بعدما سمع وقرأ ما أنزله الله سبحانه وتعالى فيه وما قاله الرسول صلى الله عليه وآله عنه وفيه. فلا توجد فيه مثلمة أو نقيصة تؤخذ عليه ولا عُرف عنه أي تقصير. سيرته عطرة وتراثه وافر وغزير. هو مع الحق والحق معه. لا يبغضه إلا مبغض للحق، وهو في هذه الحالة ليس بمسلم، ولا يحبه إلامن أحب الحق وهم المؤمنون.

من هنا جاء قوله عليه السلام: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد عهده إلي النبي الأمي صلى الله عليه وآله وسلّم أنه لا يُحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق.

بين الرسول صلى الله عليه وآله حب علي بن ابي طالب عليه السلام للناس في أكثر من موضع ولكثرة الأحاديث الشريفة في هذا المجال امتلأت بها بطون الكتب الإسلامية والتاريخية والإجتماعية. كما ان كثيرا من الباحثين وبعد جهد وافر وامين بينوا معنى حب أمير المؤمنين عليه السلام و لماذا هو مهم بل وضروري وتوصلوا الى حقيقة مفادها ان الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم ما ركّز وشدد على وجوب حب أمير المؤمنين إلا لكون ذلك الحب ليس فقط واجبا على الأمة تجاه من له السابقة في نشر الإسلام والمحافظة عليه والفضل في تكوين المجتمع الإسلامي الفاضل بل أيضا لكون من أوصى بحبه هو من وضع القوانين والنواميس الفاضلة التي من شأنها نشر المودة و المحبة والإخاء في المجتمع وربط البشر بخالقهم وببيئتهم وبمجتمعهم.

يروي الشيخ الصدوق في الأمالي عن عدد كبير من ثقاة الرواة المسلمين

رووا كلهم هذه الرواية عن سليمان الأعمش. يقول الأعمش: «بعث إلي أبو جعفر المنصور (الدوانيقي) العباسي في جوف الليل طالبا مني ان أجيبه وأوافيه فورا في مجلسه. فقمت متفكرا فيما بيني وبين نفسي، وقلت: ما بعث إلي أمير المؤمنين في هذه الساعة إلا ليسألني عن فضائل علي عليه السلام، وهي الشماعة ووسيلة قياس مستوى ولاء الشعب التي كان يستخدمها الخلفاء العباسيين وقبلهم الأمويين حيث من يثبت حبه وولاءه للإمام يقتل او يصلب او يبعد او يسجن. يواصل الأعمش حديثه: قلت في نفسي إن أخبرته بفضائل أمير المؤمنين قتلني بغضا وحنقا وإن لم أخبره أيضا قتلني لأنه يعرف أكثر من أي شخص غيره فضائل الإمام ويعرف أنني أعرف تلك الفضائل. فقررت أن أوافيه بالحق والصدق إن هو سأل. قمت من وقتي وساعتي وكتبت وصيتي ولبست كفني ثم توجهت اليه. لما دخلت عليه قال لي: ادن، فدنوت عنده عمرو بن عبيد، فلما رأيته طابت نفسي شيئا (لما لعمرو من تأثير وقوة على امتصاص غضب الدوانيقي.) قال: ادن (أكثر). فدنوت حتى كادت تمس ركبتي ركبته. قال: إني لأجد رائحة الحنوط! والله لتصدقني أو لأصلبنك قلت: ما حاجتك يا أمير المؤمنين؟ قال: ما شأنك متحنطا؟ قلت: أتاني رسولك في جوف الليل ان أجب طلب الأمر فقلت عسى أن يكون أمير المؤمنين بعث إلي في هذه الساعة ليسألني عن فضائل علي عليه السلام فلعلي إن أجبته قتلني، فكتبت وصيتي ولبست كفني.

يواصل الأعمش روايته فيقول: وكان متكئا فاستوى جالسا وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. سألتك بالله يا سليمان كم تروي من حديث في فضائل علي عليه السلام؟ فقلت : يسيرا يا أمير المؤمنين. قال : كم؟ قلت: عشرة آلاف حديث وما زاد. قال: يا سليمان والله لاحدثنك بحديث في فضائل علي تنسى كل حديث سمعته. قلت: حدثنا يا أمير المؤمنين.

قال أبو جعفر المنصور (الدوانيقي): نعم. كنت هاربا من بني امية

وكنت أتردد في البلدان، فأتقرب الى الناس بفضائل علي عليه السلام، وكانوا يطعمونني ويودونني حتى وردت بلاد الشام واني لفي كساء خلق ما علي غيره، فسمعت الإقامة وأنا جائع، فدخلت المسجد لاصلي، وفي نفسي أن اكلم الناس في عشاء يعشونني. فلما سلم الامام دخل المسجد صبيان فالتفت الامام إليهما وقال: مرحبا بكما ومرحبا بمن اسماكما على اسميهما. وكان الى جانبي شاب فقلت له: يا شاب ما الصبيان ومن الشيخ؟ فقال: هو جدهما وليس في المدينة أحد يحب عليا غير هذا الشيخ لذلك سمى أحدهما الحسن والآخر الحسين.

فقمت فرحا فقلت للشيخ: هل لك حديث أقر به عينك. فقال: ان اقررت عيني اقررت عينيك. فقلت: حدثني والدي عن أبيه عن جده قال: كنا قعودا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ جاءت فاطمة عليها السلام وهي تبكي فقال لها النبي: ما يبكيك يا فاطمة؟ قالت : يا أبه خرج الحسن والحسين فما أدري أين باتا. فقال لها النبي صلى الله عليه وآله وسلّم: يا فاطمة لا تبكين فان الله خلقهما وهو ألطف بهما منك. ورفع النبي صلى الله عليه وآله وسلّم يده إلى السماء فقال: اللهم إن كان أخذا برا أو بحرا فاحفظهما وسلمهما.

ونزل جبرئيل عليه السلام من السماء فقال: يا محمد ان الله يقرؤك السلام ويقول لك: لا تحزن ولا تغتم لهما فانهما فاضلان في الدنيا وفاضلان في الآخرة وأبوهما أفضل منهما. هما نائمان في حضيرة بني النجار وقد وكل الله بهما ملكين.

فقام النبي صلى الله عليه وآله وسلّم فرحا ومعه أصحابه حتى أتوا حضيرة بني النجار فإذا هم بالحسن معانق الحسين وملك موكل بهما قد أفترش أحد جناحيه تحتهما وغطاهما بالآخر. فمكث النبي يقبلهما حتى انتبها، فلما استيقظا حمل النبي صلى الله عليه وآله وسلّم الحسن وحمل جبرئيل الحسين وخرج من الحضيرة وهو يقول: والله لأشرفنكما كما شرفكما

الله عز وجل. فقال له أبو بكر: ناولني أحد الصبيين اخفف عنك. فقال: يا أبا بكر نعم الحاملان ونعم الراكبان وأبوهما أفضل منهما.

يواصل الأعمش روايته: فخرج صلى الله عليه وآله وسلم حتى أتى باب المسجد فقال : يا بلال هلم علي بالناس ، فنادى منادي رسول الله صلى الله عليه وآله في المدينة، فاجتمع الناس عند رسول الله في المسجد فقام على قدميه وقال: يا معاشر الناس ألا أدلكم على خير الناس جدا وجدة؟ قالوا: بلى يارسول الله. فقال صلى الله عليه وآله: الحسن والحسين فان جدهما محمد وجدتهما خديجة بنت خويلد. يا معاشر الناس ألا أدلكم على خير الناس أبا واما؟ قالوا: بلى يارسول الله. قال صلى الله عليه وآله: الحسن والحسين فان أباهما علي يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله وامهما فاطمة بنت محمد رسول الله. يا معشر الناس ألا أدلكم على خير الناس عما وعمة؟ قالوا : بلى يارسول الله. قال: الحسن والحسين فان عمهما جعفر بن أبي طالب الطيار في الجنة مع الملائكة وعمتهما ام هاني بنت أبي طالب. يا معشر الناس ألا أدلكم على خير الناس خالا وخالة؟ قالوا: بلى يارسول الله. فقال صلى الله عليه وآله: الحسن والحسين فان خالهما القاسم بن رسول الله وخالتهما زينب بنت رسول الله. ثم أشار صلى الله عليه وآله بيده هكذا (قبضة واحدة) يحشرنا الله ثم قال: اللهم إنك تعلم ان الحسن في الجنة والحسين في الجنة وجدهما في الجنة وجدتهما في الجنة وأباهما في الجنة وامهما في الجنة وعمهما في الجنة وعمتهما في الجنة وخالهما في الجنة وخالتهما في الجنة. اللهم إنك تعلم ان من يحبهما في الجنة ومن يبغضهما في النار.

يواصل أبو جعفر المنصور الدوانيقي حديثة قائلا: فلما قلت ذلك للشيخ قال: من أنت يافتى؟ قلت: من أهل العراق من الكوفة. قال: أعربي أنت أم مولى؟ قلت: عربي. قال: فأنت تحدث بهذا الحديث وأنت في هذا الكساء؟ فقام و كساني خلعة وحملني على بغلته فبعتها بمائة دينار. وقال لي: يا شاب

أقررت عيني فوالله لأقرن عينك ولأرشدنك إلى شاب يقر عينك اليوم. فقلت: إرشدني. فقال: لي أخوان أحدهما امام والآخر مؤذن. أما الامام فانه يحب عليا عليه السلام منذ خرج من بطن امه وأما المؤذن فانه يبغض عليا منذ خرج من بطن امه. فقلت : أرشدني.

فأخذ بيدي حتى أتى بي باب الامام فإذا انا برجل قد خرج إلي وقال: أما البغلة والكسوة فاعرفهما والله ما كان فلان يحملك ويكسوك إلا لأنك تحب الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وآله. فحدثني بحديث في فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام: فقلت له: أخبرني أبي عن أبيه عن جده قال: كنا قعودا عند النبي صلى الله عليه وآله إذا جاءت فاطمة عليها السلام تبكي بكاء شديدا فقال لها رسول الله: ما يبكيك يا فاطمة؟ قالت: يا أبه عيرتني نساء قريش وقلن ان أباك قد زوجك من معدم لا مال له. فقال لها النبي: لا تبكين فوالله ما زوجتك حتى زوجك الله من فوق عرشه وأشهد بذلك جبرئيل وميكائيل وان الله عز وجل اطلع على أهل الدنيا فاختار من الخلائق أباك فبعثه نبيا ثم اطلع الثانية فاختار من الخلائق عليا فزوجك إياه واتخذته وصيا. فعلي أشجع الناس قلبا وأحلم الناس حلما وأسمح الناس كفا وأقدم الناس سلما وأعلم الناس علما والحسن والحسين أبناه وهما سيدا شباب أهل الجنة واسمهما في التوراة شبر وشبير لكرامتهما على الله عز وجل، يا فاطمة لا تبكين فوالله انه إذا كان يوم القيامة يكسى أبوك حلتين وعلي حلتين ولواء الحمد بيدي فأناوله عليا لكرامته على الله عز وجل، يا فاطمة لا تبكين فاني إذا دعيت إلى رب العالمين يجئ علي معي، فإذا شفعني الله عز وجل شفع عليا معي، يا فاطمة لا تبكين إذا كان يوم القيامة ينادي مناد في أهوال ذلك اليوم: يا محمد نعم الجد جدك إبراهيم خليل الرحمان ونعم الأخ أخوك علي بن أبي طالب، يا فاطمة علي يعينني على مفاتيح الجنة وشيعته هم الفائزون يوم القيامة غدا في الجنة.

يواصل الدوانيقي حديثه: فلما قلت ذلك قال: يا بني ممن أنت؟ قلت:

من أهل الكوفة. قال: أعربي أم مولى؟ قلت: بل عربي. فكساني ثلاثين ثوبا وأعطاني عشرة آلاف درهم ثم قال: يا شاب قد أقررت عيني ولي إليك حاجة. قلت: قضيت إن شاء الله. قال: فإذا كان غدا فأت مسجد آل فلان كيما ترى أخي المبغض لعلي عليه السلام.

يقول الدوانيقي: فطالت تلك الليلة علي، فلما أصبحت أتيت المسجد الذي وصف لي، فقمت في الصف فإذا الى جانبي شاب متعمم فذهب ليركع فسقطت عمامته فنظرت في وجهه فإذا رأسه رأس خنزير ووجهه وجه خنزير ، فوالله ما علمت ما تكلمت به في صلاتي حتى سلم الامام فقلت : ويحك ما الذي أرى بك؟ فبكى وقال لي: انظر إلى هذا الدكان، فنظرت فقال لي: أدخل فدخلت، فقال لي: كنت مؤذنا لآل فلان وكنت كلما أصبحت لعنت عليا صلوات الله عليه مرات كثيرة في الأذان والإقامة واذا كان يوم الجمعة أكثرت من لعنه. فخرجت من منزلي فأتيت داري فاتكيت على هذا الدكان الذي ترى فرأيت في منامي كأني في يوم القيامة وأرى رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي فرحين ورأيت كأن النبي عن يمينه الحسن وعن يساره الحسين ومعه كأس فقال: يا حسن اسقني فسقاه، ثم قال: اسق الجماعة فشربوا ثم رأيته كأنه قال: اسق المتكئ على هذا الدكان فقال له الحسن يا جداه أتأمرني أن اسقي هذا وهو يلعن والدي في كل يوم ألف مرة بين الأذان والإقامة، وقد لعنه في هذا اليوم آلاف المرات. فأتاني النبي صلى الله عليه وآله فقال لي: مالك عليك لعنة الله تلعن عليا وعلي مني وتشتم عليا وعلي مني؟ فرأيته كأنه تفل في وجهي وضربني برجله وقال : قم غير الله ما بك من نعمة. فانتبهت من نومي فإذا كأن رأسي رأس خنزير ووجهي وجه خنزير.

يقول الأعمش: ثم قال لي أبو جعفر أمير المؤمنين : أهذان الخبران في يديك ؟ فقلت : لا. فقال: يا سليمان حب علي ايمان وبغضه نفاق والله لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق. قال: قلت: الأمان يا أمير المؤمنين. قال: لك

الأمان. قلت: فما تقول في قاتل الحسين عليه السلام؟ قال: الى النار وفي النار. قلت: وكذلك من قتل ولد رسول الله صلى الله عليه وآله إلى النار وفي النار. قال الملك عقيم يا سليمان، اخرج وحدث بما سمعت.»

تلك هي واحدة فقط من مئات بل آلاف المناسابات التي رويت عن أحاديث الرسول صلى الله عليه و آله وسلّم في حب أمير المؤمنين عليه السلام. من تلك الأحاديث، على سبيل المثال لا الحصر، هذه الأحاديث المسندة و التي رواها ثقاة المحدثين المسلمين من السنة و الشيعة و أجمعوا على صحتها.

روى الصدوق في أماليه و الخوارزمي في مناقبه مسندا عن محمد بن موسى بن المتوكل، قال: حدثنا محمد بن أبي عبد الله الكوفي قال: حدثنا موسى بن عمران النخعي عن عمه الحسين ين يزيد النوفلي عن علي بن سالم عن أبيه عن ثابت بن أبي صفية عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «من سره ان يجمع الله تعالى له الخير كله فليوال عليا بعدي وليوال أولياءه وليعاد أعداءه.»

يروي ابن المغازلي في مناقبه بأن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال لعلي: «يا علي لو أن أمتي صاموا حتى يكونوا كالحنايا وصلوا حتى يكونوا كالأوتار وبغضوك لأكبهم الله في النار.»

الشمعة الثانية و العشرون
به خفف الله عن الناس (آية النجوى)

من الآيات القرآنية الكثيرة التي نزلت في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام تشيد بمواقفه وتبين فضله وأسبقيته وقربه من الله سبحانه و تعالى والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم آية النجوى، وهي الآية الثانية عشرة من سورة المجادلة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.﴾

قصة هذه الآية، كما يرويها أمير المؤمنين عليه السلام وعدد كبير من الرواة، هي أن كبار الصحابة أخذوا يجتمعون بالرسول صلى الله عليه وآله وسلّم بصورة منفردة ويطيلون الجلوس معه وبذلك يعرقلون عمل الدولة ويستأثرون بالرسول دون بقية المسلمين. أخذوا يُطيلون مكوثهم مع الرسول حتى وإن لم يكن لديهم حاجة في ذلك. كانوا يعتبرون المكوث مع الرسول لفترات طويلة شرفا لهم ولمكانتهم في المجتمع من شأنه ان يمنحهم الأفضلية على سائر ابناء المجتمع. رأى الإمام أمير المؤمنين، نائب رئيس الدولة والمسئول عن شؤونها التنظيمية والإدارية بأنه يواجه مشكلة إدارية تكاد تتحول إلى وسيلة للتفرقة بين المسلمين. فلا المجتمعون شخصيا مع الرسول يُنهون سريعا ما إجتمعوا مع رسول الله من أجله ثم يعودون إلى أماكنهم ويفسحوا المجال أمام الآخرين للقاء الرسول ولا أخلاق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تسمح له بأمرهم بالرجوع إلى أماكنهم بعد حصولهم على مرادهم. والأدهى من ذلك بأن الكثير ممن يجتمع مع الرسول ويستأثر به كان يتعمد ذلك لا لشيء سوى انه

يريد ان يرسل رسالة مفادها بأنه هو من يناجي الرسول والأقرب اليه من باقي الناس.

فكّر أمير المؤمنين عليه السلام في طريقة تنظم من خلالها عملية الإجتماعات الخاصة مع الرسول، وهو ما يعرف بالمناجاة. فقرر أن يضع رسما رمزيا للإجتماعات الخاصة وتعطى تلك الأموال المحصلة من الرسوم صدقات للفقراء والمساكين و المحتاجين في الدولة الإسلامية، وما أكثرهم في ذلك الوقت. وبعد أن إرتاح للفكرة رأى بأن يبدأ بنفسه ليكون عبرة ومثالا وقدوة للباقين. فالجميع كان ينظر الى ما كان يفعله الإمام ويقوله فيقلده في القول يعمل ما يعمل، بعض لقناعته بأن ما يفعله ويقوله الإمام أمير المؤمنين هو الصواب والبعض الآخر غيرة ومحاكاة له حتى لا تكون للإمام ميزة تخصه دون غيره. لذلك رأى الإمام ان يستفيد من ذلك الوضع ويستثمره لصالح الدولة الفتية ودعما للأمور التنظيمية فيها. فأخذ دينارا كان عنده وعمل منه عشرة دراهم و قرر بأنه في كل مرة يناجي فيها رسول الله صلى الله عليه وآله يتصدق بدرهم قربة إلى الله سبحانه وتعالى. علم الله سبحانه وتعالى ما في نفس علي عليه السلام فأنزل الله سبحانه وتعالى قرآنا يؤيد ويُقر ما ذهب إليه أمير المؤمنين وما إقترحه من إجراء إداري وتنظيمي. فأنزل في ذلك الآية المذكورة.

فلما نزلت الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله إستدعى علي بن أبي طالب عليه السلام ولما صار عنده أخبره بما نزل به جبرئيل فسجد أمير المؤمنين لله شاكرا لقبوله عمله. بعد أن فرغ من سجوده قال له رسول الله: مرهم أن يتصدقوا. فقال علي: بكم يا رسول الله؟ قال الرسول: بدينار. قال علي: لا يطيقون ذلك. قال رسول الله: فبنصف دينار. قال أمير المؤمنين: لا يطيقون. قال الرسول: فبكم؟ قال أمير المؤمنين: بشعيرة. فقال رسول الله: إنك لزهيد. فأنزل الله تعالى آية تمحو آية التكليف رأفة بالناس وشفقة

عليهم، وهي الآية التي تلتها مباشرة في سورة المجادلة ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ.﴾

أخبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم أمير المؤمنين عليه السلام بنسخ الآية فسجد مرة أخرى لله شاكرا قائلا الحمد لله الذي خفف بي عن هذه الأمة. فكان هو أول وآخر من عمل بتلك الصدقة، لم يسبقه إليها سابق ولن يلحقه لاحق. وما يزيده فخرا وشرفا هو نزول آيتين في مناسبة واحدة، آية تؤيد سياسته وآية تؤيد شفقته ورحمته بالأمة الإسلامية.

ولعل سائلا يسأل كيف لعلي بن أبي طالب أن يرفض فرض الرسوم وهي فكرته وقد بدأ بتطبيقها بالفعل على نفسه فكيف له أن يرفضها عندما أريد لها أن تصبح تشريعا، وهل يُعقل أن علي بن أبي طالب عليه السلام يكون أرحم على المسلمين من الله سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم ومن الرسول صلى الله عليه وآله الذي بُعث رحمة للعالمين؟

الجواب بالتأكيد هو كلا. لم تقل الآيتان ذلك ولم توحيا به. في البداية كان الإمام عليه السلام يريد فرض رسوم على مناجاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم لعلمه بأن من يقوم بذلك ويطلب مناجاة الرسول هم من المقتدرين والموسرين والذين بإستطاعتهم دفع مثل تلك الرسوم. و هنا أراد أن يأخذ شيئا بسيطا مما عندهم يساهم به في حل المشاكل الإجتماعية والإقتصادية وفي نفس الوقت يحد به من إشغال وقت الرسول في لقاءات خاصة أو شخصية ويُعفي رسول الله من الحرج. كما أنه يعلم بأن الرسوم في كل التشريعات وعلى رأسها التشريع الإسلامي يُعفى من تأديتها من هو غير مقتدر. فلو حصل أن تقدم شخص من المسلمين يطلب مناجاة الرسول وليس عنده ما يدفعه فإنه بالتأكيد سيُعفى من دفع تلك الرسوم و يُجاب طلبه. إذا لا يعقل أن يمنع علي

بن أبي طالب أحدا من لقاء رسول الله وهو الذي ما دفعه في التفكير بفرض الرسوم إلا أن يحدّ من إستحواذ من يعتبرون أنفسهم كبار الصحابة بوقت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويُمهد الطريق لباقي المسلمين للتمتع بنفس الحق وعلى نفس القدر من المساواة والمعاملة.

لذلك فلا تناقض بين ما أراد علي وما لم يقبل به. فهو لم يرفض فرض الرسوم كفكرة وكمبدأ وإنما أبدى رأيا حول مقدارها. فلقد قبل بأن تكون مقدار "شعيرة،" وهو الرسم الذي كان بإستطاعة عامة الناس دفعه. قبل بفرض الرسوم عندما طلب منه الرسول ذلك لكنه عندما رأى بأنها ستصبح تشريعا ملزما يُشارك هو في فرضه وجد أن من واجبه أن يضع مقدرة المسلمين في الحسبان، تماما كما فعل الرسول صلى الله عليه وآله و سلم عندما أراد الله سبحانه وتعالى فرض العبادات وخاصة الصلاة والصيام.

روى جميع أئمة الأمة الإسلامية ومراجعها ومفسريها بأن الله سبحانه وتعالى فرض على نبيه وأمته ليلة الإسراء خمسين صلاة، ولكن موسى بن عمران عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه و آله وسلم حين مر به في السماء: أرجع إلى ربك فأسأله أن يخفف عن أمتك فان أمتك أضعف الأمم ولا تطيق ذلك، فلم يزل النبي صلى الله عليه وآله وسلم يرجع إلى ربه داعيا طالباً التخفيف عن أمته حتى جعلها الله سبحانه وتعالى خمس صلوات،

وكرامة من الله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم وتقديرا لشعوره تجاه أمته ضاعف الله سبلحانه وتعالى ثواب الصلواة الخمس لتعادل ثواب من صلى خمسين صلاة. فبعد أن النبي هبط إلى الأرض نزل عليه جبرئيل وقال له: يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول: إنها خمس بخمسين ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾، أي أنها خمس صلوات ولكن أجرها خمسين صلاة. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلّم: جزى الله نبيه

موسى عني وعن أمتي كل خير. فرض الله على أمتي خمسين صلاة فراجعت ربي وسألته التخفيف حتى جعلها خمساً في العدد، وخمسين في الأجر. فقال تعالى في سورة الأنعام، الآية ١٦١: ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إلا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ. ﴾

فكما أن طلب الرسول من الله سبحانه وتعالى، حسب إقتراح نبي الله موسى عليه السلام، تخفيف عدد الصلوات وأيام الصيام لا يعتبر دليلا على أن أنبياء الله موسى و محمد أرحم من الله على عباده، فإن طلب علي تخفيف الرسوم لا يُعتبر دليلا على أن علي بن أبي طالب أرحم من الله ومن الرسول على خلق الله. إنها الزيادة في الرتبة والدرجة من قبل الله سبحانه وتعالى ل أولايائه وأصفيائه.

الشمعة الثالثة و العشرون
أذهب الله عنه الحرّ والبرد وأنزل عليه سكينته

في يوم قائظ شديد الحر، من أيام الصيف الحارة التي إشتهرت بها المدينة المنورة، أخذ أصحاب المتاجر والباعة و المتسوقين يلتجأون إلى الظلال هربا من الحر ولهيب الشمس. وبينما الجميع يلوذ بالظلال، أي ظلال، مهما كان طوله وعرضه، وإذا بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يمر بهم لابسا ثياب الشتاء ولا يبدوا عليه آثار للعرق وكأنه يعيش في عالم غير العالم الذي يعيشون فيه وفي احوال مناخية غير تلك التي يعيشونها. إندهش احد الحضور متعجبا مما يرى من حال أمير المؤمنين عليه السلام وقال لمن بجانبه: ما بال علي بن أبي طالب يلبس ثياب الشتاء في هذا الجو المحرق؟ ألا يشعر بالحر الذي نشعر به جميعا؟

وكان من بين الحضور عبد الرحمن بن أبي ليلى فلما سمع مقولة وسؤال الرجل تبسم وقال: والله لقد رأيت علي بن أبي طالب أكثر من مرة وهو يلبس ثياب الشتاء في الصيف وثياب الصيف في الشتاء. وقد إندهشت و تعجبت من ذلك ولكن عجبي و إندهاشي زالا بعد أن سمعت من أبي ما سمعت. سأله الحضور: وما سمعت من أبيك ومالذي قاله؟ فقال عبد الرحمن: ذات مرة ذهبت إلى أبي لأخبره بما كنت أشاهده من أمر علي بن أبي طالب في لباسه وطريقته. فلما سمع أبي تبسم إبتسامة العارف بالسبب وبدلا من أن يخبرني بالسبب ويجيب على سؤالي أخذ بيدي وأتى بي إلى حيث يجلس علي بن أبي طالب في المسجد.

بعد أن سلّمنا عليه أخبره أبي بما سألته عنه. فقال علي عليه السلام:

إن النبي صلى الله عليه وآله وسلّم كان بعث إلي يوم خيبر وأنا أرمد شديد الرمد فبصق في عيني ثم قال: إفتح عينيك. ففتحتهما فما إشتكيتهما حتى هذه الساعة. ودعا لي قائلا: اللهم أذهب عنه الحر والبرد. فما وجدت حرا ولا بردا حتى يومي هذا.

لبس علي ثياب الشتاء في الصيف وثياب الصيف في الشتاء ليس ذلك ترفعا منه ولا لأنه مخلوق يختلف عن سائر البشر في الخلقة والنشأة والتكوين. فلم يُعرف معنى التواضع وكيفيته إلا عن طريق نبي الله صلى الله عليه وآله وسلّم وأمير المؤمنين عليه السلام. فهما وأبناؤهما أساتذة التواضع ومحله وموضعه. وخطب أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الخصوص أكثر من أن تُعد أو تحصى. كما أن سيرته وحياته العملية مليئة بالأدلة والبراهين التي تشهد على أنه إمام المتواضعين، تماما كما هو إمام المتقين وإمام العارفين وإمام البلغاء والشجعان.

كذلك هو الحال مع تكوينه عليه السلام. فهو بشر يؤثر فيه ما يؤثر في سائر البشر وبدنه مثل سائر الأبدان تُؤّثر فيه تقلبات الطقس. كما أنه يعلم أكثر من غيره ما لتلك التغييرات المناخية من آثار على جسم الإنسان ولقد نصح في هذا الشأن المسلمين وطلب منهم التعامل مع تلك المتغيرات المناخية بأسلوب واقعي و عملي. ففي إحدى نصائحه يقول: "توّقوا البرد في أوّله وتلّقفوه في آخره، فإنه يفعل في الأبدان كفعله في الأشجار، أوّله يُحرق وآخره يُورق." وما يقول مثل هذا القول إلا مُجرب وعالم ومتأكد مما يقول.

ما يفرق بين وضع الإمام عليه السلام وضع سائر الناس هو النفس الروحية وليس الجسم المادي. فنفسه هي نفس المتقي التي من فرط حبها لله والصبر على قضائه لا تشعر بالمتقلبات المناخية والأحداث المادية. فالذي يحس بالبرد والحر هي النفس وليس الجسد والنفس هي التي تتألم إن تعرضت

لما يؤلم وتنشو إن لاقت ما يُفرح وليس الجسد. وهذا ما عبّر عنه أمير المؤمنين عليه السلام بنفسه عندما شرح خصال صفات المتقين.

ففي نهج البلاغة روي أنّ صاحباً لأمير المؤمنين عليه السلام يُقال له همّامٌ كان رجلاً عابداً، فقال له: يا أمير المؤمنين، صف لي المتقين كأني أنظر إليهم. فتثاقل عن جوابه، ثم قال عليه السلام: يا همّامُ، اتق الله وأحْسنْ فـ َ. ﴿ إنَّ اللَه مَعَ الَّذينَ اتَّقَوْا والَّذينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ فلم يقنع همّامٌ بذلكَ القول وأصّر على أن يُسمعه الأمام صفات المتقين. فلما رأى الإمام إصرار همّام، حمد الله وأثنى عليه وذكر النبي صلى الله عليه وآله فصلى عليه ثم قال:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيّاً عَنْ طَاعَتِهِمْ آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ، لاَنَّهُ لاَ تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ، وَلاَ تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ، فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ. فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ: مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الاْقْتِصَادُ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ.

غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ. نَزَلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلاَءِ كَالَّتِي نَزَلَتْ فِي الرَّخَاءِ. لَوْلاَ الاْجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْن، شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ، وَخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ. عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ. قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ. صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً، تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ، يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُم. أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا وَلَمْ يُرِيدُوهَا، وَأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا.

أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلاً، يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ، وَيَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ، فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ، وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وَأَكُفِّهِمْ، وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللهِ فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ. وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ، أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ، قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ، يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ، وَيَقُولُ: قَدْ خُولِطُوا! وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ! لاَ يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَلاَ يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ، فَهُمْ لأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ.

إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي، وَرَبِّي أَعْلَمُ مِنِّي بِنَفْسِي! اللَّهُمَّ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، وَاجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَاغْفِرْ لِي مَا لاَ يَعْلَمُونَ. فَمِنْ عَلاَمَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ، وَحَزْماً فِي لِينٍ، وَإِيمَاناً فِي يَقِينٍ، وَحِرْصاً فِي عِلْمٍ، وَعِلْماً فِي حِلْمٍ، وَقَصْداً فِي غِنىً، وَخُشُوعاً فِي عِبَادَةٍ، وَتَجَمُّلاً فِي فَاقَةٍ، وَصَبْراً فِي شِدَّةٍ، وَطَلَباً فِي حَلاَلٍ، وَنَشَاطاً فِي هُدىً، وَتَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ.

يَعْمَلُ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ، يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ، يَبِيتُ حَذِراً، وَيُصْبِحُ فَرِحاً، حَذِراً لَمَّا حُذِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ. إِنِ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ. قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لاَ يَزُولُ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لاَ يَبْقَى، يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ، قَلِيلاً زَلَلُهُ، خَاشِعاً قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنْزُوراً أَكْلُهُ، سَهْلاً أَمْرُهُ، حَرِيزاً دِينُهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُوماً غَيْظُهُ. الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ. إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ. يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ

مَنْ قَطَعَهُ. بَعِيداً فُحشُهُ، لَيِّناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ.

فِي الزَّلاَزِلِ وَقُورٌ، وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ، وَفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ. لاَ يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلاَ يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ. يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ. لاَ يُضَيِّعُ مَا اسْتُحْفِظَ، وَلاَ يَنْسَى مَا ذُكِّرَ، وَلاَ يُنَابِزُ بِالأَلْقَابِ، وَلاَ يُضَارُّ بِالْجَارِ، وَلاَ يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ، وَلاَ يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ، وَلاَ يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ. إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ. نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ. أَتْعَبَ نفسه لاخرَته، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِه. بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ، وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ، لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وَعَظَمَةٍ، وَلاَ دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ."

تلك هي صفات المتقين الذين هو سيدهم وإمامهم وقائدهم. لا تُؤثر فيهم المتغيرات المادية ليس لأنهم غير البشر ولكن لأن أرواحهم في عالم غير العالم الدنيوي تسبح في فلك محبة الله سبحانه وتعالى و طاعته. ومن هنا نعرف معنى دعاء رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي بأن يُبعد عنه الحر والبرد. فالذي كان يقصده رسول لله بالتأكيد ليس الشعور المادي بالبرد والحر وإنما هو دعاء له بأن يُثّبته الله الثبات الحسن، ثبات المتقين العارفين الله والعاملين لمرضاته الذين من فرط حبهم لله يُذيبون أنفسهم في هوى وطاعة من أحبوا، وهم عندما يكونون كذلك يصبرون على كل ما يصيبهم، ليس الحر والبرد فقط بل ما هو أشد من ذلك. وهذا ما يُحدثنا عنه الحسنان عليهما السلام ومحمد بن الحنفية رضوان الله عليه، أبناء أمير المؤمنين، حيث يقولون بأنهم عندما يكون أبوهم في الحرب يصبرون حتى يتوجه للصلاة فيزيلون عنه السهام الناشبة في جسمه لأنه في تلك الحالة لا يشعر إلا بمن وجّه وجهه إليه.

وأمير المؤمنين عليه السلام هو أيضا من الذين أنزل الله عليهم سكينته وثبّت موقفهم في الشدائد و الملمات. فبعد حوالي الإسبوعين من فتح مكة وصل إلى علم رسول الله صلى الله عليه و آله وسلّم خبر بأن قبيلتي هوازن وثقيف قد جيشتا جيشا أُريد به قتال المسلمين. أرسل الرسول وفدا يستقصي الخبر ويتأكد من صحة ما نُقل وما وصل إلى سمعه. وما أسرع أن عاد الوفد بتأكيد الخبر وأن الجيش الغازي في طريقه إلى مكة للهجوم على المسلمين.

أمر الرسول وزيره الأول بتجهيز جيش بأسرع وقت حتى يتمكن من الخروج به إلى خارج مكة لملاقاة القوم وليحفظ مكانة وحرمة الحرم الإلهي وعوائل المسلمين ويُجنبهم ويلات الحرب. أعد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الجيش الذي طلبه الرسول وكان قوامه، كما في تاريخ الطبري وغيره، إثناعشر ألفا.

خرج الرسول بالجيش يوم الأحد الخامس عشر من شوال عام الفتح، أي العام الثامن للهجرة. ولما وصل إلى منطقة يُقال لها حُنين وهي في واد كبير يُقال له وادي المجاز إلتقى جيش الرسول بالجيش الغازي برئاسة مالك بن عوف النصري.

كان لعنصر المباغته وقعه على الجيش الغازي. إذ لم يتوقع أن النبي سيعلم بما دبره وأنه سيقطع عليه الطريق ويمنعه من تحقيق أمنيته وهي غزو المسلمين في مكة. وكلما بدا وقع المباغتة واضحا على الجيش الغازي كلما أخذ العجب والغرور بغالبية جيش الرسول مأخذه. فأعجبتهم كثرتهم حتى قال بعضهم: ما نؤتى من قلة. كره الرسول قولهم وغرورهم وحاول أن يزيل ذلك العجب من نفوسهم فإهتدى بعض منهم والكثير بقي على عجبه وغروره. وإلى ذلك يُشير القرآن الكريم في سورة التوبة: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا

رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ.﴾ وكان لذلك الزهو أثره السلبي في النتيحة الأولية للمعركة.

لما رأت هوازن كثرة جيش الرسول علمت بأن لا مجال للفوز بالحرب مواجهة وأن عليها أن تعمل الكمائن والخدع إن هي أرادت النصر. فرجعت إلى بطن الوادي متخفية بين سهوله ووديانه وقررت مهاجمة جيش الرسول على غفلة منه ومن حيث لا يشعر.

فلما كان عند الفجر وبينما المسلمون في بطن الوادي خرجت هوازن وثقيف من كمائنهم وأحاطوا بالمسلمين وهجموا عليهم هجمة واحدة وأخذوا يرشقونهم بالنبال والحجارة. فتزعزع جيش المسلمين الذي إعتقد منتسبوه بأن كثرتهم ستحمل العدو على التراجع وإذا به يُفاجأ بالهجوم من جميع الجهات. وبعد أن سقط منهم عدد لا بأس به فر الباقون من المعركة وتركوا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم مع قلة من أصحابه، على عدد أصابع اليدين يقدمهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، و ذلك كما قال الله سبحانه و تعالى:﴿ ثم أنزل الله سكينته على رسوله و المؤمنين ﴾ يعني بذلك عليا ومن ثبت معه وهم، كما يذكر المؤرخون أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس وأبوسفيان بن الحارث ونوفل بن الحارث وربيعة بن الحارث وعبدالله بن الزبير بن عبد المطلب ومعتب وعتبة إبنا أبي لهب.

فلما رأى رسول الله فرار المسلمين قال للعباس، وكان جهوريا رفيع الصوت ناد في القوم وذكرهم العهد. فصعد العباس على مرتفع من الأرض ونادى: يا أيها الأنصار، ويا أهل بيعة الرضوان، يا أهل بيعة الشجرة ويا أصحاب سورة البقرة ، يا أصحاب السمرة إلى أين تفرون؟ إذكروا العهد الذي عاهدكم عليه رسول الله. وكان الرسول من جانبه ينادي: "أيها الناس

هلمّ إليّ أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله. يا أنصار الله وأنصار رسوله، أنا عبد الله ورسوله."

كان لمناداة العباس والرسول الأثر في نفوس المسلمين إذ بثت فيهم روح الجهاد فاجتمعوا ثانية وهجموا هجمة واحدة على المشركين ، ومضى علي بن أبي طالب إلى صاحب راية هوازن فقتله، وبعد مقتله كانت الهزيمة للمشركين. وبذلك ﴿ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ.﴾

فهو إذا ممن أنزل الله عليه سكينته ووفقه الى التقوى التي ما عرفت ممثلا لها أفضل منه. فالذي يتألم من خوف الله ويعمل حسابا لعقابه ويذوب في حبه لا يمكن ان تؤذيه او تؤلمه عوامل الطقس فالجرح يسكنه الذي هو آلم.

الشمعة الرابعة و العشرون
يُطعم الطعام على حب الله مسكينا ويتيما وأسيرا

مرض سبطا رسول الله صلى الله عليه وآله الحسن والحسين عليهما السلام فنذرت أمهما فاطمة الزهراء عليها السلام صيام ثلاثة أيام متتالية إن شافاهما الله من مرضهما. وكذلك نذر أبوهما أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وتنضم إليهما في النذر جاريتهم فضة. حب الحسن والحسين دفع أهل البيت العلوي إلى التضرع إلى الخالق سبحانه وتعالى نذرا بالصيام طالبين أن يشافي شمعتي البيت العلوي وسيدي شباب أهل الجنة من مرضهما.

وما كان الله ليرد تضرع أحبته وهو العالم بما في قلوب المتضرعين من حب له ويعلم كذلك بأن نذرهم وخوفهم على المرضى ليس إعتراضا على أمر الله ولا تذمرا من مشيئته وقضائه و لا يأسا من رحمته ولكن حُبا فيمن أحب ورأفة بريحانتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي يؤذيه ما يؤذيهما. فيستجيب سبحانه وتعالى دعائهم ويلبي تضرعهم ويُشفي ريحانتا رسول الله مما حل بهما.

بعد أن عوفي الحسن و الحسين صار لزاما على الناذرين الوفاء بالنذر. فقرروا صيام ثلاثة أيام متتالية. وذهب رب العائلة، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام صباح اليوم الأول من الصيام إلى السوق وإشترى بعض الطحين والسمن لعمل خبز للإفطار. وقامت سيدة النساء فاطمة الزهراء عليها السلام بعمل الخبز. ولما جاء وقت الإفطار في اليوم الأول توضأ الجميع وتوجهوا الى الصلاة وبعد أن أتموا صلاتهم جلسوا لتناول الإفطار والذي لم

يزد عن بعض أقراص الشعير و قليل من اللبن. وقبل أن يمدوا أيديهم إلى الأكل سمعوا طارقا يطرق الباب فذهبت فضة إلى الباب وسرعان ما رجعت وهي تقول: ذلك مسكين من مساكين المسلمين يتضور جوعا. فقام علي وأعطى السائل نصيبه من الإفطار وكذلك فعل الإمامان الحسن والحسين وأمهما الزهراء والجارية فضة. وإكتفوا جميعا بالماء. ثم ذهبوا إلى أورادهم من الصلاة وأمسكوا لصيام اليوم الثاني.

في مساء اليوم الثاني تكرر مشهد اليوم الأول. فبعد الصلاة وقبل أن تمتد يد الصائمين إلى الطعام وإذا بباب البيت العلوي يُطرق. تذهب فضة لترى من عند الباب وإذا به يتيم من يتامى المسلمين يتضور ألما من شدة الجوع ينادي: أطعمونا مما أطعمكم الله. ترجع سريعا إلى داخل الدار وتخبر الجالسين على مائدة الإفطار بالأمر فيقوم الإمام علي بالتبرع بنصيبه من الإفطار لذلك اليتيم وكذلك فعلت الزهراء وأبنيها وخادمتها. وفطروا على الماء القراح لليوم الثاني على التوالي وغدوا صائمين.

في مساء اليوم الثالث يتكرر نفس المشهد أيضا. فبعد الصلاة وقبل أن تمتد يد الصائمين إلى ما بين أيديهم من خبز ولبن يُطرق الباب فتقوم فضة وتفتح الباب وإذا بأسير من أسارى المسلمين يطلب الطعام. تخبر فضة أفراد البيت العلوي فيقوموا بإعطائه إفطارهم كاملا ويفطرون على الماء فقط. ثلاثة أيام لم يذوقوا فيها غير الماء بعد أن آثروا ضعاف وجياع المسلمين على أنفسهم.

[٣]وينظر إليهم خالقهم بنور الرحمة التي وسعت كل عباده فيقرر مكافأتهم في الدنيا قبل الآخرة. فبينما الرسول صلى الله عليه وآله جالسا وإذا بجبرئيل ينزل من السماء و يهديه سورة "الإنسان" إلى أن وصل إلى:
﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ من كَأْس كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا× عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّه يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا× يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا× وَيُطْعِمُونَ

الطَّعَامَ عَلَى حُبِّه مسْكينًا وَيَتيمًا وَأَسيرًا× إنَّمَا نُطْعمُكُمْ لوَجْه اللَّه لا نُريدُ منكُمْ جَزَاء وَلا شُكُورًا× إنَّا نَخَافُ من رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَريرًا× فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا× وَجَزَاهُم بمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَريرًا ﴾

بعد أن قرأ جبرئيل عليه السلام سورة الإنسان قدم إلى رسول الله مائدة من موائد الجنة أتى بها بأمر الجليل من السماء وأمره أن يأخذها إلى البيت العلوي الذي لم يذق أهله الطعام لمدة ثلاثة أيام. ثم هنّأ جبرئيل رسول الله بعطية الله ومكافأته للبيت العلوي وصعد إلى السماء.

وبعد أن صعد جبرئيل قام الرسول صلى الله عليه وآله و سلم وذهب إلى البيت العلوي حاملا معه المائدة والسورة. وبعد أن جلس إستدعى أفراد ذلك البيت الطاهر وأخبرهم بخبر الوحي وهدية الله لهم. فما أتم الرسول كلامه وإذا بهم يقعون ساجدين لله شاكرين نعماءه وفواضله. وبعد أن أتموا سجودهم جلسوا حول المائدة يأكلون منها متنعمين برضى الله سبحانه وتعالى عنهم وكرمه عليهم.

هؤلاء هم أفراد البيت العلوي الذي يرأسه علي بن أبي طالب عليه السلام. لقد شهد الله له ولهم بأنهم هم الأبرار الذين وفوا بالنذر وأطعموا المسكين واليتيم والأسير ولم يفعلها أحد قبلهم ولا وصل إليها أحد بعدهم، بالكيفية والحالة التي كانوا عليها.

لقد أطعم الكثير من المسلمين، وما زالوا يطعمون، المساكين واليتامى والأسارى ولكن ليس كما فعل أهل البيت العلوي. فالمسلمون يقدمون بعض ما عندهم في ذلك السبيل وبعضهم يقدم الشيء اليسير مما لديه. ولكن أهل البيت العلوي قدموا كل ما لديهم من طعام وأعطوا كل ما لديهم من أكل. لم يكن لديهم شيئ غير الذي قدموه. كما أنهم قدموا ما لديهم وهم في حاجة له

إذ لم يكن لديهم طعام غير الذي قدموه ليأكلوه. وكان بإمكانهم أن يشاركوا اليتيم والمسكين والأسير فيما عندهم، ولو أنهم فعلوا ذلك لم يكن ليقلل من شأنهم ولن ينزل من مكانتهم. ولكنهم رأووا بأن إعطاء السائلين بعض ما عندهم سوف لن يكفي لسد حاجتهم وحاجة عيالهم، لذلك أبوا إلا أن يؤثروا السائلين ومن يعولون على أنفسهم.

لذلك كانت المكافأة الربانية متميزة وفريدة. مكافأة متميزة لمتميزين لا شبيه ولا مثيل لهم. وفريدية لبشر لا مثيل لهم بين البشر. والفضل في كونهم كذلك يعود إلى رب البيت الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وقبله للرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم. فهؤلاء هم من أنشأوا وربّوا وأدبوا وعلّموا أهل هذا البيت ورفعوهم إلى أعلى عليين. أحبوا الله وأخلصوا له فإجتباهم من دون خلقه وخصّهم بخاصة لم ينلها أهل بيت قبلهم ولا بعدهم. لذلك لا غرابة أن يباهل رسول الله بهم أهالي نجران ويحق لأهل نجران رفض المباهلة لمعرفتهم بمكانة هذه العائلة عند الله سبحانه و تعالى.

الإيثار عند أمير المؤمنين عليه السلام ليس فقط سنة بل ديدن ونهج بدا جليا وواضحا في كل اقواله وافعاله. يشتري قميصين فيخير خادمه أيهما يفضل ويريد. يجلس في مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيقوم الرسول والمدرس والموجه بإختبار درجة الإستيعاب عند المسلمين وخاصة كبار الصحابة فيسألهم أسئلة وعلي الأقدر على الإجابة ولكنه يلوذ بالسكوت فاتحا المجال أمام إخوانه المسلمين للمشاركة في الحديث. يعلم بأنه لو تكلم لكان كلامه الفصل وبذلك يكون حرمان الآخرين من المشاركة. لذلك يسكت حتى ينال الصحابة حظهم من الوقت والمشاركة. عندما يعرض الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلّم على المسلمين مكافأة لمن يقوم بعمل يحدده يكون الإمام أمير المؤمنين عليه السلام آخر المتقدمين للقيام بذلك العمل ونيل تلك المكافأة. وهذا ما حدث في المؤتمر الأول لقريش وفي معركة الأحزاب وخيبر و

ي اللحظات الأخيرة لحياة الرسول كما بيناه في الفصول السابقة واللاحقة.

كرم أمير المؤمنين عليه السلام و سمو روحه وأخلاقه الرفيعة جعلت منه جوادا يجود بما لديه ويؤثر على نفسه. وينسب اليه سلام الله عليه بيتان من الشعر يعبران بحق عن إنسانيته وكرمه وجوده وأدب الضيافة التي يتمتع بها. يقول أمير المرمنين عليه السلام:

فـــــــداري مُناخ لمن قد نـــزل و زادي مُباح لمن قد أكـــل
أُقـــــــدّم ما عندنا حاضـــــر و إن لم يكن غير خبز و خـــل

لذلك لا عجب إن كرّمه الله وكافأه بأن جعله قائد البررة وأنزل فيه وفيه أهل بيته آيات تبين ذلك ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا﴾

لشمعة الخامسة والعشرون
أقام الصلاة وآتى الزكاة وهو راكع

في سورة المائدة من القرآن الكريم آية حملت كلماتها وأحرفها معان بليغة وشاملة وأرسلت من خلال تلك الكلمات رسائل واضحة لمن له قلب سليم. آية لا يستطيع الإنسان إلا أن يتوقف عندها مليا ليتعرف على معاني كل كلمة فيها ويصل الى مبتغاه من "من الآية و المفزع" ومن هو ولي المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم. تلك الآية هي الآية الخامسة والخمسون من سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ.﴾

الآية وبإجماع المفسرين نزلت في الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وتُعتبر أكبر دليل نصي على إمامته وولايته لأمور المسلمين وأحقيته بالخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم. فالولي، بنص الآية، هو الله سبحانه وتعالى ومن ثم رسول الله ومن ثم الذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون، ولم يقم بهذا العمل، إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهو راكع، غير علي بن أبي طالب عليه السلام.

ومناسبة هذه الآية أن فقيرا من فقراء المسلمين جاء إلى مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم باحثا عن عطاء ومساعدة يسد بها جوعه وجوع عياله. أخذ يطوف على المسلمين مادّا يده للمساعدة وكان كلما مرّ بواحد صدّه، إما لأنه لا يوجد عنده ما يعطيه أو لأنه لم يريد ان يعطيه. واصل الفقير السائل مروره بين المتواجدين في المسجد حتى وصل إلى أمير المؤمنين عليه السلام وكان وقتها راكعا لنافلة فلما أحس به الإمام مد يده للسائل داعيا إياه أن يأخذ

الخاتم الذي بيده. أخذ الفقير الخاتم من إصبع أمير المؤمنين وخرج للسوق ليبيعه. وصل إلى دكان بالسوق يبيع نفس البضاعة وعرض عليه شراء الخاتم فعرض صاحب الدكان مبلغا من المال ثمنا له. قبل الفقير بالمبلغ المعروض ولكن المشتري وحرصا منه على سلامة مصدر الخاتم سأله عن مصدره. أخبر الفقير صاحب الدكان بالذي حدث معه في المسجد وكيف حصل على الخاتم. و ما عرف صاحب الدكان بأنه خاتم أمير المؤمنين ضاعف المبلغ إكراما للإصبع التي حملت الخاتم واليد الذي تصدقت. فرح الفقير بما دره الخاتم عليه من مال وأخذ الدراهم وذهب إلى السوق وإشترى بتلك الدراهم مؤونة لعياله.

في تلك الأثناء نزل الأمين جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله يُخبره بقصة الخاتم وبقرآن من الله سبحانه وتعالى تقديرا لعطاء الإمام وتبيانا لدوره ومكانته. قام الرسول من وقته وساعته وذهب إلى المسجد وأخبر الحضور بنزول الوحي بهذا الآية في علي بن أبي طالب.

تلك هي القصة المختصرة لنزول هذه الآية وأسبابها، كما رواها الكثير من الررواة من أتباع أمير المؤمنين وغيرهم. لكن الآية بها معان كثيرة تُجبر قارئها على التوقف عند كلماتها كلمة كلمة.

قوله جل من قائل «إنما» فذلك معناه خطاب حصري و تأكيدي وإلزامي. فهي تُبعد مجرد التفكير بغير ما تلى كلمة «إنما» من نص وتستثني كل من لم يرد ذكره. «وليكم الله» تأكيد على أن الولاية المقصودة هي ولاية شاملة فولاية الله على البشر هي ولاية شاملة لا حد ولا نهاية لها. ثم تأتي كلمة «و رسوله» وهي بما أنها أُضيفت إلى ولاية الله فلا بد لها أن تكون شاملة أيضا. بعد ذلك تأتي كلمة «و الذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة و هو راكعون.» لم تنتهي الآية عند كلمة «و الذين آمنوا» و لو ان الآية إنتهت عند كلمة آمنوا

لشملت كل المؤمنين، وهذا لا يجوز لأن الآية وكما ذكرنا تتحدث عن الولاية المطلقة التي هي لله ولرسوله وبالتأكيد تلك صفة ومرتبة لا يمكن ان يصل اليها جميع المؤمنين مهما كانت قوة إيمانهم. فلا يُعقل أن تكون لكل المؤمنين نفس الولاية التي هي لله ولرسوله وهم الذين يُخطئون ويرتكبون المعاصي والآثام. لذلك واصلت الآية شرح وتوضيح من هم المؤمنون المقصودون في اللآية فبينت «الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون.» وبذلك حصرت الولاية في شخص واحد فقط وهو الذي أقام الصلاة وآتي الزكاة وهو راكع وهو أمير المؤمنين عليه السلام. ولم يحدث التاريخ بشخص آخر غير أمير المؤمنين يمكن ان تشمله الآية الكريمة.

معنى آخر جاءت به الآية وهو تأكيد ما ورد عن الله سبحانه وتعالى وعن رسوله صلى الله عليه وآله وسلّم بأن الصلاة هي صلة بين الخالق وعبده وأنها تهذيب للنفس ولا يوجد دليل على صدق العبادة وتهذيب النفس من الجود بما أمكن الجود به. كما أن الآية نفسها هي مفاضلة بين الحسن والأحسن والجمع بينهما إن أمكن. فالصلاة المستحبة من نوافل وغيرها هي حسنة ولكن الصدقة وقضاء حاجة المحتاج أحسن. وعلي بن أبي طالب عليه السلام جمع بين الحسن والأحسن في مقام واحد فأقام الصلاة وآتى الزكاة وهو راكع من غير أن يجذب إنتباه الناس إليه.

الشمعة السادسة و العشرون
إختاره الرسول ليصحح أخطاء بعض الصحابة

بعد الفتوحات الإسلامية وخاصة تلك التي سبقت و تلت فتح مكة مباشرة أصاب بعض الصحابة الغرور وأخذوا يعدون نصر الله لهم في مواطن كثيرة تمييزا لهم على سائر الخلق. فبعضهم وضع نفسه فوق الآخرين وبعضهم إستعبد من لم يوفقه الله إلى الإسلام وآخرون إستغلوا نصر الإسلام لتحقيق مآرب شخصية وأخذ ثارات قديمة جاهلية. وبعض آخر أخذ يعمل بظواهر الأمور ولم يكلف نفسه عناء إعمال عقله وتفكيره في ما هو مقدم عليه وما يتخذه من قرارات ومواقف. فلما رأى الرسول ذلك إستدعى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وأخبره بما كان يحدث وطلب منه إحقاق الحق وتعليم الصحابة عزة الإسلام وأهدافه وقيمه الحقيقية وأن يعملوا بما منحهم الله من عقل وإدراك.

وذلك بالفعل ما قام به أمير المؤمنين. عقد لهم الدورات في القيم الإسلامية وكيفية حمل الرسالة الحفاظ عليها والدفاع عنها. لكن الإرث الجاهلي كان أكبر من يُمحى في جلسة إستماع وتعليم ونصح وتقويم. فما دام الصحابة يتولون شؤون بعضهم البعض تسود الألفة والمحبة ولكن بمجرد أن يكون البعض منهم مسؤولا عن إدارة شؤون آخرين، وخاصة خارج المحيط المدني والمكي وبعيدا عن رقابة رئيس الدولة وعين مساعده يترك ذلك البعض العنان للأحقاد والثارات الجاهلية التي ما زال لها مكان في قلبه ونفسه فيجعلها تسيطر على قراراته وإجراءته. هذا بالإضافة الى وجود عدد من الصحابة لم يتمكن الإيمان ومعرفة الرسول معرفة حقيقية منهم بعد. هذه الأحوال كانت الأكثر تعقيدا وإلحاحا في مجتمع الدولة الفتية. ونظرا للأمور الكثير

التي يتوجب على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم القيام بها كان لا بد ان يوكل مهمة تصحيح مسار المؤمنين الى شخص بإمكانه تمثيله تمثيلا صحيحا، وبالتأكيد لا احد غير على أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام يمكنه القيام بهذه المهمة.

لما عزم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على فتح مكة إجتمع سرا مع كبار الصحابة وأخذ يشاورهم في الأمر، كما يعمل في مثل تلك المناسبات، ويوضح لهم خطط التحرك العسكرية ومراحلها مستطلعا آراءهم حولها. وبعد أن إجتمع الرأي على ضرورة فتح مكة و تم تبني الخطة التي وضعها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالإجماع أمر الرسول المجتمعين بكتمان أمر الإجتماع وموضوعه و قراراته حتى لا يفقد عنصر المفاجأة التي كان يعول عليها كثيرا.

إلا أن أحد الحضور ويدعى حاطب بن أبي بلتعة أخذته الغيرة على بعض زعماء قريش الذين كان على علاقة تجارية ومنافع شخصية معهم فكتب كتابا إلى زعماء قريش المسيطرين على مكة يطلعهم على سر رسول الله ويخبرهم عن عزم الرسول المسير إليهم، واستدعى إمرأة سوداء يثق في مشاركتها إياه الفكر والرأي والتوجه وبعد أن أسبغ عليها عطاياه أعطاها الكتاب وأخبرها كيف تُخبأه ثم أمرها أن تسير بالكتاب إلى مكة حيث تسلم الكتاب الى أشخصاص حددهم بالإسم. أخذت الإمرأة العطايا والكتاب وخرجت سرا متوجهة الى مكة.

نزل الأمين جبرئيل عليه السلام على الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم يخبره بخبر حاطب والكتاب الذي كتبه ومع من أرسله ولمن أرسله وأي طريق ستسلكه الإمرأة السوداء، حاملة الخطاب. بعد أن صعد جبرئيل الى السماء جمع الرسول أصحابه فلما اجتمعوا طلب من الزبير وعلي بن أبي طالب المثول بين يديه. فلما مثلا بين يديه إلتفت الى الحضور وقال: «إن بعض أصحابنا

قد كتب إلى أهل مكة يخبرهم بخبرنا وأن الكتاب مع إمرأة سوداء قد أخذت على غير الطريق.» وبعد أن أخبر الصحابة بما نزل به جبرئيل عن الله حاول بعض الصحابة التعرف على مرسل الكتاب ولكن الرسول صلى الله عليه وآله وكعادته مع حديثي الإسلام احتفظ بالإسم لنفسه فلربما يعي صاحب العمل فداحة خطأه فيعود من غير أن يلحق به وبكرامته أي ضرر. فما كان من الرسول الا ان قطع الطريق على كل محاولة لمعرفة كاتب الكتاب ووجه خطابه الى عليا والزبير مخبرا إياهما بتفاصيل المرأة والكتاب والطريق الذي سلكته. وأمرهما أن يخرجا سريعا ليلحقا بها ويأخذا الكتاب منها ويرجعانها الى المدينة. فقام علي بن ابي طالب والزبير بن العوام وغادرا مسرعين في أثر المرأة حتى أدركاها في بعض الطريق.

أوقفا الإمرأة وسألها الزبير عن الكتاب الذي معها فأنكرته وحلفت بأنه ليس معها أي كتاب وأخذت تبكي وطلبت بخبث من الزبير وعلي أن يبتعدا عنها حتى لا يظن المارة فيها سوءا خاصة وأنها لوحدها في الطريق ولا أحد معها. رق الزبير لبكائها وإستجاب لتضرعها وتفهم طلبها وقال لأمير المؤمنين: يا أبا الحسن، ما أرى معها كتابا. فقال أمير المؤمنين: يُخبرني رسول الله أن معها كتابا ويأمرني بأخذه منها وتقول أنت لا كتاب معها؟ وهنا تبرز قوة الإيمان بالله والتصديق برسوله الذي لا ينطق عن الهوى إنما هو وحي يوحى. فبينما صدّق الزبير كلام الإمرأة التي إستطاعت زعزعة تصديقه للرسول بقي علي بن أبي طالب على قوة تصديقه بالرسول وبما يقول ولم ينطل عليه خداع الإمرأة.

سل أمير المؤمنين عليه السلام سيفه ليرد كيدها إلى نحرها وقال لها: أما والله لإن لم تُخرجي الكتاب لأكشفنك ثم لأضرب عنقك. وطبعا لم يكن الإمام يعني ما يقول ولكنه قابل مكرها بمكر أشد منه ﴿ويمكرون ويمكر الله و الله خير الماكرين.﴾ فلما رأت تصميم الإمام وهي تعرف من هو علي بن أبي طالب وأنه ليس كصاحبه خافت وتيقنت بأن مكرها إرتد عليها فقالت: إذا

كان لا بد من ذلك فأعرض عني يا بن أبي طالب بوجهك أنت و صاحبك. فلما أعرضا عنها كشفت قناعها وأخرجت الكتاب من عقيصتها وسلمته الى أمير المؤمنين. نظر الزبير الى عل بن ابي طالب والعرق يتصبب منه حياء وخجلا من نفسه معاتبا نفسه كيف صدُق إدعاء الإمرأة مع وجود امر رسالي؟ علم أمير المؤمنين ما يدور في نفس الزبير فأخذ يخفف عنه جلده لذاته ذاكرا له ما ورد في القرآن الكريم حول مكر النساء. بعد ذلك سار أمير المؤمنين والزبير ومعهما الكتاب وحاملته ورجعا الى المدينة حيث سلما رسول الله الكتاب وحاملته.

بعد أن وفّق الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم الى فتح مكة أعطى رسول الله الراية إلى سعد بن عبادة وأمره أن يدخل بها مكة معلنا فتحها ودخولها تحت راية الإسلام. شكر سعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم على العطية حيث كان الصحابة يعتبرون مثل ذلك التكليف من الرسول شرفا وفخرا وأخذ الراية فرحا و مضى نحو الكعبة. لما قرب من الكعبة رفع راية رسول الله وهو يرتجز متبجحا ويقول: اليوم يوم الملحمة، اليوم تُسبى الحرمة.

نقل بعض الصحابة ما كان من سعد فحز ذلك في نفس الرسول الذي بُعث رحمة للعالمين. فإستدعى علي بن أبي طالب وقال له: إذهب وخذ الراية من سعد وادخل بها مكة. وطلب من علي أن يُعلن الإسلام الحقيقي وأهدافه السامية وأخلاقه السمحة الرحيمة. فلحق أمير المؤمنين بسعد وأخذ منه الراية. وبعد أن اجتمع حوله المكيون خاطبهم بنفس سجع سعد ولكن برسالة عكس رسالة سعد وقال: اليوم يوم المرحمة، اليوم تُحمى الحرمة. فهدأ روع المكيين وأخذوا يدخلون في دين الله أفواجا.

وبعد أن منّ الله سبحانه وتعالى على رسوله والمسلمين بفتح مكة وإستقر

رسول الله فيها إستدعى خالد بن الوليد وأرسله إلى بني جذيعة يدعوهم إلى الإسلام. وكان تكليف الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم لخالد إما لكونه لا يعلم بأن خالدا له ثارات وتبعات على بني جذيعة تعود الى ما قبل دخوله الإسلام او كان انه يعلم ولكنه إعتقد بأن إسلام خالد قد اخذ به الى حيث اخلاق وقيم الإسلام ومحى من ذاكرته عملية الثأر والعادات الجاهلية. ولو علم الرسول ببقاء الرواسب الجاهلية عند خالد لما أرسله.

المهم، سار خالد بن الوليد حتى وصل بنى جذيعة وما أن شاهدهم ورأى ضعفهم امامه حتى تذكر ثاراته القديمة عندهم فاعمل السيف فيهم وقتل منهم عددا كبيرا وجرح عددا أكبر وأجبر الباقين على قبول الإسلام تحت وطأة السيف. ولم يكتف بذلك بل وصل به اخذ الثأر الى ان يستبيح حرمهم ويستولي على أملاكهم تشفيا منهم.

إنسل أحد الصحابة من جيش خالد ورجع مسرعا إلى مكة ومنها إلى رسول الله مباشرة وأخبره بما قام ويقوم به خالد بن الوليد من أعمال ضد بني جذيعة. ومرة أخرى يشعر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالألم والمرارة من تصرفات بعض الصحابة المحسوبة على الإسلام وإساءتهم إلى قيم ومبادئ الدين الحنيف. فإستدعى رسول الله علي بن أبي طالب وأعلمه بما كان يفعله خالد بن الوليد ضد بني جذيعة وأمره أن يأخذ كتيبة معه ويخرج من وقته وساعته إلى بني جذيعة ويستلم القيادة من خالد ويأمر خالد بالرجوع إلى مكة وأن يقابل النبي فور وصوله مكة. كما أمره بعد أن يستلم الأمر من خالد ان يعمل على إقامة العدل والإحسان وينصف بني جذيعة.

سار أمير المؤمنين عليه السلام من وقته وساعته ولما وصل إلى بني جذيعة خلع خالد وأرجعه إلى مكة وأمره أن يقابل رسول الله فور وصوله إلى مكة. ثم إستدعى قادة وزعماء بني جذيعة وإعتذر لهم عمّا بدر من خالد

وأصلح ما أفسده خالد فأطلق الأسرى ودفع ديات القتلى وأرضى أولياء الدم ودعاهم إلى الإسلام فقبل إسلام من أسلم وأبقى من لم يُسلم على دينه على أن يدفع الجزية في مقابل حمايته وحماية ممتلكاته من قبل الدولة. ثم أقام لهم من يحكم بالقسط فيما بينهم ويُنّظم أمورهم ويُعلمهم أمور دينهم ودنياهم ورجع بعد ذلك إلى مكة.

الشمعة السابعة والعشرون
وصيا وخليفة مقامه من رسول الله مقام هارون من موسى

يُعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العدة لمعركة تبوك ليرفع من خلالها وقاحة وظلم المشركين للمسلمين. وبعد أن تكتمل كل الإستعدادات اللازمة لشن المعركة يلتفت إلى أمير المؤمنين عليه السلام فيخبره بأنه لن يصاحبه في سفره ومعركته هذه المرة وان عليه أن يبقى في المدينة مسؤولا عن حرم رسول الله ويتولى شؤون المسلمين اثناء غيابه. حزّ ذلك الأمر في قلب ذلك البطل الذي لم تفته معركة من معارك الرسول. كيف له أن يتخلّف هذه المرة عن معركة من معارك النبي وهو الذي لا شيء أحب لديه من القتال بين يدي رسول الله متمنيا الشهادة بين يدي الرسول والعروج إلى خالقه مخضبا بدمائه في سبيل الله.

ينزل أمير المؤمنين رأسه إستحياء من الرسول ومن الإعتراض على قراره. وبقي في حالة تضاربت فيها الرغبة في الذهاب الى الحرب مع التسليم بأمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم. علم الرسول بما يدور في خلد الإمام وعلم أن الإمام لن يعترض على أمر من الرسول حتى وإن لم يستحسنه. فنظر إليه الرسول بحنان الأب الرحيم وعطف المربي العطوف وقال له: لعلّ في نفسك ما تريد أن تقوله يا علي؟ فقال أمير المؤمنين: نعم يا رسول الله، إن سمحت لي بذلك. فقال الرسول: تفضل يا أبا الحسن قل ما شئت. قال أمير المؤمنين: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، أتخلّفني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله: أما ترضى بأن تكون وزيري ووصيي وخليفتي وقاضي ديني ومنجز وعدي، لحمك لحمي ودمك دمي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي؟

إنشرحت أسارير الإمام بعد ان عرف أن الرسول لم يتركه في المدينة جزافا ولا إستغناء عنه وعن دوره العسكري وإنما ليقوم بدور لا يقل شأنا وأهمية من دوره في ميدان الحرب والقتال. علم بأن الرسول يُعده لتولي منصب أهم من منصبه الحالي. منصب يمثل من خلاله رسول الله ويقوم بدوره في غيابه، وهو منصب لا يناله الى ذو حظ عظيم. من جانبه رأى الرسول صلى الله عليه وآله في إستحياء وعدم إرتياحه مناسبة مؤاتية ليقوم بتبيان مكانة أمير المؤمنين ومركزه من الرسول، ليس لعلي فقط بل لجميع المسلمين. فلم يكتف بإخبار علي بالمهمة التي سيوكلها إليه بل بين وبمسمع ومرأى من جميع المسلمين منزلته ومكانة أمير المؤمنين من الرسول والرسالة.

قبّل أمير المؤمنين عليه السلام يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورجع إلى حيث كان، راضيا قانعا ومقدرا ما أسبغه عليه الرسول من تقدير وعطايا. ثم أخذ يتذكر ما قاله الناس في أمر عدم ذهابه مع الرسول وكيف أنهم وصفوا قرار الرسول بعدم إصطحاب علي بأنه إستغناء عنه وعن دوره في الميدان وكيف ان ذلك الموقف دفعه الى عدم القبول مباشرة بما أمر به الرسول وكيف سمح لنفسه أن يسمع لقولهم فأنشأ يقول:

ألا باعد الله أهل النفاق	و أهل الأراجيف و الباطل
يقولون لي قد قلاك الرسول	فخّلاك في الخالف الخاذل
و ما ذاك إلا لأن النبي	جفاك و مان كان بالفاعل
فسرت و سيفي على عاتقي	إلى الراحم الحاكم الفاصل
أممت إبن عمي فأنبأته	بأرجاف ذي الحسد الدّاغل
فلما رآني هفا قلبه	و قال مقال الأخ السائل
فقال أخي أنت من دونهم	كهارون موسى و لم يأتل

ثم تأتي بعد ذلك حادثة الجارية التي اغضب لحوقها بعلي خالد بن الوليد فأرسل للرسول من يقع في علي، و التي سبق وان ذكرناها في الشمعات السابقة، وما إن سمع رسول الله كلام بريدة حتى تغير وجهه لدرجة ان بريدة خاف سوء العاقبة. يقول بريدة: فنظرت إلى وجه رسول الله و قد تغيّر فقلت له: هذا مكان العائذ بك يا رسول الله، بعثتني مع رجل وأمرتني بطاعته ففعلت وهئنذا أقوم بما أمرني به. نظر رسول الله الى بريدة بعطف وحنان و قال: لا تقعّن يا بريدة في علي فإن عليا مني وأنا منه وهو وليكم بعدي.

منذ ولادة أمير المؤمنين عليه السلام والرسول صلى الله عليه وآله وسلم يُعده إعدادا يؤهله علميا وفنيا وشعبيا لأن يصبح خليفته. فهو من ناحية يعده جسميا وعقليا لهذه المهمة ومن ناحية أخرى يهيئ الرأي العام ليقبل به خليفة بعده. فلما وُلد أمير المؤمنين عليه السلام أخبر المصطفى صلى الله عليه وآله وسلّم المسلمين بأن الأمين جبرئيل عليه السلام هبط عليه وقال له: «يا حبيب الله الله يُقرئك السلام ويُهنيك بولادة أخيك علي بن أبي طالب ويقول: هذا أوان ظهور نبوءتك وإعلان وحيك وكشف رسالتك إذ أيّدتك بأخيك ووزيرك وصنوك وخليفتك ومن شددت به أزرك وأعلنت به ذكرك.»

لم يترك صلى الله عليه وآله وسلم مناسبة إلا وذكر هذا الحديث وأحاديث أخرى مشابهة كلها تصب في موضوع واحد وهو أن علي بن أبي طالب هو خليفة رسول الله بأمر الله سبحانه وتعالى وأنه من رسول الله كهارون من موسى، إلا أنه لانبي بعد الرسول. ولكثرة أحاديثه وأقواله في هذا الشأن وصل إلى القارئ عشرات الأحاديث في هذا الخصوص رواها رواة من مختلف المشارب والإتجاهات والميول بأساليب مختلفة وفي أماكن وأزمنه مختلفة ومتباعدة كلها تؤكد على أن الرسول قال في علي بأنه «خليفته، وأنه منه كهارون من موسى غير أنه ليس بنبي، وأنه وارثه وحامل علمه وقاضي دينه ووصيه.»

فبعد رسالة جبرئيل السابقة والتي بُعث بها بعد ولادة أمير المؤمنين عليه السلام كان مؤتمر الدار ويتكرر نفس الموضوع ويقوم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بتعيين علي بن أبي طالب وزيرا وسندا وخليفة، بعد أن رفض هذه المهمة جميع من كان حاضرا في ذلك المؤتمر. ثم في مسجد الرسول بعد الهجرة، كما ذكر سعد بن ابي وقاص وبعد ذلك حديث أسماء بنت عميس «سمعت أن رسول الله قال لعلي: يا علي إنك مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي،» ثم ما ذكرنا سابقا في غزوة تبوك، وأحاديث كثيرة غيرها.

وفي السنة العاشرة للهجرة المباركة ولما شعر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دنو أجله وأنه عمّا قريب سيدعى إلى لقاء ربّه قرر أن ينهي دوره الرسالي والقيادي بإخضاع مجتمعه إلى مراجعة شاملة لما جاء به ليتأكد بأن الرسالة وصلت لهم وفهموها وإستوعبوها. فعلى مدى السنين السابقة كان خير مدرس أعطى نتاج علمه لتلامذته ودعاهم إلى الإجتهاد ورفض الجمود وحثهم على تفعيل عقلهم وعمل فكرهم. فأحب أن يتأكد بأنهم قد فهموا رسالته وفهموا الخطوط العريضة التي رسمها لهم. فأرسل رسلا إلى المدن الإسلامية تخبرهم بأن الرسول سيؤدي فريضة الحج في ذلك العام وأنه يدعوا من إستطاع للحج سبيلا أن يحج لأنه قد لا يستطيع أن يحج مع رسول الله بعد هذا العام.

وكان من الطبيعي جدا أن يهب المسلمون للذهاب إلى الحج ليحجوا بحج رسول الله. فأخذت القوافل تصل إلى مكة المكرمة من كل الجهات حتى بلغ عدد حجاج ذلك العام عشرات الألوف. فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يؤمهم في إحرامهم وفي طوافهم وصلواتهم وسعيهم وموقفهم ونحرهم وجمارهم وهم يتبعونه ويفعلون ما يأمرهم بفعله. وكانت تلك الطريقة هي المفضلّة لديه لتوصيل المعلومة الصحيحة للمسلمين حيث إختار الرسول الطريقة العملية بدلا من الإلقاء النظري. جعل الرسول يؤّمهم بنفسه

مع وجود من بإمكانه إنابة الرسول إنابة حقيقية وصحيحة وتامة مثل علي بن أبي طالب عليه السلام وغيره من الصحابة الأجلاء والثقاة. لكن الرسول أصّر على أن يكون هو الإمام لعلمه بأن من بين المسلمين من هو ضعيف الإيمان كما أن بينهم توجد ثلة من المنافقين والإنتهازيين. أراد أن يقطع الطريق على مثل أولئك المغرضين وأن تكون المعلومة التي يريد أن يوصلها آتية مباشرة من المصدر وبطريق عملي لا لبس ولا غموض فيه.

ولما وصل الحجيج إلى عرفات وإكتمل وقوفهم وقف الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم فيهم خطيبا مبينا لهم شرائع دينهم ومناسك حجهم ثم حذّرهم من الفرقة والإختلاف بعده قائلا: «أيها الناس إسمعوا قولي، فإني لا أدري لعّلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف...أيها الناس، إن دماءكم واموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا. وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم.» وبعد أن أجزل في النصح والإرشاد وأجاب على أسئلة وإستفسارات المسلمين التي رفعت إليه قبل خطبته أرشدهم إلى مصادر معلوماتهم ومن أين يستقون المعلومات وما هي المصادر التي يمكنهم الرجوع إليها في حال وجود خلاف بينهم وقال: «أيها الناس، إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا – كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبدا.»

وبعد أن أنهى خطبته الشاملة الوافية أمّ المسلمين الصلاة وبقي حتى غروب ذلك اليوم ثم أمّ الحجيج إلى مزدلفة حيث قضى الحجاج ليلتهم يتوافدون على الرسول يسألون إيضاح ما صعبت معرفته من الأمور الدينية والدنيوية. وفي صباح العاشر من ذي الحجة أمّ الرسول الحجيج في باقي مناسك الحج حتى أتّم وأتّموا حجهم بسهل ويسر وبالطريقة الصحيحة التي رسمها لهم القائد والأب والنبي والمنقذ والمرشد. وبعد أن أكملوا مناسكهم جاؤوا إلى الرسول يودعونه ويسألونه الدعاء لهم بقبول العبادة وغفران

الذنوب. ثم شدّ كل واحد منهم راحلته قاصدا الرجوع إلى بلده وأهله صاحبا معه ذكريات لا تنسى وستحسده عليها أجيال كثيرة بعده، لم تنل شرف الحج مع الرسول وتتمنى لو أنها رأته.

وكما تفّرق الحجيج كل إلى بلده كذلك الرسول وصحبه ومن أتى معه من المدينة المنورة شدّوا رحالهم قاصدين الرجوع إلى المدينة. ولما وصل موكب الرسول إلى مسجد الخيف نزل عليه الأمين جبرئيل عليه السلام وقال له: «العلي الأعلى يُقرئك السلام ويقول لك: إنني لم أقبض نبيا من أنبيائي ولا رسولا من رسلي إلا بعد إكمال ديني و تأكيد حُجتي. وكان قد بقي عليك من ذلك فريضتان تحتاج تبليغهما قومك. فريضة الحج، وقد قضيتها وبينتها للناس وفريضة الولاية والخلافة من بعدك، وهو ما توجب عليك إبلاغه. فإنني لم أخل الأرض من الحجة ولن أخلُها أبدا. ثم أضاف جبرئيل: يا محمد إن الله يقول لك إنه قد دنى أجلك وأنه مستقدمك إلى ما لا بد منه ولا محيص فإعهد عهدك وقدم وصيتك وإعمد إلى ما عندك من العلم وميراث علوم الأنبياء من قبلك والسلاح والتابوت وجميع ما عندك من آيات الأنبياء وسلّم كل ذلك إلى وصيك وخليفتك من بعدك حجة الله البالغة على خلقه علي بن أبي طالب فأقمه للناس علما وجدد عهده وميثاقه وبيعته وخذ عليهم البيعة.

وكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم يعلم ما عليه قومه وأن من بينهم ضعاف الإيمان والمنافقين ومن لا يقبل بإمامة أمير المؤمنين لنعرات جاهلية وثارات عنصرية تمكنت من نفوسهم وعشعشت في صدورهم. فخشي أن لا يقبلوا الأمر ولربما إتهموه بتغليب مصلحة القرابة ومحبته لأمير المؤمنين عليه السلام على مصلحة الأمة.

قال الرسول صلى الله عليه وآله لجبرئيل: حبيبي جبرئيل، إن قومي حديثوا عهد وأخشى أن يُكّذبوني ولا يقبلوا قولي في علي. ولم يكن جبرئيل

ليفرض على رسول الله أمرا إلا بأمر الله. لذلك قال له إنه سيرى رد الخالق سبحانه وتعالى ويعود إليه. فصعد جبرئيل برد الرسول الى السماء. وتحرك الرسول في طريقه.

لما وصل موكب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى غدير خم، قبل الحجفة بثلاثة أميال أتاه الروح الأمين جبرئيل برسالة إلهية صريحة و واضحة تحمل في طياتها أمرا واجب النفاذ مع حماية ربّانية من أي تعّد فعلي كان أو لفظي من قبل القوم. قال جبرئيل للرسول الكريم: «إن الله يقرئك السلام ويقول لك ﴿ يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربك و إن لم تفعل فما بلّغت رسالته و الله يعصمك من الناس.﴾ فلما سمع الرسول الأمر الإلهي قرر أن يُنّفذ أمر ربّه. فأمر الناس أن ينزلوا في نفس المكان وأن يُرّد من تقّدم وينادى في الذين سلكوا طرقا متفرعة بأن يرجعوا حيث أن ذلك المكان نقطة تفرق يتجه منها الحجاج إلى بلدانهم، شرقا وغربا وجنوبا وشمالا. ولما وقف الموكب وأرجع من تقدم أمر الرسول أن ينادى في الناس «الصلاة جامعة، بإمامة الرسول الأكرم.» فلما تجمع الناس أمر سلمان وبعض الصحابة أن يصنعوا له مرتفعا على هيئة منبر.

وهنا يحب أن أتوقف لأقر بحقيقة بأنه لم يكن واردا لدي أن أضّمن هذا العمل نصوصا وخطبا، و ذلك بالطبع ليس بسبب عدم محبة أو رغبة في ذلك أو لوجود شك، لا سمح الله فيها، وإنما حتى لا تزيد الصفحات و تتضاعف ولأن تلك الخطب قد تكرر ذكرها من قبل من هم أفضل مني في هذا الشأن ولن أزيد على ما ذكروه شيئا لا من ناحية الشكل ولا النسق. ولكن ما إن قرأت خطبة الغدير هذه المرة، وهي بالطبع ليست المرة الأولى، حتى وجدت نفسي مدفوعا لإضافتها بالنص وكما وردت في أكثر من مؤلف وموقع. إنها خطبة لم تؤكد بيعة الإمام علي فقط بل أيضا وضعت قانونا وتشريعا ومنهاجا للأمة الإسلامية. فإذا كان القرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة هما المصدران

الرئيسيان للتشريع الإسلامي ويمثلان دستور الدولة الإسلامية، فإن خطبة الغدير هي بحق اللائحة الداخلية والقانون الإداري والتنظيمي للدولة الإسلامية. لذلك كان تزيين هذه الوريقات ببهجة نورها ونفحات أريجها أمرا لا يمكن مقاومته.

المهم، بعد أن أكملٍ سلمان المحمدي وإخوانه تشييد المنبر المؤقت الذي أمرهم قائدهم بتشييده، أخبر الرسول صلى الله عليه وآله فجاء ويده بيد علي بن أبي طالب عليه السلام ومن خلفه كبار الصحابه. ثم صعد المنبر وخطب في الناس قائلا:

«الحمد لله الذي علا في توحده، ودنا في تفرده، وجلّ في سلطانه، وعظُم في أركانه، وأحاط بكل شيء علما وهو في مكانه، وقهر جميع الخلق بقدرته وبرهانه. مجيدا لم يزل محمودا لا يزال. بارئ المسموكات وداحي المدحوات وجبّار الأرضين والسموات. قُدّوس سُبوح، رب الملائكة والروح. متفضل على جميع من براه، متطول على جميع من أنشأه، يلحظ كل عين والعيون لا تراه. كريم حليم ذو أناة. وسع كل شيء رحمته و من عليهم بنعمته. لا يُعّجل بإنتقامه ولا يبادر إليهم بما إستحقوا من عذابه. قد فهم السرائر وعلم الضمائر ولم تخف عليه المكنونات ولا إشتبهت عليه الخفيّات. له الإحاطة بكل شيء والغلبة على كل شيء والقوة في كل شيء والقدرة على كل شيء وليس مثله شيء وهو منشئ الشيء حين لا شيء. دائم قائم بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم. جلّ عن أن تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير. لا يلحق أحد وصفه من معاينة ولا يحد أحد كيف هو من سر وعلانية إلا بما دلّ عزّ وجل عن نفسه.

واشهد انه الذي تواضع كل شيء لقدرته وخضع كل شيء لهيبته ملك الاملاك ومفلك الافلاك ومسخر الشمس والقمر كل يجري لا جل مسمى، يكور

الليل على النهار ويكور النهار على الليل يطلبه حثيثا، قاصم كل جبار عنيد ومهلك كل شيطان مريد، لم يكن معه ضد ولاند، احد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد، اله واحد ورب ماجد يشاء فيمضي ويريد فيقضي ويعلم فيحصي ويميت ويحيي ويفقر ويغني ويضحك ويبكي ويمنع ويعطي، له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شيء قدير، يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل لا اله الا هو العزيز الغفار، مجيب الدعاء ومجزل العطاء محصي الانفاس ورب الجنة والناس، لا يشكل عليه شيء ولا يضجره صراخ المستصرخين ولا يبرمه الحاح الملحين، العاصم للصالحين والموفق للمفلحين ومولى العالمين، الذي استحق من كل من خلق ان يشكره ويحمده.

«احمده على السراء والضراء والشدة والرخاء، وأومن به وبملائكته وكتبه ورسله، اسمع امره واطيع وابادر الى كل ما يرضاه واستسلم لقضائه رغبة في طاعته وخوفاً من عقوبته لانه الله الذي لا يؤمن مكره ولايخاف جوره، واقر له على نفسي بالعبودية واشهد له بالربوبية واودي ما اوحي الي حذراً من ان لا افعل فتحل بي منه قارعة لايدفعها عني احد وان عظمت حيلته لا اله الا هو، لانه قد اعلمني اني إن لم ابلغ ما انزل الي فما بلغت رسالته وقد ضمن لي تبارك وتعالى العصمة، وهو الله الكافل الكريم فأوحي الي: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ. يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ في علي (يعني في الخلافة لعلي بن ابي طالب) ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

معاشر الناس: ما قصرت في تبليغ ما انزل الله تعالي إلي وانا مبين لكم سبب نزول هذه الاية: ان جبرئيل هبط الي مراراً ثلاثاً يبلغني سلام ربي وهو السلام ويأمرني ان اقوم في هذا المشهد فاعلم كل ابيض واسود ان علي بن ابي طالب اخي ووصيي وخليفتي والامام من بعدي، الذي محله مني محل هارون

من موسى الا انه لانبي بعدي وهو وليكم من بعد الله ورسوله، وقد انزل الله تبارك وتعالى علي بذلك اية من كتابه ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ وعلي بن ابي طالب اقام الصلاة وآتى الزكاة وهو راكع يريد الله عزوجل في كل حال.

وسألت جبرئيل ان يستعفي لي عن تبليغ ذلك اليكم لعلمي بقلة المتقين وكثرة المنافقين وادغال الاثمين وختل المستهزئين بالاسلام الذين وصفهم الله في كتابه بانهم يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم ويحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم وكثرة اذاهم لي في غير مرة حتى سموني اذناً وزعموا اني كذلك لكثرة ملازمته اياي واقبالي عليه، حتى انزل الله عزوجل في ذلك قراناً ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ (ردا على الذين يزعمون انه اذن) أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ.﴾ ولو شئت ان اسمي بأسمائهم لسميت وان اومىء اليهم باعيانهم لأومأت وان ادل عليهم لدللت، ولكني والله في امورهم قد تكرمت. وكل ذلك لا يرضي الله مني الا ان ابلغ ما انزل الـي ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ.﴾

فاعلموا معاشر الناس: ان الله قد نصبه لكم ولياً واماماً مفترضاً طاعته على المهاجرين والانصار وعلى التابعين لهم باحسان، وعلى البادي والحاضر وعلى الاعجمي والعربي والحر والمملوك والصغير والكبير على الابيض والاسود وعلى كل موحد ماض حكمه جائز قوله نافذ امره، ملعون من خالفه مرحوم من تبعه مؤمن من صدقه، فقد غفر الله له ولمن سمع منه واطاع له.

معاشر الناس: انه اخر مقام اقومه في هذا المشهد فاسمعوا واطيعوا وانقادوا لامر ربكم، فان الله عزوجل هو مولاكم والهكم ثم من دونه محمد

صلى الله عليه وآله وسلم وليكم القائم المخاطب لكم، ثم من بعدي علي وليكم وامامكم بامر ربكم، ثم الامامة في ذريتي من ولده الى يوم تلقون الله ورسوله. لا حلال الا ما احله الله ولا حرام الا ما حرمه الله، عرفني الحلال والحرام وانا افضيت بما علمني ربي من كتابه وحلاله وحرامه اليه (إلى علي بن أبي طالب.)

معاشر الناس: ما من علم الا وقد احصاه الله في وكل علم علمت قد احصيته في امام المتقين، وما من علم الا علمته علياً وهو الامام المبين.

معاشر الناس: لا تضلوا عنه ولاتنفروا منه ولاتستكبروا فهو الذي يهدي الى الحق ويعمل به ويزهق الباطل وينهى عنه ولاتأخذه في الله لومة لائم، ثم انه اول من امن بالله ورسوله، وهو الذي فدى رسوله بنفسه وهو الذي كان مع رسول الله ولا احد يعبد الله مع رسوله من الرجال غيره.

معاشر الناس: فضلوه فقد فضله الله واقبلوه فقد نصبه الله.

معاشر الناس: انه امام من الله ولن يتوب الله على احد انكر ولايته ولن يغفر الله له، حتماً على الله ان يفعل ذلك بمن خالف امره فيه وان يعذبه عذاباً شديداً نكراً ابد الاباد ودهر الدهور، فاحذروا ان تخالفوه فتصلوا ناراً وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين.

ايها الناس: بي والله بُشّر الاولون من النبيين والمرسلين وانا خاتم الانبياء والمرسلين والحجة على جميع المخلوقين من اهل السموات والارضين، فمن شك في ذلك فهو كافر كفر الجاهلية الاولي، ومن شك في شيء من قولي هذا فقد شك في الكل منه، والشاك في ذلك مصيره النار.

معاشر الناس: حباني الله بهذه الفضيلة منّا منه علي واحساناً منه الي ولا اله الا هو. له الحمد مني ابد الابدين ودهر الداهرين على كل حال.

معاشر الناس: فضلوا علياً فانه افضل الناس بعدي من ذكر وانثى، بنا انزل الله الرزق وأبقى الخلق، ملعون ملعون مغضوب مغضوب من رد على قولي هذا ولم يوافقه، الا ان جبرئيل اخبرني عن الله تعالى بذلك ويقول: (من عادى علياً ولم يتوله فعليه لعنتي وغضبي) فلتنظر نفس ما قدمت لغد، واتقوا الله ان تخالفوه فتزل قدم بعد ثبوتها ان الله خبير بما تعملون.

معاشر الناس: انه جنب الله الذي ذكر في كتابه فقال تعالي ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾.

معاشر الناس: تدبروا القران وافهموا اياته وانظروا الى محكماته ولاتتبعوا متشابهه، فوالله لن يبين لكم زواجره ولايوضح لكم تفسيره الا الذي انا اخذ بيده ومصعده الي وشائل بعضده (ورفع يد علي حتى بان بياض إبطيهما) ومعلمكم ان من كنت مولاه فهذا علي مولاه، وهو علي بن ابي طالب اخي ووصيي وموالاته من الله عزوجل انزلها علي.

معاشر الناس: ان علياً والطيبين من ولده هم الثقل الاصغر والقران الثقل الاكبر فكل واحد منبئ عن صاحبه وموافق له لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، هم امناء الله في خلقه وحكماؤه في ارضه الا وقد اديت الا وقد بلغت الا وقد اسمعت الا وقد اوضحت الا وان الله عزوجل قال وانا قلت عن الله عزوجل الا انه ليس اميرالمومنين غير اخي هذا ولا تحل امرة المومنين بعده لأحد غيره.

معاشر الناس: هذا علي اخي ووصيي وواعي علمي وخليفتي على امتي وعلى تفسير كتاب الله عزوجل والداعي اليه والعامل بما يرضاه والمحارب لأعدائه والموالي على طاعته والناهي عن معصيته خليفة رسول الله وامير المومنين والامام الهادي وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين بامر الله. اقول و ما يبدل القول لدي بأمر ربي اقول: اللهم وال من ولاه وعاد من عاداه والعن من انكره واغضب على من جحد حقه. اللهم انك انزلت علي ان الامامة بعدي لعلي وليك وأمرتني تبيان ذلك ونصبي اياه بما اكملت لعبادك من دينهم واتممت عليهم بنعمتك ورضيت لهم الاسلام ديناً فقلت: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيْنًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِيْنَ﴾ اللهم اني اشهدك وكفى بك شهيداً اني قد بلغت.

معاشر الناس: انما اكمل الله عزوجل دينكم بامامته فمن لم يأتم به وبمن يقوم مقامه من ولدي من صلبه الى يوم القيامة والعرض على الله عزوجل فاولئك الذين حبطت اعمالهم وفي النار هم فيها خالدون، لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون.

معاشر الناس: هذا علي انصركم لي واحقكم بي واقربكم الي واعزكم علي، والله عزوجل وانا عنه راضيان وما نزلت آية رضي الله عنهم إلا فيه وما خاطب الله الذين آمنوا الا بدأ به ولا نزلت آية مدح في القران إلا فيه ولاشهد بالجنة في هل أتي على الانسان إلا له ولا أنزلها في سواه ولامدح بها غيره.

معاشر الناس: هو ناصر دين الله والمحامي عن رسول الله وهو التقي النقي الهادي المهدي، نبيكم خير نبي ووصيكم خير وصي وبنوه خير الاوصياء.

معاشر الناس: ذرية كل نبي من صلبه وذريتي من صلب علي.

معاشر الناس ان ابليس اخرج ادم من الجنة بالحسد فلا تحسدوه فتحبط اعمالكم وتزل اقدامكم فان ادم اهبط الىالارض بخطيئة واحدة وهو صفوة الله عزوجل وكيف بكم وانتم انتم ومنكم اعداء الله. الا انه لايبغض علياً الا شقي ولايتولى علياً الا تقي ولايؤمن به الا مؤمن مخلص، وفي علي واله نزلت سورة والعصر ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ. وَالعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ× إِلاَّ الذِّيْنَ آمَنُوا وَتَوَاصَوا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوا بِالصَّبْرِ.﴾

معاشر الناس: قد استشهدت الله وبلغتكم رسالتي وما على الرسول الا البلاغ المبين.

معاشر الناس: اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون.

معاشر الناس: آمنوا بالله ورسوله والنور الذي انزل معه من قبل ان نطمس وجوهاً فنردها على ادبارها.

معاشر الناس: النور من الله عزوجل في مسلوك ثم في علي ثم في النسل منه الى القائم المهدي الذي يأخذ بحق الله وبكل حق هو لنا، لأن الله عزوجل قد جعلنا حجة على المقصرين والمعاندين والمخالفين والخائنين والاثمين والظالمين من جميع العالمين.

معاشر الناس: انذركم اني رسول الله قد خلت من قبلي الرسل أفإن مت او قتلت انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين. الا وان علياً هو الموصوف بالصبر والشكر ثم من بعده ولدي من صلبه.

معاشر الناس: لاتمنوا على الله اسلامكم فيسخط عليكم ويصيبكم بعذاب من عنده انه لبالمرصاد.

معاشر الناس: انه سيكون من بعدي أئمة يدعون الى النار ويوم القيامة لا ينصرون. معاشر الناس: ان الله وانا برئيان منهم.

معاشر الناس: انهم وانصارهم واتباعهم واشياعهم في الدرك الاسفل من النار ولبئس مثوي المتكبرين. الا انهم اصحاب الصحيفة فلينظر احدكم في صحيفته.

معاشر الناس: اني ادعها إمامة ووراثة في عقبي الى يوم القيامة وقد بلغت ما امرت بتبليغه حجة على كل حاضر وغائب وعلى كل احد ممن شهد او لم يشهد ولد او لم يولد فليبلغ الحاضر الغائب والوالد الولد الى يوم القيامة وسيجعلونها ملكاً واغتصاباً الا لعن الله الغاصبين والمغتصبين. وعندها سنفرغ لكم ايها الثقلان فيرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران.

معاشر الناس: ان الله عزوجل لم يكن ليذركم على ما انتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب، وما كان الله ليطلعكم على الغيب.

معاشر الناس: انه ما من قرية الا والله مهلكها بتكذيبها وكذلك يهلك القرى وهي ظالمة كما ذكر الله تعالى وهذا علي امامكم ووليكم وهو مواعيد الله والله يصدق ما وعده.

معاشر الناس: قد ضل قبلكم اكثر الاولين، والله لقد اهلك الاولين وهو مهلك الاخرين قال الله تعالى ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِيْنَ، ثُمَّ نُتْبِعُهُم الآخِرِيْنَ، كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِيْنَ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِيْنَ﴾.

معاشر الناس: ان الله قد امرني ونهاني وقد امرت علياً ونهيته فعلم الامر والنهي من ربه عزوجل فاسمعوا لأمره تسلموا واطيعوه تهتدوا وانتهوا لنهيه ترشدوا، وصيروا الى مراده ولا تتفرق بكم السبل عن سبيله.

معاشر الناس: انا صراط الله المستقيم الذي امركم الله باتباعه ثم علي من بعدي ثم ولدي من صلبه ائمة يهدون الى الحـــق وبه يعدلون، ثم قـــرأ: ﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين﴾ الى آخرها وقال: في نزلت ولهم عمت، واياهم خصت، اولئك اولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون الا ان حزب الله هم الغالبون الا ان اعداء علي هم اهل الشقاق والنفاق والحادون وهم العادون واخوان الشياطين الذين يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً الا ان أولياءهم الذين ذكرهم الله في كتابه فقال عزوجل ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوم الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ الى اخر الاية. ألا ان أولياءهم هم الذين وصفهم الله عزوجل فقال: ﴿الذِّيْن آمَنُوا وَلَمْ يُلْبِسُوا إِيْمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونْ﴾. الا ان اوليائهم هم الذين وصفهم الله عزوجل بالذين يدخلون الجنة آمنين تتلقاهم الملائكة بالتسليم ان طبتم فادخلوها خالدين. الا ان أولياءهم هم الذين قال عنهم الله عزوجل: ﴿يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيْهَا بِغَيْرِ حِسَابْ.﴾ الا ان اعداءهم يصلون سعيراً الا ان اعداءهم هم الذين يسمعون لجهنم شهيقاً وهي تفور ولها زفير. الا ان اعداءهم هم الذين قال الله فيهم ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا.﴾ الا ان اعداءهم هم الذين قال الله عزوجل ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيْهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُم نَذِيْرٌ× قَالُوا بَلَي قَدْ جَاءَنَا نَذِيْر فَكَذَبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيْر.﴾ الا ان أولياءهم هم الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة واجر كبير.

معاشر الناس: الا واني منذر وعلي هاد.

معاشر الناس: اني نبي وعلي وصي، ألا إن خاتم الائمة منا القائم المهدي، الا انه الظاهر على الدين، الا انه المنتقم من الظالمين، الا انه فاتح الحصون وهادمها، الا انه قاتل كل قبيلة من اهل الشرك، الا انه مدرك بكل ثأر لأولياء الله، الا انه الناصر لدين الله، الا انه الغراف في بحر عميق، الا انه يسم كل ذي فضل بفضله وكل ذي جهل بجهله، الا انه خيرة الله ومختاره، الا انه وارث كل علم والمحيط به، الا انه المخبر عن ربه عزوجل، والنبه بأمر ايمانه، الا انه الرشيد السديد الا انه المفوض اليه، الا انه قد بشر من سلف بين يديه، الا انه الباقي حجة ولا حجة بعده ولاحق الا معه ولانور الا عنده، الا انه لاغالب له ولامنصور عليه، الا انه ولي الله في ارضه وحكمه في خلقه وامينه في سره وعلانيته.

معاشر الناس: قد بينت لكم وافهمتكم وهذا علي يفهمكم بعدي، الا واني عند انقضاء خطبتي ادعوكم الى مصافحتي على بيعته والاقرار به ثم مصافحته بعدي، الا واني قد بايعت الله وعلي قد بايعني وانا اخذكم بالبيعة له عن الله عزوجل ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ اللّه عَلَيْه فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيمَا. ﴾

معاشر الناس: ان الحج والصفا والمروة والعمرة من شعائر الله ﴿ فَمَنْ حَجَّ البَيْتَ أَوْ إِعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾.

معاشر الناس: حجوا البيت فما ورده اهل بيت الا استغنوا، ولاتخلفوا عنه الا افتقروا.

معاشر الناس: ما وقف بالموقف مؤمن الا غفر الله له ما سلف من ذنبه الى وقته ذلك فاذا انقضت حجته استونف عمله.

معاشر الناس: الحجاج معانون ونفقاتهم مخلفة والله لا يضيع اجر المحسنين.

معاشر الناس: حجوا البيت بكمال الدين والتفقه، ولا تنصرفوا عن المشاهد الا بتوبة واقلاع.

معاشر الناس: اقيموا الصلاة وآتوا الزكاة كما امركم الله عزوجل، لئن طال عليكم الامد فقصرتم او نسيتم فعلي وليكم ومبين لكم. هو الذي نصبه الله عزوجل بعدي ومن خلّفه الله عليكم. هو مني وانا منه. يخبركم بما تسألون عنه ويبين لكم ما لاتعلمون، الا ان الحلال والحرام اكثر من ان احصيهما واعرفهما، فآمر بالحلال وانهي عن الحرام في مقام واحد، فأمرت ان اخذ البيعة منكم والصفقة لكم بقبول ما جئت به عن الله عزوجل في علي امير المومنين والائمة من بعده الذين هم مني ومنه، ائمة خاتمهم قائمهم.

معاشر الناس: كل حلال دللتكم عليه و كل حرام نهيتكم عنه. اني لم ارجع عن ذلك ولم ابدل. الا فاذكروا ذلك واحفظوه وتواصوا به ولاتبدلوه ولاتغيروه، الا واني اجدد القول: الا فاقيموا الصلاة واتوا الزكاة وامروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، الا وان راس الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ان تنتبهوا الى قولي هذا وتبلغوه من لم يحضر وتأمروه بقبوله وتنهوه عن مخالفته، فانه امر من الله عزوجل ومني ولا امر بمعروف ولانهيٌ عن منكر الا مع امام معصوم.

معاشر الناس: القرآن يعرفكم ان الائمة من بعده ولده، وعرفتكم انه مني وانا منه، حيث يقول الله في كتابه ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ وقلت: لن تضلوا ما ان تمسكتم بهما.

معاشر الناس: التقوى التقوى، احذروا الساعة كما قال الله عزوجل ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيءٌ عَظِيْم.﴾ اذكروا الممات والحساب والموازين والمحاسبة بين يدي رب العالمين والثواب والعقاب، فمن جاء بالحسنة اثيب عليها ومن جاء بالسيئة فليس له في الجنان نصيب.

معاشر الناس: انكم اكثر من ان تصافحوني بكف واحدة، وقد امرني الله عزوجل ان اخذ من السنتكم الاقرار بما عقدت لعلي من امرة المومنين ومن جاء بعده من الائمة مني ومنه على ما اعلمتكم ان ذريتي من صلبه، فقولوا باجمعكم: انا سامعون مطيعون راضون منقادون لما بلغت عن ربنا وربك في امر علي وامر ولده من صلبه من الائمة، نبايعك على ذلك بقلوبنا وانفسنا والسنتنا وايدينا، على ذلك نحيي ونموت ونبعث ولا نغير ولا نبدل ولا نشك ولا نرتاب ولا نرجع عن عهد ولاننقض الميثاق نطيع الله ونطيعك وعلياً امير المومنين وولده الائمة الذين ذكرتهم من ذريتك من صلبه بعد الحسن والحسين الذين قد عرفتكم مكانهما مني ومحلهما عندي ومنزلتهما من ربي عزوجل. فقد اديت ذلك اليكم وانهما سيدا اشباب اهل الجنة، وانهما الامامان بعد ابيهما علي وانا ابوهما قبله وقولوا: اطعنا الله بذلك واياك وعلياً والحسن والحسين والائمة الذين ذكرت عهداً وميثاقاً ماخوذاً لامير المومنين من قلوبنا وانفسنا والسنتنا ومصافحة ايدينا من ادركهما بيده واقر بهما بلسانه ولا نبتغي بذلك بدلاً ولا نري من انفسنا عنه حولاً ابداً. قولوا اشهدنا الله وكفي به شهيداً وانت علينا شهيد وكل من اطاع ممن ظهر واستتر وملائكة الله وجنوده وعبيده والله اكبر من كل شهيد.

معاشر الناس: ما تقولون فان الله يعلمه فهو يعلم كل صوت وخافية كل نفس فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها، ومن بايع فانما يبايع الله يد الله فوق ايديهم.

معاشر الناس: اتقوا الله وبايعوا علياً امير المومنين والحسن والحسين والائمة كلمة طيبة باقية، يهلك الله من غدر ويرحم الله من وفى ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَي نَفْسِه. ﴾

معاشر الناس: قولوا الذي قلت لكم وسلموا على علي بامرة المومنين وقولوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير وقولوا: ﴿الحَمْدُ للهِ الذِّي هَدَانَا لِهَذا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَولاَ أَنْ هَدَانَا الله. ﴾

معاشر الناس: ان فضائل علي بن ابي طالب عند الله عزوجل كثيرة وقد انزلها في القرآن في اكثر من موضع و هي أكثر من أن احصيها في مقام واحد فمن انباكم بها وعرفها فصدقوه.

معاشر الناس: من يطع الله ورسوله وعلياً والائمة الذين ذكرتهم فقد فاز فوزاً عظيماً.

معاشر الناس: السابقون السابقون الى مبايعته وموالاته والتسليم عليه بامرة المومنين اولئك هم الفائزون في جنات النعيم.

معاشر الناس: قولوا ما يرضى الله به عنكم من القول ﴿إِنْ تَكْفُروا أَنْتُم وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَ الله لغَنِيٌّ حَمِيْد﴾ اللهم اغفر للمومنين واغضب على الكافرين والحمدلله رب العالمين.»

ثم جلس صلى الله عليه وآله وسلّم خاتما بيانه التفصيلي الوافي. وما إن جلس على منبره حتى علت أصوات القوم قائلين: سمعنا واطعنا وإمتثلنا لأمر الله ورسوله نأتمر بأمره وتصغى له قلوبنا والآذان وتجيبه ألسنتنا والقلوب وتخدمه نفوسنا والأيدي. ثم تدافعوا نحو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

وعلي عليه السلام فصافحوهما بايديهم و كان من الطبيعي جدا أن يبدأ كبار الصحابة بالمصافحة و البيعة فهم، بعد أهل بيت الرسول، الأقرب إلى رسول الله روحيا و موقعا، فهم دائما في الصفوف الأولى و على يمين و شمال الرسول. ثم تبعهم باقي المهاجرين والانصار وباقي الناس على طبقاتهم وقدر منازلهم، حتى غربت الشمس وصليت المغرب والعتمة في وقت واحد. وبعد الصلاة واصلوا البيعة والمصافحة ثلاثاً ورسول الله يقول كلما بايع قوم: الحمد لله الذي فضلنا على جميع العالمين. وصارت المصافحة سنة ورسماً منذ ذلك اليوم.

بعد أن أتم الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم خطبته وأخذ البيعة لأمير المؤمنين وقام بتنفيذ أمر ربه شكر المسلمين على الإمتثال إلى أمره والتخييم في تلك البقعة التي لا تصلح لمثل ذلك الحشد وفي مثل ذلك الوقت ثم أمرهم بالإنصراف إلى بلدانهم وبيوتهم. فأخذوا يودعونه ويودع بعضهم بعضا ثم إنصرفوا إلى بلدانهم. وكذلك فعل الرسول فقد رجع مع من معه من أهل المدينة إلى المدينة.

الشمعة الثامنة والعشرون
وصي أجهضت الوصية عليه قسرا

نقطة تلزم من يصل إليها التوقف فيقف طويلا عندها المؤرخون وخاصة من غير المسلمين من مستشرقين ومهتمين بالدراسات الإسلامية وبتوقفهم يستذكرون سؤال منطقي راودهم مرارا وهو: كيف لنبي مخلص لربّه ولرسالته ولأمته كالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلّم والذي ما أمر قومه بعمل إلا بدأ به بنفسه ليكون قدوة وأسوة لهم أن يستثني نفسه من أمر وواجب شرعي نزل به قرآن؟ الآية ١٨٠ من سورة البقرة تأمر كل مسلم بكتابة وصية قبل الموت: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقاً عَلَى الْمُتَّقِينَ. ﴾ هذه الآية صريحة وواضحة ولا تحتاج الى شرح ولا هي عرضة للإلتباس. كما انها تخاطب المسلمين بصفة عامة بما فيهم رسول الله ولم تستثن أحدا منهم. لماذا لم يمتثل الرسول لأمر ربه فيكتب وصية؟

ذلك من ناحية النص القرآني. أما من ناحية النص والأمر النبوي فقد وردت أحاديث كثيرة مسندة كما في الصحاح أن الرسول أكد على المسلمين في مواضع كثيرة وجوب كتابة الوصية قبل الموت ولشدة تأكيده عليها خاف بعض أصحاب الرسول أن يدركهم الموت قبل كتابة وصيتهم فقامو بكتابتها فورا، كما ورد في صحيح مسلم أن عبد الله بن عمر قال: «ما مرّت عليّ ليلة منذ سمعت رسول الله قال ذلك إلاّ وعندي وصيتي.» فيكف لرسول الله أن يأمر ويؤكد على أمر ولا يقوم هو بعمله وهو الذي عُرف عنه أنه ما أمر بعمل إلا بدأ بنفسه؟

أما من ناحية الممارسات العملية والتطبيقية فلقد عرف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم أنه كلما أراد السفر إلى خارج المدينة المنورة، عاصمة الدولة الإسلامية، بما في ذلك أسفاره للحج، كان يستخلف على المدينة وأهلها من ينوب مكانه أثناء غيابه يؤم المسلمين ويقضي حوائجهم ويحكم بينهم ويقوم بتأدية الديون ورد الودائع. فلما ذهب إلى غزوة بدر إستخلف أبا لبابة، وإستخلف أبا ذر الغفاري لما ذهب إلى غزوة بني المصطلق وإستخلف علي بن أبي طالب يوم ذهب إلى غزوة تبوك وإستخلف أبا دجانة الأنصاري يوم حجة الوداع. فقبل ان يغادر المدينة، لأي سبب، كان صلى الله عليه وآله وسلم يستخلف عليها من ينوب عنه. فكيف يستخلف على عاصمته من يقوم مقامه عندما يذهب إلى سفر هو مهما طال قصير بعده رجعة شبه مؤكدة ولا يكتب وصية يستخلف من خلالها أحدا على دولته التي جاهد وضحى بالغالي والنفيس في سبيل إقامتها وهو يعلم أنه ذاهب إلى سفر طويل لا رجعة منه أبدا؟

تلك هي أسئلة مشروعة يطرحها وبقوة عدد كبير من المؤرخين. منهم من يطرحها لإثبات حالة وللتأكيد على وجود وصية ومنهم من يطرحها لعدم علمه فعلا بما حدث في بيت الرسول صلى الله عليه وأله وسلّم قبل وفاته بأيام قلائل، وهو على فراش المرض. هناك فعلا من لم يعلم ولم يسمع ولم يقرأ عن ما سمي «برزية يوم الخميس» كما وصفها بن عبّاس: «يوم الخميس وما أدراك ما يوم الخميس.» لذلك فهم يستعجبون من موقف الرسول هذا لدرجة انه بدا للبعض منهم على انه تناقض غير مفهوم. أما البعض الآخر فيطرح مثل هذه الأسئلة وهو عالم بجوابها وإنما يطرحها للإستدال على تثبيت وتنصيب الرسول للإمام علي خليفة ووصيا لرسول الله صلى الله عليه وآله سلم وليفنّد إدعاءات من شاء وأيّد ذهاب الخلافة إلى خارج البيت النبوي والى أي رجل كان مهما كان مستوى ذلك الرجل و خلفيته، ما دام إنه غير علي بن أبي طالب.

ما حدث بالفعل هو ما رواه رواة الحديث المعتمدون من قبل المسلمين جميعا وعلى رأسهم شيخهم ورئيسهم بن عباس. فلقد أجمعوا على أن هناك وصية نبوية بينها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم شفهيا ولما أراد أن يكتبها لتكون وثيقة يحتج إليها المسلمون ويستنيرون بهداها تم إجهاض محاولته وخطته و وأدها قبل أن ترى النور.

ففي يوم الخميس الرابع والعشرين من صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة، قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم بأربعة أيام، حيث إنتقل إلى جوار ربه يوم الإثنين الثامن والعشرين من نفس الشهر والسنة، دخل المسلمون على الرسول يعودونه في المرض الذي توفي فيه. وبعد أن إستقر بهم المقام نظر الرسول إليهم فرأى جمعهم يضم كبار الصحابة ووجهاء المدينة ومن أتى من باقي المدن الإسلامية لزيارة الرسول والإطمئنان عليه. فرأى صلى الله عليه وآله وسلّم في ذلك الجمع مناسبة مؤاتية للقيام بعمل وإجراء طالما رغب في القيام به ليس فقط لأنه من صلب العقيدة التي لم يتخلف عن أداء فرع من فروعها بل أيضا ليحفظ للمسلمين انجازانهم وليرسم لهم طريق المستقبل السليم.

التفت صلى الله عليه وآله وسلّم إلى القوم وقال: «آئتوني بدواة وكتف اكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا.» نهض بعض الحضور مسرعين ليأتوا بما طلبه الرسول وليكون لهم شرف تلبية اوامره الأخيرة قبل رحيله. لكن بعض أعيان الصحابة، يقودهم الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب، أقعدوا قسرا من نهض ليأتي بما طلب الرسول قائلين: «إجلسوا، إن نبيكم ليهجر ولقد غلبه الوجع. عندنا كتاب الله وهو حسبنا.»

لم يعجب بعض الحضور مثل ذلك التدخل والإتهام السافر والقاسي من شخص يعتبر من أهم وأقرب الصحابة للرسول على شخص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم. وإشتد الخلاف حتى وصل في بعض مراحله إلى تبادل الألفاظ والشتائم والإتهامات وكثر اللغط من القوم. وكل ذلك كان في حضرة رسول الله وفي بيته وامام عينيه و بمسمع منه وهو فوق كل ذلك مريض. أحد الحضور أراد أن يضع حدا لما يحصل ويلبي أمر رسول الله فعرض أن يقوم بنفسه ويأتي بما طلبه الرسول مهما كلّف الأمر ولكن المعارضين لذلك، وخاصة عمر، إعتبروا ذلك الموقف تحديا لإرادتهم فقاموا بالنيل من ذلك الشحص ومن شاركه الرأي وتم شتمهم والتقليل من شأنهم ودورهم ومركزهم في الدولة الإسلامية وفي المجتمع الإسلامي ككل. كما عابوا على أؤلئك القوم أصلهم ولونهم وعرقهم وكونهم غير قرشيين. كما تم تهديدهم بإستخدام القوة لمنعهم إن تطلّب الأمر ذلك.

نظر الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم الى وجهاء أمته فرآهم كيف يتنازعون الأمر وهو ما زال بين ظهرانيهم فعظم ذلك عليه وزاده ألما فوق الألم الذي كان يعاني منه والحالة الصحية الصعبة والحرجة التي هو فيها. جمع كل قواه النطقية والجسدية وقال لهم بلهجة الآمر والرافض والمتألم لما يسمع ويشاهد: «قوموا عني.» ثم أغمي عليه من شدة الألم والتأثر. وتدّخل الإمام أمير المؤمنين وبعض الصحابة وفضّوا نزاع القوم مذّكرينهم بأنه لا ينبغي لهم التنازع عند رسول الله ولا في بيته فكيف وهو في الحالة التي هو فيها.

إستمعوا إلى صوت العقل والحكمة وخرجوا ولكن بعد أن تأكدوا بأنهم أجهضوا نهائيا على محاولة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومنعه من كتابة وصيته. لكنهم بالرغم من ذلك أوكلوا مراقبة الوضع إلى جواسيس لهم في البيت النبوي ليراقبوا التطورات ويخبرونهم بما يحدث في البيت النبوي

أولا بأول. وذلك هو أحد الأسباب الرئيسية التي دفعت أولئك الصحابة إلى عصيان أمر الرسول وعدم مغادرتهم المدينة عندا أمرهم بالإلتحاق بجيش أسامة.

وهذا طبعا ليس ذمّا في عمر ولا تشكيكا في موقفه. فمواقفه تشهد له بالغيرة على الإسلام والعمل على نشره وبسط نفوذ وسلطة الدولة الإسلامية. نرى إن عمر وبما عُرف عنه من نباهة وسرعة بديهة فطن إلى ما كان ينوي رسول الله صلى الله عليه وآله فعله وأنه عرف بأن الرسول كان يريد إصدار أمر كتابي وموثق يكتبه أحد من الصحابة من دون الهاشميين ويشهد عليه عددا من الحضور يُؤكد فيه خلافة علي بن أبي طالب. فليس هناك أمر يستحق التدوين في مثل اللحظات الحرجة من حياة الرسول غير هذا الأمر. وهذا بالفعل ما فعله بعد رسول الله كل من أبي بكر وعمر (رض) في مثل تلك اللحظات الأخيرة من حياتهما حيث كان آخر شيء قاما به هو وصيتهما لمن يجب أن تؤول له الخلافة بعدهما. فلا يعقل أن يكون خوفهما على الدولة الإسلامية أكثر من خوف رسول الله عليها أو أنهما أحرص على تطبيق ما أمر الرسول به من وجوب كتابة الوصية من الرسول نفسه.

عرف عمر بقصد الرسول ولكن لكونه من الناس الذين وبالرغم من حبهم لعلي وإعترافهم بدوره إلا أنه، وحسب رأيه، يُخاف على الدولة الإسلامية منه، لما عرف عنه من إستقامة وصرامة، لأنه لا تأخذه في الله لومة لائم، حسب ما عبّر هو بنفسه عن ذلك في أيام خلافته، ولأنه يعتقد بأن العرب لن تقبل بعلي لأنها لم تكن تستوعب بعد درجة العدل والحق لديه، لذلك منع الرسول صلى الله عليه وآله من كتابة الأمر النبوي الأخير.

وهذا بالفعل ما قاله و شرحه عمر نفسه في المحاورة التي دارت بينه وبين ابن عباس في أيام خلافة عمر وها هي المحاورة، كما نقلها المرحوم الشيخ

محمد جواد الشري، إمام جامع ديترويت في الولايات المتحدة الأميركية نقلا عن ابن أبي الحديد و «المراجعات» لشرف الدين:

عمر: كيف خلفت ابن عمك؟

ابن عباس: خلّفته يلعب مع أترابه (ظانا أنه يعني عبدالله بن جعفر)

عمر: لم أعن ذلك. إنما عنيت عظيمكم اهل البيت، علي بن أبي طالب.

ابن عباس: خلفته يمتح بالدلو على نخيلات وهو يقرأ القرآن.

عمر: عليك دماء البدن ان كنت كتمتنيها. هل بقي في نفسه شيء من الخلافة؟

ابن عباس: نعم.

عمر: أيزعم أن رسول الله نص عليه؟

ابن عباس: نعم، وأزيدك. لقد سألت أبي (حبر الأمة) عمّا يدعي علي من نص رسول الله بالخلافة فقال: صدق علي في دعواه.

عمر: كان من رسول الله ذرو من قول (ثناء عالي) في أمره (في أمر علي). لا يثبت حجة ولا يقطع عذرا. لقد كان يربع في أمره وقتا ما (يحاول تنصيبه خليفة). ولقد أراد في مرضه أن يصرح بإسمه فمنعته من ذلك إشفاقا وحيطة على الإسلام. لا ورب هذه البنية لا تجتمع عليه قريش أبدا. ولو وُليها لإنتفضت عليه العرب من أقطارها. فعلم رسول الله أنني علمت ما في نفسه فأمسك. وأبى الله إلا امضاء ما حتم.»

ذلك بالفعل ما كان في بال عمر. وهذا ما أكّدت عليه الشواهد والوقائع بعد ذلك. فبغض النظر عن إعترافه بمقدرة علي العقلية والجسدية والقضائية والعلمية لدرجة تمنيه أن لا تعرض عليه مشكلة وعلي غير موجود معه، وأن الإمام علي بن أبي طالب في رأيه هو أفضل زعيم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم إلا أنه بالرغم من إعترافه بفضل وأسبقية وأهلية علي لم يتم إدخاله حتى ضمن من تم ترشيحهم للخلافة خلفا لأبي بكر وعمر، كما فعل أبو بكر مع عمر وعمر مع عثمان وأفراد الفريق الذين معه والذين رشّحهم عمر للخلافة. عمر يرى بأن علي بن أبي طالب يصلح لأي منصب، بل ويزين أي منصب، كما ذكر ذلك بنفسه في أكثر من موقع، إلا منصبا واحدا وهو الخلافة. لذلك جاءت معارضته لكتابة الرسول نصا خطيا على خلافة علي ولذلك لم يُخّلفه هو من بعده.

الشمعة التاسعة والعشرون
أخر الناس عهدا برسول الله

عمل آخر عمله الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم في ذلك الخميس التاريخي، آخر يوم خميس له في حياته. كان الرسول يعلم مواقف كثير من الصحابة والمسلمين من علي بن أبي طالب، وهذا ما ذكره من قبل لجبرئيل عندما نزل عليه في مسجد الخيف يبلغه رسالة ربه في أمر علي. عرف بأن موافقة القوم في ذلك اليوم ما هي إلا شكلية وأن الكثير منهم سينقض بيعته بعد أن يلاقي الرسول ربّه. لذلك أراد أن يبعدهم عن المدينة بضعة أيام لكي يتمكن علي بن أبي طالب من مواراة الرسول بعد موته ثم يقوم هو مقامه، كما أمر الله بذلك. لذلك جهّز جيشا وأعطى قيادته لأسامة بن زيد وجعل تحت إمرته جميع الصحابة.

قبل حادثة إجهاض وصية الرسول بيوم، أي يوم الأربعاء، خرج الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم من منزله متكئا على علي بن أبي طالب وتوجه إلى المسجد. وبعد أن وصل المسجد خطب في المسلمين وأمرهم بالدخول في جيش تحت إمرة أسامة بن زيد الذي أمره أن يذهب الى مؤته حيث أُستشهد أبوه ليحارب الناكثين والمارقين. وأمرهم بالإستماع إلى أسامة وإطاعة أوامره ثم أمر أسامة أن يتحرك بجيشه إلى حيث أخبره. فقام المسلمون وسلّموا على رسول الله الذى لم يمنعه المرض ولا الضعف الذي يعاني منه جسمه من شدة المرض من مصافحتهم واحدا واحدا. فسلموا عليه وودعوه متمنين له الشفاء وخرجوا خلف أسامة وقيادته. وخرج الرسول بعدهم ودخل داره.

لكن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تفاجأ صباح يوم الخميس الشهير بأن بعض من الذين أمرهم بالذهاب مع أسامة لم يذهبوا ولقد حضروا إلى منزله وكل واحد منهم يتعلل بعلة لا ينطوي زيفها على شخص كرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فلما سألهم الرسول عن عدم ذهابهم أجاب أحدهم: «كرهت أن أسال عنك الركبان.» وأجاب آخر: «رجعت لأجدد بك عهدا.» وأجاب ثالث: «سمعت بأنه ثقل حالك وخفت أن تفوتني الصلاة عليك.» لذلك لمّا كان منهم ما كان وبعد أن وقفوا ضد إرادته وحالوا دون كتابته للوصية أمرهم بالخروج من المدينة حالا والإلتحاق بجيش أسامة. وشدد على ضرورة تلبية طلبه هذا وأغلظ على من يتخلف ويقعد عن الجهاد الذي أمر به وقال: «انفذوا جيش أسامة، أنفذوا جيش أسامة، أنفذوا جيش أسامة.» كررها ثلاثا ثم أغلظ القول وذّم من تخلف أو سيتخلف عن جيش أسامة معتبرا ذلك مخالفة صريحة لأمره والذي هو أمر من الله سبحانه وتعالى.

خرج المسلمون من عند رسول الله صلى الله عليه وآله وفي رقابهم تكليفان صريحان و واضحان من رسول الله. أمران واجبا التنفيذ. الأمر الأول هو وجوب خروجهم من عنده بعد سوء أدبهم وتراشقهم بالألفاظ والسباب في حضرته وفي منزله. والأمر الثاني هو تكليف شرعي بالإلتحاق بجيش أسامة. فخرجوا ولكن في حالات وأوضاع وبكيفيات متفاوتة. بعض خرج من عند الرسول متأسفا لما بدر من بعض الصحابة في حضرة الرسول وعاهد الله على أن يُكّفر عن ذلك بإطاعة أمر الرسول وإلتحاقه بجيش أسامة. البعض الآخر خرج من عند الرسول وهو أكثر عنادا وإصرارا على عدم تنفيذ أوامر الرسول الأخيرة خوفا من أن تفوته الفرصة ويفوت عليه ما خطط له وأمّله. وآخرون خرجوا وهم ممتثلين لأمر متمسكين بمبايعتهم في غدير خم و ممتثلين لكل ما أمر به الرسول بما في ذلك إلتحاقهم بجيش أسامة بن زيد.

و لما خرج المسلمون من عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم أمر علي بن أبي طالب بأن يجعل رأسه في حجره وأن يستمع لما يقوله له. وأخذ يوصي عليا بوصاياه الخاصة به ثم إنتقل بعد ذلك إلى الوصايا العامة. فبعد أن أوصاه بأهل بيته وريحانتاه من الدنيا الحسن و الحسين عليهما السلام أخبره بأنه بالرغم من تأكيد الوصية ومبايعة الناس له، إلا أنهم لن يوفوا بعهدهم وقال صلى الله عليه وآله وسلّم: «يا أخي إفهم، أفهمك الله وسددك وأرشدك ووفقك واعانك وغفر ذنبك ورفع ذكرك. اعلم يا أخي بأن القوم سيشغلهم عني ما سيشغلهم. والذي بعثني بالحق نبيا لقد قدّمت اليهم بالوعيد بعد أن أخبرتهم رجلا رجلا ما إفترض الله عليهم من حقك وألزمهم من طاعتك وكل أجاب وسلّم اليك الأمر، وإني لأعلم بأن أفعالهم ستكون عكس أقوالهم. فإذا قُبضت وفرغت من جميع ما اوصيتك به وغيّبتني في قبري فالزم بيتك وإجمع القرآن وعليك بالصبر على ما ينزل بك حتى تقدم عليّ.»

و قي الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مع الرسول صلى الله عليه وآله و سلّم تلك الليلة فلما كان من الصباح أمر الرسول عليا أن يذهب إلى المسجد ويؤم المسلمين الصلاة، لأن الرسول قد ثقل حاله ولم يتمكن من الذهاب إلى المسجد من شدة المرض. وكذلك عمل في فريضة الظهر والعصر والمغرب والعشاء. وكان أمير المؤمنين لا يغادر الرسول إلا إلى المسجد للصلاة أو لحاجة كان قد بعثه الرسول لقضائها. وهكذا كان الحال أيضا أيام السبت والأحد، السادس والعشرين والسابع والعشرين من صفر.

ولكن الوضع إختلف يوم الإثنين الثامن والعشرين من صفر. ففي صبيحة ذلك اليوم دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم فاطمة الزهراء وعليا والحسن والحسين عليهم السلام وأغلق عليه وعليهم الباب وأخذ يودعهم واحدا واحدا. وبعد أن أكمل توديعه لهم، طلب صلى الله عليه وأله وسلم الإختلاء ببضعته فاطمة الزهراء عليها السلام. فخرج الإمام أمير

المؤمنين من عنده وبقي الرسول مع حبيبته الغالية لفترة طويلة. وبعد فترة خرجت فاطمة وقالت لأمير المؤمنين بأن الرسول يدعوه للدخول. يقول أمير المؤمنين: دخلت على النبي وإذا هو يجود بنفسه الطاهرة فلم أتمالك من البكاء فقال لي: ما يبكيك يا علي ليس هذا أوان بكاء فقد حان الفراق بيني وبينك فاستودعك الله يا أخي. وإحتضنا بعضهما بعضا طويلا والزهراء تنظر إلى حبيبيها، أبيها وبعلها، وهما في وضع خشيت منه على الإثنين منهما.

وبعد أن فرغا من وداع بعضهما البعض دعا النبي بإبنته الزهراء والحسنان فجاؤوا إليه. فكان رأسه صلى الله عليه وآله وسلّم على صدر علي ويداه بيدي الزهراء والحسنان يقبلان قدميه وهما يبكيان. وبقوا جميعا على تلك الحالة لبعض الوقت حتى أغمي على رسول الله. فوقع الحسنان على جدهما يحسبانه قد مات فرفعهما أمير المؤمنين شفقة عليهما وعلى جدهما. فأفاق الرسول وقال: يا علي دعني اشمهما ويشماني واتزود منهما ويتزودان مني ألا إنهما سيظلمان من بعدي، فلعن الله من ظلمهما. ثم مد يده إلى علي بن أبي طالب حتى أدخله معه تحت الغطاء وجعل يناجيه مناجاة طويلة حتى خرجت روحه الطاهرة. فإنسل علي بن أبي طالب من تجت الرداء وقال: عظم الله أجوركم في نبيكم فقد قبضه الله إليه.

تحّدث أم المؤمنين أم سلمة قائلة: والذي تحلف به أم سلمة إن أقرب الناس إلى رسول الله حيا وميتا هو علي بن أبي طالب. وتضيف قائلة: لما كان غداة قبض رسول الله أرسل الرسول إلى علي، و كان قد بعثه في حاجة. فلّما أبطأ عليه جعل يكثر من السؤال عنه قائلا: ألم يأتي علي؟ فلّما جاء علي عرفنا أن له حاجة إليه فخرجنا من عند رسول الله وتركنا الحبيبين لوحدهما وكنا في ذلك الوقت في بيت عائشة. وكنت آخر من خرج من البيت. وجلست بالقرب من الباب، عسى أن يحتاج رسول الله إلى حاجة فألبيها له. فأكبّ عليه علي وتناجيا طويلا وأخذ رسول الله يُسّاره حتى خرج علينا علي وقال: عظّم الله

أجوركم في نبيكم. وكان ذلك أخر العهد برسول الله. فكما كان الإمام علي عليه السلام أول الناس عهدا بالرسول والرسالة، كذلك كان هو أيضا آخرهم عهدا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم.

الشمعة الثلاثــون
أعطى الأولوية لواجبه دون حقه

علت صيحات البكاء في المدينة المنورة على فقد رسول الله وتجلببت المدينة بالسواد حزنا على فقدان المنقذ والأمين وصاحب الأخلاق الفاضلة والزعيم والقائد والأب والمربي والأستاذ والرسول. وسط حالة الحزن الشديد والكآبة برزت الى السطح، وبمجرد إعلان وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم، تشققات في جدار المجتمع الإسلامي والمدني (نسبة الى المدينة) على وجه الخصوص. فانقسم المجتمع المدني ساعة وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم إلى أربعة تكتلات كل تكتل له ميوله وأجندته وأولوياته الخاصة به.

التكتل الأول ضمّ بعض كبار الصحابة الذين تخّلفوا عن جيش أسامة لتوقعهم موت الرسول وخوفهم من أن يفوتهم الأمر وينتقل إلى علي بن أبي طالب وهم خارج المدينة. هذا التكتل ما إن سمع بموت الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم حتى عقد أول إجتماع له في سقيفة بني ساعدة وناقش موضوع إنتقال الخلافة، والرسول لم يُدفن بعد. وضم ذلك الإجتماع وفدان. وفد من المهاجرين برئاسة أبي بكر ووفد من الأنصار برئاسة سعد بن عبادة. وإحتدم الخلاف والنزاع حول من يكون الخليفة. فبعضهم أراد عمر وبعضهم أراد ابا عبيدة وأخرون إقترحوا أن تكون الخلافة دورية بين الأنصار والمهاجرين «منا أمير و منكم أمير،» كما قال أحدهم. فما كان من عمر إلا أن رفع يد أبي بكر وقال: أما أنا فأبايع هذا، ثاني إثنين إذ هما في الغار. فلما رأى القوم ذلك بايعوه بأجمعهم.

التكتل الثاني ضم أولئك الذين كانوا يعبدون الله على حرف. وكانوا ينتظرون موت رسول صلى الله عليه وآله وسلّم لينقلبوا على أعقابهم ويعودون القهقرى. فما أن سمعوا بموت الرسول حتى إرتدوا عن دينهم وأعلنوا إنفصالهم عن الدولة الإسلامية. وكانوا عدة فئات. فئة هم الجاهليون الذين تمكنت الجاهلية منهم ولم يعد هناك مجال لإصلاحهم حيث كانوا يعتقدون بأن الأنبياء لا تموت وإتبعوا رسول الله على هذه القاعدة. وبالرغم من محاولات الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم تنظيف عقلهم وأفكارهم إلا أن كل محاولاته معهم لم تنجح. لذلك ما إن سمعوا بموت الرسول وتأكدوا من ذلك حتى أرتدوا قائلين لو أنه كان رسولا حقا لما مات.

الفئة الثانية هم المنافقون الذين أسلموا خوفا من السيف ورفضا لدفع الضرائب ولم يحسن إسلامهم في يوم من الأيام. وهؤلاء إعتقدوا أنه بموت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبخروج الخلافة عن علي أصبح من السهل الرجوع إلى ما كانوا يعبدون ويمارسون حيث لن تكون هناك صرامة في تطبيق القوانين الإسلامية.

الفئة الثالثة هم طلقاء فتح مكة الذين دخلوا الإسلام حتى يأمنوا على أنفسهم فلا يعاقبوا على ما ألحقوه من أذى بالإسلام والمسلمين. وهؤلاء أيضا وجدوا في وفاة الرسول وسلب الخلافة من علي بن أبي طالب ما يحقق لهم مآربهم، خاصة وأن بين أعضاء السقيفة من هم منهم بالقرابة القريبة والمصلحة المشتركة.

الفئة الرابعة هم الطامعون في مناصب عليا في الدولة الإسلامية بعد رسول الله ولما رأوا رسول الله ينصب عليا في غدير خم خليفة على المسلمين

يئسوا من تحقيق مآربهم لمعرفتهم بعلي بن ابي طالب وتأكدهم بأنه لن يحابيهم او يجاملهم وأنه سيعطي المناصب لمن هو كفؤ لها. لذلك إنتظروا موت الرسول وبعده أعلنوها حربا على الدولة الإسلامية والإسلام.

التكتل الثالث ضم أؤلئك الذين شغلهم موت الرسول صلى الله عليه وآله عن كل أمر من أمور الدنيا، بما في ذلك أمر الخلافة التي إعتقد غالبية هذا التكتل بأنها حُسمت يوم غدير خم لصالح علي بن أبي طالب. هذا التكتل الذي أنساه فقد نبيه كل أمر سواه ضم خيرة الصحابة أمثال حجر بن عدي وأباذر الغفاري وسلمان الفارسي والمقداد وعمّار والفضل وكثيرين غيرهم. لزموا جميعا مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وأخذوا يبكون فقيدهم الغالي وينتظرون خروج الإمام علي بن أبي طالب ليعلن لهم برنامج تشييع ودفن الرسول وبعده إستقبال المعزين.

التكتل الرابع، وهو قليل العدد ومحصور في بيت واحد وهو البيت العلوي. ضم هذا التكتل علي بن أبي طالب و فاطمة وأبناءهما وأبناء عمومتهما وبعض زوجات الرسول. ومع تسليمهم بقضاء الله وقدره، إلا أن المصاب عظيم والفقيد عظيم ولا مجال في القلب والوجدان والعقل في ذلك الوقت إلا لما خلفه وقع ذلك الحدث الجلل. إنشغل أهل البيت المحمدي والعلوي والهاشمي بإقامة العزاء على الفقيد الغالي وإنشغل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بتنفيذ وصية الرسول من غسل وتكفين وتهيئة للدفن. ولما جهّز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم طلب علي من البيت العلوي توديعه ثم ذهب إلى المسجد وأخبر من حضر بأن نبيهم جاهز للتشييع. فحُمل الرسول إلى مسجده حيث صُلي عليه ثم أُعيد إلى بيته حيث دفن في البقعة التي توفي فيها.

ولما إنتهى أمير المؤمنين من دفن الحبيب صلى الله عليه وآله وسلّم عاد إلى مسجد الرسول وجلس يستقبل المعزين، تاركا أمر الخلافة جانبا

حتى ينتهي واجب العزاء. كان يعلم ما في نفوس القوم من عدم تقبل لبيعته ويعلم، مرة عن طريق اخبار له من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومرة عن طريق حدسه و قة تقييمه للأمور، بأن القوم سينكثون البيعة التي له في رقابهم. الشيء الذي لم يعمل حسابه هو السرعة التي تم بها الإنقلاب. لم يدر بخلده أن القوم سيعلنوا نكثهم بهذا السرعة وحتى قبل ان يدفن النبي وانهم، وهم اقرب الأصحاب من الرسول، سيتخلفون عن مواراته والمشاركة في تشييعه ويعطون الأولوية للإستيلاء على السلطة. ففي الوقت الذي كان هو مشغولا فيه بتحهيز الرسول كانوا هم في سقيفة بني ساعدة يناقشون تعيين خليفة للمسلمين غير ذلك الذي أراده الله و رسوله لهم وعيّنه الله ورسوله وبايعوه هم بأنفسهم قبل غيرهم حتى قال قائلهم حينها: «بخ، بخ لك يا علي، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة.»

وما هي إلا ساعات وإذا بأبي بكر وعمر وجمع ممن حضروا بيعة السقيفة يصلون إلى المسجد النبوي. دخل أبو بكر المسجد فتقدم من الإمام علي وقدّم له العزاء وجلس إلى جنبه. وبعد لحظات من جلوس ابوبكر نادى مناد في المسجد بأن وجهاء المسلمين قد إختاروا أبابكر خليفة للرسول وعلى المسلمين مبايعته.

نظر أمير المؤمنين إلى أبي بكر متفاجأ مما يسمع واخذ يستوضح الأمر منه ويسأله متى كان ذلك وماذا عن مصافحته إياه يوم غدير خم والتسليم له بإمرة المؤمنين؟ ردّ أبو بكر على أسئلته بأنه غاب وحضروا وقد رأى المسلمون بأن سنه لا يؤهله لأن يكون خليفة عليهم كما أن هناك الكثير من المسلمين ممن لا يرغبون في قيادته. فقال له أمير المؤمنين بأنه لم يعلم بمؤتمرهم وحتى لو علم به ما كان ليخلي رسول الله من غير مواراة ويذهب الى امر دنيوي، فلا اخلاقه ولا ايمانه ولا شيمته تسمح بذلك. اما عن إدعائه برغبة الناس فقال له: أيهما أولى، رغبة الناس أم رغبة الله ورسوله؟ وهل أن المسلمين أعلم من

الله ورسوله؟ ألم يعلم الله ورسوله بعمره عندما عيّناه وصيا وخليفة؟ فقال له أبو بكر بأن الأمر حساس وأن وضع الدولة الإسلامية لا يحتمل مثل هذه القلاقل في هذا الوقت. فسكت علي بن أبي طالب وتذكر وصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم له بالصبر وقام راجعا إلى بيته بعد ان فوض امره الى الله.

وقبل أن يخرج من باب المسجد جاءه من قال له بأن أبا بكر يريده فرجع لعلمه بنقاوة سريرة أبي بكر وأنه ربما قد راجع نفسه وقدّم أمر رسول الله على رغبة ثلة من المسلمين. وكما ينقل الأستاذ عبد الفتاح عبد المقصود في كتابه «الإمام علي بن أبي طالب» بمجرد أن وصل علي بن أبي طالب إلى حيث يجلس أبي بكر طلب منه أبو بكر البيعة. فقال له علي: «أنا أحق بهذا الأمر منكم فلا أبايعكم وانتم اولى بالبيعة لي.» فأجابه أبوبكر: «فهل كانت بيعتي عن غير رضا من الناس؟» فقال له علي: «ولكنكم زعمتم للأنصار أنكم أولى بالخلافة منهم إذ كان محمدا منكم فأعطوكم القيادة. ولست أحتج عليكم إلا بمثل ما سلف لكم من الحجة على الأنصار.» وقال مخاطبا أبا بكر:

فإن كنت بالشورى ملكت أمورهم ... فكيف بهذا و المشيرون غُيّبوا
و إن كنت بالقربى حججت خصيمهم ... فغيرك أولى بالنبي و أقرب

ثم وجه وجهه نحو القوم ليكون خطابه للجميع وليقطع الحجة على من نكث البيعة وقال:

«نحن أولى برسول الله حيا وميتا. إنّا آله وموضع سره وملجأ أمره وعيبة علمه وموئل حكمه. لا يقاس بآل محمد من هذه الأمة احد ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه. فأنا وصيه ووزيره ومستودع علمه. وأنا الصديق الأكبر والفاروق الأعظم. أول من آمن به وصدّقه واحسنكم بلاء في جهاد المشركين

واعرفكم بالكتاب والسنة واعلمكم بعواقب الأمور. فلم تنازعوننا هذا الأمر؟ انصفونا واعرفوا لنا من الأمر ما عرفته الأنصار لكم.»

ولما أنهى خطابه إلتفت وإذا بالجمع المحتشد في المسجد كمن على رؤوسهم الطير. لم يُحرك أحد منهم ساكنا. فعرف أن لا خير يرجى من قوم طبع الطمع والخوف والجُبن على قلوبهم. فغادر المسجد ولزم بيته وقام بتنفيذ وصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم من جمع القرآن والصبر على المحن.

سقيفة بني ساعدة ونقض المسلمين بيعة الغدير كان لهما الآثار المدمرة على المسلمين وعلى الدولة الإسلامية بصفة عامة. فلقد كان الكثير من المسلمين يرون في تنصيب الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم لعلي بن أبي طالب خليفة بعده منهجا بالإضافة إلى كونه أمرا ربانيا واجب النفاذ كما أنه تقليد يتماشى مع تقاليدهم التي كانوا يعيشونها ويحترمونها وخاصة ذلك التقليد الذي يقضي بأن يرث زعامة القوم أقرب الناس قرابة للزعيم. فهم يرون أن زعيم القبيلة والقرية والبلاد ما حصل على الزعامة إلا لكونه أقوى الناس وأشجعهم وأكرمهم وأقضاهم وأعلمهم. لذلك فإن من حق ذلك الزعيم القوي والشجاع والكريم والحكيم والعادل والعالم أن يختار ويعين خليفة له. وأن إختيار زعيم بهذه المواصفات لخليفة بعده لا بد أن يكون صائبا وموفقا. وما من أحد منهم كان يشك ولا للحظة واحدة بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم به كل تلك الصفات الفاضلة.

لذلك لمّا نقض المسلمون البيعة وتحول الأمر إلى غير علي تنّكروا للبيعة الجديدة ورفضوا القبول بها ومنعوا الزكاة عنها معللين ذلك بأن لو كان الرسول يرى أن هناك من هو أولى بالخلافة من علي لإختاره ولم يختر عليا.

هناك أيضا فئة أخرى رأت في إقصاء علي عن الخلافة فرجا لها للإرتداد عن الإسلام. فهذه الفئة من الناس إنما أسلموا ليسلموا من سيف علي. فبالإضافة الى ما شاهدوه من بطولات و مواقف قوية وثابته كانت عمّت سمعته الحربية و بطولاته جميع البلدان وأصبحت الركبان تتحدث عنه وعن بطولاته. كان اماهم ثلاث خيارات لا غيرها. الخيار الاول ان يبقوا على دينهم ويهادنوا ويدفعوا الجزية وفي هذا فقدان لهيبتهم ودفع لضرائب لا يرغبون في دفعها. الخيار الثاني ان لا يسملوا ولا يسالموا او يهادنوا ولا يدفعوا الجزية وبذلك يصبحوا عرضة لقصاص علي و هو القصاص الذي خبروه وعرفوه وعرفوا ان لا طاقة لهم به ولا يمكنهم حمايو انفسهم منه. اما الخيار الثالث فكان ان يعلنوا اسلامهم بأفواههم وتأبى قلوبهم وبذلك يأمنوا على انفسهم ولا يدفعوا من اموالهم وتشملهم حماية الدولة الإسلامية الرسمية. فإختاروا الخيار الثالث. لذلك بمجرد ان سمعوا بأن الخلافة ذهبت الى غير علي وانه سكت عن حقه و اصبح بعيدا عن عملية اتخاذ القرار شعروا بالأمان فأخرجوا رؤوسهم وأطهروا ما كانوا يكتمون. فإرتدوا على أدبارهم وعادوا إلى غيّهم وطغيانهم.

الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وإن جلس في بيته وقلّص دوره إلى جمع القرآن والعلم و المعرفة، إلا أن عدم مبايعته لأبي بكر لا تعني إبتعاده الروحي والعملي عن الحياة السياسية أو عدم الإهتمام بأمور المسلمين. بل على العكس من ذلك تماما. إبتعاده عن السلطة منحه فرصة ليكون قريبا من الهم العام والمشاكل التي هطلت على المسلمين بعد السقيفة. وكان من تلك المشاكل، بل من أهمها، مشاكل الردة. لقد وقعت أخبار الردة على قلبه كالسهم الذي أتاه من غادر ترّبص بالإسلام حتى واتته الفرصة التي كان ينتطرها فوجّه سهام غدره إلى الدولة الإسلامية ووقع أحد تلك السهام في قلب علي الذي لم يبرأ بعد من سهم غدر آخر حلّ به قبل فترة قصيرة.

أخذ الإمام علي بن أبي طالب ينظر إلى حال المسلمين وقلبه يعتصر ألما لعدم تمكنه من نجدتهم مما هم مقبلين عليه. أخذ يتألم في صمت فهو من ناحية لا يستطيع السكوت على ما يحصل للدولة الإسلامية التي شارك في بنائها بسيفه ونضاله وتضحياته فيغض الطرف عن ما تتعرض له من انشقاقات وتفكك ومؤامرات. ومن ناحية أخرى يعلم انه في الوقت الذي يملك فيه القوة والشجاعة والجرأة على تغيير الوضع لا يمكنه التدخل حتى لا يفّسر تدخله على أنه تدخلا لفرض نفسه أو لإستغلال ما يحدث لصالحه. لذلك بقي يراقب ما يحدث وقلبه يتفطر ألما ويتمنى لو كان الأمر بيده او حتى مسموح له بأن يقوم بما يمليه عليه واجبه في الدفاع عن الإسلام وحماية الدولة الإسلامية من غدر الغادرين وكيد الكائدين والمنافقين وردة المرتدين. يعبّر عليه السلام عن تلك الحالة التي كان يعيشها بقوله:

أمن بعد تكفين النبي و دفنه … نعيش بآلاء و نجنح للسلوى
رُزئنا رسول الله حقا فلن نرى … بذاك عديلا ما حيينا من الورى
و كنت لنا كالحصن من دون أهله … له معقل حرز حريز من العدى
و كنا بمرآكم نرى النور و الهدى … صباح مساء راح فينا أو إغتدى
لقد غشيتنا ظلمة بعد فقده … نهارا و قد زادت على ظلمة الدجى
فيا خير من ضم الجوانح والحشا … و يا خير ميت ضمه الترب و الثرى
كأّن أمور الناس بعدك ضُمنت … سفينة موج حين في البحر قد سما
و ضاق فضاء الأرض عنا برحبه … لفقد رسول الله إذ قيل قد قضى
فقد نزلت بالمسلمين مصيبة … كصدع الصفا لا شعب للصدع في الصفا
فلن يستقل الناس ما حل فيهم … و لن يُجبر العظم الذي منهم وهى
وفي كل وقت للصلاة يهيجها … بلال و يدعو بإسمه كلما دعا
و يطلب أقوام مواريث هالك … و فينا مواريث النبوة و الهدى

تناسى عملية إقصائه عن مركزه الذي عينه الله و سوله فيه، وتناسى نكران القوم لحقه وعدم احترام قرابته من رسول الله وتناسى جحودهم لدوره ومشاركاته في بناء الأمة وانقاذهم من الهلكة. تناسى كل جحود اظهره قومه والكثير من رفاقه وصحابة رسول الله وركز على المصائب التي حلت وستحل بالمسلمين والإسلام والدولة الإسلامية بعد رحيل الرسول وتكالب قوم على زعامة الدولة الإسلامية وتسارع آخرين للثأر منها.

كان كل همّه حماية الإسلام من المخاطر التي بدأت تحيط به من كل مكان. لقد صار له أشهرا بعيدا عن السياسة ممتنعا لمبايعة أبي بكر ولكن الأمر لم يعد مسألة خلافة أبي بكر أو غيره او تولي فلان وإقصان فلان. الأمر متعلق بما هو أهم من ذلك كله. إنه متعلق بمصير الإسلام والدولة الإسلامية.

يروي البلاذري في كتاب أنساب الأشراف، بينما أمير المؤمنين علي بن أبي طالب جالس يُفّكر في الطريقة التي يمكنه من خلالها القضاء على الردة والفتن التي تحت عباءتها وإذا بباب داره يُطرق. فتح الباب وإذا بعثمان بن عفّان بالباب. سلّم عليه ثم دعاه للدخول. وبعد أن جلسا أخذا يتكلمان في أمور المسلمين وماهو حاصل من المشاكل. فطلب عثمان من علي المشاركة في الجهود التي تبذل للقضاء على تلك الفتن وقال له: «يا ابن عم، إنه لا يخرج أحد إلى قتال هذا العدو وأنت ما زلت لم تبايع أبا بكر.» وما كان علي بن أبي طالب بحاجة لمن يُذّكره بذلك الأمر ولكن تدخل عثمان فتح الطريق أمامه وأوجد الوسيلة التي كان ينتظرها بفارغ الصبر والتي من خلالها يمكنه المساهمة في القضاء على الفتنة. لذلك كانت إستجابته سريعة وقال لعثمان وما علي بالذي يُقّدم مصلحته على المصلحة العامة، فواجبه تجاه ربه وأمته يأتي في المقام الأول وقبل وأهم من أي شيء غيره، حتى وإن كان ذلك الشيء حقا شخصيا تم إغتصابه.

فقام الإثنان، علي وعثمان، ومشيا إلى أبي بكر. وما إن دخلا عليه ووقعت عينا أبي بكر على علي بن أبي طالب حتى قام من مجلسه وتقدم مسرعا نحو الإمام أمير المؤمنين وعانقه طويلا وبكيا حاضنا كل واحد منهما الآخر حتى خيل للناس بأنهما سيقعان الى الأرض سويا لشدة إحتضانهما لبعضهما البعض. فلما رأى عثمان ذلك لم يتمالك هو الآخر من البكاء. وبعد أن هدأ بكاؤه كبّر وكبّر من في المسجد فرحة بالصلح بين علي بن أبي طالب أخي رسول الله وحبيبه و أبا بكر صاحب الرسول ووالد زوجته. وبعد أن تعاتبا قليلا أخذا يتحدثان في التطورات وكيفية الإستعداد لمواجهتها. بعد ذلك وضعا الخطط اللازمة للقضاء على تلك الفتن وكيفية تنفيذ تلك الخطط ومتى. وبفضل ذلك التعاون تم القضاء على الفتن التي ما كان لها أن تنتهي وتطفأ نيرانها لولا أن غلّب الإمام مصلحة العامة على مصلحته الشخصية وغض الطرف عن حقه في سبيل مصلحة الدولة والإسلام والمسلمين.

يحدثنا أمير المؤمنين بنفسه عن هذه الحادثة، كما في نهج البلاغة، فيقول: «فأمسكت يدي (عن بيعة أبي بكر) حتى رأيت راجعة الناس عن الإسلام يدعون لى محقق دين محمد صلى الله عليه وآله وسلّم فخشيت إن لم أنصر الأسلام وأهله أن أرى فيه ثلما او هدما تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل يزول منها ما كان كما يزول السراب او كما ينقشع السحاب. فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق، وإطمأن الدين و تنهنه.»

وهكذا وبفضل جهود أمير المؤمنين عليه السلام وبفضل تضحياته تمت المحافظة على الإسلام وصيانته وحفظه من كيد الكائدين ومؤآمرات المنافقين والطامعين.

الشمعة الحادية والثلاثون
قمة المعارضة السلمية الصحيحة والصحية

بعد سنين شهدت الكثير من التعاون والتنسيق بين الزعيمين، الزعيم السياسي أبي بكر والزعيم الروحي والمرجع والمستشار الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، تتوقف سيرة أبي بكر وتنتهي حياته ويلاقي ربه بعد فترة من الخلافة حافلة بالإنجازات السياسية والإجتماعية من أهمها إخماد ثورة المرتدين وحفظ الدولة الإسلامية وجمع القرآن ونشر الإسلام إلى خارج الجزيرة العربية.

علاقة أبي بكر مع أمير المؤمنين مع ما فيها من قوة وصراحة لم تكن كافية ولم تستطيع تغيير رأي ابو بكر في مسألة تولي علي بن أبي طالب الخلافة. بقي حتى وفاته يعتقد بأن المحافظة على وحدة الأمة تقتضي عدم إسناد الخلافة إلى علي بن أبي طالب الذي يخاف الناس سيفه وعدله ونهج الحق الذي ينتهجه. كان يرى بأن علي بن ابي طالب مع ما يتصف به من صفات نبيلة ومؤهلات عالية لم تجتمع في شخص غيره لا يصلح لأن يكون خليفة للمسلمين، حتى بعد ان غاب السبب الرئيسي الذي حسب مؤتمري السقيفة كان عائقا دون موافقتهم على توليه الخلافة وهو «حداثة سنه» والذي انتفى مع مرور الوقت.

كان ابو بكر يعتقد بأن علي بن ابي طالب بعدله وإلتزامه لا يصلح لأن يكون خليفة بعد. لذلك رأى أن يوصي، وقبل أن يلاقي ربه، ويعين خليفة بعده يُكمل مسيرته ويُبعد بذلك الخلافة عن علي ويقتل أحلام أنصار أمير المؤمنين

المتطلعة لخلافته بعد أبي بكر. أوصى أبو بكر بالخلافة إلى عمر بن الخطاب الذي كان له الدور الأساسي في وصول الخلافة إلى أبي بكر يوم السقيفة وهو بذلك رد المعروف وضمن من أن المسلمين الذي صدّقوا على بيعة عمر لأبي بكر يوم السقيفة وتهافتوا على البيعة بمجرد أن رفع عمر يد أبي بكر وأعلن مبايعته له سوف يعملوا نفس الشيء مع عمر وأنهم سيبايعونه تماما كما تابعوه. فأمر أبو بكر عثمان بن عفان بكتابة وصيته التب تنص على تعيينه عمر خليفة من بعده وحضر كتابة الوصية عدد كبير من من السملمين وأشهد على ذلك كبار الصحابة.

لما علم أمير المؤمنين بما أوصى به أبوبكر لم يتكدر ولم يثر في وجه ذلك القرار بل على العكس من ذلك حمد الله الذي أراحه من همّ الخلافة وثقلها ومسؤولياتها. أسفه فقط كان لما سيناله الموصي والموصى له وما سيلاقيان ويواجهان عندما يلاقيا ربهما، خاصة بعد ان نقضوا عهدا اخذوه على انفسهم امام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم غدير خم. أسف لمعرفته بأنهما سيسائلان وسيكون موقفهما محرجا امام الله بسببه وهو الذي لا يقبل بأن يؤذى إنسان بسببه.

يشرح الإمام عليه السلام موقفه من الذي حصل قائلا: «أما و الله لقد تقّمصها فلان وأنه ليعلم أن محلي منها محّل القطب من الرحى، ينحدر عني السيل ولا يرقى إلي الطير. فسدلت دونها ثوبا وطويت عنها كشحا وطفقت أرتئي بين أن أصول بيد جذّاء أو أصبر على طخية (ظلمة) عمياء يهرم فيها الكبير ويشيب فيها الصغير ويكدح (يتعب من الإرهاق) فيها مؤمن حتى يلقى ربّه. فرأيت أن الصبر على هذا أحجى (أجدر وأفضل). فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجا أرى تراثي نهبا. حتى مضى الأول لسبيله فأدلى بها إلى فلان بعده. شتان ما يومي على كورها ويوم حيّان أخي جابر. فيا عجبا بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته. لشد ما تشطر ضرعيها (فرّق

بين جناحيها). فصيّرها في حوزة خشناء يغلظ كلامها ويخشن مسها. ويكثر العثار فيها والإعتذار منها. فصاحبها كراكب الصعبة (الإبل غير المرّوضة والتي ليست بذلول)، إن أشنق لها خرم وإن أسلس لها تقّحم. فمني الناس لعمر الله بخبط وشماس وتلون وإعتراض. فصبرت على طول المدة وشدة المحنة.»

وهنا أيضا يقف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من عمر نفس موقفه من بيعة أبي بكر. فهو لا يرى أن بيعة عمر صحيحة وأنه ما زال أولى بالخلافة منه، ولكن إذا كانت التضحية بحق شخصي سوف يضمن وحدة الأمة ويزيد من قوتها فالتضحية بذلك الحق هو ما يجب عمله، وذلك هو قمة الإيثار. وذلك بالفعل ما فعله الإمام علي بن أبي طالب مع عمر. فهو من جانب ذكّر عمر والمسلمين عامة بحقه ليلزمهم الحجة وحتى لا يقول قائل منهم لم يطالب علي بحقه ولو طالب لوقفنا معه، ومن ناحية أخرى مد يده لعمر تماما كما مدّها لأبي بكر قبله. بل إن تعاونه مع عمر كان أكثر وأقوى من تعاونه مع أبي بكر وذلك تلك لإتساع رقعة الدولة الإسلامية وإنتشار الإسلام والتطورات التي تبعت ذلك.

على الجانب الآخر، من الطبيعي جدا أن يرحب عمر بيد علي الممدودة فهو يعرف تلك اليد معرفة جيدة ولقد خبر نقاوة وطيبة وسلامة واخلاص وقوة تلك اليد. يعرف انها اليد التي تمتد لتساعد وتعين من غير مقابل غير رضا رب العالمين ومصلحة الإسلام والمسلمين، بل الخلق اجمعين.

يصف عمر علي بنفسه عندما جاءه أحد المسلمين واخذ يذم علي بن ابي طالب وينسب اليه التيه والعجب والتفاخر فقال له عمر: «والله ما به تيه ولا عجب، مع أنه يحق لمثله أن يتيه. والله لولا سيفه لما قام عمود الإسلام، وهو بعد أقضى هذه الأمة وذو سابقتها وذو شرفها.» صدم رده ذلك السائل الذي

دهش مما سمع وقال له: «فما منعكم يا أمير المؤمنين عن إستخلافه؟» فقال عمر: «كرهنا حداثة السن و حبه لبني عبد المطلب.»

كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام من المقربين لعمر وكان عمر يعجب ويتفاخر بعلم وقضاء وحكمة علي لدرجة أنه منحه المناصب العليا في كل تلك المجالات. فقال أقواله المشهورة: «لا يُفتين أحدكم وعلي حاضر» و «لولا علي لهلك عمر» و «لا بقيت لمعضلة ليس فيها أبو حسن علي.»

بلغت العلاقة بين علي وعمر أعلى مستوياتها إلى درحة أن الرجلان أرادا لتلك العلاقة أن تبقى وأن تكون علنية يعلم بها عامة المسلمين ليقطعوا الطريق على كل من أراد بهما أو بالإسلام شرا، خاصة طلقاء مكة الذين أنكروا إسلامهم وتمردوا على الدولة الإسلامية وكوّنوا دارا لهم في الشام وجعلوا يخططون لنقل الخلافة الإسلامية اليها. ولقد أرسل عميدهم معاوية بن أبي سفيان الرسول بعد الآخر لعلي بن أبي طالب بعد بيعة السقيفة يُحرضه على الثورة ضد بيعة السقيفة ويعرض عليه الدعم والمساندة. وما كانت حيل معاوية وخططه الرامية لزرع الفتنة بين آل الرسول وأصحابه لتنطوي على علي عليه السلام. فبعث إليه علي من يقول له بأن الإمام يرفض كل عروضه ويناشده أن يكف أذاه عن الإسلام والمسلمين ويذكره بالعهد الذي قطعه على نفسه عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم. أرسل علي إليه من يخبره بأن الإمام يعلم ما يهدف إليه ويعلم أن معاوية لم يكن في يوم من الأيام حريصا على الإسلام والمسلمين.

كان كل من عمر وعلي يعلمان نوايا معاوية وأتباعه وغيرهم ممن طمع في الخلافة والإمارة لنفسه ولتبقى في عشيرته. كما أنهما يعلمان بأن هناك من ضعاف النفوس من لا يسرهم رؤية علاقة قوية بين الإمام وعمر. لذلك قررا أن يسُدّا الباب أمام كل أولئك المغرضين والإنتهازيين. فأخذا يعلنان

مساندة كل واحد منهما للآخر ويعملان سويا ويتشاوران في امور المسلمين والدولة الإسلامية.

إستطاعت تلك العلاقة القوية بين الرجلين قطع الطريق أمام المغرضين لكنها لم تستطع تغيير حقيقة بقيت مع الرجلان طيلة حياتهما وذهبت معهما الى آخرتهما. الحقيقة التي لم تستطع العلاقة القوية تغييرها هي أنه لا عمر إعترف بحق علي في الخلافة ولا علي إعترف بصحة خلافة عمر. يعملان معا حتى يخيل للبعض بأنه لا يوجد خلاف بينهما او ان الخلاف السابق قد حل وتمت تصفيته. لكن الواقع يقول غير ذلك. إتفق مع بيده السلطة ومن هو في المعارضة على ترك خلافاتها جانبا وتغليب المصلحة العامة ومصلحة الدولة الإسلامية والمسلمين. وهذه هي قمة المعارضة السلمية والصحيحة.

ففي الكامل لإبن الأثير أن عمر قال يوما لإبن عباس: «يا إبن عبّاس، كرهت قريش ان تجمع لكم النبوة والخلافة فتجحفوا بالناس جحفا. فنظرت قريش لأنفسها فإختارت ووفقت وأصابت.» فقال له بن عباس: «أما قولك أن قريشا كرهت (ان تجمع الخلافة والنبوة) فإن الله وصف قوما بالكراهة فقال: ذلك بأنهم كرهوا ما انزل الله فأحبط أعمالهم. وأما قولك ان قريشا اختارت لأنفسها فاصابت ووفقت، فلو أن قريشا اختارت لأنفسها حين اختار الله لها لكان الصواب بيدها غير مردود ولا محسود.»

وفي شرح نهج البلاغة لإبن أبي الحديد ورد أن عمر كان يمشي مع بن عباس في سكك المدينة فسأله عن علي فأجابه بن عباس بما علم عنه. ثم قال عمر لإبن عباس: «ما أرى صاحبك إلا مظلوما.» فقال له بن عبّاس: «فاردد عليه ظلامته يا أمير المؤمنين.» فأنتزع يده من يد بن عباس ومضى يهم بسرعة. يقول بن عبّاس فلحقته فوقف وقال لي: «يا ابن عباس ما اظنهم إمتنعوا عنه إلا لأنهم إستصغروا سنه.» فقال بن عباس: «ما استصغره الله ورسوله حين

أمراه ان يأخذ سورة براءة من صاحبك ويُبّلغها بدلا منه.» فاعرض عنه عمر وحول الحديث إلى موضوع آخر.

كذلك هو الحال مع علي بن أبي طالب عليه السلام. بالرغم من قوة العلاقة بينه وبين عمر إلا أنه لم يناديه يوما بخليفة المسلمين أو أمير المؤمنين أو أي لقب آخر يدل أو يوحي على أنه إعترف له بالخلافة. وهذا ما يدل على أنه لم يعترف له بالخلافة. كما أن خطبه التي حواها نهج البلاغة والتي ألقاها خلال وبعد خلافة عمر تدل على أن الإمام لم يعترف يوما من الأيام بخلافة عمر، بل كان ينتقدها و ينتقد الوسيلة التي تمت بها.

لقد سطّر الرجلان أنموذجا فريدا من نوعه في العمل السياسي، حري بقوى المعارضة في العالم وفي العالمين العربي والإسلامي على وجه الخصوص إستنباط الدروس والعبر منهما.

عمر من جانبه رأى أن الدولة الإسلامية ما زالت وستبقى في حاجة إلى سيف وعقل وحكمة وعدل وعلم علي بن أبي طالب. وأن ابتعاده عن الشأن العام يُعد خسارة فادحة للدولة الإسلامية. فعلي، وكما ذكر عمر بنفسه في أكثر من موضع، يزين الخلافة ولا تزينه. الدولة بحاجة إليه وهو في غنى عنها. لذلك وجد أنه لا بد له من الإعتراف بهذه الحقيقة ولا بد أن يكون الإمام علي أحد أقطاب النظام والحكم، بل أهمهم. لا بد ان يكون هو المستشار الذي ترجع اليه الدولة في جميع امورها لما حباه الله من رأي ثاقب وعلم واسع في جميع نواح الحياة. وهذا ما عمله عمر بالفعل. قرب الإمام ومنحه الدور الذي يستحقه ولم يحرم الدولة الإسلامية من مساهماته وعطاءاته المهمة والضرورية.

الإمام أمير المؤمنين عليه السلام هو الآخر رأى أن إبتعاده عن أمور الدولة والمسلمين هو نكران للرسالة التي أعده الله ورسوله لها. فما علّمه

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليكون عالما لنفسه بل لينفع بعلمه الإسلام والمسلمين وما منحه الله سبحانه وتعالى الشجاعة ليحتفظ بها لنفسه بل ليحمي بها الإسلام والمسلمين ولينصر الحق اينما كان ويزهق الباطل مهما كانت قوة وسلطة ومكانة مرتكبه. وجد ان ابتعاده عن أمور المسلمين لن يشجع المغرضين والمتآمرين على الإسلام فقط، بل أيضا سيفتح الباب لأنصاف المتعلمين والعارفين لإبداء ونشر آرائهم الخاطئة والقاصرة والناقصة. لذلك رأى من واجبه أن يُفّعل دوره ويفيد بعلمه وسيفه الإسلام والمسلمين، كما اراد الله والرسول له.

وهكذا عملا سويا لمصلحة الأمة واضعين أنموذجا فريدا من نوعه في فن العمل السياسي والتعاون بين الحزب الفائز بالسلطة والحزب الخاسر لها أو ما يعرف الآن بحزب المعارضة. حقيقة واحدة وضعاها أمام أعينهما وهي أن السلطة منصب سياسي شخصي بينما الدولة والدين حق عام ومسؤولية مشتركة وحمايتهما واجب مقدس مُلزم لمن هو في السلطة ومن هو خارجها. من هذا المنطلق ركزا جهودهما على مصلحة الأمة ووضعا خلافاتهما حول الخلافة، وهو ما يعرف اللآن بالزعامة السياسية، جانبا.

عملا سويا جنبا إلى جنب وأنجزا الكثير من الفتوحات وقضيا على أكبر إمبراطوريتين معاديتين للإسلام – إمبراطورية الفرس والروم. لم يعملا ضد بعضهما البعض، مع وجود الفرص والإمكانية للقيام بمثل ذلك العمل. كان همهما هو الدفاع عن وحدة الدولة الإسلامية والمحافظة عليها ونشر الإسلام في جميع الأمصار. وما مشورة علي لعمر عندما أراد قتال الفرس إلا أكبر دليل على نقاء واريحية تلك العلاقة.

لما بلغ عمر بأن الفرس قد حشدوا لقتال المسلمين أضعاف أعدادهم وانهم اعدوا نفسهم افضل اعداد وجهوزية لقتال المسلمين رأى بأن يذهب

بنفسه لقتال الفرس ليرفع معنويات الجيش الإسلامي. فإستشار عليا عليه السلام في الأمر فما كان من علي إلا أن أسداه النصيحة راجيا منه أن يبقى حتى لا ينتهزها الفرس فرصة فيتكالبوا عليه فيقتولوه ويوقعوا الدولة الإسلامية في مصيبة الخلافة من جديد. قال له الإمام أمير المؤمنين:

«إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة. هو دين الله الذي اظهره و نحن جنده الذي اعد وأمدّ، حتى بلغ ما بلغ وطلع حيث طلع. ونحن على موعد من الله، والله منجز وعده وناصر جنده. ومكان القائم بالأمر (الحاكم أو الخليفة) مكان النظام (الخيط) من الخرز، يجمعه ويضمه. فإن إنقطع النظام تفرق وذهب ثم لم يجتمع بحذافيره أبدا. والعرب اليوم وإن كانوا قليلا فهم كثيرون بالأسلام و زيزون بالإجتماع. فكن قطبا واستدر الرحى بالعرب. وأصلهم دونك نار الحرب. فإنك إن شخصت من هذه الأرض انتفضت عليك العرب من اطرافها واقطارها، حتى يكون ما تدع وراءك من العورات اهّم إليك مما بين يديك. إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدا يقولوا هذا أصل العرب فإذا قطعتموه إسترحتم. فيكون ذلك اشد لكلبهم عليك وطمعهم فيك. فأما ما ذكرت من مسير القوم الى قتال المسلمين فإن الله سبحانه هو أكره لمسيرهم منك وهو أقدر على تغيير ما يكره. وأما ما ذكرت من عددهم فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة وإنما كنا نقاتل بالنصر والمعونة.»

وهذه لعمري نصيحة ما بعدها نصيحة وصدق مشورة وشفافية لم يتمتع بها أحد قبل أمير المؤمنين ولا بعده. خصم سياسي يستشير خصمه فيشير عليه ذلك الخصم بالمحافظة على حياته وعدم تعريض نفسه للقتل وهو يعلم إن قُتل الخصم سوف تنتقل الخلافة له. لم يفكر الإمام علي ين أبي طالب في المنصب والزعامة السياسية التي ستنتقل إليه بموت عمر ولكنه فكّر في حال الأمة الإسلامية إن حدث مكروه لخليفتها.

على الجانب الآخر ما كان عمر لتفوته فرصة تقدير تلك الشهامة والأريحية من قبل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام. والدليل على ذلك بأنه بمجرد أن أنهى الإمام علي بن أبي طالب مقالته وأبدى مشورته دمعت عينا عمر وقال بصوت أضعفه البكاء من حرص الإمام الصادق على حياته: «لا أبقاني الله لمعضلة لم تكن لها يا أبا الحسن.» رأى عمر بأن لديه مستشارا لا يوجد مثيل له في الإخلاص والأمانة والعلم وسعة الإدراك وما كان ليضحي بمثل ذلك المستشار. فنشأت بين الإثنين، أو الحزبين، الحزب الحاكم برئاسة عمر والحزب المعارض برئاسة علي علاقة قوية كان لها الدور الكبير في تحقيق الأمن والإستقرار ونشر الإسلام ومبادئه الحقة والسمحة وتعاليمه الصحيحة.

الشمعة الثانية والثلاثون
رفض العمل بغير كتاب الله وسنة رسوله

لم تعجب عدالة عمر وتحالفه مع علي بن أبي طالب الكثير من المتربصين للدولة الإسلامية وأصحاب المصالح والمطامع. حاولوا الوقيعة بين الإثنين ولكن ذكاء الرجلين وفطنتهما وقوة علاقتهما وقفت سدا منيعا ضد كل تلك المؤامرات وأحبطت كل محاولات الوقيعة. لا عمر تزحزح عن عدله بين الناس ولا هو بالمبتعد عن علي. وفي الجانب الآخر كل المحاولات لثني علي عن التعاون مع عمر ومساندته له في الحكم هي الأخرى باءت بالفشل.

لكن بالرغم من نباهة عمر وذكائه إلا أنه بشر ومخلوق ذكائه ونباهته لهما حد. كما ان انشغاله واهتمامه بأمور المسلمين والدولة الإسلامية دفعه لمعاملة الناس على ظاهر القول واخذ يحسن الظن في كل من تلبس بلباس الخير والتقوى والصلاح. فاته بأن ليس كل من لبس لباس التقوى والصلاح متق او مصلح. فهناك الكثيرين لبسوا ذلك اللباس لا ايمانا به وبمحتواه ولا حتى حبا فيه ولكن مكرا وخداعا خاصة بعد ان أغلقت كل المنافذ امامهم ولم يعد بإمكانهم النيل من الدولة الإسلامية إلا عن طريق المكر والخداع والحيلة. على رأس أؤلئك المخادعين والماكرين والمتربصين بالدولة الإسلامية كان معاوية بن ابي سفيان، زعيم العائلة الأموية والمتلهف الى الإستيلاء على الدولة الإسلامية وتحويلها الى ملك يتوارثه الأمويين.

فبعد أن يئس معاوية من إمكانية تأليب علي على عمر وبعد ان أكدّ له الإمام علي بن ابي طالب بأنه مطلع على حقيقته وحقيقة مراده وحذره من

مواصلة حيله وتحريضه رأى بأن ينقل خداعه ومكره الى الطرف الآخر، عمر بن الخطاب. فإستعمل دهاءه ومكره وخداعه وتقّرب من عمر وجعل نفسه رهن اشارة عمر وتحت خدمته. وما كان عمر ليرفض خدمات تعرض عليه وخاصة انها جاءت من كبير قوم ورئيس عشيرة. رحب عمر به ومن جانبه بالغ معاوية في الخداع حتى أصبح كالخاتم في يد عمر. وضع نفسه في خدمة عمر وأعلن إستعداده للقيام بأي عمل يسنده إليه، مهما صغر أو عظم ذلك العمل.

لما رأى أمير المؤمنين ذلك احس بقرب الخطر الأموي من الدولة الإسلامية لعلمه بما يمثله معاوية ولإستذكاره لأحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم الكثيرة عن الخطر الذي يمثله معاوية وبني أمية بصفة عامة على الإسلام والدولة الإسلامية. رأى من واجبه تحذير عمر من عواقب تقريب معاوية واسناد مهام مهمة له وحتى يثبت له صحة ما ذهب اليه اخذ يذكره بما كان من امر معاوية بعد مؤتمر السقيفة وكيف انه حاول الإيقاع بين المسلمين وزرع الفتنة بينهم. لكن عمر لم يأبه بما كان يقوله الإمام. واصل أمير المؤمنين نصحه الى عمر وأخذ يذكره بأحاديث الرسول الكثير عن معاوية وخاصة قول الرسول: «ليصعدّن بنو أمية على منبري ولقد رأيتهم في منامي ينزون عليه نزو القردة، وفيهم أنزل الله﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن﴾». بالرغم من كل تلك النصائح واصل عمر تقريب معاوية وولاه أمر الشام والأردن وجعله واليا عليهما. إنطوت عليه حيل معاوية وإستهوته المقدرة الزائفة والباهته التي أبداها في تصريف بعض الأمور فأوكل إليه أمر أهم عاصمتين إسلاميتين بعد المدينة المنورة.

يذهب بعض كتاب السير مثل عباس محمود العقاد وعبد الفتاح عبد المقصود وغيرهم الى ان عمر لم تنطوي عليه خدع وحيل معاوية كما انه لم يكن ليرد مشورة الإمام الذي لم يرد له مشورة قط وانه كان يعلم بأطماع معاوية وإنما كان يعتقد بأن إعطاء معاوية ولاية الشام والأردن سيحد من أطماعه التي

باتت معروفة للقاصي والداني وأن معاوية سيكتفي بما أَعطي. وللرد على ذلك نقول إذا كان ذلك صحيحا فهل أيضا غفل عمر عن حقيقة ان كلام رسول الله صلى الله عليه وآله هو وحي من الله سبحانه وتعالى وأن الرسول لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى؟ كما أن الله سبحانه وتعالى لن يُخلف وعده ولن يكذب رسوله. فما قاله الرسول لا بد أن يقع ويحدث، تماما وبالتفصيل والهيئة التي تنبأ بها. هذه حيقة لم تكن لتغيب عن بال أصغر صحابي ومسلم، فكيف غابت عن بال عمر وهو الذي عُرف بتمسكه الحرفي والنصي بما جاء في القرآن وفي السنة النبوية.

ذلك بالفعل هو ما حصل. لقد تحققت نبوءة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. فبعد أن وضع معاوية رجله على أول السلم أخذ يحيك الأمر ضد عمر ويثير الفتن ضده. فكان يستأثر بخراج الشام والأردن ولا يعطي المسلمين إلا ما فضل من الحصاد.

لم يقف مكره عند ذلك الحد بل اخذ يقنط على المسلمين ويقول لهم بأن ذلك هو ما سمح لهم به الخليفة عمر لكي يثغر صدورهم ضده. أخذ يطور في اساليب التحريض على عمر ويؤلب الناس ضده حتى وصل به الأمر الى التآمر مع أبي لؤلؤة المجوسي على قتل عمر وهيأ لأبولؤلؤة كل ما يحتاج اليه في تنفيذ مهمته اللعينة. فيقوم هذا الأخير بالتربص بعمر حتى تمكّن يوما من تحقيق هدفه وإغتال عمر حنُقا منه وبتحريض من معاوية والمتربصين بالدولة الإسلامية والخلافة الراشدة. إغتاله وهو يصلي لربه في مسجد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلّم.

كان عمر قبل وفاته كتب وصية أوصى من خلالها المسلمين بإختيار أحد أشخاص حددهم في وصيته قائلا: «عليكم بهؤلاء الرهط الذين قال رسول الله انهم من اهل الجنة وهم: علي وعثمان وعبد الرحمن وسعد و الزبير بن العوام

وطلحة بن عبيد الله، فإختاروا منهم رجلا.» وقبل إنتقاله إلى ربه أوصى بأن يُصّلي صهيب الرومي بالناس بعد وفاته لمدة ثلاثة أيام وفي اليوم الثالث يجتمع المسلمون ليختاروا خليفتهم الجديد.

تُوّفي عمر ودفن وجلس المسلمون يستقبلون المعزّين. وبعد ثلاثة أيام تحرك أبو طلحة الأنصاري، الذي عينه عمر منّفذا للوصية، وأرسل في طلب الرجال الذين حددهم عمر للخلافة بعده. فجاء الرسول إلى طلحة فقال له طلحة إنه تنازل عن حقه لعثمان. ثم تركه وذهب إلى الزبير فقال له إنه تنازل عن حقه لعلي. وذهب بعد ذلك إلى سعد بن أبي وقاص فقال له إنه تنازل لعبد الرحمن. ولما ذهب الرسول إلى عبدالرحمن قال له إنه يرضى بأحد الرجلين علي أو عثمان، أيهما إختاره الناس.

رجع بعد ذلك الرسول إلى طلحة وأخبره بما حدث وأن الخلافة إنحصرت في عثمان وعلي. فذهب طلحة إلى مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم وأمر مناديا ينادي المسلمين ويحثهم على الحضور إلى المسجد. فحضروا جميعا وأخذوا يبحثون الأمر حتى إنقضى اليوم وهم بعد لم يتوصلوا إلى نتيجة. ذهبوا إلى منازلهم على أن يعاودوا الإجتماع في اليوم التالي. وإجتمعوا في اليوم الثاني ولكن ذلك اليوم هو الآخر لم يكن بأفضل من اليوم السابق. وفي اليوم الثالث، ولمّا عرف عبد الرحمن بن عوف بأن القوم سيتفرقون عن غير إتفاق أخذ يستشير كبار القوم في الأمر. فرأى إن غالبية عامة قريش تميل إلى عثمان وأن كبار الصحابة تميل إلى علي.

إحتار عبد الرحمن بن عوف في الأمر ومالذي بإمكانه عمله. فما كان منه إلا أن وقف وقال بأعلى صوته: أيها الناس، إن أهل الأمصار أجمعوا على أن يرجعوا الى أمصارهم فأجمعوا أمركم. فوقف عمّار بن ياسر وقال: «إن أردت أن لا يختلف المسلمون فبايع عليا.» وثنّى على ذلك المقداد وقال: «إن

بايعت عليا قلنا سمعنا واطعنا.» ولما سمع عبدالله بن أبي سرح ذلك قال: «إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان.» فقام بعده عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي وقال: «صدق عبدالله، ان بايعت عثمان قلنا سمعنا و أطعنا.» فتبسم عمّار وقال له: «عجبا، يا أبا سرح متى كنت من المسلمين؟» وكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد أهدر دم أبي سرح بعد إرتداده عن الإسلام.

ما كان الأمويون ليتخلّوا عن إجتماع مهم مثل هذا. فلما علم معاوية بوصية عمر أرسل وفدا إلى المدينة وكلّفه حشد الأصوات وراء عثمان لما له من صلة قرابة معه وصداقة متينة لا شك أنها ستمكنه من نيل مطالبه وتثبيت أقدامه. كما أنه يعلم بأن وصول علي إلى الخلافة معناه نهاية أمله وأمل آل أبي سفيان في الحكم. فكان وفده في المسجد النبوي من ضمن الوفود التي عملت على حشد الأصوات لعثمان. فلما رأى بنو هاشم ذلك تكلموا وإصطفوا وراء زعيمهم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

لما رأى عّمار ما وصل إليه حال المسلمين، وقف خطيبا وذكّرهم بأن الله سبحانه وتعالى أكرم المسلمين بدينه وبعث محمدا لإنقاذ المسلمين وهدايتهم فلا أقل من أن يردوا الجميل لرسول الله ويحفظونه في أهل بيته الذين أوصى بهم المسلمين وختم خطبته قائلا: «أيها الناس، إن الله أكرمنا وأعزّنا سبحانه وتعالى بدينه. فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم.»

شعر الوفد الأموي برئاسة سعد بن أبي وقّاص بخطورة الموقف وأن مسألة تولية علي بن أبي طالب أصبحت قاب قوسين أو أدنى وأنه يتوجب عليه فعل شيء قبل فوات الآوان. فكّر في حيلة يقطع بها الطريق على أصحاب وأنصار علي بن أبي طالب. فوجد أن الحل يكمن في الإسراع في حل الموضوع قبل أن يزداد عدد المؤيدين لعلي. فقام سعد ووجه كلامه لإبن عمه عبدالرحمن ابن عوف وقال له: «يا عبد الرحمن، افرغ قبل أن يفتتن الناس.»

التفت عبد الرحمن إلى الجمع وإذا بالكفة تميل لصالح علي، أمر لم يكن يرغب في رؤيته. لم يعجبه ذلك الوضع خاصة بعد ان عرف بأن تلك النتيجة التي هي لصالح علي هي نتيجة اولية فقط فالجو ممتلئ دعما وتفضيلا لعلي وكلما تأخر ستزيد شعبية علي وبدورها سترتفع النتيجة بحيث يستحيل بعدها التفكير في شخص غيره.

كان عبدالرحمن يرغب في تنصيب عثمان ولكنه كان امام واقع لا يمكنه من فعل ما كان عرغب فيه. فبالإضافة إلى ميل غالبية الصحابة ومن في المسجد الى علي بن ابي طالب فإن لعلي من القرابة من رسول الله صلى الله عليه وآله ومن العلم والجهاد والرصيد الجماهيري والعملي ما ليس لعثمان. فكّر في وسيلة تمكنه من إبعاد علي عن طريق عثمان بطريقة لا تضع اللوم عليه ولاتنقص من عثمان. وبينما هو يفكر في الأمر وإذا به يتوصل الى حل. قرر ان يضع شرطا تعجيزيا يقبل به عثمان ولا يقبل به علي ليكون مدخلا شرعيا يمّكنه من تنحية علي و خلو له الجو لتبني خلافة عثمان.

نظر إلى الجمع المحتشد في المسجد النبوي الشريف ونادى بأعلى صوته: أين ابا الحسنين علي بن أبي طالب. فأجابه علي دالا له على مكانه في المسجد. فلما عرف مكان جلوس الإمام مشى عبد الرحمن الى حيث يجلس الإمام ولما وصل تناول عبد الرحمن يد علي طالبا منه القيام ولما نهض الإمام رفع عبدالرحمن يد علي قائلا: «أنا أبايع عليا بشرط أن يقسم بأن عليه عهد الله وميثاقه بأن يعمل بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين.»

سحب علي يده بسرعة من يد عبد الرحمن وقال: «إن أردتموني فإني أعمل بكتاب الله وسنة رسوله وأعمل بعلمي وأجهد نفسي وطاقتي.» فلما سمع عبد الرحمن ذلك دعا بعثمان فلما وصل اليه رفع يده وعرض عليه ما عرضه على علي فقبل به. فلما قبل عثمان بالشرط رفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف

المسجد ورفع يديه وقال: «اللهم إشهد إني جعلت ما في رقبتي من أمر في رقبة عثمان.» فنظر علي إلى عبد الرحمن وقال: «ليس هذا بأول يوم تظاهرتم فيه علينا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون.»

رفض الإمام علي بن أبي طالب زعامة الدولة الإسلامية مقابل التنازل عن مبدأ من مبادئه. كان بإمكانه إجابة عبدالرحمن إلى طلبه وقبول العمل بسيرة الشيخين وبذلك تكون الخلافة في يده. كان بإمكانه قبول ذلك الشرط ثم التحايل عليه، كما فعل الكثير من الخلفاء قبله وبعده وما فعله عثمان نفسه، وما أسهل أن يجد الإمام طريقة للتخلص من ذلك العهد.

فهناك الكثير من الهنات في سيرة الشيخين من شأنها تبرير عدم الأخذ ببسيرتهم، وبالتأكيد لا يصعب على أمير المؤمنين تبيان وتوضيح ذلك. كما أن مستوى الإمام العلمي والفكري و الفقهي هو أعلى من مستوى من سبقه وهذا سبب حاجتهم له وإستغنائه عنهم، وبإمكانه إستحداث أحكام تكون مقبولة أكثر من المجتمع وعن طريقها يتحلل من وعده بصورة قانونية وشرعية تستوجب شكره وتقديره بدلا من لومه.

هذا بالإضافة إلى أن المجتمع عادة يميل إلى من يضمن مصالحه وحقوقه ولن يعدم الإمام طريقة يحمي بها تلك المصالح والحقوق بصورة أفضل من تلك التي كان يتبعها الشيخان. بل إنه هو أفضل من يحمي تلك المصالح و الحقوق، كما أثبت عمليا بعد أن تولى الخلافة.

لكنه بالرغم من ذلك كله رفض المساومة على مبدأ أساسي من مبادئه ورفض القبول بالعمل بغير كتاب الله وسنة نبيه. قبول أمير المؤمنين بذلك العرض معناه الوافقة على سنة هي على غير ما أنزل الله وما أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلّم. كما أن سيؤخذ قبوله ذلك العرض على جواز إضافة

مصادر رئيسية للتشريع غير المصدرين اللذين حددهما الله ورسوله وهما كتاب الله وسنة نبيه. ستكون سابقة خطيرة في التاريخ الإسلامي وقد يستفيد منها ولاة أمور المسلمين بعد أمير المؤمنين فبضيف كل واحد منهم وسيلة تشريع جديدة تقوي موقفه وتدعم حجته.

الخلافة في نظر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام هي وسيلة وليست غاية. هي وسيلة لترسيخ المبادئ ولن تكون في يوم من الأيام أداة للقضاء على الأسس والمبادئ و القيم. لذلك رفض أن يحيد عن مبدئه حتى وإن كان الثمن خسرانه زعامة الأمة الإسلامية التي هي في الأصل حقه ولباسه.

الشمعة الثالثة و الثلاثون
يرفض مبدأ الإنقلابات العسكرية

إستلم الخليفة عثمان بن عفان الخلافة من لجنة الشورى التي عهد عمر لهم بإدارة عملية الشورى بعد وفاته، وكان ذلك في السنة الثالثة والعشرين للهجرة النبوية وكان قد تجاوز السبعين من عمره. وأقر الأمور على ما كانت عليه أيام عمر بما في ذلك ولاة الأمصار والبلدان ومناصب المسؤولين في الدولة. كذلك أبقى على مكانة علي بن أبي طالب من النظام ومن عملية صنع القرار. فسارت الأمور على حالها وكما أراد لها الخليفة الجديد ومن سبقه. وأتاح جو إستمرارية النهج الذي إتبعه عثمان في بداية خلافته مواصلة السياسة التي وضعها من سبقه للخلافة فواصل المسلمون فتوحاتهم وأكملوا حروبهم ضد الفرس وقضوا على ما تبقى من أمبراطورية فارس.

وبحكم علاقة عثمان بالرسول صلى الله عليه وآله وسلّم وآل بيته عليهم السلام، زادت علاقته بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب قوة ومتانة. ولكن عثمان لم يكن بحنكة وحكمة وعزيمة وتصميم من سبقه. كان ليّن الطباع ومن السهل جدا إستدراجه وتغيير مواقفه حتى تلك المواقف الرئيسية والهامة. كما أنه كان شديد الحب لعشيرته وخاصة الجناح الأموي منها. وهاتان نقطتان إستغلّهما الأمويون أفضل إستغلال لصالحهم ولتنفيذ مآربهم وأهدافهم. فجعلوا يبسطون نفوذهم وينمون دورهم ويستأثرون بالمال والجاه، وطبعا كل ذلك مرة بموافقة ومباركة ورضا الخليفة، أو هكذا قالوا وأوضحوا للناس عامة وللمسلين خاصة، ومرات كثيرة من غير علمه.

قوي نفوذ الأمويين وإمتدت مخالبه الى بيت مال المسلمين فأطبقت على ما فيه، خاصة بعد أن أبدل عثمان مسؤول بيت مال المسلمين الذي عينه عمر بآخر من آل بني سفيان. ولم يكتف بذلك فلقد اصبح الأمويون عنده هم أصحاب الفكر والمشورة وقدّمهم على أفاضل وخيار الصحابة وعلمائهم وخاصة أؤلئك الذين عملوا في الحكومة أيام الخلافتين السابقتين حتى شعر الناس بأن من يحكم بالفعل هو معاوية بن أبي سفيان وليس عثمان بن عفان.

ما زاد الأمر سوءا هو قيام عثمان، وبإقتراح أموي، بمنع بعض المسلمين حقوقهم وقطع مخصصات أبناء الخلفاء، بحجة عدم حاجتهم لها وإكتفائهم المعيشي، في الوقت الذي زاد فيه عطائه للبيت السفياني ومن ينتمي للأمويين ويعمل لحسابهم ومن إقترح الأمويون تعيين مخصصات له أو زيادة مخصصاته.

يروي ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة بأنه بعد مبايعة عثمان إجتمع أبو سفيان وجمع من بني أمية مع عثمان في داره فقال أبو سفيان، وقد فقد بصره: اعندكم احد غيركم؟ فأجابوه بالنفي. فقال: «يا بني أمية تلّقفوها تلقف الكرة. فوالذي يحلف به أبو سفيان ما من عذاب ولا حساب ولاجنة ولا نار ولا بعث ولا قيامة.» إستغرب الجميع من مقالته التي لا يقولها إلا من لم يدخل الإسلام ولم يعترف به. وصار الهرج والمرج فتدارك عثمان الوضع وزجر أباسفيان زجرا شديدا ولامه على مقولته وأنهى الإجتماع بعد أن حوّله أبوسفيان إلى مؤامرة على الإسلام، لا يمكن لعثمان السكوت عنها، وطلب عثمان من المجتمعين بداره مغادرة الدار حالا بعد أن تأكد له سوء نية ومقصد أبي سفيان وحزبه.

وفي حادثة مشابهة، تبين نفاق قادة البيت الأموي، يذكر الأستاذ عبد الفتاح عبد المقصود في كتابه «الإمام علي بن أبي طالب» أن أبا سفيان أمر

خادمه اليهودي الأصل «سرجون» بأن يقوده إلى قبر سيد الشهداء الحمزة بن عبد المطلب عليه السلام. فأخذ سرجون بيد أبا سفيان، وكان قد فقد بصره، إلى القبر الشريف ولما وصله ركز أبا سفيان عصاه في القبر متشفيا ووقف على القبر مخاطبا الحمزة: «يا أبا عمارة، إن الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمسى في أيدي غلماننا يلعبون به كيفما شاؤوا وكما أردنا.» ثم ركل القبر الشريف برجله وغادر المكان.

بالرغم من كل تلك الحقائق والوقائع التي وصلت الى سمع وعين عثمان إلا أن أبا سفيان كان دائما يحصل على ما كان يتمنى ويريد من عثمان. كان معاوية بن أبي سفيان واليا على دمشق و لأردن من قبل عمر. و لم يكن له نفوذ آخر غير ذلك. حتى أنه لم يذكر التاريخ بأن أبو سفيان كان له دور في حياة الخليفة عمر بن الخطاب.

لكن الوضع تغير بعد تولي عثمان الخلافة. سمح لأبوسفيان بالتدخل في أمور المسلمين وأوسع سلطة معاوية فضم إليه الى سلطته كل من فلسطين وحمص وقنسرين وأصبح معاوية واليا على جزء مهم من الدولة الإسلامية وهي كامل سوريا وفلسطين والأردن. ثم قام عثمان بعد ذلك بعزل والي عمر على مصر عمرو بن العاص وإستبدله بأخيه من الرضاعة عبدالله بن سعد بن ابي سرح، وهو من الذين أهدر الرسول دمهم لإرتدادهم عن الإسلام. وعزل عثمان المغيرة ابن أبي شعبة الثقفي والي الكوفة و عين بدلا منه اخاه من أمه وابن عمه من ابيه الوليد بن عقبة بن ابي معيط، الأموي النهج والمذهب. والوليد هذا هو الذي نزلت فيه تنبئ بفسوقه في سورة الحجرات: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إن جَاءكُمْ فَاسقٌ بنَبَأ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصيبُوا قَوْمًا بجَهَالَة فَتُصْبحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادمينَ× وَاعْلَمُوا أَنَّ فيكُمْ رَسُولَ اللَّه لَوْ يُطيعُكُمْ في كَثير مِّنَ الْأَمْر لَعَنتُّمْ وَلَكنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإيمَانَ وَزَيَّنَهُ في قُلُوبكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعصْيَانَ أُوْلَئكَ هُمُ الرَّاشدُونَ﴾

وقصة ذلك الوليد هي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرسله إلى بني المصطلق جابيا للصدقات فلما علموا بقدومه امتطوا خيولهم وخرجوا يستقبلونه إحتفاء به وبمن أرسله. فلما رآهم من بعيد على تلك الحالة ظن، جبنا وخسة طبع منه، أنهم خرجوا إلى قتاله فخاف ورجع الى النبي واتهم بني المصطلق بأنه خرجوا ينوون قتله والفتك به.

لما سمع المسلمين مقولة الوليد حز ذلك في قلوبهم واقترحوا على رسول الله أن يرسل كتيبة لقتالهم، إعتمادا على ما قاله ورواه واعتقده الوليد. أما وفد بني المصطلق فإنه لما رأى الوليد يفر راجعا مذعورا واصل سيره حتى وصل إلى المدينة. دخل الوفد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وأخبروه بأنهم خرجوا للترحيب بالوليد وإكرامه و ليس لقتله او صده كما ادعى. وبينما الرسول يستمع إلى إفادة الوفد ورد الوليد إذ نزل عليه جبرئيل بهذه الآيات يخبره بكذب الوليد وصدق بني المصطلق وينهاه والمسلمين من الإعتماد على حديث أمثال الوليد لأنه فاسق والفاسق لا يُصّدق ولا تُعتمد روايته.

وحاشا لله أن ينزل قرآنا يُفّسق شخصا وذلك الشخص به أمل من إصلاح. فالقرآن لا يهجو إلا من لا أمل ولا رجاء في إصلاحه. وهذا بالفعل ما حصل مع الوليد. فبعد خمس سنوات من ولايته على الكوفة ضاق الكوفيون ذرعا بفسقه وفساده فأخذوا يراقبونه ليشهدوا عليه شهودا حتى وجدوه شرب الخمر حتى الثمالة. فشكوه إلى الخليفة عمر وقدّموا شهودهم عليه فأمر عمر بأن يقام عليه الحد ويجلد. وبعد إقامة الحد عليه عزله وأبعده. هذا هو الوليد أعاد عثمان تعيينه على الكوفة واليا بعد أن أقاله عمر من ذلك المنصب.

نهض الكوفيون ضد تعيين الوليد الذي عرفوه و خبروه. و لما سمع عثمان بالأمر عزل الوليد واستقدمه إلى المدينه ليكون ضمن مستشاريه. ومرة أخرى يخيب الخليفة أمل الكوفيين في وال عادل، يحكم فيهم بما أنزل الله.

فبعد أن عزل الوليد عيّن الخليفة عثمان أمويا آخر هو سعيد بن العاص وأرسله إلى الكوفة التي كانت تعد هي والبصرة أهم مصادر الدخل القومي الرئيسية للدولة الإسلامية. وبالرغم من أن سعيد لم يكن بسوء الوليد إلا أن كونه شابا أمويا يتطلع إلى إنتقال الخلافة إلى عائلته كان قريبا من معاوية جدا. فكان يرجع إلى الشام للمشورة بدلا من المدينة ويتلقى الأوامر من معاوية وليس من الخليفة عثمان ويرسل غالبية الخراج الى معاوية في الشام.

أما بالنسبة إلى البصرة وهي أحد القلاع والسلال الغذائية الرئيسية للدولة الإسلامية فقد أبقى عثمان على أبي موسى الأشعري لقرابته له ودعمه له في مجلس الشورى الذي عينه عمر. وكان أبو موسى الأشعري هو الآخر من الولاة الفاسدين الذين أثروا ثراء فاحشا بسبب منصبهم. وكان يتصرف في أموال المسلمين جهارا نهارا من غير إستحياء من أحد. فشكى أهل البصرة فساده إلى الخليفة عثمان وحيث أن الشكوى كانت مدعومة بأدلة دامغة لم ير عثمان بدا من إقالته وتعيين شاب آخر من بني أمية وهو عبد الله بن عامر.

وهكذا عمل عثمان مع بعض البلدان والمدن والأمصار الإسلامية الأخرى. إستبدل ولاتها، الفاسدين أصلا، بولاة أمويين يفوقونهم فسادا وسوءا. فالولاة الجدد هم في الواقع أكثر سوءا من سابقيهم حيث أنهم بالإضافة إلى فسادهم وقلة خبرتهم مشهود لهم بالولاء والتعصب الجاهلي والقبلي للأسرة التي ينتمون إليها ويدينون بالولاء لها وهي نفس الأسرة التي حذّر لله ورسوله المسلمين منها ومن تربصها وكيدها بالإسلام والمسلمين.

لم يكتف الخليفة عثمان بذلك، بل ذهب إلى أبعد منه. فلقد عيّن مروان بن الحكم مستشارا له مع وجود كوكبة من الصحابة الأجلاء أمامه وبين يديه. ترك كل أولئك الأفاضل من أهل ومهاجرة وأنصار رسول الله ومن لهم السبق في الإسلام والجهاد في سبيل الله والسبق في المعرفة والعلم والعدل

وعين مروان، طريد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم الذي حرّم الرسول عليه دخول المدينة لخبثه وإيذائه للرسول والمسلمين. وأصبح مروان، طريد الرسول، فيما بعد هو الآمر الناهي ورأيه مقدم حتى على رأي الخليفة نفسه.

كان من الطبيعي جدا أن لا تعجب تلك التطورات والقرارات والتعيينات الخاطئة صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم. لم يكتف عثمان بتعيين أمويين في مراكز قيادية، بل إختار أسوأ ما عند الأمويين من طلقاء وفاسقين ومفسدين ومن لعنهم الله ورسوله ومن طردهم رسول الله وحذر المسلمين منهم. فأعلن كثير من المسلمين معارضته لعثمان وخاصة بعد أن باءت كل محاولاتهم لتصحيح الأمور وثني الخليفة عن تلك المسيرة بالفشل.

أهم المعرضين كانوا عبد الرحمن بن عوف الذي كره أن يرى عثمان يسير بغير سيرة الشيخين، وطلحة والزبير اللذان طمعا في المزيد من بيت مال المسلمين وعارضا أن يكون حصة الأمويين أكبر من حصتهم، وأم المؤمنين عائشة التي كرهت في عثمان تقديمه للأمويين والتي، كما في تاريخ الطبري، كانت تقول: «إن ثوب رسول الله ما بُلي بعد وعُثمان أبلى سنته.» وكانت تطوف على بيوت المسلمين، بعد أن ردها عثمان خائبة عندما ذهبت إليه تطالب في حقها، تحث المسلمين على تنحيته بالقوة وتقول: «إقتلوا نعثلا فقد كفر.»

من المعارضين عمرو بن العاص الراغب في الخلافة لنفسه، وأبو ذر الغفاري الذي لم تأخذه في الله لومة لائم وأخذ ينتقد عثمان علنا حتى قام الأخير بنفيه لصحراء الربذة حتى مات فيها بعيدا عن أهله وأحبائه، وعبد الله بن مسعود الذي كان واليا على بيت مال المسلمين وكان يعترض على كثرة عطايا عثمان للأمويين، وعمّار بن ياسر والمقداد اللذان رأيا في تولي عثمان الخلافة بدلا من علي بن ابي طالب نكسة للخلافة وللدولة الإسلامية. وكان عمّار يخرج مؤلبا المسلمين على عثمان وهو يقول: «يا ناعي الإسلام قم فإنعه

فقد مات عرف وبدا نكر. أما والله لو أن لي اعوانا لقاتلتهم. والله لئن قاتلهم واحدا لأكونن له ثانيا.»

خرج المقداد يوما فلقي عبد الرحمن بن عوف الذي مهّد الطريق لخلافة عثمان فقال: «ان كنت اردت بما صنعت وجه الله فأثابك الله ثواب الدنيا والآخرة وإن كنت اردت الدنيا فاكثر الله مالك.» فسكت بن عوف إستحياء وخجلا ولم يرد جوابا.

أما أبو ذر فقد أعلنها معارضة صريحة وعلنية مما إضطر عثمان إلى نفيه إلى الربذة عقابا له لمعارضته له علانية وتأليب الناس على ممارساته الخاطئة ومحاباته اللا محدودة للأمويين .

كما انضم إلى المعارضة عبد الله بن مسعود الذي هو الآخر حذا حذو ابو ذر ولكن عثمان أمر بضربه فضرب ضربا مبرحا حتى كُسّرت أضلاعه. وهكذا فعل الكثير من الصحابة. اتخذوا موقفا معاديا وعلنيا وصريحا من عثمان وطالبوا بتنحيه عن الخلافة طوعا او كرها. فكان الأمويون لهم بالمرصاد. تمت معاقبة الكثير منهم، خاصة أؤلئك الذين تسهل معاقبتهم لضعف مكانة عشيرتهم او لعدم وجود عشيرة لهم بالمرة في المدينة. ولكن كان هناك الكثير من المعارضين ممن لم يتمكن عثمان ولا أنسابه الأمويون من النيل منهم لعدة أسباب جعلتهم ممتنعين عليه وجعلت معاقبتهم أمرا مستحيلا.

في بداية الخلافة الراشدة كان بعض من كبار صحابة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يعتقدون بأن قريشا ما زالت تحمل على علي بن أبي طالب وأنها عندما يترك الخيار لها ستفضل أي صحابي، مهما كان ذلك الصحابي، على علي بن أبي طالب. ولذلك إختاروا أبو بكر وبعده عمر. وبالرغم من أن شريحة مهمة وكبيرة من وجهاء وقادة وعامة المسلمين كانت ترفض ذلك الرأي

إلا أنهم إستطاعوا التكيف معه والقبول بأبوبكر وعمر لما رأوا من إستقامتهما وعدلهما وانهما كانا يقدمان خدمات جليلة للدولة الإسلامية. كما أن قطب المعرضين علي بن أبي طالب نفسه انظم إلى ذلك الركب حفظا للدولة الإسلامية وهيبتها. لذلك تخلوا عن موقفهم وخاصة بعد أن شاهدوا أمير المؤمنين يقيم أوثق العلاقات مع أبي بكر وعمر.

كان بإمكان أؤلئك المسلمين، و بالفعل أظهروا إستعدادهم التام لعمل الشيء نفسه مع عثمان، لو أنه بالفعل عمل بما ألزم نفسه به، وهو العمل بسيرة الشيخين ولم يتماد في تقديم بني سفيان، طلقاء مكة والذين ما دخلوا في الإسلام إلا خوفا على دمائهم وأموالهم. كانوا على استعداد لقبول خلافته لو أنه سدّ الأبواب في وجه المنافقين الذين حذّر الرسول المسلمين منهم، بل وأمر صلى الله عليه وأله وسلّم بطرد بعضهم من المدينة وعدم السماح لهم بصعود منبره بعد وفاته. لكن عثمان عمل عكس ذلك ولم يعمل بسيرة الشيخين التي ما آلت إليها الخلافة إلا بعد تعهده بالعمل بها.

وكلما تمادى عثمان في تفضيله بني أمية والطلقاء ومن أمر الرسول بعدم السماح لهم حتى بدخول المدينة، كلما غلى الرأي العام في المدينة ضده. لقد تعهد عثمان بأن يسير بسيرة الشيخين، وكان قبوله لهذا الشرط هو ما نقل الخلافة إليه دون علي بن أبي طالب. ولكنه لم يف بوعده. فلم يعين الشيخان أيا من أقاربهما في منصب رسمي ولم يجزلا العطاء لفئة دون أخرى ولم يقربا من أبعده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم. لقد عاشا عيشة الكفاف وكانا يأمران عوائلهما وأقاربهما بأن يكونوا مثالا لبقية المسلمين وأن يشاركوا عامة المسلمين أفراحهم وأتراحهم. أما عثمان فقد عمل العكس من ذلك تماما. فكان يغدق على أقاربه ويخصهم بالهبات الضخمة.

يروي البلاذري في كتابه «أنساب الأشراف» ان عثمان أعطى عمّه الحكم بن أبي العاص ثلاثمائة الف درهم وجاء به إلى المدينة التي طرده منها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم. ومن هو ذلك الحكم؟ إنه شيخ المنافقين وعميدهم. لقد كان الحكم منافقا كثير الأذى لرسول الله وكان يسخر من الرسول بإستمرار. في يوم من الأيام رآه الرسول يسخر منه فقال للقوم: «ألا من عذيري من هذا الوزغ اللعين؟» وطلب بإخراجه وأهله من المدينة وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يساكنني هو ولا ولده من بعده.» ذلك هو الحكم الذي قربه عثمان واجزل له العطاء.

يروى ان عثمان وهب أخا له من الرضاعة خمس غنائم احدى الغزوات واعطى مروان بن الحكم خمسا آخر. كما أجزل العطاء لإبن عمه خالد بن عبدالله الأموي والحارث بن الحكم وأبي سفيان ومنح أبا سفيان جزءا من فدك وهي هدية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم إلى فاطمة الزهراء وقد غصبت منها بعد وفاة رسول الله.

لما يئس المسلمون من إمكانية جعل الخليفة عثمان يستمع إلى مطالبهم توجه مجموعة منهم إلى عبدالرحمن بن عوف وذّكروه بالشرط الذي اشترطه على عثمان وهو العمل بسيرة الشيخين وحملّوه مسؤولية عدم إلتزام عثمان بوعده. فوعدهم بأن يذهب بنفسه إلى عثمان ويذكره بالأمر. وبالفعل ذهب إلى الخليفة ولكن نصيبه من الصد وخيبة المسعى لم يكن بأفضل من نصيب من سبقه بالنصح والتذكير من الصحابة. فغضب عبد الرحمن من الخليفة وأقسم أن لا يتكلم مع الخليفة عثمان أبدا.

خرج عبد الرحمن بن عوف من عند عثمان غاضبا وتوجه مباشرة إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. وجده يسقي بدلوه بعض النخيلات فانتظره حتى فرغ من عمله ثم جلس معه. أخبر عبد الرحمن علي

بن أبي طالب بالذي حصل من مجيء المسلمين له حتى رجوعه من عند عثمان. ثم قال لعلي بأن الأمر قد وصل إلى أشده وبات من المستحيل تغييره بغير القوة. وطلب من علي النهوض ضد الخليفة وإسقاطه بالقوة وعن طريق إنقلاب عسكري. وضمن لعلي أن يكون المسلمين خلفه وقال: «خذ سيفك وآخذ سيفي حتى نجاهده ونزيله عن الحكم.»

استمع أمير المؤمنين الى زائره حتى اكمل كلامه وقدّم عرضه بعد ذلك توّجه اليه بنظرة عرف عبد الرحمن معناها قبل ان يتكلم أمير المؤمنين بكلمة واحدة. عرف أن أمير المؤمنين يُحمله المسؤولية فهو الذي أقصاه عن الخلافة بعد ان وضع شرطا يعلم هو قبل غيره بأن الإمام لا يمكنه قبوله. فزاد ذلك من معاناة عبد الرحمن واحساسه بالذنب.

اما أمير المؤمنين عليه السلام فإنه لما رأى معاناة عبد الرحمن اراد ان يخفف من وقعها عليه فقال له بأن ما مضى قد مضى وأنه لو علم الغيب لإستكثر من الخير وما مسه ما هو به الآن. فكانت كلمات أمير المؤمنين له نسمة ازاحت بعض ما بصدره من هم ثقيل أبهضه حمله. فكرر عرضه على الإمام أمير المؤمنين ولكن أمير المؤمنين وبأسلوبه اللبق المعتاد رفض عرض عبد الرحمن بعد أن نبهه الى مخاطر وسلبيات مثل ذلك العمل.

رفض أمير المؤمنين عرض عبد الرحمن لعدة أسباب. السبب الأول هو أنه لم يكن في يوم من الأيام طامعا في الخلافة بل العكس من ذلك كان على طول الخط من الزاهدين فيها، فهو ينظر إليها أنها تكليف وليس تشريف، مسؤولية وليست منصبا ووجاهة. السبب الثاني هو أن الخليفة عثمان جاء به المسلمون ولم يغتصب الخلافة من أحد. فقد عرضت عليه فقبلها. صحيح كان يعلم بأن عليا أولى منه بها، لكنه لم يغتصبها منه. والدليل على ذلك أنه لما طلب عبد الرحمن من علي قبول الخلافة قبل ان يطلب ذلك من عثمان كان

عثمان في المسجد يسمع عرض عبدالرحمن ولم يعترض عليه. السبب الثالث هو أن أمير المؤمنين يعمل حسب برنامج أعده وهيأه الله ورسوله له وهو العمل وفقا للقرآن والسنة الطاهرة وإعمال العقل من أجل مصلحة الأمة، وهذا هو سبب سكوته عن حقه في الخلافة.

السبب الرابع هو ان الإمام يعلم بأن الإنقلابات العسكرية لا تأتي إلا بالويلات والمشاكل. إذا كان العرب وقريش نقمت على علي لقتله أبنائهم وآبائهم في الله عندما كانوا مشركين يقاتلون المسلمين فكيف ستنظر إليه في قتله أبنائهم وآبائهم في سبيل الخلافة وبعد أن أصبحوا مسلمين؟

السبب الخامس كان لعلمه عليه السلام بأن أي تحرك عسكري من شأنه شق صفوف المسلمين الذين ما زال يحيط بهم الأعداء وطالبي الزعامة، وخاصة البيت الأموي وأن الإحتراب معناه توفير بيئة عكرة يتصيد فيها معاوية كيفما شاء.

لتلك الأسباب رفض الإمام عليه السلام عرض عبد الرحمن القاضي بالقيام بإنقلاب عسكري ورأى بدلا من ذلك أن يقوم هو بوساطات علّها تكون مجدية وتوفر على المسلمين إراقة الدماء وتقضي على التوتر والقلاقل والفرقة.

الشمعة الرابعة والثلاثون
إستغنى عن الناس وإحتاجت الناس إليه

إشتدت المعارضة ضد الخليفة عثمان وقويت وبدأت تأخذ طابع التحدي والمقارعة اللفظية، متسارعة الخطى نحو التحول الى المقارعة الحربية. ففي الكوفة وبينما مجموعة من أهلها يتذاكرون ما وصلت إليه بساتين الكوفة من وفرة في الثمار والمحصول وكيف أن كل تلك الخيرات اصبح ينتفع بها البيت الأموي بدلا من الدولة الإسلامية، وإذا برئيس شرطة الكوفة عبد الرحمن بن خنيس الأسدي يتدخل في الحديث ويقول: هنيئا لمولانا (معاوية بن ابي سفيان) ما نحن فيه. فقال له مالك الأشتر النخعي: تمنى لأميرك ما تريد ولا تتمنى له اموالنا. فقال عبد الرحمن الأسدي: لو أراد أميرنا ذلك لصار إليه. فقال الأشتر: والله لو رام ذلك ما كان له. أتجعل مراكز رماحنا وما أفاءه الله علينا بستانا لك ولأميرك؟

طال وإشتد النزاع بينهما وتحول من تراشق بالكلمات إلى تشابك ولطمات بالأيدي. ضرب مالك الأشتر عبد الرحمن ضربا موجعا اجبره على الهرب من المكان فخرج مسرعا من بين الجمع لا يلوي على شيء، ولم يتبعه مالك بل اكتفى بما الحقه به.

ذهب عبد الرحمن إلى أميره والي الكوفة سعيد بن العاص وأخبره بما حصل له وما قاله الأشتر بحقه وبحق معاوية. غضب سعيد وارسل شرطة مدججين بالسلاح ليأتوا بمالك الأشتر وأصحابه. ولما جيء بهم إليه ووقفوا بين يديه سألهم عن صحة ما ذكره له رئيس شرطته عبد الرحمن فلم ينكروا

شيئا منه. فأمر سعيد بأن ينفوا ويرسلوا إلى الشام ليرى معاوية فيهم رأيه. لم يرسلهم إلى المدينة ولم يخبر الخليفة عثمان بخبرهم بل أرسلهم إلى الشام، إلى معاوية الذي يدين له سعيد بالولاء والفضل في تعيينه واليا على الكوفة. أرسلهم إلى الشام إلى معاوية ليعاقبهم هو بالطريقة التي يراها ومن غير الرجوع إلى الخليفة. ولكأن الكوفة قضاء تابعا للشام أو أن الحكم الفعلي وعاصمة الخلافة والخليفة في دمشق وليس في المدينة المنورة.

وصل المنفيون إلى دمشق وبعد أن استلمهم رئيس شرطة معاوية قام بإخبار أميره فأمر معاوية بحبسهم في كنيسة تسمى كنيسة العذراء مريم. وبعد أن وضعوا فيها جاء إليهم معاوية وأخذ يذكرهم بأن أباه أبا سفيان كان أكرم قريش وأنه أفضل الناس بعد رسول الله. فقام إليه صعصعة بن صوحان ومالك الأشتر وغيرهم من المنفيين وذكروه بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم فيه وفي أبيه و في عشيرته. ذكروا له تلك الأحاديث واحدا بعد الآخر.

فعرف معاوية بأنه أمام خصوم أقوياء متسلحين بسلاح المعرفة وقوة الإيمان وأن وجودهم في دمشق خطر عليه. هذا بالإضافة الى أن وراء أولئك الرجال عشائر لها ثقلها في المجتمع الإسلامي وعندها من القوة والثقل الإجتماعي ما يمكنها من نقل الأمر إلى الخليفة عثمان. كما أن الموقوفين لديه هم أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وإن علم الإمام بما حصل لهم فلن يسكت على ذلك.

أدرك معاوية بأن والي الكوفة إرتكب خطأ كبيرا بنفيه تلك الكوكبة من الصحابة إلى دمشق. معاوية الذي ما زال يخطو خطواته الأولى نحو الإستيلاء على الخلافة وجعلها ملكا أمويا متوارثا لا يمكنه تعريض مساعيه لمثل تلك الأخطاء المميتة. لذلك قرر إخلاء سبيلهم حالا وادعى بأن ذلك

«إكراما لصحبتهم لرسول الله» ولقربهم من الخليفة ومن علي بن أبي طالب. فخرجوا من دمشق وعادوا إلى الكوفة من غير أن ينالهم أذى.

بعد أيام تفاجأ والي بالكوفة بأن من قام بنفيهم إلى دمشق قد رجعوا إلى الكوفة وأنهم يعيشون بين أهلهم سالمين محتفلين بفرحة النصر عليه وعلى خططه. فساءه ذلك وأرسل من يشيع بين الناس خبرا مفاده بأن أؤلئك المنفيين هربوا من السجن وأنهم عادوا إلى الكوفة من غير علم دمشق والوالي عليها. وأمر بإعادة إعتقالهم وإيداعهم السجن لحين ورود أمر رسمي من والي دمشق بخصوصهم.

تم إعتقالهم وبدلا من أن يرسل الى معاوية يستوضح الأمر منه، كما وعد، قام بإرسال المعتقلين مباشرة ومن غير إستجواب إلى حمص حيث كان الوالي صديقه عبد الرحمن بن خالد بن الوليد. ولم يكن عبد الرحمن بدهاء وحنكة معاوية وليست له أطماعه وخططه. كان همه الإنتصار لصديقه والي الكوفة. لذلك كان شديدا عليهم وبقوا في سجنه فترة طويلة حتى قيّض الله لهم من تدّخل في موضوعهم وأنقذهم من سجنه.

كان الخليفة عثمان على علم بما يحصل لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم من أذى على يد ولاته وأبناء عمومته الأمويين. وبدلا من إتخاذه إجراء تأديبيا بحق من إستغلوا إسمه وختمه و أشاعوا الفساد في الأرض وبين العباد بإسمه، بدلا من ذلك وجّه كتابا شديد اللهجة إلى مالك الأشتر يؤنبه فيه على معارضته.

لما وصل كتاب عثمان إلى مالك الأشتر كتب له جوابا جاء فيه: «من مالك بن الحارث الى الخليفة المبتلى الخاطىء الحائد عن سنة نبيه النابذ لحكم القرآن وراء ظهره. اما بعد، فقد قرأنا كتابك. فإنه نفسك وعمالك

عن الظلم والعدوان والإعتداء على الصالحين نسمح لك بطاعتنا. زعمت اننا ظلمنا انفسنا وذلك ظنك الذي ارداك فأراك الجور عدلا والباطل حقا. وأما مطالبنا فهي أن تنزع وتتوب وتستغفر الله من تجنيك على خيارنا وتسييرك صلحائنا وإخراجك إيانا من ديارنا وتوليتك الأحداث علينا وان تولي مصرنا من هو صالح ومؤتمن. واحبس عنا وليدك وسعيدك ومن يدعوك إليه الهوى من اهل بيتك. عندها ستنال محبتنا. والسلام.»

بالرغم مما حمله كتاب مالك من نصائح وابداه من ولاء و صدق وإخلاص إلا ان عثمان تجاهل كل تلك النداءات الخيّرة والنصائح المخلصة واستمر في سياسته الخاطئة. وهذا ما دفع بالمعارضة ضده لأن تستمر وتقوى وتتسع. فأصبح معارضوا سياسته يحشدون القوة والعدد لمواجهته وعزله بالقوة.

كان الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يراقب ما يحصل بإهتمام الخائف على مصير الأمة والحريص على دماء أبنائها. لذلك قرر أن يبادر بنفسه ويذهب إلى عثمان ليتوسط بينه وبين الرعية ويحاول أن يتوصل معه إلى حل يرضي جميع الأطراف ويجنب الأمة المخاطر. فأخذ معه بعض صحابة رسول الله الذين يخافون على الخليفة ويحترم الخليفة آراءهم ويثق في موقفهم مثل زيد بن ثابت وابي اسيد الساعدي وكعب بن مالك وحسان بن ثابت. فلما دخلوا على عثمان خاطبه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قائلا:

«إِنَّ النَّاسَ وَرَائي، وَقَدِ اسْتَسْفَرُوني (جعلوني سفيرا) بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكَ! مَا أَعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ، وَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَمْر لاَ تَعْرِفُهُ، إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ، مَا سَبَقْنَاكَ إِلَى شَيْء فَنُخْبِرَكَ عَنْهُ، وَلاَ خَلَوْنَا بِشَيْء فَنُبَلِّغَكَهُ، وَقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْنَا، وَسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا، وَصَحِبْتَ رَسُولَ اللهِ صلى

اللّه عليه وآله كَمَا صَحبْنَا. وَمَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَلاَ ابْنُ الْخَطَّاب بِأَوْلَى بِعَمَلِ الْحَقِّ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَقْرَبُ إِلَى رَسُولِ اللّهِ صلى اللّه عليه وآله وَشِيجَةَ رَحِم مِنْهُمَا، وَقَدْ نِلْتَ مَنْ صِهْرِهِ مَا لَمْ يَنَالاَ.

«فَاللّهَ اللّهَ فِي نَفْسِكَ! فَإِنَّكَ - وَاللّه - مَا تُبَصَّرُ مِنْ عَمىً، وَلاَ تُعَلَّمُ مِنْ جَهْل، وَإِنَّ الطُّرُقَ لَوَاضِحَةٌ، وَإِنَّ أَعْلاَمَ الدِّين لَقَائِمَةٌ. فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِاللّه عِنْدَ اللّه إِمَامٌ عَادِلٌ، هُدِيَ وَهَدَي، فَأَقَامَ سُنَّةً مَعْلُومَةً، وَأَمَاتَ بِدْعَةً مَجْهُولَةً، وَإِنَّ السُّنَنَ لَنَيِّرَةٌ، لَهَا أَعْلاَمٌ، وَإِنَّ الْبِدَعَ لَظَاهِرَةٌ، لَهَا أَعْلاَمٌ، وَإِنَّ شَرَّ النَّاس عِنْدَاللّه إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضُلَّ بِه، فَأَمَاتَ سُنَّةً مَأْخُوذَةً، وَأَحْيَا بِدْعَةً مَتْرُوكَةً. وَإِني سَمِعْتُ رَسُولَ اللّه صلى اللّه عليه وآله يَقُولُ: «يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالاْمَام الْجَائِر وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلاَ عَاذِرٌ، فَيُلْقَى فِي نَار جَهَنَّمَ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى، ثُمَّ يَرْتَبِطُ فِي قَعْرِهَا». وَإِني أَنْشُدُكَ اللّه أَنْ تَكُونَ إِمَامَ هذه الاْمَّة الْمَقْتُولَ، فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ: يُقْتَلُ فِي هذه الاْمَّة إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا الْقَتْلَ وَالْقِتَالَ إِلى يَوْم الْقِيَامَةِ، وَيَلْبِسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا، وَيَبُثُّ الْفِتَنَ فِيهَا، فَلاَ يُبْصِرُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِل، يَمُوجُونَ فِيهَا مَوْجاً، وَيَمْرُجُونَ فِيهَا مَرْجاً. فَلاَ تَكُونَنَّ لِمَرْوَانَ سَيِّقَةً يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلاَلَ السِّنِّ وَتَقَضِّي الْعُمُر.»

لم يستطع عثمان الرد على علي فقد وجد في كلامه الصدق والنصح فما عساه ان يقول؟ اظهر قبولا بما طلب منه امير المؤمنين علي بن ابي طالب فقال لعليٍّ: كَلِّم الناس في ان يؤجلوني حتى اخرج إليهم مظالمهم وارجع اليهم حقوقهم. فَقالَ له الإمام عليه السلام: مَاكَانَ بِالْمَدِينَةِ فَلاَ أَجَلَ فِيهِ، وَمَا غَابَ فَأَجَلُهُ وُصُولُ أَمْرِكَ إِلَيْه.

علم عثمان ما يقصده علي بكلامه وأن المطلوب هو عزل الولاة الأمويين الفاسدين وإستبدالهم بولاة صالحين. فقال لعلي: «إن عمر استعمل امثال من إستعملت،» يعني بذلك معاوية ونفر من الأمويين. فأحابه علي: «ان عمر كان

إذا استعمل شخصا وطأ على صماخه (راقبه و حاسبه). ان بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ به اقصى الغاية وانت ضعفت ورفقت على أقربائك.» فقال له عثمان: «ولكنهم هم أقرباؤك أيضا.» فقال له علي: «نعم ان رحمهم لقريب، ولكن الفضل في غيرهم.» فقال عثمان: «هل تعلم ان عمر ولّى معاوية خلافته كلها؟» فقال علي: «إن معاوية لم يقدر على تقديم أمر دون الرجوع إلى عمر وأنه الآن يقتطع الأمور دونك وأنت تعلم ذلك وتسمع الناس يقولوا هذا أمر عثمان (ينسبون افعال معاوية الخاطئة و المجرمة الى عثمان) فلا تغير على معاوية.»

سكت عثمان ولم يرد جوابا. فهو امام حقائق وضعها امير المؤمنين امام عينيه حيث هو على علم بكل ما ذكره الإمام من اقوال وافعال وممارسات معاوية. تحير فيما يفعل. لا هو بالراغب في تغيير معاوية واتباعه، مع قدرته على القيام بذلك العمل لو هو اراد ذلك، فأي تحرك منه ضد معاوية سيجعل كل الصحابة والمسلمين يقفون معه، وهو ما ذكره له مالك الأشتر، ولا هو بالقادر على الرد على مطالب الإمام التي يعرف انها صحيحة ومحقة. لذلك لم يجد امامه سوى اللجوء الى السكوت.

لما فشل الوفد المفاوض بقيادة أمير المؤمنين في الحصول على تجاوب وتعاون من عثمان، أو حتى رغبة و وعد منه في تصحيح الخطأ و تسوية مواضيع الخلاف خرج اعضاء الوفد المفاوض والناصح من عنده محبطين حائرين و شفقين على الخليفة و الخلافة.

بعد خروج الوفد من عنده إستدعى عثمان مستشاره الخاص والمفضل لديه مروان بن الحكم، والذي رفض الإمام أمير المؤمنين أن يكون حاضرا عند زيارتهم لعثمان، تطبيقا لأوامر الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم التي نصت على طرده من اي تجمع اسلامي ولعلمه بسوء مقصده وإستشارته وأنه سبب

المآسي التي يعاني منها عثمان. لما حضر مروان أخبره عثمان بما حصل فأشار عليه بأن يصعد منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ويخطب الناس محذرا ومتوعدا المعارضين بأشد العقوبة. وذلك بالفعل ما عمله عثمان.

وصل خبر فشل وساطة الإمام أمير المؤمنين إلى جميع الأمصار والمدن الإسلامية تيقنوا بأن الأمل في إصلاح الخليفة أصبح مستحيلا بعيد المنال. فأرسلوا وفودا إلى المدينة، وخاصة أهل الكوفة والبصرة ومصر، يخيرون الخليفة بين أمرين – عزل الولاة الظلمة والجائرين أو الإستقالة، وإن هو رفض الحلين سيُعمل على تنحيته بالقوة، حتى وإن إقتضى الأمر قتله وإزاحته عن الخلافة قسرا واسناد الخلافة الى من هو جدير بها.

استلم عثمان رسائل الوفود وتأكد له جدية الأمر وعرف بأن الأمور قد إزدادت تعقيدا. وكعادته في كل مرة تتعقد فيها الأمور وقع في حيرة من امره لا يعرف ماذا يعمل. عرف بأن مستشاره مروان بن الحكم الذي يعول عليه في هذه الأمور لا يستطيع إنقاذه من هذه الورطة فلا رصيد له في المجتمع بصفة عامة وعند مرسلي رسائل التهديد بصفة خاصة. بينما هو في حيرته تذكر بأن هناك شخصا واحدا لن يتردد في لعب دور الوسيط بينه و ين المعارضين وعلى الجانب الآخر يستمع اليه المعارضون ويقبلوا بوساطته وهو امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام. فلا يوجد شخص غيره تتجمع فيه تلك الشروط.

إلتجأ عثمان إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يناشده التوسط في الموضوع. وما كان أمير المؤمنين ليوصد الباب أمامه وهو الحريص على الإصلاح في الأمة وصلاحها. أجابه الإمام الى ما طلب ولكن سأله ما هو عرضه ومالذي يمكن أن يقوله للمعارضين. فقال له عثمان قل لهم إني رضيت بما عرضته علي سابقا من برنامج للإصلاح والتطوير. فذّكره علي بأن ذلك سيكون بمثابة وعد منه للمسلمين يكون هو ضامنه ولا يمكنه فعل ذلك إلا إذا

تأكد من أن الخليفة سيفي بوعده، خاصة وأن الخليفة سبق وأن تعهّد بالإصلاح أكثر من مرة ولكنه بدلا من أن ينفذ وعده ذهب يستمع إلى مشورة مستشاره مروان والتي هي بالطبع ضد مصلحته ومصلحة الأمة. فقال له عثمان: «هذه المرة سأعصيهم وأطيعك.»

ذهب الإمام أمير المؤمنين إلى وفود المعارضة وأخبرهم بأن الخليفة قد وافق على برنامج للإصلاح يضعونه سويا وأنه مستعد للقائهم والتشاور معهم في تنفيذ ذلك البرنامج. فشكروا الأمام وجاؤوا معه إلى عثمان وما إن دخلوا عليه حتى إعتذروا منه لما بدر منهم وقام هو الآخر بالإعتذار لهم عن التقصير. وقال: «أنا أول من يتعظ. استغفر الله مما فعلت واتوب إليه. فمثلي من نزع وتاب. فإذا نكثت فليأتين اشرافكم فليروا في رأيهم ويحكموا علي بحكمهم. فو الله لئن ردني الحق عبدا لأستنن بسنة العبد ولأذلن ذل العبد. وما عن الله مذهب إلا إليه. فو الله لأعطينكم الرضا ولأنحين مروان وذويه ولا أحتجب عنكم.»

وجهش بالبكاء حتى بكى الحاضرون لبكائه وأصلح الله حال المسلمين وقُضي على الفتنة بفضل وساطة أمير المؤمنين وسُدّ باب الشر الأموي المتربص بالإسلام وأهله.

عاش المسلمون فترة دفئ سادتها علاقة جديدة وصحيحة بين الخليفة والرعية. وتوجس المغرضون والمفسدون الخوف من على مصيرهم الذي لن يكون أبيضا كما يشتهون ويخططون خاصة إن إستمرت العلاقة الجديدة التي أرسى دعائمها وأسسها الأمام أمير المؤمنين عليه السلام بين الخليفة وشعبه على المنوال الذي هي عليه وعلى النهج الجديد الذي خُط لها. وكان على رأس أولئك المغرضين والمفسدين مروان بن الحكم الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بـ «الوزغ بن الوزغ.»

أخذ مروان يحيك المؤامرات وينقل إلى الخليفة اخبارا كاذبة وملّفقة عن المسلمين وأنهم إعتبروا موافقته على شروطهم ضعفا منه وإنتصارا لهم يستطيعون من خلاله فرض رأيهم وما يريدون عليه. وزوّد الخليفة بقصص مختلقة وكاذبة عن تطورات وقلاقل يخطط لها المسلمون من ضمنها الإطاحة به والقضاء عليه وعلى عائلته واتباعه. وكعادته إستمع الخليفة الى صوت مروان وأصّم أذنيه عن صوت العقل وقال لمروان: «إكفنيهم.»

خرج مروان إلى مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم والمسلمون مجتمعون فيه منتظرين وصول الخليفة للتباحث في امور المسلمين ولمناقشة مواصلة برامج الإصلاح التي بدؤا جميعا، هم والخليفة، في تطبيقها نتيجة لبرنامج الصلح والإصلاح الذي توصلوا اليه من خلال وساطة امير المؤمنين. وبينما هم يترقبون وصول الخليفة عثمان وإذا بمروان يدخل المسجد الذي طرده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منه وحرم عليه دخوله.

ما أن رأى المسلمون مروان داخلا عليهم بدلا من الخليفة حتى راودهم الشك والتوجس لما يعرفونه عن سيرة مروان. أما مروان، طريد الرسول، فإنه دخل المسجد النبوي وصعد على منبر الرسول بوقاحة وبمرئ ومسمع من المسلمين الذين تملكتهم الدهشه وجرءة مروان فحرمتهم من منع مروان من الصعود على المنبر الشريف.

استغل مروان عنصر المفاجأة و الدهشة وقرر ان ينجز مهمته بسرعة ويخرج قبل ان يفيق المسلمين من دهشتهم فيقوموا بإنزاله عن المنبر. صعد بسرعة على منبر الرسول ومن غير مقدمات ولا حتى تحية قال:»جئتم تريدون ان تنزعوا ملكنا من أيدينا؟ اخرجوا عنا. والله لئن رمتمونا لترون أمرا لا يسركم.» ونزل عن المنبر وخرج من السمجد مسرعا تحيط به حاشيته وحرسه.

عندها عرف المسلمون بأن الخليفة قد نكث بالعهد واخلف الوعد كعادته. فتملك الغيظ من بعض الحاضرين واقترحوا محاربة الخليفة والإطاحة به. إلا ان مجموعة منهم رأت ان يذهبوا الى ضامن الإتفاق والشاهد على العهد الذي أخذه الخليفة على نفسه والذي ما تم الصلح مع الخليفة إلا بوساطته فيخبروه بما حصل ويستشيروه فيما يجب عليهم فعله.

استحسن الجميع ذلك الرأي فقاموا قاصدين منزل أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام. استقبلهم امير المؤمنين وسألهم عن سبب مجيئهم فأخبروه بما فعله وقاله مروان. لما سمع كلامهم بدت الحيرة وعدم الإرتياح على وجهه وقال لهم: «يا عباد الله، إن قعدت في بيتي قال لي (يعني عثمان) تركتني و(تناسى) قرابتي وحقي. وإن تكلمت جاءه من يريد أن يلعب به، مروان، فصار سيّقه طيّعة له يسوقه حيثما شاء بعد كبر السن وصحبة رسول الله.»

أخذ الإمام يفكّر في الموقف المحرج الذي وضعه فيه عثمان. إن هو ردّ القوم وأوكل إليهم أمرهم وقال لهم إعملوا ما شئتم فقد يئست من الرجل، وهذا حقه وما حصل من عثمان بالفعل، حينها سيحصل ما لا تحمد عقباه وما لا يتمناه للمسلمين وللدولة الإسلامية. وإن طلب منهم السكوت على حقهم والسماح لمروان والأمويين من وراءه بالقضاء على الدولة الإسلامية والخلافة الراشدة فقد إرتكب إثما حاشى لمثله أن يفعله. وهو أيضا لا يستطيع أن يضمن لهم عمل شيء لعلمه بأن حيل مروان و خدعه قد أخذت مأخذها من الخليفة الذي أصبح لا يسمع إلا ما يقوله مروان ولا يصدّق إلا ما يقوله مروان ولا يرغب إلا في ما يفعله مروان.

وجد أمير المؤمنين عليه السلام ان ليس أمامه من خيار سوى مصارحتهم بحقيقة الأمر بحيث لا يجعلهم يبنون آمالا كبيرة على وساطته

فيزيد إحباطهم عندما تفشل مساعيه وتتحول ردة فعلهم إلى فعل وعمل مدّمر. فقال لهم بأنه سيذهب مرة اخرى الى عثمان ويحاول مرة أخرى معه عسى الله أن يوفقه هذه المرة لما فيه الخير والصلاح.

ذهب الأمام أمير المؤمنين إلى عثمان وكلمه بغضب مذّكرا إياه بأن لا مصلحة له فيما يفعل وأنه من المعيب أن يُفضل مشورة طريد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على مشورة أخو رسول الله ونفسه وابن عمه والمفضّل عنده. وقال له مغضبا: «اما رضيت من مروان ورضي منك إلا بتحرفك عن دينك وعن عقلك، جعلك مثل جمل الظعينة يقاد حيث يشاء ربه؟ والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا في نفسه. و إيم و الله إني لأراه يوردك ولا يصدرك. وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك. أذهبت شرفك وغُلبت على رأيك.»

وخرج الأمام بعد ذلك دون أن يستمع لرد عثمان لأنه لم يعد يثق في رد شفوي منه ولن يقنعه بعد هذا اليوم إلا الرد العملي. وترك له أخذ القرار الذي يريد بعد أن أعذر إلى الله ورسوله و إلى المسلمين وعمل كل ما في وسعه ناصحا ومخلصا.

الشمعة الخامسة والثلاثون
حاميا للخلافة والخليفة عثمان (رض)

كما كان متوقعا، لم يُحرك عثمان ساكنا ولم يبدل من سياسته، الأمر الذي دفع بمروان إلى المزيد من الإستبداد والظلم و الفساد وحرمان المسلمين من العطاء وإغداقه على البيت الأموي ومن يسانده ويدعمه. والتاريخ يسرد وقائع كثيرة حدثت حرم من خلالها عثمان، عن طريق مستشاره مروان، المسلمين من حقوقهم في الوقت الذي أجزل العطاء فيه للبيت الأموي. أهم تلك الوقائع مطالبة طلحة بن عبيدالله بحقه من بيت مال المسلمين لأنها كادت ان تجلب الدمار للخليفة و الخلافة الإسلامية.

ذهب طلحة بن عبيد الله إلى مروان يريد نصيبه من العطاء فرده خائبا فما كان من طلحة الا أن جمع حشدا من المسلمين، الناقمين على سلوك الخليفة، وذهب بهم إلى بيت عثمان وحاصروه طالبن منه التنحي عن الخلافة طوعا أو كرها. فلما علم عثمان بالأمر أرسل إلى علي مستنجدا به قائلا له: «إن لي حق الإخاء والإسلام والقرابة والصهر ولو لم يكن من ذلك شيء وكنا في الجاهلية لكان عارا على عبد مناف أن ينتزع أخو بني تميم (يعني طلحة بن عبيد الله) أمرهم.»

الغريب في الأمر أنه كلما مر الخليفة بمعضلة لجأ إلى أبي الحسن علي عليه السلام وكلما واجه مشكلة يقصد أمير المؤمنين ويطلب منه التدخل وحلّها. و الإمام بدوره لا يتردد في تلبية طلبه. لكنه عندما يشير عليه أمير المؤمنين بأمر يُغّلب رأي مستشاره مروان على رأي أمير المؤمنين. بل أكثر من

ذلك، ينقض عهودا أبرمها مع أمير المؤمنين إستجابة لرغبات ومشورة مروان الذي لم تجلب إليه مشوراته إلا الدمار والخراب.

فهل السبب في ذلك مسألة القرابة التي يمتمتع بها مروان؟ لا إعتقد ذلك. فقرابة عثمان من رسول الله وعلي هي أقرب وأقوى من قرابته من مروان. كما ان قرابة الرسول وعلي تشرف من يتقرب اليها بعكس قرابة مروان التي يهرب منها من هو فيها. هل كان يخاف نفوذ وجبروت معاوية وهل كان بإمكانه عزل معاوية والولاة الأمويين لو أراد ذلك؟ هل هي ضعف الشخصية ام ان هناك اسباب اخرى؟ هذه الأسئلة وكثير مثلها لم يجب أحد عليها بالقطع حتى الآن. كل الأجوبة كانت بمثابة استنتاجات وتحليلات قد تكون محققة وقد تكون غير ذلك.

المهم، لما وصل كتاب عثمان إلى علي بن أبي طالب لم يشأ أن يرده وهو القادر على ذلك لو أراد ذلك ولا أحد يلومه إن هو فعل. لكنه قام من وقته وساعته وذهب إلى دار طلحة الذي كان وراء التهديد والذي حشد الحشود ضد الخليفة، واجتمع به الإمام في داره. و عد أن هدّأه و أخذ بخاطره سأله: «ما هذا الأمر الذي وقعت فيه؟» فقال طلحة: «يا أبا الحسن، أبعد ما بلغ الحزام الطبيين (أي أخذ الجوع مأخذه) وأموال بيت المال تذهب إلى الأمويين؟» فقال له علي لا عليك ستحصل على ما يكفيك ويكفي عائلتك. وأمره أن يحرك ساكنا حتى يعود إليه.

خرج الإمام علي عليه السلام من عند طلحه و ذهب مباشرة الى بيت مال المسلمين وأمر سدنته بفتحه. فلما فتحوه أخذ منه ما يسّد حاجة طلحة وأصحابه وعوائلهم رجع إلى طلحه وأعطاه حاجته وحاجات اصحابه. فأمر طلحة أصحابه بفك الحصار عن دار عثمان.

لما إنتهى الحصار بعث عثمان إلى طلحة فلما جاء إليه أخذ يعاتبه على فعلته وطلحة يرد عليه بعتاب مماثل. قال له طلحة: يا أمير المؤمنين أردت أمرا فحال الله بيني وبينه. فقال له عثمان: والله ما جئتني تائبا ولكن مغلوبا. حسيبك الله. فقال له طلحة: لقد غلبت كما غلبت.

صحيح ان حصار طلحة لعثمان انتهى ولكنه انتهى نهاية عدّها كثير من المسلمين فوزا لطلحة، وليس هزيمة له، كما إعتقد الخليفة ذلك. وهذا ما شجّعهم على تكرار العملية أكثر من مرة وفي كل مرة ينهي الإمام أمير المؤمنين عملياتهم عن طريق التراضي بين الطرفين. لا الخليفة إستفاد من تلك العمليات ووعي الدرس ولا خصومه ملّوا من تكرار تلك العمليات، خاصة بعد أن عرفوا بأن التهديد والعصيان و التمرد هي السبل الوحيدة لنيل مطالبهم وتحقيق العدالة التي كانوا ينشدونها.

في إحدى محاولات الحصار التي فُرضت على الخليفة عثمان استشار عثمان مروان في الأمر فأشار عليه بأن يبقى صلبا على موقفه وأن يبعث الى معاوية يستنجده ويستغيثه. فوافق عثمان على ذلك وأمر مروان بأن يبعث إلى معاوية يخبره بالأمر. وبعد أيام قال له مروان بأن معاوية بعث بجواب مفاده بأنه مرسل إليه بجند من الشام يحمونه وطلب منه أن يبقى صلبا في موقفه وأن لا يتنازل للمحاصرين. فأصّر الخليفة على عدم الإستجابة لمطالب المحاصرين والتي لا تزيد عن كونها مطالبة بحقوق لهم حرمهم منها ولاته الأمويون.

ثلاثة عوامل رئيسية قادت الخليفة إلى عناده وإصراره على عدم الإستجابة لمطالب المحاصرين الشرعية. الأول هو أنه عرف بأن القوم لا يرغبون في أذيته شخصيا ولو أنهم أرادوا ذلك لفعلوا وقبل هذا الحصار بفترة طويلة. العامل الثاني هو ثقته العمياء في مروان، والتي لم يتوصل أحد لمعرفة أسبابها لحد الآن، وخاصة عندما أخبره بأن معاوية مرسل له جندا من الشام

ليفُكوا الحصار عنه. العامل الثالث هو ذلك القرار الجريء والشجاع والشهم الذي إتخذه الأمام أمير المؤمنين عليه السلام. فلما سمع أمير المؤمنين بحصار عثمان منع المحاصرين الماء والطعام من الوصول إلى بيت الخليفة قام من وقته وساعته وذهب إلى المحاصرين وقال لهم غاضبا: «إن الذي تفعلون لا يشبه امر المؤمنين ولا حتى امر الكافرين. فلا تقطعوا عن الرجل الماء ولا المادة. فإن الروم وفارس لتؤسر فتُطعم وتُسقى.» فسمحوا بإدخال الطعام والماء.

وبالرغم من أن أمير المؤمنين أراد بذلك وجه الله والعدل إلا أن الخليفة عدّ ذلك مساعدة من أمير المؤمنين أتته من حيث لا يأمل لتهون من أمر الحصار المفروض عليه وتجعله يتعايش معه حتى يصل إليه الجيش الأموي الموعود فيخلصه من أزمته وينهي ذلك الحصار وإلى الأبد. فبقي مكابرا رافضا الإستماع إلى مطالب الشعب وأصوات العقل والحق التي تدعوه إلى إنصاف الرعية إعطائهم حقوقهم التي هي في عهدته وتحت سيطرة أبناء عمومته الأمويين. المحاصرين هم أيضا بقوا مرابطين في مراكزهم محيطين بالدار مشددين من حصارهم.

إشتد الحصار المضروب حول بيت الخليفة وأصبحت الأمور تزداد تعقيدا يوما بعد يوم بل لحظة بعد لحظة. الخليفة يرفض الإستجابة لمطالب المحاصرين والمحاصرون يرفضون فك الحصار قبل الإستجابة لمطالبهم والخليفة يتعشم وصول المدد من الشام لينهي الحصار بالقوة. ولكن المدد لم يأت ولا وجدت بارقة أمل توحي بأن مجيئه قريب.

على الجانب الآخر كان علي عليه السلام والصحابة المخلصين يراقبون ما يجري ولا حول لهم ولا قوة. لم يكن أحد في المدينة يرغب في رؤية عثمان مقتولا ولا حتى مصابا أو مُؤذا. كلما أرادوه هو إصلاحه وإنقاذه من فخ وشرور الأمويين وتنظيف العلاقة بينه وبين عامة الشعب من الشوائب التي

غرسها الأمويون. إنهم يعرفون أن أذية الخليفة معناه أذيَّة الإسلام والمسلمين. يعروفون بأن عثمان صالحا حيا يعيش بينهم أفضل ألف مرة من عثمان مقتولا أو حتى معزولا. فقتله أو عزله معناه خلل في النظام الإسلامي وهذا بالتأكيد ما لا يرغب فيه أي مسلم غيور على دينه وأمته.

وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام هو أكثر المسلمين وعيا لهذه الحقيقة. لذلك قرر، وبالرغم من معارضته الشديدة لسياسة عثمان وإنزعاجه من خذلانه له وعدم الوفاء بوعده أكثر من مرة، أن يتخذ قرارا عمليا يمنع بموجبه أي أذى جسدي يمكن أن يحدث للخليفة. فأرسل أعز الناس لديه إبنيه الحسن والحسين عليهما السلام إلى بيت الخليفة وأمرهما أن يقفا على الباب يحرسانه ليلا ونهارا. فذهبا إلى حيث أراد أبوهما وعملا ما طلبه منهما.

كان بإستطاعة الأمام أن يبعث غير إبنيه و هناك الكثير من رجاله ومن الصحابة من بإستطاعته القيام بهذا العمل والإستجابة لأمر الإمام. لكنه رأى أن لا أحد غيرهما، غير الحسن والحسين، بإمكانه القيام بحماية الخليفة وفي تلك الظروف بالذات والتي بلغ فيها الكره والرفض لسياسات عثمان مستوى عاليا مشحونا بالتوتر قابل للإنفجار في أي وقت. فوجودهما أمام بيت الخليفة يجعل المسلمين يترددون أكثر من مرة في دخول البيت عنوة، ليس فقط لقوتهما بل أيضا لما يتمتعان به من إحترام وتقدير بين المسلمين يجعل من محاربتمهما أمرا مرفوضا عند المسملين.

كذلك كونهما إبنا أبيهما فإنهما لن يحركا ساكنا دون الرجوع إليه، وهذا ليس هو الحال مع بقية المسلمين حيث بإمكان أطراف ثالثة التأثر سلبا وإيجابا على مواقفهم. كما أن وجودهما يحرسان بيت الخلافة و الخليفة يرسل رسالة واضحة وصريحة بأن أي محاولة لإلحاق الأذى بالخليفة هي أمر

مرفوض من قبل الأمام أمير المؤمنين عليه السلام ومن الطبيعي أن لا يقدم الكثير من المسلمين، بل غالبيتهم، على القيام بأعمال لا يقبل بها أمير المؤمنين ولا يرضى عنها.

لما رأى مروان تلك التطورات أمام منزل الخليفة قرر أن يقوم بعمل يثبت وجوده الذي ألغته التطورات وحكمة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام. فذهب إلى المحاصرين وقال للمحاصرين بلهجة المتغطرس بأن جحافل من الجنود قادمة من الشام ومن بقية الأمصار للدفاع عن عثمان وأنه بعد أيام قلائل سيكون مصير المحاصيرن القتل على أيدي الجيوش القادمة للمدينة.

وسواء صح قول وتحذير مروان أم لا، فإنه مما لا شك فيه إرتد عليه وعلى صاحبه وأصابهم في مقتل. فبدلا من أن يحدث قوله وتحذيره بلبلة وفرقة بين المحاصرين تثنيهم وترجعهم، أو بعضهم على الأقل، عمّا يقومون به، عمل العكس. جعلهم يفكرون في إتمام مهمتهم سريعا وقبل وصول الجيوش التي توعد بها مروان.

بعد أن إنتهى مروان من تحذيره إجتمع قادة المحاصرين وقرروا إتمام مهمتهم سريعا. فبينما مروان وصحبه يسبحون في نشوة التحذير والحلم الخادع بالإنتصار على المحاصرين قام المحاصرون بتسلق دار الخليفة من الخلف ودخلوا الدار و أنهوا مهمتهم وخرجوا. وبدلا من أن يؤدي تحذير مروان إلى فك الحصار أدى إلى التعجيل في قتل الخليفة وإنهاء الموقف نهاية تخوف منها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام والمخلصون من صحابة الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم.

الشمعة السادسة والثلاثون
زهد في الخلافة فرغبت فيه

بعد مقتل عثمان لزم الأمام أمير المؤمنين عليه السلام منزله لا يخرج منه إلا للصلاة في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم أو لسقي بعض النخيل التي كان يملكها وتمثل مصدر دخله. كان يعلم بأن حادثة مقتل عثمان سيكون لها هزات سياسية وإجتماعية وربما عسكرية ستؤثر على الدولة الإسلامية. وقد حذّر من تلك العواقب عندما رأى تصميم المعارضين لحكم عثمان على الإطاحة به. لا بل ذهب إلى أكثر من ذلك وحاول منعهم من القيام بما كانوا يدبرون وأرسل إبنيه حُرّاسا للخليفة.

كان عليه السلام يعلم بأن المجتمع منقسم على نفسه. فليس كل المعارضين للخليفة عثمان هم من الناقمين عليه لشخصه. الغالبية منهم كانوا ضد سياسته وخاصة سياسته المالية. وكانوا سيرضون به لو أنه قام بالإصلاحات التي وعد بها. قسم آخر يئس من إصلاحه فرأى أن السبيل الوحيد والمتبقي هو الإطاحة به.

على الجانب الآخر هناك الذين كانوا يهنأون بعطاياه وهباته وهؤلاء لا بد أن يقوموا مطالبين بدمه وبتعيين خليفة يواصل مسيرته ونهجه حتى لا يكونوا الحلقة الضعيفة والخاسرة بعده. وهناك الأمويون الذين وجدوا في تعاطف الخليفة معهم سبيلا لتحقيق مآربهم ومطامعهم السياسية و بالتأكيد لن يرضوا بمن يسلب منهم ما حصلوا عليه أو يقف عائقا ضد تحقيق رغباتهم. وهناك الذين كانوا ولا يزالون من المعارضين لخروج الخلافة من بيت الرسول

صلى الله عليه وآله وسلّم وكانوا على عهدهم لرسول الله يوم غدير خم. وهناك آخرون يأملون في الحصول على مناصب سياسية ومزايا إقتصادية.

وسط ذلك الجو المزروع بالألغام والمطامع السياسية فضّل الإمام أن ينأى بنفسه ويبتعد لأنه لا يستطيع الحياد عن الحق والحق ليس هو المطلوب في ذلك الوقت. المطلوب تحقيق مصالح واجندات مختلفة كل فريق له اجندة خاصة به وكان يجر النار إلى قرصه. لذلك لزم بيته وأمر أبناءه والمقربين منه عمل نفس الشيء.

بقي الناس خمسة أيام بعد مقتل عثمان وليس عليهم خليفة. فإجتمع وجهاء المهاجرين والأنصار في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وأخذوا يتشاورون في أمر الخلافة. فأعرب أكثرهم عن الرغبة في مبايعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. فقال الباقون: نحن راضون بعلي بن أبي طالب.

قام طلحة والزبير وبعض الوجهاء وأتوا إلى علي عليه السلام وعرضوا عليه رغبة الأمة وقالوا له: «جئنا نبايعك.» فقال لهم: «دعوني و إلتمسوا غيري، فإنا مستقبلون أمرا له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول.» فقالوا: «ننشدك الله، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى الفتن المحيطة بنا؟ ألا تخاف على الإسلام؟» فقال لهم: «لا حاجة لي في أمركم، من إخترتم رضيت به.» فقالوا: «ما نختار غيرك، إنا لا نعلم أحدا أحق بهذا الأمر منك ولا أقدم سابقة ولا أقرب من رسول الله.» فقال لهم: «أكون وزيرا لكم خير من أمير.» فقالوا: «لا نرضى إلا أن تكون أميرا.» فقال لهم: «إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم وإن تركتموني فإنما أنا أحدكم.» فرفضوا إلا مبايعته. عندها طلب منهم أن يتم ذلك في اليوم التالي وعلنا في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم فوافقوا على ذلك وتفرقوا.

أراد الإمام بتأخير قراره يوما لإعطاءهم فرصة للتفكير وإتخاذ قرارهم بعيدا عن الإنفعال والتأثر برأي فلان أو موقف فلان. لذلك لما كان من الغد جاء إلى مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم وبعد أن إكتملوا صعد المنبر لا لينصب نفسه خليفة بل ليعطيهم فرصة أخرى يختارون فيها من يشاؤون. فقال لهم: «أيها الناس، إن هذا الأمر أمركم وليس لأحد فيه حق إلا من أمّرتم. وقد إفترقنا بالأمس على أمر، إن شئتم قعدت لكم وإلا فلا أحد على أحد.» فقالوا بأجمعهم: «نحن على ما فارقناك عليه بالأمس.» فقام طلحة والزبير ومدّا يدهما مبايعين أمير المؤمنين وتبعهم باقي الحضور وتمت مبايعته أميرا للمسلمين وخليفة عليهم.

زهد في الخلافة، خاصة بعد أن أصبحت مغنما يتسابق إليه كل من قدر على السباق حتى وإن كان غير مؤهل للخلافة ولا هو مؤهل حتى لأدنى منصب فيها. لم تعد الخلافة تلك التي رسمها وأرادها الله ورسوله بل أصبحت خاضعة لرغبات الناس وأهوائهم وميولهم. لذلك زهد فيها وصدّ عنها وتركها وشأنها وشأن مريديها.

لكن الخلافة وبعد أن قاست ويلات وعذابات من إستولى عليها قسرا وغصبا فأنتهكت حرمتها وألبست غير لباسها وبعد أن أصبحت قاب قوسين من تحولها إلى ملك عقيم يتاورثه أعداؤها من الأمويين وأتباعهم مدت يدها إلى أمير المؤمنين عليه السلام تطلب مساعدته وتناشده إنقاذها مما هي فيه وما ينتظرها من مصير. فكان لزاما عليه الإستجابة لطلبها وإنقاذها من المخطط الأموي.

فكانت بيعته بيعة شعبية شارك فيها غالبية المسلمين من جميع المستويات والطبقات بما في ذلك عدد كبير من أصحاب المراكز الإجتماعية والإقتصادية. بيعة شعبية لم يحصل على مثلها من سبقه من الخلفاء. يروي

الطبري بأن الإمام عليه السلام بايعه كل من كان موجودا في المسجد بما في ذلك الذين لم يرغبوا يوما في أن يروا عليا خليفة عليهم. بعضهم بايعه لأنهم ما زالوا ملتزمين بما عاهدوا عليه الله ورسوله يوم الغدير وبعضهم بايعه لأنهم كانوا يعيشون حالة ذهول لمقتل عثمان ويتخوفون على مصير الخلافة بعده وبايعه البعض الآخر لخوفهم من إنقضاض بني أمية على الخلافة وبايعه آخرون للتكفير عن أخطائهم السابقة عندما فضّلوا غيره عليه ولم يجدوا ممن فضّلوه على الإمام سوى النكران والصدود وخيبة الظن. تعددت أسباب المبايعة ولكنها كانت مبايعة شعبية عامة ولم يتخلف عنها إلا قلة قليلة طبع الله على قلبها فأنساها ذكر الله سبحانه وتعالى وبيان رسوله صلى الله عليه وآله وسلّم.

من جملة من تخلّف عن بيعته عدد من الصحابة، يعدون على أطراف الأصابع، وهم الذين ما زالوا يتخوفون على الخلافة من صرامة علي وإلتزامه بالحق و القسط. كما تخلّف عن بيعته بعض ولاة عثمان خاصة أولئك الذين علموا مسبقا بأن عليا لن يبقيهم في مناصبهم وأنه سوف لن تأخذه في الله لومة لائم. ولم يكن ذلك بالأمر المفاجئ للإمام ولا بالجديد أو غير المتوقع. فهو يعلم مواقف القوم من نهجه وعدله وسبق وأن أعلن وذكّر من بايعه بسياسته وبرنامج عمل حكومته. لذلك رأى أن عدم مبايعة أولئك النفر من الناس حق لهم لا يجب أن يسلبه أحد منهم.

بل ذهب إلى أكثر من ذلك. تحدث بنفسه إلى معارضيه وطمأنهم إلى أن عدم مبايعتهم له لن يُنقصهم حقوقهم ولن يُحرمهم مما هم أهل له. ولما رأوا ذلك منه ذهب بعضهم إلى أمير المؤمنين وقالوا له إن معارضتهم بيعته لا تعني بحال من الأحوال مقاتلته أو مواجهته وذّكر بعضهم الإمام بمعارضة الإمام لمن سبقه من الخلفاء قائلين له بأن معارضتهم لن تختلف عن معارضته لمن سبقه من الخلفاء.

من المعارضين، بل هو زعيمهم، كان سعد بن أبي وقاص. رفض أن يبايع الإمام ولكنه ذهب إلى الإمام وقال له: «و الله ما عليك مني بأس.» فأجابه الإمام بأن قراره حق له وهو مسؤول عنه أمام الله وما من أحد له الحق في أن يجبره على طاعة من يرغب في طاعته.

من المعرضين أيضا عبد الله بن عمر عن الذي خاطبه طلحه طالبا منه ضمانا بأن لا يثور على أمير المؤمنين ولا يُحّشد ويوّلب الناس عليه ولا يحاول عرقلة الإجراءات التي يتخذها الخليفة. فما كان من أمير المؤمنين إلا أن قال: دعه، فأنا كفيله. وهكذا فعل الإمام مع كثير ممن رفضوا مبايعته. رفض أن يعاقبوا أو حتى يعاتبوا على موقفهم.

على أن ذلك الوضع الشفّاف والصريح والواضح لم ينل قبول مجموعة من المسلمين فأعلونها معارضة عسكرية ضد الإمام. وفي الواقع معارضتهم كانت لأسلوب حكم الإمام ونظامه وليس لشخصه. معارضتهم لعدل الإمام وخاصة فيما يتعلق بتوزيع الحصص ومساواته بين المسلمين ومراقبته الدقيقة والصارمة لممثليه وولاة الأمصار والتي أدت في الكثير من الأحيان إلى عزلهم واستبدالهم بمن هو أنسب وأجدر وأحق منهم بتلك المناصب.

في خطبته المعروفة بالشقشقية يصف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حال المسلمين عند بيعته قائلا: «إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ الْقَوْمِ، نَافِجاً حِضْنَيْهِ بَيْنَ نَثِيلِه وَمُعْتَلَفِه، وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اللهِ خَضْمَ الْإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ، إِلَى أَنِ انْتَكَثَ عَلَيْهِ فَتْلُهُ، وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وَكَبَتْ بِهِ بِطْنَتُهُ. فَمَا رَاعَنِي إِلاَّ وَالنَّاسُ إِلَيَّ كَعُرْفِ الضَّبُعِ، يَنْثَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِب، حَتَّى لَقَدْ وُطِىءَ الْحَسَنَانِ، وَشُقَّ عِطْفَايَ، مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ الْغَنَمِ. فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ نَكَثَتْ طَائِفَةٌ، وَمَرَقَتْ أُخْرَى، وَفَسَقَ (وقسط) آخَرُونَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ

للْمُتَّقِينَ﴾، بَلَى! وَاللهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا، وَلكِنَّهُمْ حَلِيَتَ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ، وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُهَا! أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَوْلاَ حُضُورُ الْحَاضِرِ، وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَمَا أَخَذَ اللهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَلاَّ يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ، وَلا سَغَبِ مَظْلُومٍ، لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا، وَلأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ!»

الشمعة السابعة والثلاثون
خُص بقتال المارقين والناكثين والقاسطين

روى الحاكم في المستدرك عن أبي أيوب الأنصاري أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم أخبر المسلمين بأنهم سيحاربون المارقين والناكثين والقاسطين وأن أبا أيوب الأنصاري سأل رسول الله: «مع من نقاتل هؤلاء الأقوام يا رسول الله؟» فأجابه الرسول: «مع علي بن أبي طالب.» نفس الرواية نقلها ابي سعيد الخدري وغيره من الرواة.

بعد قتل عثمان تحققت نبوءة الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم. فلما بويع علي بن أبي طالب أعلن معسكران، لا رابط بينهما، وقوفهما ضد الإمام وتصميمهما انتزاع الخلافة منه قسرا. معسكر كان بقيادة معاوية بن أبي سفيان والآخر كان بقيادة أم المؤمنين عائشة (رض). ومع أن المعسكرين بعيدان عن بعضهما البعض فكريا وأيدلوجيا وأهدافا وحتى ثقافيا وعقائديا، إلا أن وحدة الخصم والهدف جمعت بينهما.

فمعاوية كان يرى في علي نهاية لأحلامه الأموية وقبر لمشاريعه السياسية. أما أم المؤمنين فمعروف عنها عدم حبها لعلي بن أبي طالب، حتى على حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم حيث أخذت الغيرة منها مأخذها فإتهمت عليا مرات كثيرة بإستحواذه، هوو زوجته فاطمة الزهراء عليهما السلام، على قلب زوجها الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم. يروي الشيخ النسائي في كتابه خصائص أمير المؤمنين عن النعمان بن بشير أنه قال: إستأذن أبو بكر

على النبي صلى الله عليه وآله وسلّم فسمع صوت ابنته عائشة عاليا وهي تقول للرسول: لقد علمت أن عليا أحب إليك مني ومن أبي. فأهوى (أبوبكر) لها ليلطمها وقال لها: يا بنت فلانة أراك ترفعين صوتك على رسول الله؟ فأمسكه رسول الله وخرج أبوبكر مغضبا (على إبنته).»

كذلك نقل كتاب السير الكثير من الوقائع والأحاديث التي بينت عدم حب عائشة لعلي، ذكرنا بعضها وسنذكر البعض الآخر في مواضع اخرى من هذا العمل. عدم الحب الناتج عن الغيرة الشديدة تحول بمرور الزمن الى كره شديد. ذلك الكره دفعها إلى الوقوف ضد علي بن ابي طالب والإستعداد لمواجهته عسكريا غير مبالية بمغبة ونتائج محاربته وقتاله.

يذكر تاريخ بن الأثير بأنه لما بويع الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام كانت أم المؤمنين عائشة خارج المدينة. في طريق عودتها إلتقت أحد أخوالها وهو عبيد الله بن أبي سلمة فسألته عن أحوال المدينة وهل قاموا بعمل ما ضد عثمان، الذي كانت تنادي بعزله طوعا أو كرها وتنادي في القوم «إقتلوا نعثلا فقد كفر.» فأجابها بما أراحها قائلا: لقد قتل عثمان. حمدت الله على ذلك الخبر ثم سألت عبيد الله: وما صنع الناس بعده؟ فأجابها: إجتمعوا على بيعة علي بن أبي طالب. فقالت: ليت هذه إنطبقت على هذه (وأشارت بيدها إلى السماء والأرض)...ردوني إلى مكة.

سرعان ما غيّرت موقفها من عثمان من موقف الفرح بموته إلى المتأسف والمتألم والحزين لفقده. وكذلك غيّرت رأيها من كون عثمان ظالما إلى كونه مظلوما سُفك دمه بغير وجه حق. وغيرت مقولتها "إقتلوا نعثلا فقد كفر" الى "قتل و الله عثمان مظلوما، ألا من طالب بدم عثمان." و لما وصلت إلى مكة أخذت تحرض الناس على قتال علي و المطالبة بدم عثمان، متهمة عليا بقتله، بعد أن كانت الوحيدة التي طالبت بقتل عثمان.

ذهب إليها بعض كبار الصحابة يطلبون منها أن تعدل عما هي فيه مذكرينها بأنها أم المؤمنين وأن علي بن أبي طالب أخو رسول الله وأنه هو من تعرف قربا وقرابة ومحبة من رسول الله وأنه أصبح ولي دماء المسلمين فمن الأحرى أن يكون هو المسؤول عن معاقبة قتلة عثمان وليس هي وأن مكة بقعة طاهرة من دخلها كان آمنا ولا يجوز إستخدامها لتأليب الناس على بعضهم البعض وأن هناك من يتربص شرا بالإسلام وسيستفيد مما تقوم به. وما كانت أم المؤمنين بحاجة للتذكير والإفهام فهي تعلم كل تلك الحقائق بل واكثر مما علموا ولكن كرهها لعلي الناتج عن الغيرة النسوية أنساها كل تلك الحقائق. فأصرت على موقفها واستمرت في تحريض الناس على قتال أمير المؤمنين.

وما كانت أم المؤمنين لتعجز في العثور على الناصر والداعم والملبي لدعوتها. فكان أول الملبين لدعوتها عبدالله بن عامر الحضرمي وكان واليا على مكة من قبل عثمان وهو أموي المشرب والهوى. فأخذ يجمع الناس حولها معتبرا نفسه أنه «أول طالب بدم عثمان» كما كان يدعي. وأرسل عبد الله رسلا إلى المدينة والقرى المجاورة يخبرهم بالأمر ويحثهم على اللحاق بمعسكر أم المؤمنين. كما أرسل رسلا إلى الشام لتخبر معاوية بالأمر وتستطلع رأيه.

لما سمع وجهاء المدينة بما تقوم به أم المؤمنين من حملات ضد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وحشدها للجيش واستعدادها للحرب جاؤوا الى الإمام علي يستشيرونه في الأمر و يطلبون وأد الفتنة في مهدها قبل ان يتفاقم الأمر وتتعقد الأمور.

كانت لديهم من المقدرة ما يكفي لإفشال خطط أم المؤمنين ولكنهم لا يستطيعون القيام بعمل من دون موافقة قائدهم وزعيمهم وإمامهم. لذلك لجؤوا اليه يستشيرونه ويضعون انفسهم وقدراتهم تحت تصرفه. ولم يحتاج الإمام الى شرح لما كان يحدث في مكة فلقد سمع وعرف به قبل ان يسمعوا

و عرفه قبل ان يعرفوا. لذلك هوّن عليهم الأمر وقال لهم لا عليكم أنا كفيل بذلك الأمر ولي من الوسائل والطرق ما أجعل أم المؤمنين تعدل عن رأيها فهي إنما غُرر بها. كما بين لهم بأن الخطر الحقيقي هو ذلك القادم من ناحية الشام، يعني بذلك معاوية بن أبي سفيان، وليس من مكة،

نال رد الإمام إستحسان كل المسلمين ما عدا شخصين – طلحة و الزبير – اللذان رأيا في قيام أم المؤمنين بثورة ضد الإمام وسيلة لتحقيق مآربهما وأطماعهما. فبالرغم من أنهما كانا أول من بايع وأصر على بيعة الإمام أمير المؤمنين، إلا أن الحقيقة هي انهما عملا ذلك لعلمهما بأنهما لا يستطيعان فعل شيء غيره خاصة بعدما رغبت معظم الناس في الإمام. فأرادا أن ينظر الناس إليهما على أنهما أول من بايع الإمام لكي لا تتأثر سمعتهما في المجتمع. أما الآن وبعد أن قامت أم المؤمنين ضد علي فقد فُتح الباب أمامها ليظهرا نواياهما الحقيقية ورغبتهما في عدم وصول الخلافة إلى البيت العلوي.

أخذا يجتمعان سرا ويخططان لما يرغبان القيام به وإتفقا على أن يلتحقا بمعسكر أم المؤمنين ويدعمانها ويحثانها على الإستمرار و الإستعجال في ثورتها، وقطع الطريق على أمير المؤمنين الراغب في إحتواء الأمر. خافا أن يتمكن الإمام من تحقيق هدفه، إن ترك الأمر لعامل الوقت، فأسرعا في الخروج إلى مكة بحجة أنهما يريدان العمرة.

وصلا إلى مكة وإجتمعا بأم المؤمنين وعرضا عليها خدماتهما. فلامتهما على مبايعتهما لعلي ابن أبي طالب، فقالا لها إنما بايعاه كرها وغصبا. فقبلت عذرهما.

وجاءت رسل عبدالله بن عامر الحضرمي إلى اليمن والبصرة ودمشق بما يشتهي ويريد. فهذا يعلى بن أمية عامل عثمان على اليمن، بعدما سمع بأن

عبيد الله بن العباس في طريقه إلى اليمن ليحل محله، قام بنهب ما كان في حوزته في بيت مال المسلمين وارسله إلى مكة ووضع ما نهب من أموال المسلمين تحت تصرف الحضرمي.

ثم جاء عامل عثمان على البصرة بمثل ما جاء به يعلى، بعد أن نهب هو الآخر ما في عهدته من بيت مال المسلمين. كما أرسل معاوية مالا وجمالا وعتادا إلى معسكر أم المؤمنين وطلب من القائمين على ذلك المعسكر موافاته بما يحتاجونه من دعم ومساندة. كما أرسل والي حمص أيضا بدعم مماثل. وأصبح لدى المعسكر ميزانية وافرة وعتاد و إبل و كل ما يحتاجه لشن الحرب.

لما توفر الجانب المادي والمددي للمعسكر جلس أقطابه يتباحثون في الخطوات المقبلة مثل الشعار الذي سيرفعونه ويحاربون من أجله و تحته، ومن يتولى القيادة ومن أين تبدأ الحملة العسكرية وكيف. فتوصلوا إلى أن يكون الشعار هو المطالبة بدم عثمان. ولما وصلوا إلى موضوع القيادة دفعها كل واحد لصاحبه خوفا من تبعات مسؤوليتها. وإتفقوا في الأخير على أن تكون القيادة بيد أم المؤمنين بحجة انها افضل من يجمع الناس لما لها من إحترام بين المسلمين كونها زوجة نبيهم وأم لهم جميعا.

جاؤوا الى عائشة واخبروها بما اتفقوا عليه من توليتها قيادة الجيش لأنه لا يصح لأحدهم ان يتقدم عليها. انطلت عليها حيلتهم وقبلت ما اتفقوا عليه. فاخبروها بأنهم اتفقوا ايضا على ان تكون القاعدة التي ينطلقون منها هي البصرة لما تتمتع به من حب لأم المؤمنين. قبلت ايضا بذلك الإتفاق فتحرك الجيش بقيادة أم المؤمنين عائشة إلى البصرة.

في الطريق إلى البصرة يُظهر الثعلب الأموي مكره وحقيقة أمره ونواياه الخبيثه. لم يقدم معاوية الدعم إلى أم المؤمنين حبا فيها ولا تأييدا لما تنادي

وتطالب به، وإنما لأنه رأى فيها وفي معسكرها من يكفيه أمر الإمام. فكما كان عرضه السابق لعلي، بعد بيعة السقيفة، بدعمه بالرجال والمال لقتال أبي بكر وعمر، كان دعمه الآن لأم المؤمنين. الفرق أن الإمام وعى قصد معاوية ونيته فرفض طلبه و لكن عائشة شربت الطعم.

ما إن إبتعد المعسكر عن مكة وأصبح في وسط البر حتى إلتفت سعيد بن العاص إلى مروان بن الحكم وقال له: «إلى أين تذهبون وتتركون ثاركم على أعجاز الإبل (يعني عائشة وطلحة والزبير)؟ إقتلوهم وإرجعوا إلى دياركم وإتهموا علي بن أبي طالب بدمهم فيصبح مطالبا بدم عثمان ودمائهم.» فقال له مروان بن الحكم: «ذلك أمر سابق لأوانه. دع قتلهم لما بعد. فليقاتلوا علي بن أبي طالب. فإن قتلوه قتلناهم بعده، وإن قتلهم قاتلناه بعدهم وطالبناه بدمائهم.» إستحسن سعيد بن العاص الرأي وواصلا السير نحو البصرة.

أما ما كان من الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فإنه لما سمع بغدر طلحة والزبير بعث إليهما من يذكرهما ببيعتهما له وإصرارهما على تلك البيعة. وأرسل مع الرسول كتابا يقول فيه: «أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ عَلِمْتُمَا، وَإِنْ كَتَمْتُمَا، أَنِّي لَمْ أُرِدِ النَّاسَ حَتَّى أَرَادُونِي، وَلَمْ أُبَايِعْهُمْ حَتَّى بَايَعُونِي، وَإِنَّكُمَا مِمَّنْ أَرَادَنِي وَبَايَعَنِي، وَإِنَّ العَامَّةَ لَمْ تُبَايِعْنِي لِسُلْطَانٍ غَاصِبٍ، وَلاَ لِعَرَضٍ حَاضِرٍ، فَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي طَائِعَيْنِ، فارْجِعَا وَتُوبَا إِلَى اللهِ مِنْ قَرِيبٍ، وَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي كَارِهَيْنِ (كما كانوا يدعون)، فَقَدْ جَعَلْتُمَا لِي عَلَيْكُمَا السَّبِيلَ بِإِظْهَارِكُمَا الطَّاعَةَ، وَإِسْرَارِكُمَا الْمَعْصِيَةَ، وَلَعَمْرِي مَا كُنْتُمَا بِأَحَقِّ الْمُهَاجِرِينَ بِالتَّقِيَّةِ وَالْكِتْمَانِ، وَإِنَّ دَفْعَكُمَا هذَا الأَمْرَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَدْخُلاَ فِيهِ، كَانَ أَوْسَعَ عَلَيْكُمَا مِنْ خُرُوجِكُمَا مِنْهُ، بَعْدَ إِقْرَارِكُمَا بِهِ. وَقَدْ زَعَمْتُمَا أَنِّي قَتَلْتُ عُثْمانَ، فَبَيْنِي وَبَيْنَكُمَا مَنْ تَخَلَّفَ عَنِّي وَعَنْكُمَا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ يُلْزَمُ كُلُّ امْرِىءٍ بِقَدْرِ مَا احْتَمَلَ. فَارْجِعَا أَيُّهَا الشَّيْخَانِ عَنْ رَأْيِكُمَا، فَإِنَّ الآنَ أَعْظَمَ أَمْرِكُمَا الْعَارُ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَجْتَمِعَ الْعَارُ وَالنَّارُ، السَّلاَمُ.»

لما وصل رسول الإمام علي عليه السلام إليهما وعلما ما جاء به وما الذي يحمل معه أعرضا عنه ورفضا حتى إستلام كتاب الإمام وقراءته. فما كان من الرسول إلا أن رجع إلى المدينة وأخبر الإمام بما حدث. وفي الطريق إلى المدينة إلتقى مبعوث الإمام بأبي موسى الأشعري فسأله عن الوضع فأخبره بتفاصيله ثم توادعا وواصل مبعوث الإمام طريقه إلى المدينة.

إلتقى أمير المؤمنين عليه السلام بمبعوثه إلى طلحة والزبير فأخبره بما كان منهما. شكره الإمام وعرف بأن القوم قد إستحوذ عليهم شيطانهم وأن القتال أصبح محتوما. فحزّ ذلك في نفسه، لا خوفا من القتال الذي هو سيده وأميره ولكن لوجود أم المؤمنين في ذلك المعسكر. لذلك رأى أن يكتب كتابا إلى واليه على البصرة، عثمان بن حنيف يأمره بأن يرى ما هو طلب القوم فإن كان طلبهم الخلافة فلن يكون ذلك لهم لأن ذلك أمر ليس من حقه التصرف فيه، وإن كانوا يريدون غير ذلك فليبعث له بما يريدون وهو مستعد للحوار معهم. وقال في كتابه: «إن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا فيه.»

أما جيش أم المؤمنين فقد واصل سيره نحو البصرة. وبعد أيام من المسير وصلوا إلى واحة صغيرة بها ماء وعشب وظلال. فقرروا النزول فيها للإستراحة ومن ثم مواصلة المسير. فبينما هم ينزلون أمتعتهم من على الجمال وإذا بكلاب تنبحهم. إرتعبت أم المؤمنين من الوضع لا خوفا من الكلاب وإنما لحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم. فسألت عن إسم المكان فقيل لها إنه ماء الحوأب. فتذكرت حديث رسول الله عندما سأل زوجاته: «يا ليت شعري أيتكن صاحبة الجمل الأذنب تنبحها كلاب الحوأب فتكون ناكبة عن الصراط.» تذكرت ذلك الحديث فصرخت: «ردوني، ردوني.» فلما رأى قادة الجيش تصميم أم المؤمنين على الرجوع إلى المدينة وأن وحدتهم وقيادتهم في خطر ذهبوا إلى أم المؤمنين وسألوها عن السبب فروت

لهم الحديث فأكّدوا لها بأن ما سمعته ما هو إلا ظن من الذين إدعوا بأنها ماء الحوأب وأنها بئر شبيهة ببئر الحوأب وليست نفسها وأن بئر الحوأب تقع على طريق آخر غير هذا الذي يؤدي إلى البصرة. ثم احضروا من شهد زورا بذلك. فهدأ روع أم المؤمنين ومرة أخرى شربت طعم آخر. فإرتاحوا جميعا في المكان ثم واصلوا سيرهم نحو البصرة.

بعد أيام وصل موكب أم المؤمنين إلى البصرة وإستقبل البصريون أم المؤمنين بالترحاب وبما يليق بها كزوجة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم. لم يكن البصريون، الموالون لعلي بن أبي طالب عليه السلام يعلمون بأهداف أم المؤمنين ولا الغرض الحقيقي من زيارتها ولا إرتابوا في أمرها. لذلك فتحوا لها قلوبهم قبل آذانهم وبيوتهم وأخذوا يكرمونها ويُكرمون كل من كان في موكبها، حبا لرسول الله وحفاوة بزوجته.

سمع عثمان بن حنيف بوصول أم المؤمنين ومن معها إلى البصرة، وقد وصله قبل ذلك كتاب أمير المؤمنين يخبره بالأمر ويأمره بالتحاور معهم وأن يبعث إليه بما يطلبون. فرأى أن يمهل أم المؤمنين ومن معها حتى يستريحوا من عناء السفر ثم يسألهم بعد ذلك عن مطالبهم.

بعد أن إستقر بها وبجيشها المقام إستشارت أم المؤمنين طلحة في الخطوة القادمة فإقترح عليها أن تستعمل عنصر المفاجأه وأن تقوم بتنفيذ الخطة التي إتفقوا عليها قبل أن يعلم البصريون بحقيقة هدفهم وما جاؤوا من أجله فيحولون دون ما قدموا من أجله. استحسنت رأي طلحة وتبنته وامرت بإتخاذ الخطوات اللازمة لتنفيذه.

وفي ليلة من الليالي وقبل السحر بساعات وبينما البصريون نيام قام جماعة من جندها ودخلوا المسجد الرئيسي في المدينة واختبأوا فيه. وقبل

الفجر بقليل جاء والي الإمام أمير المؤمنين على البصرة، عثمان بن حنيف، الى السمجد، على عادته، يريد إمامة الناس للصلاة. ما إن توسط المسجد حتى خرج جند أم المؤمنين من مخابئهم وهجموا على عثمان بن حنيف واعتقلوه وأخرجوه من المسجد، واعتقلوا كذلك عددا من حرسه و وزرائه وإحتلوا مقره واستولوا على بيت مال المسلمين ومخازن المؤونة والسلاح. ثم عملوا السيف في مساعديه وذبحوهم كما تذبح النعاج علنا وعلى رؤوس الأشهاد ليرسلوا رسالة صريحة الى أهالي البصرة مفادها بأن ذلك سيكون مصير كل من يقف في وجههم. ووصلت الرسالة وفهمها أهالي البصرة وقبلها غالبيتهم.

وصل خبر أحداث البصرة إلى أمير المؤمنين عليه السلام وعلم أن معارضيه قد ركبوا رؤوسهم ولن يثنيهم عن ما هم فيه سوى القوة التي اعتقدوا أن الإمام لم يعد يملكها، وهو إنطباع خاطئ خلّفته قراءة غير صحيحة من قبلهم لتغليب الإمام الحلول السلمية على الحلول العسكرية. فأخذ القوم يعيثون فسادا وقتلا في أهل البصرة فيعتدون على أهلها ويسلبون خيراتها.

عندها قرر الإمام عليه السلام أن يؤخر مواجهته مع معاوية لحين إنتهائه من هذه المشكلة الداخلية. فبالإضافة إلى كون ما يحدث هو زعزعة للأمن الداخلي ولا يمكن من الناحية العسكرية والإستراتيجية الخروج إلى حرب في وقت يعاني فيه الوضع الداخلي من عدم الإستقرار، بالإضافة الى ذلك فإن تلك القلاقل تحدث في أهم بقعة في الدولة الإسلامية وهي العراق الذي كان حينها يمثل ثقلا إقتصاديا وسياسيا وإستراتيجيا مهما، تفوق أهميته أهمية الشام وباقي الأقطار الإسلامية.

لذلك حشد الإمام جيشه وخرج به للعراق ليضع حدا لتلك القلاقل ويوقف التعدي على حرمة الخلافة ومكانتها وليقطع الطريق على الطامعين والمتربصين بالإسلام والدولة الإسلامية.

لما وصل الى ذي قار إلتقى بعامله على البصرة عثمان بن حنيف فسلّم عليه وهو مطأطئ الرأس. فسأله الإمام عن ما حل به فقال له: «يا أمير المؤمنين بعثتني ذا لحية ورجعت إليك أمردا.» واخبره بأن أتباع أم المؤمنين إعتقلوه وعذبوه ونتفوا شعر لحيته بعد نهبوا ما بيده من مال وأمانات للمسلمين. ثم قيض الله له رجلا أنقذه منهم وهرّبه من سجنهم. فقال له أمير المؤمنين: «أصبت أجرا وخيرا. إن الناس وليهم قبلي رجلان فعملا بكتاب الله ثم وليهم ثالث فقالوا وفعلوا ثم بايعوني وبايعني طلحة والزبير ثم نكثا بيعتي وألّبا الناس علي. ومن العجب إنقيادهما لأبي بكر وعمر (مع عدم مبايعتهما لهما) وخلافهما علي مع بيعتهما لي. والله إنهما ليعلمان اني لست رجلا ممن قد مضى. اللهم فإحلل ما عقدا ولا تبرم ما أحكما في أنفسهما وأرهما المساءة فيما قد عملا.»

بعد أن طُرد عثمان بن حنيف من البصرة وإستتب الأمر لأم المؤمنين بعثت إلى الكوفة وباقي مدن العراق تحرضهم على الإمام علي وتطلب منهم مساعدتها في الطلب بدم عثمان. وكان والي الكوفة حينها أبو موسى الأشعري. فلما وصله كتاب أم المؤمنين وكان قد وصله قبل ذلك كتاب أمير المؤمنين أخذ يقارن بين الوقوف مع أم المؤمنين أو مع أمير المؤمنين فرأى أن وقوفه مع أم المؤمنين يضمن له ما يخطط له ويريد وأنها، إن فازت، ستكون أهون عليه من الإمام أمير المؤمنين الذي يحاسبه على كل شاردة وواردة. ولكنه في الوقت نفسه لا يريد أن يندفع قبل أن يتأكد بأن إمكانية إنتصارها على أمير المؤمنين باتت مؤكدة. لذلك قرر أن يتريث في إتخاذ قراره حتى يرى لمن الرجحان.

لكن الوضع حوله لم يمكنه من ذلك. فعندما قرأ أهل الكوفة كتب الإمام أمير المؤمنين أخذوا يعدون العدة لنصرته والوقوف معه. وبالطبع لا يمكنه السكوت على ذلك الوضع. فرأى أن يتحرك بسرعة قبل أن يفلت الزمام من يده. فأخذ يخطب في الناس محذرا إياهم من مغبة نصرة الإمام مدعيا

بأنه سمع رسول الله يقول: «إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي والماشي خير من الراكب.» وطالبهم قائلا: «فأغمدوا السيوف وأنصلوا الأسنة وإقطعوا الأوتار وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلي هذه الفتنة.»

كان أبو موسى الأشعري يمني النفس بأن ينجح في إقناع أهل الكوفة بالقعود عن نصرة الإمام وهم الذين إعتمد الإمام عليهم إعتمادا كبيرا فلم يأت من المدينة إلا بجيش بسيط على أمل أن يلتحق به الكوفيون. لذلك رأى أبو موسى أن نجاحه في فصل أهل الكوفة عن الإمام سيؤثر على جيش الإمام وفي نتيجة الحرب وأنه سيلحق الهزيمة بالإمام وجيشه. فأخذ يحرض الكوفيين ضد الإمام ويطلب منهم عدم تلبية طلبه.

فات أبو موسى الأشعري أن الكثير من أعيان الكوفة ووجهائها هم من أقوى أتباع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كمالك الأشتر ومحمد بن أبي بكر وميثم التمار وغيرهم. هؤلاء ما زالوا متمسكين ببيعتهم لعلي بن أبي طالب في غدير خم ومازال كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم في علي يُطرب آذانهم وأن عقولهم ترفض تضليل وأباطيل أصحاب المطامع كأبي موسى الأشعري وغيره. كما أنهم على درجة من العلم والمعرفة لم ولن يصل إليها أبو موسى الأشعري.

لما سمع هؤلاء إفتراءات أبي موسى الأشعري وتأليبه الناس على أمير المؤمنين نزلوا إلى مسجد الكوفة والتقوا بقادة المجتمع الكوفي وأخذوا يفندون إدعاءات أبي موسى الأشعري،شارحين للناس حقيقة أهدافه وأحلامه ومطامعه، وتحدوه بأن يقارعههم الحجة ويناظرهم علنا أمام الناس. فما كان من الأشعري إلا أن لزم داره وأخذ يعتمد على مخبريه ومن عينهم عينا له.

علم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بما تتعرض له الكوفة من خيانة من قبل واليه هناك، فقرر أن يزيحه من منصبه وأرسل له كتابا مع هاشم بن عتبة يطلب منه التنحي ويقول فيه: «مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْس. أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ قَوْلٌ هُوَ لَكَ وَعَلَيْكَ، فإِذَا قَدِمَ عَلَيْكَ رَسُولِي فارْفَعْ ذَيْلَكَ، واشْدُدْ مِئْزَرَكَ، واخْرُجْ مِنْ جُحْرِكَ، وَانْدُبْ مَنْ مَعَكَ، فَإِنْ حَقَّقْتَ فَانْفُذْ، وَإِنْ تَفَشَّلْتَ فَابْعُدْ! وَايْمُ اللهِ لَتُؤْتَيَنَّ حَيْثُ أَنْتَ، وَلاَ تُتْرَكُ حَتَّى يُخْلَطَ زُبْدُكَ بِخَاثِرِكَ، وَذَائِبُكَ بِجَامِدِكَ، وَحَتَّى تُعْجَلَ عَنْ قِعْدَتِكَ، وَتَحْذَرَ مِنْ أَمَامِكَ كَحَذَرِكَ مِنْ خَلْفِكَ، وَمَا هِيَ بِالْهُوَيْنَى الَّتي تَرْجُو، وَلكِنَّهَا الدَّاهِيَةُ الْكُبْرَى، يُرْكَبُ جَمَلُهَا، وَيُذَلُّ صَعْبُهَا، وَيُسَهَّلُ جَبَلُهَا. فَاعْقِلْ عَقْلَكَ، وَامْلِكْ أَمْرَكَ، وَخُذْ نَصِيبَكَ وَحَظَّكَ، فَإِنْ كَرِهْتَ فَتَنَحَّ إِلَى غَيْرِ رَحْبٍ وَلاَ فِي نَجَاة، فَبِالْحَرِيِّ لَتُكْفَيَنَّ وَأَنْتَ نَائِم، حَتَّى لاَ يُقَالَ: أَيْنَ فُلاَنٌ؟ وَاللهِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مَعَ مُحِقّ، وَمَا أُبَالِي مَا صَنَعَ الْمُلْحِدُونَ، وَالسَّلاَمُ.»

سلّم هاشم بن عتبة كتاب الإمام إلى أبي موسى فلما قرأه إزداد تصلبا ورفض الإنصياع إلى أمر أمير المؤمنين. فبعث هاشم إلى أمير المؤمنين يخبره بأمر أبي موسى. فبعث الإمام أمير المؤمنين الإمام الحسن عليه السلام وعمار بن ياسر وقرظة بن كعب وبعث معهم كتابا إلى أبي موسى يقول فيه: «إني بعثت الحسن وعمارا يستنفران الناس وبعثت قرظة بن كعب واليا على الكوفة. فإعتزل أمرنا مذموما مدحورا. إن لم تفعل فقد أمرته ان ينابذك فإن نابذته فظفر بك فلا تلوم إلا نفسك الهالكة.» ولما وصل الوفد وقرأ أبو موسى كتاب أمير المؤمنين عرف أن أمر تنحيته واجب النفاذ فخير له أن يتنحى سلما من أن يحارب فيعزل قسرا وربما يقتل. فأخذ متاعه وترك داره وهرب من الكوفة، هروب الجبناء والمنهزمين.

بعد طرد أبو موسى إستطاع الأمام الحسن وعمار ومالك وقرظة حشد ما يقارب من إثني عشر ألف رجل من الكوفة، تم تسليحهم وتزويدهم بما

يحتاجون من أسلحة وعتاد ومؤن ثم تم إرسالهم إلى البصرة للإنظمام و الإلتحاق بجيش الأمام.

على مشارف البصرة أمر الإمام أمير المؤمنين أصحابه بالنزول وحط الرحال. رأى بأن القوم و الرغم مما أعملوا من قتل وتعذيب وسرقات إلا أنهم، وكما تنبئ به هوياتهم على الأقل، مسلمين وقد يعودوا إلى رشدهم وعندها يكفي الله المسلمين شر القتال. لذلك رأى أن يرسل لهم شخصا لم يكن له دخل من قريب ولا بعيد بالأحداث والتطورات التي أدت إلى قتل عثمان. فأرسل إلى القعقاع بن عمرو وقال له إذهب إلى القوم وإعرض عليهم السلم والدخول في حوار تصان من خلاله دماء المسلمين. فذهب القعقاع إلى القوم وكان حكيما وعالما ومتحدثا وكان محبوبا من الجميع، بما فيهم معسكر أم المؤمنين. فجلس معهم يعرض عليهم إقتراحات الإمام أمير المؤمنين فرأى منهم ميلا للسلم، خاصة بعدما علم الزبير بأن عمار بن ياسر في جيش أمير المؤمنين وهو الذي سمع من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يقول لعمّار: «ابشر يا عمّار، تقتلك الفئة الباغية وآخر شرابك من الدنيا ضياح من لبن.» فقال الزبير: أصحيح أن عمّارا معهم؟ فقال له القعقاع: نعم.

خرج القعقاع من عند القوم ورجع إلى أمير المؤمنين وأخبره بما كان من أمر القوم وأنه لمس منهم قبولا بالسلم وأن مجموعة كبيرة منهم أخذوا يراجعون أنفسهم، خاصة لما علموا أن في الجيش عمّار بن ياسر والذي قال فيه الرسول أنه ستقتله الفئة الباغية فخشوا أن يُقتل عمّار في هذه الحرب ويكونون هم الفئة الباغية. إقترح القعقاع على الإمام أن يمهلهم حتى يراجعوا أنفسهم فلربما جاء الوقت بما يشتهي. إستحسن الإمام مشورة القعقاع وجزاه خيرا.

بقي المعسكران هادئان حتى ظن الناس أن المسألة في طريقها إلى الحل سلميا. وكان قادة المعسكرين يخرجون يطوفون حول معسكراتهم للإطمئنان

على الوضع. وفي إحدى جولات الإمام التفقدية إلتقى بالزبير الذي كان حينها هو الآخر يتفقد جيشه. فقال الإمام للزبير: «ما جاء بك؟» فقال له الزبير: «انت، ولا أراك لهذا الأمر أهلا بعد عثمان ولا أولى به منّا.» فقال له الأمام: «عجبا، لست لهذا الأمر أهلا بعد عثمان؟! قد كنا نعدّك من بني عبد المطلب (لأن أم الزبير صفية إبنة عبد المطلب) حتى بلغ ابنك ولد السوء ففرق بيننا وبينك. يا زبير اتطلب دم عثمان مني وانت قاتله؟ سلّط الله على اشدنا عليه اليوم ما يكره. يا زبير، اتذكر يوم مررت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم في بني غنم فنظر (الرسول) إلي فضحك وضحكتُ اليه فقلت أنت: لا يدع ابن ابي طالب زهوه. فقال لك رسول الله: انه ليس به زهو ولتقاتلنه وانت له ظالم.»

وقع كلام الإمام كالصاعقة على الزبير. فقد ذكره بحادثة كان قد نسيها أو أنساه إياها طمعه في الخلافة وحبه للسلطة والوجاهة. وما أعظمها وأجلها من حادثة. الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم يحذره من قتال الإمام لأن ذلك يعتبر ظلم ما بعده ظلم وخروج صريح عن الإسلام ومعصية لله ولرسوله. استجمع الزبير قواه العقلية واللفظية وقال: «اللهم نعم. لقد سمعت ذلك من رسول الله ولو تذكرت ذلك قبل خروجي من المدينة ما سرت مسيري هذا. والله لا أقاتلك أبدا.» وإفترقا على أن لا يحاربا بعضهما البعض.

في طريق عودته إلى معسكره حانت من الإمام إلتفاتة وإذا به يرى طلحة. فناداه طالبا منه المحادثة، طمعا في أن يحذو حذو صاحبه وبذلك تنتهي المشكلة ويعود الناس إلى منازلهم سالمين متحدين. أجابه طلحة إلى ذلك. فلما إلتقيا سأله الإمام عن سبب نكثه البيعة. فقال طلحة: «لم أكن أعلم بأنك الذي ألّبت الناس على عثمان.» فذّكره الأمام بأنه هو الذي كان يؤّلب الناس وأنه طلب من الإمام أكثر من مرة الوساطة بينه وبين عثمان وقد قام الإمام بذلك بالفعل. لكن طلحة أصّر على موقفه متعذرا بأنه قد قطع

على نفسه عهدا مع أم المؤمنين. فقال له الإمام بأن عهده معه وبيعته سبقت عهده لأم المؤمنين. لكن طلحة أصر على موقفه. ولما لم يغير طلحة موقفه قال له الإمام: «يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون ان الله هو الحق المبين. يا طلحة، تطلب بدم عثمان؟ فلعن الله قتلة عثمان. يا طلحة جئت بعرس رسول الله تقاتل بها وخبأت عرسك في البيت؟ اما بايعتني؟ حسبي الله ونعم الوكيل.»

رجع الإمام إلى معسكره بعد أن يئس من إمكانية إرجاع طلحة إلى الطريق الصحيح. وفي المعسكر قال له أحد المسؤولين عن مراقبة تحركات معسكر أم المؤمنين بأن القوم قد أخذوا إستعداداتهم وأنهم سيهجمون عمّا قريب. شكره الإمام على جهده وأمر أصحابه بأن لا يبدؤا القوم في القتال.

بينما الإمام يكلم أصحابه وإذا بسهام القوم تنهال كالمطر على معسكر الإمام. أخذ مصحفا وقال لأصحابه: «من يأخذ هذا المصحف ويذهب به إلى القوم يدعوهم إلى ما فيه، وهو مقتول.» علم بأن القوم لن يجيبوه إلا بالسهام لأن الشيطان قد تمكن منهم وجعلهم يعدون حلم الأمام عليهم وحرصه على حفظ دماء المسلمين عجزا منه عن القتال. فقام إليه فتى من معسكره وأعلن إستعداده للذهاب إلى القوم وتحمل المخاطر. شكره الإمام وأعطاه المصحف وامره ان يعرضه عليهم ويقول لهم: «الله الله في دمائنا ودمائكم فهذا كتاب الله بيننا وبينكم.» ففعل الفتى وكان جواب القوم رشقه بالسهام حتى أردوه قتيلا، تماما كما توقع الإمام.

نظر الأمام إلى صحبه وقال: «الآن حلّ قتالهم فهبوا رحمكم الله.» لقد صدق الله رسوله الرؤيا. فهاهم القاسطون والمارقون والناكثون يصرون على قتال الإمام، كما تنبأ رسول الله بذلك. فشن جيش الإمام هجوما صاعقا لم يتوقعه الطرف المقابل. أخذ أصحاب الإمام يتقدمون غير مبالين بجراحهم و

لا بعدد من يسقط قتيلا منهم وكأنهم السيل المنحدر من عال. ذهل أتباع أم المؤمنين وخاصة لما رأوا أن الإمام ما زال بقوته المعهودة وعزيمته القوية كرار غير فرار. فتيقنوا أن هلاكهم قادم لا محالة فأخذوا يهربون فرادى وجماعات وبعضهم يستسلم ويلتحق بجيش الإمام.

لما نظر قادة جيش أم المؤمنين ذلك أخذوا يشجعون أتباعهم على القتال موهميهم بأن النصر بات وشيكا وأن القوم يقاتلون بشراسة لأنه ليس أمامهم سوى ذلك. ولما لم يفلح ذلك في ثني الجنود عن الهروب من ساحة المعركة صعد طلحة على تلعة وخاطب القوم الفارين بأن أم المؤمنين في خطر حقيقي فماذا عساهم قائلين لرسول الله وقد تركوا زوجته فريدة وحيدة في المعركة.

بعد مقالة طلحة رجع بعضهم للقتال وإستمر الغالبية منهم في الهرب والفرار من الميدان. لكن حتى القلة القليلة التي رجعت لساحة المعركة ما لبثوا أن فروا عندما تيقنوا أن الموت والقتل هو مصيرهم إن بقوا في الساحة وأن بقائهم لن يحمي أم المؤمنين، خاصة بعد أن أصبحوا غير قادرين على حماية أنفسهم.

أصيب طلحة بسهم أصابه في مقتل فأسال دمه وضعف عن القتال. فلما رآه مروان على تلك الحالة وأنه يحاول الفرار من الميدان ناشدا النجاة خاف أن يفوته الرجل فينجو بنفسه. فرماه بسهم أرداه قتيلا.

أما الزبير فقد إعتزل القتال تنفيذا لوعده للإمام. فلما رأى إبنه ذلك أخذ يجبنه فقال لإبنه بأنه ليس به جبن ولكنه تذكر قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم له حول قتاله لعلي وقوله لعمّار بأنه سوف تقتله الفئة الباغية وبما أن عمّار في جيش الإمام فإنه يخاف أن يقتل فيصبح هو من الفئة الباغية. فقال له أما حديث الرسول فلا يدل على أن عمّار سيقتل في هذه الحرب وأنه ربما

يخرج منها سالما وأنه يقتل في حرب غير هذه الحرب. وأما قول الرسول له بأنه سيقاتل عليا وهو ظالم له فإن بإمكانه عدم قتال علي وترك أمره وأمر قتاله إلى غيره. أما بخصوص قسمه ووعده لعلي بأنه لن يقاتله فبإمكانه الحنث بذلك القسم ثم التكفير عن ذلك بعتق أحد غلمانه.

إستحسن الزبير مشورة إبنه عبدالله وعاد للمعركة. وتشاء الصدف أن يلتقي في المعركة بعمّار بن ياسر وجها بوجه. فأخذ عمّار يعترضه برمحه والزبير يهرب منه خوفا من أن يكون هو قاتله. ولما رأى الزبير أن عمّار مصمم على قتاله قال له الزبير: أتقتلني يا أبا اليقضان؟ فقال له عمّار: لا أرغب في ذلك يا أبا عبد الله، ولكنك وضعت نفسك في هذا الموضع، فأخرج من الحرب تسلم. ولأنه كان يخشى مقاتلة عمّار كما تقدم، هرب من المعركة ومن ثم من البصرة كلها عائدا إلى المدينة. وبعد خروجه من البصرة لقيه عمرو بن جرموز وكان بينهما أمر فتقاتلا حتى تمكن ابن جرموز من قتله.

لما رأت أم المؤمنين ما كان من أمر قائداها، طلحة والزبير، أسرعت إلى المعسكر واستلمت القيادة وأمرت أن توضع في هودج على جمل لها ضخم يسمى «عسكر» كما أمرت سائسه وهو من بني ضبة ان يدخل به المعركة. فلما رأى جيشها دخولها الميدان ثارت حميتهم وأخدوا يقاتلون دونها. فقاتلوا قتالا شديدا حتى سقط من الجانبين الكثير من القتلى والجرحى.

عندما رأى أمير المؤمنين عليه السلام ذلك أمر إبنه محمد بن الحنفية أن يحمل هو ومجموعته على الجمل فيردوه قتيلا وأمر محمد بن أبي بكر أن يكون في فرقة محمد بن الحنفية بحيث يتولى أمر أخته عندما يسقط الجمل حتى لا يصيبها أذى. حمل محمد بن الحنفية وفرقته على الجمل حتى تمكنوا من عقره وخرّ إلى الأرض يعج عجيجا مدويا لم يسمع مثله من قبل. وذهب محمد بن أبي بكر ومحمد بن الحنفية، ابن الإمام أمير المؤمنين، مباشرة

إلى أم المؤمنين وحملا هودجها وذهبا به إلى خارج ساحة المعركة. فلما رأى جنودها ذلك فروا هاربين، بعد أن أصبح قادتهم وزملاؤهم بين قتيل وجريح وأسير وفار. علموا أنهم خسروا المعركة وأن الطريق الوحيد أمامهم هو الفرار والنجاة بأرواحهم قبل أن يفقدوها. وخسر المارقون الذين مرقوا عن الإسلام والناكثون عهودهم وبيعتهم لعلي والقاسطون حربهم وصدقت نبؤة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم فيهم.

الشمعة الثامنة والثلاثون
إنتصاراته لا تزيده إلا إيمانا وإنسانية وسماحة

إنتهت المعركة، والتي عرفت بمعركة الجمل، ورد الله كيد الناكثين والمارقين والقاسطين في نحورهم وفرح المسلمون بنصر الله. وكان أول عمل قام به أمير المؤمنين بعد أن وضعت الحرب أوزارها هو الذهاب إلى أم المؤمنين للإطمئنان عليها. فلما قرب من الهودج سلّم على أم المؤمنين وقال لها: «كيف رأيت صنع الله؟ استنفرت الناس وقد فرّوا وألّبت بينهم حتى قتل بعضهم بعضا.» فأجابته: «يا إبن أبي طالب ملكت فاسمح، لنعم ما أبليت قومك.» فهدّأ من روعها وطمأنها وقال لها لا عليك أنت أنت مهما حصل مكانك مأمون وقدرك محفوظ .

أمر أمير المؤمنين عليه السلام محمد بن أبي بكر وأبناءه الحسن والحسين ومحمد أن يأخذوا أم المؤمنين عائشة إلى دار عبد الله بن خلف الخزاعي، وكانت من أفضل دور البصرة وأضخمها، وأن يُنّفذوا لها جميع طلباتها ويحسنوا وفادتها ويكونوا طوع أمرها. كما عيّن لها خادمات يقمن بخدمتها والعناية بها وحرسا يحرسونها ويسهرون على راحتها ويحفظونها من كيد الأمويين الذين كانت خطوتهم التالية هي الفتك بها وتحميل الإمام أمير المؤمنين دمها. كما أخذ يتفقد أحوالها بنفسه ويسأل عنها يوميا وكلما سمحت له الظروف بذلك.

ولما انتهت تبعات المعركة واستقرت الأحوال وأخذت أم المؤمنين راحتها واستقرت نفسيتها من هول ما حدث أرسلت الى الإمام علي تخبره برغبتها في

الرجوع إلى المدينة. فأجابها الإمام إلى ذلك على أن تترك له أمر تحديد اليوم والوقت الذي تسافر فيه والكيفية التي تسافر عليها. وكان عليه السلام يقصد من وراء ذلك إعطائه الفرصة لترتيب أمر سفرها وضمان أمنها وراحتها خلال السفر. ولم تكن أم المؤمنين بغافلة عن قصد الإمام، لذلك أحابته إلى ذلك ووافقته على ما طلب وأراد وتركت له أمر تحديد موعد السفر وترتيباته.

بعد يومين من طلبها جاء بنفسه إليها وأخبرها بأنه أصبح بإمكانها السفر متى شاءت ومن أجل أن يزرع الطمأنينة في قلبها أخبرها بأنه أشرف بنفسه على ترتيبات السفر آخذا في الإعتبار كل أمور السلامة والراحة التي تليق بزوجة الرسول وأم المؤمنين. لم تشك فيما قاله لها لعلمها بصدقه وإخلاصه وحرصه على رعاية كل من إنتسب الى بيت حبيبه وابن عمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فما بالك بزوجته وأم المؤمنين. فشكرته وأخبرته بأنها ترغب في السفر حالا إن كان ذلك ممكنا. فأمر أخاها محمد بن أبي بكر أن يرافقها وأمر مجموعة من الفرسان، إختارهم هو بنفسه، بمرافقتها وإطاعة أوامرها خلال السفر. فركبت هودجها وغادرت البصرة إلى المدينة.

في الطريق قام أخيها محمد بمحادثتها وعتابها على ما حصل منها كما بين لها حرص أمير المؤمنين على حمايتها وحماية من قامت بتجييشهم وأنه لو تُرك الأمر له لما سالت قطرة دم من دماء المسلمين. أحست بنبرة العتاب في حديث أخيها محمد فأرادت أن تغير الحديث وأن توقف مدحه لأمير المؤمنين فنظرت إليه وقالت له: «أما ترى ما فعل صاحبك؟» تعني بذلك أمير المؤمنين. فقال لها محمد: «ومالذي فعله سيدي ومولاي أمير المؤمنين؟» فقالت: «أنا زوجة رسول الله يرسل معي خادمة واحدة والباقي رجال أجناب؟ ماذا لو حدث حادث في الطريق لا سمح الله؟ كيف يكون أمري وسط هؤلاء الفرسان الأجانب؟» فقال لها محمد: «يا أختاه، ضعي ثقتك في الإمام. فلقد مكث أياما يهيء لك هذه القافلة ويعدها لك إعدادا جيدا بحيث توفر لك السلامة والراحة

وتحفظ كرامتك ومكانتك وهيبتك. فو الله لو علم بأنه سيصيبك مكروه لكان له ترتيب آخر.» لم يعجبها قول أخيها ولكنها علمت بأنه لا يمكنها أخذ غير ذلك الرد منه لإيمانه العميق بحنكة وعمق تفكير قائده وإمامه. فسكتت عنه وحولت الحديث معه إلى حديث عائلي وواصلا سيرهما حتى وصلت معززة، سالمة إلى المدينة المنورة.

وصلت أم المؤمنين إلى بيتها ونزلت من على جملها وأُنزل متاعها ونزل الفرسان وأتوا بقربها ليهنئوها سلامة الوصول و يطلبوا الإذن بالرجوع وأزالوا الأقنعة التي كانت على وجوههم فإذا هم نساء لبسن، بأمر الإمام علي عليه السلام، ملابس الفرسان حتى لا يطمع طامع في الإعتداء على الموكب في الطريق وغطوا وجوههن حتى لا يتعرف أحد عليهم ويعرف جنسهن فيطمع فيهن اوفي الركب.

فلما رأى محمد بن أبي بكر ذلك إبتسم ونظر إلى أخته نظرة إستفسار لا تخلوا من الفرحة والإنشراح. فما كان منها إلا أنها طأطأة برأسها وقالت: لله درك يا علي. وعندها عرفت وعرف الجميع بأن الوقت الذي طلبه الأمام لتحديد موعد سفر أم المؤمنين من البصرة إلى المدينة كان بغرض إختيار أفضل ما في البصرة من نسوة وأشجعهن ليكونوا برفقة أم المؤمنين، إذ لا يمكنه أن يوكل ذلك الأمر إلى رجال أغراب ولا بد من حراسة قوية طوال ذلك الطريق الخطر. لذلك إختار نساء وأمر بتدريبهن ثم إلباسهن لباس الفرسان للتمويه، هذا بالطبع بالإضافة إلى وجود فرسان شجعان في مقدمتهم وعلى رأسهم محمد بن أبي بكر وبعض رفاقه.

ذلك ما كان من أمر أم المؤمنين وكيف رد لها الإمام أمير المؤمنين الإساءة بالإحسان، بل وأجزل في إحسانه لها. لم تنسيه نشوة النصر والغلبة قيمه ولا مبادئه و لاسماحته ولا واجبه. إتخذ من الفوز والإنتصار سببا يدفعه

الى ترسيخ قيم الإسلام ومبادئه السمحة ومثله العالية ويدفعه في نفس الوقت الى القيام بواجبه على أحسن وجه.

وكما فعل أمير المؤمنين عليه السلام ذلك العمل الإنساني النبيل الذي ينم عن علو وسمو شخصيته مع أم المؤمنين فعل مثله مع خصومه الباقين، الأحياء منهم والأموات، من قتلوا في المعركة ومن فروا منها ومن دعموها وهم في بيوتهم. فها هو سلام الله عليه بعد إنتهاء معركة الجمل يمر بجسدي طلحة وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد فيقف متأسفا قائلا: «لقد أصبح أبو محمد (يعني طلحة) بهذا المكان غريبا. أما والله لقد كنت أكره أن تكون قريش قتلى تحت بطون الكواكب. أدركت وتري من عبد مناف وأفلت أعيان بني جمح (الذين أغروا أم المؤمنين ثم تركوها لوحدها وفروا). لقد أتلموا (مدّوا) أعناقهم إلى أمر لم يكونوا أهله، فوُقصوا (كُسرت أعناقهم) دونه.»

أما أهل البصرة الذين خذلوا عامله عثمان بن حنيف ووقفوا مع أم المؤمنين وجيشها فقد بعث إليهم يخبرهم بالعفو عنهم وأنه سوف لن يحاسبهم على ما مضى بل على ما سيأتي. وحذرهم من تكرار فعلتهم.

وها هو سلام الله عليه يشرح موقفه منهم في رسالة رفعها لهم فيما بعد مذكرا إياهم بما حصل منه بعد المعركة: «و قد كان من انتشار حبلكم وشقاقكم (تفرقكم) ما لم تغبوا عنه (تجهلوه). فعفوت عن مجرمكم ورفعت السيف عن مدبركم وقبلت من مقبلكم فإن خطت بكم الأمور المردية وسفه الآراء الجائرة إلى منابذتي وخلافي فهئنذا قد قربت جيادي ورحلت ركابي ولئن ألجأتموني إلى المسير إليكم لأوقعن بكم وقعة لا يكون يوم الجمل إليها إلا كلعقة لاعق، مع إني عارف لذي الطاعة منكم فضله ولذي النصيحة حقه. غير متجاوز متهما إلى بريء ولا ناكثا إلى وفي. كنتم جند المرأة وأتباع البهيمة. رغا فأجبتم، وعُقر فهربتم. أخلاقكم دقاق (دنيئة) وعهدكم شقاق ودينكم نفاق

وماؤكم زُعاق. المقيم بينكم مرتهن بذنبه والشاخص عنكم متدارك برحمة من ربه. كأني بمسجدكم كجؤجؤ سفينة قد بعث الله عليها العذاب من فوقها ومن تحتها وغرق من في ضمنها.»

وقد صدق سلام الله عليه في توقاعته حيث غرقت البصرة بعد ذلك ولم يبقى من أبنيتها إلا المسجد الكبير الذي أصبح كالسفينة وسط بحر متلاطم.

كما أنه بعد الإنتهاء من المعركة أمر أصحابه بتجهيز القتلى، من الفريقين، وصلى عليهم جميعا وأشرف بنفسه على دفنهم.

الشمعة التاسعة والثلاثون
قاتل على تأويل القرأن كما قاتل الرسول على تنزيله

كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم يستغل الفرصة تلو الأخرى ليُعّرف المسلمين مقام أمير المؤمنين عليه السلام مستخدما أمثلة وأدوات وسبل تعريف توضح مكانة الإمام وتوصل المعلومة صحيحة وكاملة إلى مستمعها.

في احد اجتماعاته المفتوحة مع المسلمين يتوقف عند نقطة من بحث مفصل كان يلقيه حول أسباب نزول القرآن فيشرح لهم ذلك ثم اخذ يبين أهمية القرآن بالنسبة للأمة. بعدها حث المسلمين على التمسك به وتعهده والمحافظة عليه، ثم انتقل الى توضيح كيف تعهد الله سبحانه وتعالى بحفظ القرآن مبينا بأن الناس ستستمر في استنباط الأحكام من القرآن بفضل جهود أناس وفقهم الله سبحانه وتعالى الى التفقه في القرآن فعرفوا ماجاء به وما جاء فيه وقاموا بتعليم الناس وعلى رأس أؤلئك الناس أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام الذي سيقاتل على تأويل القرآن كما قاتل الرسول على تنزيله وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «عليّ يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله.»

في موضع آخر يروي ابي سعيد الخدري قائلا: كنّا جلوسا ننتظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم فخرج إلينا وقد إنقطع شسع نعله. فرمى به إلى علي بن أبي طالب ليخصفه. ثم قال لنا: «إن منكم رجلا يقاتل الناس على تأويل القرآن كما قاتلتُ على تنزيله.» فقام كل واحد من الصحابة ليسأل الرسول: «أهو أنا يا رسول الله؟» وكان جواب الرسول: «لا لست أنت.» ثم

بعد أن إنتهوا من أسئلتهم أدار الرسول وجهه حيث يجلس أمير المؤمنين وهو يخصف نعال الرسول وقال: «إنه خاصف النعل.»

فبعد معركة الجمل ذهب الأمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى الكوفة واتخذها عاصمة جديدة للحكومة الإسلامية. رأى في الكوفة عاصمة مثالية للدولة الإسلامية. فوجودها وسط العراق الخصيب والذي يمثل ثقلا إقتصاديا مهما وسلة غذائية وافرة، حيث دخل الدولة الإسلامية جُله يأتي من العراق، وكونها المدينة التي نصره أهلها وأخلصوا له كل ذلك عوامل دفعت الإمام إلى إتخاذ الكوفة في وسط العراق عاصمة للدولة الإسلامية. فنزل واقام فيها وارسل أبناءه وبعض أصحابه إلى المدينة ليحضروا العائلة العلوية إلى الكوفة ولينقلوا الدواوين والدوائر الى المقر الجديد والعاصمة الجديدة للدولة الإسلامية.

أخذ يعد الدوائر ويعين الولاة ويضع أسس الدولة الإسلامية الجديدة. وبعد أن اتخذ الإجراءات الإدارية والتنظيمية اللازمة بعث إلى الولاة الذين عينهم عثمان على الأمصار طالبا منهم الرجوع إليه وإلى عاصمة الدولة الإسلامية الجديدة في أمورهم وأمور البلدان والأمصار التي يديرونها. فمنهم من لبّى دعوة الإمام وأطاع أوامره فأبقاه الأمام في منصبه وطلب منه مواصلة عمله ومنهم من رفض بيعة الأمام ورفض التقيد بأوامره لأنه تعود على التفرد بالرأي والقرار ولا يمكنه أن يأخذ التعليمات والأوامر من شخص يعرف أنه لن يترك شاردة ولا واردة إلا سأل عنها. لذلك أعلن ذلك البعض معارضته لقرارات الإمام فقام الأمام بعزلهم وأرسل ولاة جدد مكانهم.

على رأس الذين رفضوا بيعة الإمام كان معاوية بن أبي سفيان، والي الشام. فأرسل إليه الإمام كتابا مع سبرة الجهني يخبره بلزوم مبايعته وعدم شق صفوف المسلمين، خاصة بعد أن بايعه غالبية المسلمين في الحجاز واليمن

والعراق ومصر وباقي المدن الإسلامية. وقال الإمام في خطابه: «إِنَّهُ بَايَعَنِي الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ، وَلاَ لِلغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ، وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، فَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ وَسَمَّوْهُ إِمَاماً كَانَ ذلِكَ للهِ رِضىً، فَإِنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بِطَعْنٍ أَوْبِدْعَةٍ رَدُّوهُ إِلَى مَاخَرَجَ منه، فَإِنْ أَبَى قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلاَّهُ اللهُ مَا تَوَلَّى. وَلَعَمْرِي، يَا مُعَاوِيَةُ، لَئِنْ نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ دُونَ هَوَاكَ لَتَجِدَنِّي أَبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمانَ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي كُنْتُ فِي عُزْلَةٍ عَنْهُ، إِلاَّ أَنْ تَتَجَنَّى؛ فَتَجَنَّ مَا بَدَا لَكَ! وَالسَّلاَمُ.»

إستلم معاوية كتاب الإمام وأمر حامله سبرة بالرجوع إلى الكوفة وقال له بأنه سيرسل جوابه بعد أيام مع رسول من عنده.

بعد شهرين أرسل معاوية بن أبي سفيان رده على كتاب أمير المؤمنين مع قبيصة العبسي. وكان قد وضع كتابه في طومار وأمره أن يدخل المدينة حامل الطومار من أسفله. سلّم قبيصة الطومار إلى أمير المؤمنين ولما فتحه وجده صفحة بيضاء لا كتابة فيها. فعلم أمير المؤمنين عليه السلام بأن معاوية رفض مبايعته. سأل الإمام أمير المؤمنين قبيصة: ما وراءك؟ فأجاب قبيصة: إني تركت قوما لا يرضون إلا بالقود وتركت ستين ألفا شيخ يبكون تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم فوق منبر دمشق وهم تحته يصرخون «يا لثار عثمان.» فقال الأمام: أمني يطلبون دم عثمان؟ الست موتورا مثل عثمان؟ اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان.

علم الأمام أمير المؤمنين عليه السلام بأن معاوية تمكن من تأليب الناس عليه تحت دعوى المطالبة بدم عثمان. فرأى من واجبه القيام بأمرين هامين. الأمر الأول هو إرسال رسالة إلى معاوية بن أبي سفيان يذكره فيها بأن دم عثمان في رقبة من قتله ومن هيّج الناس عليه ومن دفعه إلى إرتكاب الأخطاء

التي تسببت في كره الناس له ومن خذله ولم ينصره عندما كان محتاجا للدعم والمساندة وبعد أن تعهد له بذلك، وعلي بن أبي طالب ليس أحد هؤلاء وأن معاوية يعرفهم واحدا وحدا وأنه أحدهم بل أبرزهم. الأمر الثاني الذي أراد الإمام تبيانه كشف حقيقة معاوية للمسلمين وإعلامهم بنواياه وخططه.

فبعث كتابا إلى معاوية قال فيه: «لقد أكثرت الكلام في قتلة عثمان. سبحان الله، ما أشد لزومك للأهواء المبتدعة والحيرة المتعبة مع تضييع الحقائق واطّراح الوثائق التي هي طلبة وعلى عباده حجة. فأما إكثارك الحجاج في عثمان وقتلته فإنك إنما نصرت عثمان حيث كان النصر لك وخذلته حيث كان النصر له. فادخل في الطاعة ثم حاكم القوم إلي أحملك وإياهم على كتاب الله واما تلك التي تريد فخدعة الصبي اللبن في اول الفصال. لعمري يا معاوية لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني ابرأ الناس من دم عثمان. ولتعلمن اني كنت في عزلة عنه. واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ولا تعقد معهم الإمامة ولا تعرض فيهم الشورى. وقد بعثت إليك جريرا بن عبدالله وهو من اهل الإيمان والهجرة والسابقة فبايعه.»

حمل جرير كتاب أمير المؤمنين إلى معاوية وسلّمه إليه وأحسن له النصيحة ولكن معاوية بقي على موقفه السلبي ورفضه مبايعة الإمام.

لقد كان لسكوت عثمان عنه، عندما كان خليفة، وترك الحبل له على الغارب ساعده في تكوين دويلته الخاصة به وأصبح يطمح في تحقيق حلمه في نقل الخلافة والتي يسميها هو (الحكم) إلى بني أمية.

خلال خلافة عثمان إستطاع معاوية من تكوين جيش كبير أسبغ عليه عطاياه بحيث جعله لا يعرف ربا سواه، يكن له الولاء وينتظر الإشارة للموت دونه. ومن الناحية المالية أصبحت في يده ميزانية هي من أكبر الميزانيات في

الدولة الإسلامية. كما أن عنده من المستشارين فوق ما يشاء من المنافقين والبائعين لضمائرهم أمثال عمرو بن العاص وزياد بن أبيه، مجهول الأب الذي ألحقه معاوية بنسبه وإعتبره أخاه، واليهود المتملقين الماكرين أمثال سرجون.

ذالك الوضع جعله يصر على موقفه من عدم مبايعة الإمام. لا بل أكثر من ذلك. أخذ يتحداه ويتوعده بشن حرب ضده، إن لم يترك الأمر له ويكون (الإمام) تحت إمرته وتصرفه. وبعث للإمام كتابا بهذا الخصوص، مفضّلا نفسه على الإمام وأنه أحق بالخلافة منه وكال فيه من الشتائم والقدح ما يليق به وما هو أهله وما لا يليق بنقله هنا.

قرأ أمير المؤمنين كتاب معاوية فوجده مملوءا بالأباطيل والإدعاءات الزائفة التي يجب أن تفند ويكشف زيفها للمجتمع الإسلامي. فبعث إليه كتابا يفنّد فيه دعواه قائلا:

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ تَذْكُرُ (فيه) اصْطِفَاءَ اللهِ تعالى مُحَمَّداً (صلى الله عليه وآله) لدينه، وَتَأْيِيدَهُ إِيَّاهُ بِمَنْ أَيَّدَهُ مِنْ أَصْحَابِه، فَلَقَدْ خَبَّأَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْكَ عَجَباً، إِذْ طَفِقْتَ تُخْبِرُنَا بِبَلاَءِ اللهِ عِنْدَنَا، وَنِعْمَتِه عَلَيْنَا فِي نَبِيِّنَا، فَكُنْتَ فِي ذلِكَ كَنَاقِلِ التَّمْرِ إِلَى هَجَر (قرية من قرى الإحساء بالمملكة العربية السعودية و قيل من قرى البحرين معروفة بكثرة نخيلها و وفرة تمرها) أَوْ دَاعِي مُسَدِّدِه إِلَى النِّضَالِ. وَزَعَمْتَ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي الْإِسْلاَمِ فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ، فَذَكَرْتَ أَمْراً إِنْ تَمَّ اعْتَزَلَكَ كُلُّهُ (إن صحّ ما إدعيت من فضلهم لم يكن لك حظ فيه)، وَإِنْ نَقَصَ لَمْ يَلْحَقْكَ ثَلْمُهُ، وَمَا أَنْتَ وَالْفَاضِلَ وَالْمَفْضُولَ، وَالسَّائِسَ وَالْمَسُوسَ! وَمَا لِلطُّلَقَاءِ وَأَبْنَاءِ الطُّلَقَاءِ، وَالتَّمْيِيزَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، وَتَرْتِيبَ دَرَجَاتِهِمْ، وَتَعْرِيفَ طَبَقَاتِهِمْ! هَيْهَاتَ لَقَدْ حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا، وَطَفِقَ يَحْكُمُ فِيهَا مَنْ عَلَيْهِ الْحُكْمُ لَهَا!

أَلاَ تَرْبَعُ أَيُّهَا الاْنْسَانُ عَلَى ظَلْعِكَ، وَتَعْرِفُ قُصُورَ ذَرْعِكَ، وَتَتَأَخَّرُ حَيْثُ أَخَّرَكَ الْقَدَرُ! فَمَا عَلَيْكَ غَلَبَةُ الْمَغْلُوبِ، وَلاَ لَكَ ظَفَرُ الظَّافِرِ! وَإِنَّكَ لَذَهَّابٌ فِي التِّيهِ، رَوَّاغٌ عَنِ الْقَصْدِ. أَلاَ تَرَى ـ غَيْرَ مُخْبِرٍ لَكَ، لكِنْ بِنِعْمَةِ اللهِ أُحَدِّثُ ـ أَنَّ قَوْماً اسْتُشْهِدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، لِكُلٍّ فَضْلٌ، حَتَّى إذَا اسْتُشْهِدَ شَهِيدُنَا (الحمزة بن عبد المطلب) قِيلَ: سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ، وَخَصَّهُ رَسُولُ اللهِ(صلى الله عليه وآله) بِسَبْعِينَ تَكْبِيرَةً عِنْدَ صَلاَتِهِ عَلَيْهِ! أَوَلاَ تَرَى أَنَّ قَوْماً قُطِّعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ (أخو الإمام جعفر بن أبي طالب) ـ وَلِكُلٍّ فَضْلٌ ـ حَتَّى إذَا فُعِلَ بِوَاحِدِنَا كَمَا فُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ، قِيلَ: الطَّيَّارُ فِي الْجَنَّةِ وَذُوالْجَنَاحَيْنِ! وَلَوْلاَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ مِنْ تَزْكِيَةِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ، لَذَكَرَ ذَاكِرٌ فَضَائِلَ جَمَّةً، تَعْرِفُهَا قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلاَ تَمُجُّهَا آذَانُ السَّامِعِينَ.

فَدَعْ عَنْكَ مَنْ مَالَتْ بِهِ الرَّمِيَّةُ، فَإِنَّا صَنَائِعُ رَبِّنَا، وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا. لَمْ يَمْنَعْنَا قَدِيمُ عِزِّنَا وَلاَ عَادِيُّ طَوْلِنَا عَلَى قَوْمِكَ أَنْ خَلَطْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا، فَنَكَحْنَا وَأَنْكَحْنا، فِعْلَ الاْكْفَاءِ، وَلَسْتُمْ هُنَاكَ! وَأَنَّى يَكُونُ ذلِكَ كَذَلِكَ وَمِنَّا النَّبِيُّ وَمِنْكُمُ الْمُكَذِّبُ، وَمِنَّا أَسَدُ اللهِ وَمِنْكُمْ أَسَدُ الاْحْلاَفِ، وَمِنَّا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمِنْكُمْ صِبْيَةُ النَّارِ، وَمِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ وَمِنْكُمْ حَمَّالَةُ الْحَطَبِ، فِي كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا وَعَلَيْكُمْ! فَإِسْلاَمُنَا مَا قَدْ سُمِعَ، وَجَاهِلِيَّتُنَا لاَ تُدْفَعُ (شرفنا و مكانتنا في الجاهلية لا ينكرهما أحد)، وَكِتَابُ اللهِ يَجْمَعُ لَنَا مَا شَذَّ عَنَّا، وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: (وَأُولُو الاْرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ)، فَنَحْنُ مَرَّةً أَوْلَى بِالْقَرَابَةِ، وَتَارَةً أَوْلَى بِالطَّاعَةِ.

وَلَمَّا احْتَجَّ الْمُهَاجِرُونَ عَلَى الاْنْصَارِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ بِرَسُولِ اللهِ(صلى الله عليه وآله) فَلَجُوا عَلَيْهِمْ، فَإِنْ يَكُنِ الْفَلَجُ بِهِ فَالْحَقُّ لَنَا دُونَكُمْ، وَإِنْ يَكُنْ بِغَيْرِهِ فَالاْنْصَارُ عَلَى دَعْوَاهُمْ. وَزَعَمْتَ أَنِّي لِكُلِّ الْخُلَفَاءِ حَسَدْتُ، وَعَلَى كُلِّهِمْ بَغَيْتُ، فَإِنْ يَكُنْ ذلِكَ كَذلِكَ فَلَيْسَ الْجِنَايَةُ عَلَيْكَ، فَيَكُونَ الْعُذْرُ إِلَيْكَ. وَتِلْكَ شَكَاةٌ

ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا وَقُلْتَ: إِنِّي كُنْتُ أُقَادُ كَمَا يُقَادُ الْجَمَلُ الْمَخْشُوشُ حَتَّى أُبَايِعَ، وَلَعَمْرُ اللهِ لَقَدْ أَرَدْتَ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَ، وَأَنْ تَفْضَحَ فَافْتَضَحْتَ! وَمَا عَلَى الْمُسْلِمِ مِنْ غَضَاضَةٍ فِي أَنْ يَكُونَ مَظْلُوماً مَا لَمْ يَكُنْ شَاكّاً فِي دِينِهِ، وَلاَ مُرْتَاباً بِيَقِينِهِ! وَهذِهِ حُجَّتِي إِلَى غَيْرِكَ قَصْدُهَا، وَلكِنِّي أَطْلَقْتُ لَكَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا سَنَحَ مِنْ ذِكْرِهَا.

ثُمَّ ذَكَرْتَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرِ عُثْمانَ، فَلَكَ أَنْ تُجَابَ عَنْ هذه لِرَحِمِكَ مِنْهُ، فَأَيُّنَا كَانَ أَعْدَى لَهُ، أَهْدَى إِلَى مَقَاتِلِهِ! أَمْ مَنْ بَذَلَ لَهُ نُصْرَتَهُ فَاسْتَقْعَدَهُ وَاسْتَكَفَّهُ، أَمْ مَن اسْتَنْصَرَهُ فَتَرَاخَى عَنْهُ و بَثَّ الْمَنُونَ إِلَيْهِ، حَتَّى أَتَى قَدَرُهُ عَلَيْهِ، كَلاَّ وَاللهِ لَقَد عَلِمَ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لاِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً. وَمَا كُنْتُ لاَعْتَذِرَ مِنْ أَنِّي كُنْتُ أَنْقِمُ عَلَيْهِ أَحْدَاثاً، فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ إِرْشَادِي وَهِدَايَتِي لَهُ، فَرُبَّ مَلُوم لاَ ذَنْبَ لَهُ. وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظِّنَّةَ الْمُتَنَصِّحُ وَمَا أَرَدْتُ (إِلاَّ الاِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ)

وَذَكَرْتَ أَنَّهُ لَيْسَ لِي وَلاَ لاَصْحَابِي عِنْدَكَ إِلاَّ السَّيْفُ، فَلَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ اسْتِعْبَارٍ! مَتَى أُلْفِيَتْ بَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَنِ الاَْعْدَاءِ نَاكِلِينَ، وبِالسُّيُوفِ مُخَوَّفِينَ؟! فَـ لَبِّثْ قَلِيلاً يَلْحَقِ الْهَيْجَا حَمَلْ (و هو مثال مشهور عند العرب يضرب عند الإصرار على حفظ الكرامة) فَسَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ، وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ، وَأَنَا مُرْقِلٌ (زاحف) نَحْوَكَ فِي جَحْفَل مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالاَْنْصَارِ، وَالتَّابِعِينَ (لَهُمْ) بِإِحْسَان، شَدِيد زِحَامُهُمْ، سَاطِع قَتَامُهُمْ، مُتَسَرْبِلِينَ سَرَابِيلَ الْمَوْتِ، أَحَبُّ اللِّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ، قَدْ صَحِبَتْهُمْ ذُرِّيَّةٌ بَدْرِيَّةٌ، وَسُيُوفٌ هَاشِمِيَّةٌ، قَدْ عَرَفْتَ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا فِي أَخِيكَ وَخَالِكَ وَجَدِّكَ وَأَهْلِكَ، (وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيد)»

لما قرأ معاوية كتاب أمير المؤمنين عليه السلام، رأى أن ليس من صالحه الدخول في جدال لغوي ومنطقي مع الأمام فالغلبة بالتأكيد ستكون للإمام عليه

السلام. لذلك قرر أن يحتفظ بكتاب الإمام لنفسه ولا يطلع عليه أحدا خوفا من تبيان الحقيقة. وقرر أن يكتب للإمام عارضا حلولا وسط تضمن له بقاءه في مركزه. و كان يقصد من وراء ذلك تأخير إقامة الدولة الأموية إلى ما بعد رحيل الإمام. فكتب إلى الإمام كتابا يبين فيه بأنه، وحرصا منه على مصلحة الإسلام والمسلمين الذين أرهقتهم الحروب، يعرض فيه أن يبقيه واليا على الشام ويذكر الإمام بأنه والإمام من شجرة واحدة.

بعد قرائة الإمام عليه السلام لكتاب معاوية عرف الإمام ما يخطط له معاوية. فقرر أن يُفوت عليه فرصته ويُفشل مخططاته ومؤامراته. فكتب إليه ردا نهائيا وحازما يقول فيه: «وَأَمَّا طَلَبُكَ إِلَيَّ الشَّامَ، فَإِنّي لَمْ أَكُنْ لأُعْطِيَكَ الْيَوْمَ مَا مَنَعْتُكَ أَمْسِ. وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّ الْحَرْبَ قَدْ أَكَلَت الْعَرَبَ إِلاَّ حُشَاشَات أَنْفُس بَقِيَتْ، فَمَنْ أَكَلَهُ الْحَقُّ فَإِلَى الْجَنَّة، و مَنْ أَكَلَهُ الْبَاطِلُ فَإِلَى النّار. وَأَمَّا اسْتِوَاؤُنَا فِي الْحَرْبِ والرِّجَال، فَلَسْتَ بِأَمْضَى عَلَى الشَّكِّ مِنّي عَلَى الْيَقِين، وَلَيْسَ أَهْلُ الشَّام بِأَحْرَصَ عَلَى الدُّنْيَا منْ أَهْلِ الْعرَاقِ عَلَى الآخرَة. وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّا بَنُو عَبْد مَنَاف، فَكَذلكَ نَحْنُ، وَلكنْ لَيْسَ أُمَيَّةُ كَهَاشمَ، وَلاَ حَرْبٌ كَعَبْد الْمُطَّلب، وَلاَ أَبُوسُفْيَانَ كَأَبِي طَالب، وَلاَ الْمُهَاجرُ كَالطَّليق، وَلاَ الصَّريحُ كَاللَّصيق، وَلاَ الْمُحقُّ كَالْمُبطل، وَلاَ الْمُؤْمنُ كَالْمُدْغل، وَلَبئْسَ الْخَلَفُ خَلَفٌ يَتْبَعُ سَلَفاً هَوَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ. وَفِي أَيْدينَا بعْدُ فَضْلُ النُّبُوَّة الَّتي أَذْلَلْنَا بهَا الْعَزيزَ، وَنَعَشْنَا (رفعنا) بهَا الذَّليلَ. وَلَمَّا أَدْخَلَ الله الْعَرَبَ فِي دينه أَفْوَاجاً، وَأَسْلَمَتْ لَهُ هذه الأُمَّةُ طَوْعاً وَكَرْهاً، كُنْتُمْ ممَّنْ دَخَلَ فِي الدِّين: إِمَّا رَغْبَةً وَإِمَّا رَهْبَةً، عَلَى حينَ فَازَ أَهْلُ السَّبْق بسَبْقهِمْ، وَذَهَبَ الْمُهَاجرُونَ الأَوَّلُونَ بفَضْلِهِمْ. فَلاَ تَجْعَلَنَّ للشَّيْطَانِ فيكَ نَصيباً، وَلاَ عَلَى نَفْسكَ سَبيلاً، وَالسَّلاَمُ.»

بعث أمير المؤمنين كتابه إلى معاوية مع علمه بأنه لن يعود إلى رشده. لكنه أراد بذلك الرد على خبثه ووقاحته حتى لا يفسّر السكوت عن تلك الوقاحة قبولا بها أو عجزا عن تفنيدها. وهذا ما دعى الإمام للرد عليها، خاصة بعد

أن أصبحت الرسائل المتبادلة بين الطرفين تقرأ و تنشر على مسمع ومرأى من الناس جميعا وأن لكل طرف جهازه الإعلامي.

لم يكتفي الأمام بذلك، بل ذهب إلى أبعد منه فأطلع المسلمين على حقيقة ما يدور بينه وبين معاوية مبينا لهم دوره الذي يرغب في القيام به وغايات معاوية وأهدافه ومطامعه. أراد تعرية معاوية للمسلمين وكشف مؤامراته ضد الدولة الإسلامية، وما كان معاوية ولا أهدافه بالمجهولة عند المسلمين الذين حضروا موقفه يوم فتح مكة وشاهدوا كيف دخل هو وأبوه وعائلتهم في الإسلام.

ولما لم تنجح مساعي الإمام في ثني معاوية عن محاولته تحويل الخلافة الراشدة إلى ملك لبني أمية لم يكن أمام الإمام من خيار سوى إرغام معاوية بالقوة على ترك ولاية الشام والإنصياع إلى رغبة المسلمين والدخول فيما دخلوا فيه. فأخذ الأمام يعد جيشه لملاقاة معاوية، حيث أصبحت المواجهة العسكرية أمرا لا مفر منه. ولما أكمل تجهيزاته تحرّك بجيشه قاصدا الشام لملاقات معاوية، ليحاربه على تأويل القرآن، الذي أصبح معاوية يحتج به، بغير وجه حق ويفسره حسب مزاجه وهواه، تماما كما تنبّأ بذلك الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم.

الشمعة الأربعـــون
شهم قدر فعفى وملك فأجزل وأوفى

سار الإمام أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام بجيشه نحو الشام وعلى الجانب الآخر تحرك جيش معاوية بن أبي سفيان قاصدا الكوفة في العراق. إلتقى الجيشان في منطقة يقال لها صفيّن. فأسرع معاوية وعسكر بجيشه على نهر الفرات وإتخذ من النهر ساترا خلفيا. فلما رأى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ذلك أمر قادة جيشه أن لا ينازعوا القوم وأن يتركوهم يختارون المكان الذي يرغبون فيه. فما زال لديه بصيص من أمل في أن يعود معاوية الى رشده فيجنب المسلمين فتنة وإقتتالا.

كما أنه حتى وإن لم يرجع معاوية عن عناده لا يريد أن يكون هو البادئ بالقتال، فذلك أحد الدروس التي تعلمها من الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم عند مواجهة الخصم. فنزل جيش الإمام بعيدا عن جيش معاوية، أي بعيدا عن النهر.

في اليوم الثاني لنزولهم بعث الإمام أمير المؤمنين عليه السلام رسولا إلى معاوية ومعه كتابا يذكر فيه فضل أهل البيت ومكانتهم من رسول الله ويقول فيه: «أَرَادَ قَوْمُنَا قَتْلَ نَبِيِّنَا، وَاجْتِيَاحَ أَصْلِنَا، وَهَمُّوا بِنَا الْهُمُومَ، وَفَعَلُوا بِنَا الأَفَاعِيلَ، وَمَنَعُونَا الْعَذْبَ، وَأَحْلَسُونَا الْخَوْفَ، وَاضْطَرُّونَا إِلَى جَبَلٍ وَعْرٍ، وَأَوْقَدُوا لَنَا نَارَ الْحَرْبِ، فَعَزَمَ اللهُ لَنَا عَلَى الذَّبِّ عَنْ حَوْزَتِهِ، وَالرَّمْيِ مِنْ وَرَاءِ حُرْمَتِهِ. مُؤْمِنُنَا يَبْغِي بِذلِكَ الأَجْرَ، وَكَافِرُنَا يُحَامِي عَنِ الأَصْلِ، وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ قُرَيْشٍ خِلْوٌ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ بِحِلْفٍ يَمْنَعُهُ، أَوْ عَشِيرَةٍ تَقُومُ دُونَهُ، فَهُوَ مِنَ الْقَتْلِ

بِمَكَانٍ أَمْنٍ. وَكَانَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وآله) إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ، وَأَحْجَمَ النَّاسُ، قَدَّمَ أَهْلَ بَيْتِه فَوَقَى بِهِمْ أَصْحَابَهُ حَرَّ السُّيُوفِ وَالأَسِنَّةِ، فَقُتِلَ عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِث يَوْمَ بَدْر، وَقُتِلَ حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُد، وَقُتِلَ جعفر يَوْمَ مُؤْتَةَ، وَأَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتُ ذَكَرْتُ اسْمَهُ مِثْلَ الَّذِي أَرَادُوا مِنَ الشَّهَادَةِ، وَلكِنَّ آجَالَهُمْ عُجِّلَتْ،مَنِيَّتَهُ أُجِّلَتْ.

فَيَاعَجَباً لِلدَّهْرِ! إِذْ صِرْتُ يُقْرَنُ بِي مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَابِقَتِي الَّتِي لاَ يُدْلِي أَحَدٌ بِمِثْلِهَا، إِلاَّ أَنْ يَدَّعِيَ مُدَّعٍ مَا لاَ أَعْرِفُهُ، وَلاَ أَظُنُّ اللهَ يَعْرِفُهُ، وَالْحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَال. وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ مِنْ دَفْعِ قَتَلَةِ عُثْمانَ إِلَيْكَ، فَإِنِّي نَظَرْتُ فِي هذَا الأَمْرِ، فَلَمْ أَرَهُ يَسَعُنِي دَفْعُهُمْ إِلَيْكَ وَلاَ إِلَى غَيْرِك، وَلَعَمْرِي لَئِنْ لَمْ تَنْزِعْ عَنْ غَيِّكَ وَشِقَاقِكَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ عَنْ قَلِيل يَطْلُبُونَكَ، لاَ يُكَلِّفُونَكَ طَلَبَهُمْ فِي بَرّ وَلاَ بَحْر، وَلاَ جَبَلاً سَهْل، إِلاَّ أَنَّهُ طَلَبٌ يَسُوءُكَ وِجْدَانُهُ، وَزَوْرٌ لاَ يَسُرُّكَ لُقْيَانُهُ، وَالسَّلاَمُ لاَهْلِه.»

مكث الإمام يوما آخر في إنتظار رد معاوية فلم يأتيه. في اليوم التالي ذهب نفر من أتباع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى نهر الفرات ليستقوا ماء لمعسكر الإمام. فلما نظر معاوية إلى ذلك أمر جنوده بأن يمنعوهم من الوصول إلى النهر. وحيث أن أتباع الإمام عليه السلام لا تخويل لديهم من الإمام بمحاربة القوم رجعوا إلى معسكرهم وأخبروا الإمام بما حصل. فأمرهم الإمام أن يصبروا حتى يرى رأيه.

بعث الإمام إلى معاوية يّذكُره بأن ما يقوم به هو من عمل من اعمال الجبناء وفاقدا للحس والشعور الإنساني وليس من شيم العرب. فالقوم مازالوا إخوة في الدين وإن لم يكونوا في نظره كذلك فهم اخوة في الخلقة وان لم يرهم كذلك فهم خلق الله والماء عطاء الله ومن حقهم الإستفادة مما أفاء الله على عباده واعطى لمخلوقاته.

لكن معاوية أصرّ على حرمان جيش الإمام من الماء واعتبر الماء سلاحا هاما اصبح بيده بإستطاعته المساهمة في القضاء على جيش الإمام او على الأقل المساهمة في هزيمتهم بعد أن يفتهم العطش.

تدّخل شريكه في الحرب ومستشاره عمر بن العاص ونهاه عن إستخدام سلاح الماء، ليس حبا في علي وأتباعه وإنما خوفا من النتائج السلبية لمثل ذلك الإجراء والعمل على معاوية وجيشه فالحرب سجال والتاريخ للوقائع حافظ ومدون وما هو في اليد الآن قد يكون بعد جولة في يد الخصم. كما ان مثل ذلك العمل من شأنه التأثير سلبيا على سمعة معاوية التي هي ليست في افضل حالاتها وقد يكون له مرود سلبي وضار على موقف الجيش من معاوية.

أغلظ بن العاص في تحذير معاوية من مغبة ذلك القرار مذّكرا إياه بشهامة وبطولات الإمام أمير المؤمنين وأنه لن يقف ساكتا وهو يرى أصحابه يتضورون عطشا وان شن علي عليه هجوما لهذا السبب فإنه سوف يخسر المواجهة ويخسر التأييد الشعبي لأن السبب سيكون محاربة معاوية لأنه منع ما هو مباح وما لا يملك وما هو حق للجميع وانه حورب لأنه قام بعمل خسيس لا يقبله اي بشر حتى وان كان معارضا لعلي بن ابي طالب. لكن كل محاولات بن العاص بائت بالفشل واصر معاوية على عناده.

بعث الإمام أمير المؤمنين إلى معاوية من يقول له بأنه ما جاء ليقاتل على الماء ولا ليمنع الناس حقا من حقوقهم التي منحهم الله سبحانه وتعالى إياها. الغرض من مجيئه هو إحقاق الحق وازهاق الباطل والماء حق مشاع وحصره على فئة من الناس دون غيرها هو الباطل. وفي هذا اشارة واضحة على ان الإمام لن يتردد في ردع معاوية، بالقوة ان اضطر الى ذلك، ان هو واصل منع المسلمين الماء. ولا اعتقد ان معاوية فاتته هذه الإشارة وان فاتته فإنها بالتأكيد لم تفت مستشاريه. لكن عناد معاوية وغروره دفعه الى البقاء

على موقفه والإصرار على إستخدام الماء كسلاح، حاله حال أي سلاح آخر. لم تنفع معه حتى نصائح قومه له بالسماح لجيش علي بورود الماء.

بعدها بيوم رأى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بأنه لا بد له من توجيه أول الدروس العملية العسكرية لمعاوية ليؤكد له بأن محاولته تفاد الحرب ليس عجزا ولا خوفا منها ومن نتائجها بل هي شيم الرجال الأقوياء التي تتجنب الحلول القسرية ما أمكنها ذلك حفاظا على حرمة الإنسان وسلامة البيئة.

نادى مالك الأشتر وعمّار بن ياسر وأمرهما أن يأخذا فرقة ويذهبا بها إلى الفرات ليجلبا الماء وأمرهما بأن لا يحاربا إلا إذا منعا بالقوة من الوصول إلى الماء. فإذا منعا من الوصول الى النهر عليهما أن يقاتلا فقط من يشهر السيف في وجههما ومتى ما أفرج لهما القوم الطريق إلى النهر فعليهما أن يوقفا القتال فورا.

ذهب مالك الأشتر وعمار بن ياسر وفرقتهما إلى النهر لا غرض لهم سوى جلب الماء. ما إن قاربا النهر خرج لهم جيش معاوية بأكمله وأخذوا يرشقونهم بالنبل والحجارة في محاولة لمنعهم من الوصول إلى الفرات. فلما رأى أمير المؤمنين عليه السلام ان جيش معاوية نهض بأكمله لقتال فرقة قليلة العدة والعدد أرسلت فقط لملء القرب بالماء قاد جيشه إلى المعركة وأعلنها حرب على من يحارب المسلمين ويحاول منعهم شرب الماء.

اشتبك الجيشان وحمي الوطيس ورأى معاوية تساقط جنوده الواحد بعد الآخر وشاهد جيشه يخسر الموقع بعد الآخر فتذكر نصيحة عمرو بن العاص له بأن الإمام «لن يعطش وفي يده اعنة الخيل وأسنة الرماح.» وأصبح معاوية أمام بين خيارين – مواصلة القتال وخسران قادته وجنوده واحدا بعد الآخر وبالتالي خسران الحرب أو الفرار من أمام جيش الإمام و إفساح الطريق

لجيش الإمام كي يصل الى النهر. فإختار الخيار الثاني بعد ان تأكد بأن عليا وصحبه سيصلون إليه طوعا او كرها وترك ضفة النهر هو وجنوده وأصبحت ضفة النهر تحت سيطرة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

لما رأى جنود الإمام تقهقر جيش معاوية وفراره من المعركة طلبوا من الإمام إستغلال تلك الحالة النفسية ومواصلة الحرب حتى يلحقوا بالجيش الفار الهزيمة المنكرة وينهوا الوضع لصالحهم. لكن الأمام كان له رأي آخر. قال لأصحابه بأنهم لم يحاربونهم من أجل الحرب وإنما من أجل الماء، أما وإن القوم قد خلّوا بينهم وبين الماء فقد إنتفى السبب الذي من أجله أمر الجيش بالقتال. هذا بالإضافة إلى أن الخصم قد فر من المعركة وليس من أخلاق الإمام ولا من عادته ولا شيمه اللحاق بفارّ من المعركة ولا الإجهاز على جريح أو منهزم.

كان الأمام أمير المؤمنين عليه السلام وحتى تلك اللحظة يمني النفس بأن يراجع معاوية نفسه ويثوب إلى رشده ويترك طغيانه وغيه ويوفر على المسلمين حربا مدمرة هم في غنى عنها. فأمر أصحابه بوقف القتال وتغيير مواقعهم والنزول على النهر بعد أن كانوا بعيدين عنه، محتلين المواقع التي تركها جيش معاوية.

توقف القتال بين الفريقين لمدة يومين دفن الفريقان فيهما قتلاهما وشدّا جراح مصابيهم. بعدها إنعكس الوضع وأصبح جيش معاوية هو المحتاج إلى الماء والماء تحت سيطرة جيش الإمام. فذهب جنود معاوية الى قادتهم يطلبون منهم أن يطلبوا من الإمام علي أن يسمح لهم بقضاء حاجتهم من الماء فرأى القادة أن يستشيروا معاوية في الأمر وطلبوا منه أن يفاتح الإمام علي في موضوع عطشهم. لكن معاوية رفض ذلك محتجا بأنه من الصعب عليه طلب شيئا من الإمام رفض هو أن يعطيه إياه من قبل. لكن جنوده أصروا عليه لأن

الوضع أصبح لا يطاق خاصة بعد أن نفذ كل الماء الذي في القرب وأصبحوا يطلبون الماء فلا يجدوه.

بينما معاوية في حيرته تدخل عمرو بن العاص فأشار عليه بأن لا يطلب الماء من علي وأن يرسل بدلا من ذلك فرقة تستقي من غير أن تطلب الإذن من معسكر الإمام. فإن سمحوا لها قضي الأمر وحفظ هو ماء وجهه وإن لم يسمحوا لها تبدوا وكأنها ذهبت من غير إذن ومعرفة منه.

استحسن معاوية مشورة بن العاص وأرسل فرقة إلى النهر. فلما رأى أصحاب الإمام القوم مقبلين على النهر إمتشقوا سيوفهم وتهيأوا للقتال. فأخبر الإمام بالأمر فجاء إلى قومه وإذا هم ينادون: «امنعوهم الماء كما منعونا منه.» فأجابهم الإمام: «أيها الناس، ان الله عزّ وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم وان الخطب أعظم من منع الماء.»

ثم بين لهم الإمام عواقب منع الماء قائلا إذا نحن منعناهم فما الفرق إذا بيننا و بينهم؟ وطلب من قومه السماح لجماعة معاوية بالشرب والسقاية وتأمين الطريق لهم.

كان بإستطاعة الإمام محاربة معاوية بطريقته وبإسلوبه وأن يستخدم نفس الأسلحة، لكن خلقه وشهامته ويقينه وتقواه منعوه من ذلك. وضرب بموقفه ذلك أروع الأمثلة فيما أصبح يعرف الآن بمحاربة «حروب الإبادة الجماعية.»

رفض أن يستخدم الأسلحة والطرق التي تؤدي للقتل الجماعي وترفع عن حرب الإبادة الجماعية، حيث منع الماء أحد أساليبها. بل إنه ذهب الى أبعد من ذلك مسطرا أسطرا من أخلاقيات الحرب و المواجهات العسكرية وضاربا اروع الأمثلة على الحرب النظيفة.

نادى بأحد رجال معاوية كان قريبا منه فلما جاءه سلّم عليه ورجاه أن يوصل رسالة لمعاوية نصها: «إنا لا نكافيك بصنعك. هلم إلى الماء. نحن وأنتم فيه سواء.» ثم قال للرجل: إذهب أنت ومن معك و خذوا حاجتكم من الماء ثم عودوا إلى معسكركم وإن إحتجت للمساعدة فهؤلاء (وأشار إلى أفراد جيشه) إخوانك لا يتوانون عن تقديم أي مساعدة تحتاجها.

الشمعة الحادية والأربعــون
في صفين علي قاتل الفئة الباغية

كان لموقف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الأثر الإيجابي البالغ على نفوس الشاميين. فلقد أتاح لهم فرصة ليقارنوا بين ما يحمله صاحبهم، معاوية بن أبي سفيان من مبادئ والمبادئ التي يحملها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. أتاح الفرصة لهم ليتبينوا حقيقة أمر صاحبهم. فإنتشر الهرج والمرج في صفوف جيش معاوية وخاف معاوية من تفكك وتضعضع جيشه وعلم أن عامل الوقت ليس في صالحه. فإستشار مستشاره عمرو بن العاص في الأمر فأشار عليه ببدأ الحرب قبل أن يتمكن الأمام من كسب حب وتعاطف المعسكر الشامي.

استحسن معاوية المشورة وأعلن الحرب على جيش الإمام. إلتقى الجيشان وإقتتلا قتالا عظيما، خسر الفريقان فيه عددا كبيرا من جنودهما وعتادهما، وكانت الخسائر الكبيرة في جيش معاوية.

توقف القتال في المساء ورجع الجيشان إلى ثكناتهم للراحة والإستعداد لمعاودة القتال في صباح اليوم التالي. ولما رأى معاوية ما حل بجيشه خشي الهزيمة فجمع مستشاريه عمرو بن العاص وسرجون اليهودي وغيرهم فأشاروا عليه بأن يحاول شراء عدد من قادة الإمام وجنوده وأن يرسل رسلا إليهم تحت جنح الظلام تغريهم بالمال وتسهل لهم عملية الفرار من جيش الإمام وتسهيل عملية التحاقهم بجيش معاوية او مساعدتهم على الرجوع الى منازلهم،

وافق معاويهم على مشورة مستشاريه وارسل عددا من مخبريه ومعهم الأموال الى من يعتقدون بإمكانهم رشوته في جيش الإمام. اندس مخبري معاوية وسط جنود الإمام واخذوا يغرون ضعاف النفوس والعقيدة فتحقق لهم كثيرا مما ارادوا.

لقد أخذ التعب والقتال والجراح من القوم مأخذه وبات المرجفون في جيش الإمام خائفين مما يخفيه لهم الغد خاصة بعد ان خبروا ضراوة القتال وعاينوا تساقط الرجال. لذلك وجدوا في عرض معاوية إنقاذا لهم من حر السيوف وطعنات الرماح التي طالما كرهوها وخافوا مواقعتها. فقبلوا عرضه وفروا تحت جنح الظلام.

في الصباح إكتشف الإمام أن عددا لا بأس به من جنوده قد هربوا وعلم من بعض زملائهم بأن معاوية أغراهم بالمال وسهّل هروبهم. فلما سمع عمّار بن ياسر بالأمر، وكان شيخا بلغ الثالثة والتسعين من عمره، سل سيفه ووقف يشجع المسلمين قائلا: «والله لو ضربونا حتى يبلغونا سعفات هجر (من قرى البحرين القديمة) لعلمنا انا على الحق وانهم على الباطل.»

بعدها أشار عمار بيده نحو راية معاوية وقال: «والله لقد قاتلت مع رسول الله صلى الله عليه وآله صاحب هذه الراية (مشيرا إلى راية معاوية) ثلاث مرات، وهذه هي المرة الرابعة.»

أيقضت كلمات عمّار بن ياسر الشجاعة والحمية في قلوب المؤمنين خاصة بعدما سمعوا عمّار يُذكرهم بأن الراية التي يحاربونها هي نفس الراية التي حاربوها مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم. فنهضوا بأجمعهم ورفعوا أصواتهم ملبين: «لبيك يا رسول الله...لبيك يا أخا رسول الله...لبيك يا أمير المؤمنين.»

شكرهم أمير المؤمنين على حميتهم وأمرهم بالخلود الى الراحة والإستعدوا لقتال القوم في الغد. وفي الصباح ابتدأ قتال اليوم الثاني. نظر عمرو بن العاص إلى ساحة المعركة وإذا بعمّار بن ياسر على الجناح فإرتعش من ذلك المنظر وتذكر قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم في عمّار: «ويحك يابن سمية، تقتلك الفئة الباغية،» خاصة وأنه هو، بن العاص، واحد ممن روى هذا الحديث سمعا مباشرا من الرسول.

أحس معاوية تلكأ وتأرجح موقف عمرو بن العاص فسأله عمّا ما به ومالذي حلّ به فأخبره بحديث الرسول. إنتهره معاوية وطلب منه كتمان ذلك الحديث حتى لا تحدث بلبلة في الجيش، وسمح لعمرو بن العاص أن يتأخر إلى الصفوف الخلفية ليكون بعيدا عن الذين يقاتلون عمّار وبذلك يريحه هو من القتال ومن إمكانية مواجهة عمّار وقتاله.

توّجه عمّار إلى فرسه وطلب شيئا يشربه قبل صعوده فرسه والتوجه للقتال. جيء له بقدح فيه لبن، فلما رآه تذكّر رسول الله فدمعت عيناه وكبّر وقال: «هذا ما وعدني به حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم إذ قال: «يا عمّار تقتلك الفئة الباغية وآخر شرابك من الدنيا صاع من لبن.»

صلى وسلّم على رسول الله ثم شرب اللبن وحمد الله. بعدها أخذ لامة حربه وركب فرسه وأخذ يشّجع قومه قائلا: «من رائح إلى الجنة؟ الجنة تحت البارقة والظمآن يرد الماء والماء مورود،» ثم ذهب إلى المعركة. وأخذ يقاتل القوم وهو يرتجز: «اليوم ألقى الأحبة، محمدا وحزبه.» ثم أدار بوجهه نحو إخوته في جيش الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وقال: «يا اهل الإسلام، اتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله؟ ألا إنه معاوية. فالعنوه لعنه الله وقاتلوه فإنه ممن يطفئ نور الله ويظاهر أعداء الله.»

يلتفت إليه أحد رجاله فيسأله: «يأ أبا اليقضان، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم قاتلوا الناس حتى يسلموا فإذا أسلموا عصموا من دمائهم وأموالهم؟» فأجابه عمّار: «بلى، ولكن و الله هؤلاء القوم (وأشار بيده نحو معسكر معاوية) ما أسلموا ولا عرف الإيمان طريقه الى قلوبهم ولكنهم إستسلموا خوفا على أنفسهم وأملاكهم. اظهروا الإسلام واسرُّوا الكفر واضمروا العداوة والنفاق للإسلام والمسلمين. أخذوا يتحينون الفرص للإنقضاض على الإسلام حتى وجدوا لهم على ذلك أعوانا فأظهروا ما أسّروا وأخرجوا ما أضمروا.»

كان لكلام عمّار وقع وتأثير في نفوس القوم، وخاصة جند معاوية. فبالإضافة إلى حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم عن أن عمّار تقتله الفئة الباغية، كان لمنطقه وقوة حجته تأثير على الناس. فأخذ بعض جنود معاوية، وخاصة من تشرف بلقاء الرسول وحج معه حجة الوداع وسمع أقوال الرسول في علي وأصحابه كعمّار بن ياسر، أخذوا يتسللون إلى صفوف الإمام أمير المؤمنين هربا من مغبة القتال مع معاوية وجيشه. وكان من جملة من تسللوا من معسكر معاوية شمر بن أبرهة وعدد من قُرّاء ورواة الحديث من أهل الشام.

ومرة أخرى ينظر معاوية إلى عمرو بن العاص يشكو له التطورات وما يحصل ويستشيره فيه. فيقول له عمرو: «يا معاوية، إنك تريد أن تقاتل بأهل الشام رجلا له من محمد قرابة قريبة ورحم ماسة وقدم في الإسلام لا يعتد أحد بمثله وأنه قد سار إليك بأصحاب محمد المعدودين وفرسانهم وقرائهم وأشرافهم ومن لهم في النفوس مهابة. فبادر بأهل الشام مخاشن الوعر ومضايق الغيض واحملهم على الجهد وآتهم من باب الطمع ومهما نسيت فلا تنسى أمرا مهما: إنك على باطل.»

لما سمع معاوية كلام عمر بن العاص سأله: ومالعمل؟ فقال له عمرو ان نتفق سوية على ان نعمل ما في وسعنا للمحافظة على تماسك الجبهة. فأجابه معاوية الى ذلك. فقال له عمرو: أجزل العطاء واترك الباقي عليّ.

أخذ معاوية يجزل العطاء ويعد بالجوائز الثمينة والعطايا النفيسة والمنح و الهبات السخية. أما عمرو ين العاص فقد أخرج رقعة سوداء وعلاّها في رأس رمح فلما رآها الناس دار الهرج والمرج بينهم. سأل أتباع الإمام علي بن أبي طالب عن سر تلك الرقعة فقال لهم إن تلك رقعة دفعها له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم على أن لا يقاتل بها مسلما ولا ينصر بها كافرا. ولكنه عمل بغير ما أمره رسول الله به وما تعهد هو به للرسول.

عطايا معاوية ورقعة عمرو بن العاص كانا كفيلين بأن ينقلا الهرج والمرج من معسكر معاوية إلى معسكر الإمام أمير المؤمنين. فأسرع عمّار وباقي أصحاب الإمام إلى قلب المعسكر للقاء أخوانهم وحمايتهم من وساوس الشيطان ومن تصديق ألاعيب معاوية وخدع بن العاص وعملا على المحافظة على ما بقي من تماسك القوم.

اما أمير المؤمنين عليه السلام فإنه لما رأى ما حصل ألقى في القوم خطبة بليغة حثهم فيها الجنود على الثبات على مواقفهم والكفاح في سبيل الله وقال: «معاشر المسلمين، استشعروا الخشية وتجلببوا السكينة وعضّوا على النواجد فإنه أنبى للسيوف عن الهام وأكملوا اللاّمة وقلقلوا السيوف في أغمادها قبل سلّها والحظوا الخزار واطعنوا الشزر ونافحوا بالظبا وصلوا السيوف بالخُطا. واعلموا انكم بعين الله ومع ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله. فعاودوا الكر واستحيوا من الفر فإنه عار في الأعقاب ونار يوم الحساب. وطيبوا عن أنفسكم نفسا. وامشوا إلى الموت مشيا سُجُحا وعليكم بهذا السواد الأعظم والرواق المطّنب. فاضربوا ثبجه (وسطه) فإن الشيطان

كامن في كسره. قد قدّم للوثبة يدا وأخّر للنكوص رجلا. فصمدا صمدا حتى ينجلي لكم عمود الحق ﴿ وَأَنتُمُ الأَعلَونَ وَاللهُ مَعَكُم وَلَن يَتِرَكُم أَعمَالَكُم. ﴾

إشتبك المعسكران وسقط من الجانبين الكثير من القتلى والجرحى وكان من جملة من قُتلوا من معسكر الإمام عمّار بن ياسر رضوان الله عليه ونال ما وعده رسول الله من الشهادة على يد فئة باغية قاتلت الله ورسوله وخليفة رسوله. حمل أمير المؤمنين عليه السلام جثمان عمّار إلى الخيمة ولما وضعه في الخيمة جعل يمسح الدم عن وجهه وهو يقول:

و ما ظبية تسبي القلوب بطرفها إذا إلتفتت خلنا بأجفانها سحرا
بأحسن منه كلّ السيف وجهه دما في سبيل الله حتى قضى صبرا

ظهر الضعف والإرتباك في جيش معاوية وعزم معاوية على الفرار ولكن بن العاص وسرجون نصحاه بأن لا يفعل ذلك وأخبراه بأنهما قد أعدّا خطة للتآمر والخديعة وسيستعملانها عندما يحين وقتها. فرجع إلى القتال وأخذ يبشر جنده بأن هزيمة الإمام باتت وشيكة.

بينما القتال على أشدّه وجنود الأمام باتوا على مقربة من فسطاط معاوية وإذا بالمصاحف ترفع ومناد من معسكر معاوية ينادي بأعلى صوته: «هذا كتاب الله بيننا وبينكم من فاتحته إلى خاتمته. الله الله في العرب. الله الله في الإسلام. من لثغور الشام إذا هلك أهل الشام؟ من لثغور العراق إذا هلك أهل العراق؟»

لما سمع الإمام ذلك عرف أن معاوية قد يئس من تحقيق نصر عسكري وهاهو يلجأ إلى الحيلة لوقف القتال وإنقاذ نفسه وجيشه، وهاهو يطبق ما اكلاه ابن العاص عليه. فأمر الأمام جنوده بمواصلة القتال وحاول جهده أن يقنعهم بأن تلك حيلة من حيل معاوية وأنهم أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من تحقيق

النصر ولكن كل محاولاته ذهبت سدى. لقد شرب القوم المتعبين من الحرب كأس الخداع الذي أسقاه لهم معاوية وإنطلت عليهم حيلته، وإرتفعت الأصوات من معسكر الإمام تنادي بوقف القتال والقبول بحكم القرآن.

توقف القتال ووضعت الحرب أوزارها بعد ثلاثة أشهر من القتل والقتال. وجلس الجانبان يفكران في من يمثلهما في التحكيم. فإختار معاوية عمرو بن العاص ممثلا له. وكان على معسكر الإمام أن يختار إما أبو موسى الأشعري أو عبدالله بن العباس، فهما من رشحهما المعسكر لتلك المأمورية. وكان لكل واحد منهما قومه ومسانديه. فقال الأمام عليه السلام إذا كان لا بد فليكن عبدالله بن العباس. ولكن جماعة الأشعري رفضوا ذلك وأصروا على أن يكون أبو موسى الشعري هو الممثل.

حاول الأمام إفهامهم بأن الأشعري ليس في مستوى ابن العاص، لكن العصبية العشائرية أعمتهم عن طريق الحق وأصرّوا على ترشيحه. فقال لهم الأمام إذا لم يكن بد من أن يكون الممثل من خارج البيت الهاشمي، وأن يكون يمانيا بالتحديد، فلنختر يماني آخر غير أبو موسى الأشعري واقترح أن يكون مالك الأشتر، فهو أيضا يماني ولديه المقدرة على مقارعة ابن العاص. أصّر القوم على عنادهم وما كان أمام أمير المؤمنين إلا التسليم لما أراده غالبية القوم، حفاظا على وحدة المسلمين.

كُتبت مسودة التحكيم حيث تضمنت ان يحيي الحكمان ما أحياه القرآن وأن يميتا ما أماته وأن يرجعا إلى السنة الجامعة في ما لم يرد في القرآن وأن على الحكمين عهد الله وميثاقه ان يصلحا بين الأمة ولا يدفعانها إلى فرقة أو حرب. كما إتفقا أن يضمن أي إتفاق يتوصلان إليه حقوق جميع المسلمين بغض النظر عن موقعهم ومكان إقامتهم. وإتفقا أيضا أن يستمرا في المباحثات حتى يتوصلا إلى حل عادل يرضي جميع الأطراف.

إستمرت المباحثات بين الرجلين لفترة طويلة لم يتمكنا من خلالها من الوصول إلى حل حول من يتولى شؤون المسلمين مؤقتا حتى يرى المسلمون رأيهم فيمن يختارون. وكان لدهاء ومراوغة عمرو بن العاص الفضل في فشل مباحثاتهما.

شاور أبو موسى الأشعري بعض أصحابه فقال له: لماذا لا تتبع قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله× فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا إن الله يحب المقسطين.﴾ فالفئة الباغية هنا هو معاوية لأن الإمام أصبح خليفة المسلمين بإختيارهم ومعاوية يريد نزع الخلافة قسرا وتحويلها إلى ملك تتوارثه بنو أمية. لكن أبو موسى رفض ذلك الإقتراح لا لشيء سوى أنه لا يرغب في إستمرار خلافة الإمام التي تتعارض ومصالحه وطموحاته. فقال: لا أريد الرجوع إلى الإقتتال. فقيل له: إذا لا تقدر على ذلك لإن ابن العاص لن يمكنك من أمر من شأنه حرمان صاحبه من الخلافة والإضرار بمصلحته هو في المقام الأول.

لما يئس أبو موسى الأشعري من الوصول إلى حل وإتفاق مع ابن العاص تقدم لإبن العاص بإقتراح مفاده أن يقوم الإثنان بخلع صاحبيهما وإختيار حكومة مؤقتة بديلة من خارج المعسكرين المتقاتلين. وهنا وجد بن العاص فرصته وتأكد من دنو تحقيق مأربه فأجاب أبو موسى الأشعري إلى ما طلب ووافق مباشرة على إقتراحه.

فرح أبو موسى الأشعري ظانا بأن الموضوع قد إنتهى إلى حيث يريد هو. فقال له ابن العاص: أوافقك على إقتراحك على أن تخلع أنت صاحبك أولا. فوافق أبوموسى على ذلك. ذهب الإثنان إلى حيث يسمعهما كل من كان في المعسكرين وقال بن العاص. لقد توصلنا إلى حل يرضي الجميع ويريح العباد

من القتال. فتوجهت الأنظار إلى حيث يقف الرجلان ووقف الجميع ينتظرون فحوى ذلك الحل وتفاصيله. فدعى بن العاص أبو موسى الأشعري لمخاطبة الناس فتقدم إليهم رافعا صوته حتى يتأكد من وصوله إلى كل من تواجد في المكان وقال: لقد إتفقنا على خلع صاحبينا وإختيار طرفا ثالثا محايدا لتولي شئوون المسلمين وهئنذا أخلع علي بن أبي طالب. ثم إلتفت أبوموسى الى ابن العاص داعيا إياه لخلع صاحبه. فتقدم ابن العاص وقال: أما أنا فلن أخلع صاحبي وقد ثبّتُ معاوية بن أبي سفيان.

نظر أبو موسى بذهول إلى ابن العاص وقال له: ليس ذلك ما اتفقنا عليه. فقال له ابن العاص: اتفقنا على ما سمعه القوم منّا. فعلم أبو موسى أنه وقع ضحية غدر وخديعة بن العاص وعلم معسكر أمير المؤمنين أن ممثلهم قد باعهم لخصمهم وأن تحذيرات الإمام عليه السلام من مغبة الإصرار على أبو موسى الأشعري كانت في محلها. ولكن معرفتهم وإعترافهم جاء متأخرا جدا. فلقد خانهم أبوموسى وأعطى معاوية المشرف على الهزيمة العسكرية نصرا عجز عن تحقيقه بنفسه. باع قومه وإمامه ودينه بثمن بخس وبغباء لم يسبقه أحد إليه.

الشمعة الثانية والأربعون

قائد لخير فرقة من الناس

يروي أبا سعيد الخدري قائلا: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وهو يُقّسم قسما (مما أفاء الله على المسلمين) إذ أتاه رجل يقال له ذو الخويصرة وهو رجل ذميم من بني تميم فقال: يا رسول الله أعدل. فقال الرسول: «و من يعدل إذا أنا لم أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أعدل.» فقام عمر بن الخطاب وقد إشتاط غضبا لأجل الرسول وقال للرسول: «إئذن لي فيه كي أضرب عنقه جزاء وقاحته.» لكن الرسول كريم حليم ما يغضب إلا لربه او لدينه أو لقومه. لا يغضب لنفسه او من اجلها ابدا. إن قاتل فإنما يقاتل في الله ولله وإن سالم سالم فإنما يسالم في الله ولله. لذلك شكر عمر على نخوته ونهاه عن ما كان قد عزم عليه من قتل ذو الخويصرة.

بعد أن رجع عمر الى مكانه التفت الرسول الى قومه فإذا على وجوههم الغضب مما سمعوه من ذى الخويصرة وقد أخذ الحنق منهم مأخذه. نظر صلى الله عليه وآله وسلّم الى القوم فتبسم في وجوههم، لعلمه بمصير ذى الخويصرة، واخذ يطمأن المسلمين ويريح أنفسهم مما أحدثه موقف ذلك المارق مبشّرا إياهم بأن أعمال ذلك المارق ستكون وبالا عليه وسيقوده ظلمه ومروقه عن الإسلام إلى هاويته التي هي شر هاوية.

أخبر الرسول الحضور وخاصة من تمكن منه الغيظ لمقولة ذو الخويصرة مثل عمر بأن ذلك المارق ليس الوحيد من شاكلته وأن له أصحابا وأتباعا وأعوانا وأنه وأصحابه وأتباعه واعوانه سيلاقون مصيرا أسودا على يد

رجل من رجال الله يحبه الله ويوفقه لمقاتلة المارقين فيقتلهم ويقضي عليهم وعلى مؤامراتهم ضد الإسلام. أخذ صلى الله عليه وآله وسلّم يبين لهم من هم أؤلئك المارقين أصحاب ذو الخويصرة وماهي صفاتهم واعمالهم موضحا فسادهم وانهم سيثورون على رجل هو افضل المؤمنين بعد رسول الله وفرقة هي امتداد لفرقة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وصحبه الكرام. بعد ذلك بين مصير أؤلئك المارقين.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن له (يعني ابو الخويصرة) أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن وهو لا يجاوز شفاههم، يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية، ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى نظيه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء، يبق الفرث والدم، آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدردر، يخرجون على خير فرقة من الناس فتقتلهم (تلك الفرقة و قائدها.)»

قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا الحديث من الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم وأشهد أني رأيت علي بن أبي طالب عليه عليه السلام يقاتلهم وأنا معه، وهم الخوارج أو الحرورية، فلّما إنتصرنا عليهم أمر أمير المؤمنين بأن يأتوا بذلك الرجل فإلتُمس فعثر عليه بين القتلى وجيء به الى علي فلما نظر إليه دمعت عيناه فذكر الرسول وصلى عليه. حققت في الرجل فإذا هو ذو الخويصرة وإذا به تماما كما قال رسول الله وكما وصفه.

فبعد مأساة ومهزلة التحكيم أصاب أصحاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حالة من الرفض للمصير الذي ساقهم إليه أبو موسى الأشعري. وإنقسم المعسكر إلى ثلاثة أقسام. قسم لم يفرح بما توصل إليه أبو موسى الأشعري ولكنه فرح بإنتهاء الحرب والرجوع إلى الديار وهم في الغالب أتباع

أبوموسى الأشعري ومن أصرّوا على تعيينه ممثلا لمعسكر الإمام. القسم الثاني هم أتباع الإمام الذين لا يحركون ساكنا دون موافقة الإمام. وهؤلاء بالرغم من أنه حزّ في أنفسهم خديعة ابن العاص لأبوموسى إلا أنهم رضوا بما أمرهم الإمام به وهو التسليم بما وصل إليه الأمر. فلقد وافقوا على التحكيم ووافقوا على تعيين أبو موسى على مضض مكرهين، تماما كما سكت الإمام على تعيينه حقنا لدماء المسلمين ومحافظة على الإستقرار الداخلي. لذلك وبالرغم أن سكوتهم كان اضطراريا دفعوا إليه وشربوه مُرّا إلا أنهم لا يرضون لأنفسهم الرجوع عن أمر رضوا به، أو هكذا بدى للناس.

أما القسم الثالث فقد طلبوا من الإمام رفض نتيجة التحكيم وطالبوه بأن يستأنف القتال. أخذوا يقولون للإمام بأن معاوية وأتباعه هم الفئة الباغية، خاصة وقد ثبت ذلك لديهم بقتلهم لعمّار بن ياسر. لذلك فهم يريدون تطبيق أمر الله وحكمه وهو قتال تلك الفئة الباغية. حاول الإمام إفهامهم بأن ذلك كان موقفه هو أيضا قبل قبول التحكيم ولكن هم وإخوانهم الذين أجبروه على قبول مهزلة التحكيم والتنازل عن موقفه. ولا يجوز له الآن رفض شيء قبل به.

كل محاولاته عليه السلام لثني تلك الفئة عمّا كانت عازمة ومصرة عليه باءت بالفشل. أصرت على عنادها واتخذت لنفسها شعار «لا حكم إلا لله» محذرة الإمام بأنه سيكون عدوها الأول إن هو لم يطاوعها ويعاود الحرب على معاوية حتى يقضي عليه.

تركهم الإمام وشأنهم آملا أن تهدأ فورتهم التي أوجدتها مهزلة التحكيم وان يتكفل بهم عامل الزمن. لكن عناد القوم كان اقوى من ان يمتصه الوقت. واصلوا عنادهم ورفضوا أن يغيروا موقفهم. وأخذوا يطورون موقفهم حتى وصل بهم الأمر الى اعتبار الإمام معطّل لأمر الله ولحدوده. ولأنهم سبق وان اعتبروا معاوية مستبيحا لشرع الله أعلنوها حربا على الإثنين.

بعث إليهم الإمام كتابا يشرح لهم فيه حقيقة ما حصل وحقيقة أمرهم ويخبرهم بأن إصرارهم بعد وضوح الرؤيا له معنى واحد فقط وهو خروجهم على الإسلام. وقال في كتابه: «إنا لم نُحّكم الرجال وإنما حكّمنا القرآن وهذا القرآن إنما هو خط مستور بين الدفتين لا ينطق بلسان ولا بد له من ترجمان. وإنما ينطق عنه الرجال ولمّا دعانا القوم إلى أن نحكم بيننا القرآن لم نكن الفريق المتولي على كتاب الله تعالى. وقد قال سبحانه ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ فرّده إلى الله أن نحكم بكتابه وردّه إلى الرسول أن نأخذ بسنته فإذا حُكم بالصدق في كتاب الله فنحن أحق الناس به وإن حُكم بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنحن أولاهم به.

ويواصل أمير المؤمنين عليه السلام قائلا لهم: "وأما قولكم لم جعلت بينكم وبينهم أجلا في التحكيم فإنما فعلت ذلك ليتبين الجاهل ويتثبت العالم ولعل الله أن يصلح في هذه الهدنه أمر هذه الأمة ولا تُؤخذ بأكظامها فتعجل عن تبين الحق وتنقاد لأول الغي. إن أفضل الناس عند الله من كان العمل بالحق أحب إليه وإن نقصه وكرثه (أحزنه) من الباطل وإن جرّ إليه فائدة وزاده. أين يُتاه بكم؟ من أين أُتيتم؟ استعدوا للمسير في قوم حيارى عن الحق لا يبصرونه وموزعين بالجور لا يعدلون به. جُفاة عن الكتاب نُكّب عن الطريق. ما أنتم بوثيقة يعلق بها ولا زوافر عز يعتصم إليها. لبئس حُشّاش نار الحرب أنتم. أف لكم لقد لقيت منكم برحا يوم أُناديكم ويوم أناجيكم. فلا أحرار عند النداء ولا إخوان ثقة عند النجاء.»

لم ينفع معهم خطاب الإمام لهم ولا كشفه للحقائق وتبيانه للأمور. أصروا على عنادهم وبدأوا حربهم ضد الإمام علي وشنّوا حملات إرهابية هي الأولى من نوعها. فأخذوا يقتلون وينهبون كل من يخالفهم وخاصة أولئك الذين ما زالوا واقفين ومؤيدين للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. اعترضوا عبد الله بن الخباب وكان يسير مع زوجته لقضاء حاجة لهما وسألوه عن رأيه

عن التحكيم وموقفه هو من الإمام أمير المؤمنين. فقال لهم: «إنه (يقصد أمير المؤمنين) والله أعلم بالله منكم وأشد توقيا على دينه وأنفذ بصيرة منكم.» طبعا لم يرضهم رده بل أغاظهم فأخذوه وكتّفوه هو وإمرأته وكانت حينها حُبلى وذهبوا بهما إلى النخيل ثم ذبحوه على ضفة النهر وأسالوا دمه في النهر بمرئ وبمسمع من زوجته ثم أقبلوا نحوها فناشدتهم الله أن يتركوها ولكنهم أجابوها بأن بطحوها أرضا على ظهرها ثم بقروا بطنها وأخرجوا جنينها وتركوها تنزف وتتألم هي وجنينها حتى الموت.

أولئك الناس هم الذين عرفوا بالحرورية أو الخوارج. لقد دفعهم حلم الإمام عليه السلام وحرصه على الحفاظ على دماء المسلمين إلى التمادي في غيهم وطغيانهم وظلمهم وفسادهم وإرهابهم للمسلمين وخاصة صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذين إتبعوا الأمام وعملوا بأمره وإقتنعوا بوجاهة سياسته. فكان نصيب أولئك الرجال وتلك النسوة الأفاضل القتل والتنكيل وهتك الأعراض وسلب الأموال على أيدي أولئك المجرمين المارقين.

أصبح إرهابهم حديث المجتمع الكوفي والإسلامي بصفة عامة. امتعض الناس مما يتعرضون له من قبل الخوارج ولجئوا الى أمير المؤمنين عليه السلام طالبين منه وضع حد لإرهاب الخوارج. وبعد أن أبلغ في الإنذار لم يكن أمام أمير المؤنين من خيار سوى محاربتهم ووضع حد لآثامهم وإرهابهم وحفظ دماء واعراض واموال المؤمنين الذين لا ذنب لهم سوى انهم عرفوا طريق الحق فاتبعوه واصروا عليه.

لكنه، ولحبه عليه السلام للحلول السلمية وتفضيله لها، رأى ان يكرر نصحهم وان يحاول إقناعهم مرة اخرى بتغيير مواقفهم وأي يشاور أصحابه ومستشاريه في أمرهم. وكان من جملة من إستشاره في امر الحرورية وبعثه الى حوارهم ومحاولة اقناعهم ابن عباس. يروي رواة الحديث عن إبن عباس

قوله: لما خرجت الحرورية (على علي بن أبي طالب) إعتزلوا في دار وكانوا ستة آلاف شخص. فقلت لعلي بن أبي طالب: يا أمير المؤمنين لعلي آتي هؤلاء القوم فأكلّمهم. فقال لي: إني أخافهم عليك. قلت لا بأس من المحاولة. فقال لا بأس.

يواصل بن عباس حديثه: فقمت وخرجت من عند علي عليه السلام وتوجهت إليهم فوصلتهم في نصف النهار. فسلّمت عليهم فرحبوا بي قائلين: مرحبا بك يا إبن عبّاس، مالذي جاء بك؟ قلت لهم: أتيتكم من عند أصحاب النبي صلى الله عليه وآله و سلّم ومن عند صهره وبن عمه، ومن عليهم نزل القرآن وهم أعلم بتأويله منكم وليس فيهم منكم أحد (مثلهم في قوة الحجة والبيان بينكم) لأبلّغكم ما يقولون وأخبرهم بما تقولون.

فإنتحى منهم نفر (عرضوا أنفسهم للمحاججة وإعطاء البينة) فقلت لهم: هاتوا ما عنكم من الأسباب والعلل. على ماذا نقتم على إبن عم رسول الله وأصحاب رسول الله؟ قالوا: ثلاث. قلت: ما هن؟ قالوا: إحداهن أنه حكّم الرجال في أمر الله والله تعالى يقول في كتابه الكريم: إن الحكم إلا لله، فما شأن الرجال في الحكم؟ قلت: هذه واحدة، فمالثانية؟ فقالوا: إنه قاتل ولما ربح الحرب لم يسبي ولم يغنم (يقصدون بذلك موقعة الجمل)، فإن كان الذين قاتلهم (معسكر أم المؤمنين) كفّارا فقد حلّ سبيهم واخذ ممتلكاتهم وإن كانوا مسلمين فما حلّ سبيهم ولا ممتلكاتهم ولا حتى قتالهم. قلت: فمالثالثة؟ فقالوا: فإمّا الثالثة فإنّه محى إمارة المؤمنين عن نفسه، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين.

يقول بن عباس، فقلت لهم: هل عندكم غير هذا؟ قالوا: حسبنا هذا. قلت لهم: هل رأيتم ان قرأت عليكم من كتاب الله عزّ وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلّم ما يردّ قولكم ويبطل دعواكم، أترجعون؟ قالوا: نعم.

قلت لهم: أما قولكم أنه حكّم الرجال في أمر الله فأنا أقرأ عليكم من كتاب الله أن قد صيّر الله حكمه إلى الرجال في ثمن ربع درهم فأمر الرجال أن يحكموا فيه. قال تعالى في سورة المائدة، الآيه ٩٥: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللّهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللّهُ مِنْهُ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ.﴾ أناشدكم الله أحكم الرجال في أرنب ونحوها من الصيد أفضل أم حكمهم في دمائهم وصلاح ذات بينهم، وأنتم تعلمون أن الله تعالى لو شاء لحكم هو (حدد الحكم) ولم يُصيّر ذلك إلى الرجال. فقالوا: بل هذا أفضل.

قلت: وأيضا صيّر الله حكمه إلى الرجال في خلاف المرأة مع زوجها فقال عزّ وجل: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا.﴾ ناشدتكم الله حكم الرجال في صلاح ذات بينهم وحقن دمائهم وحفظ أرواحهم وأملاكهم أفضل أم حكمهم في أمر حالة إمرأة واحدة أو بضع نساء؟ قالوا: صدقت. قلت: أخرجت من هذه المسألة؟ قالوا: نعم.

قلت: وأمّا قولكم: «قاتل ولم يسب ولم يغنم» أفتسلبون أمكم وتستحلون منها ما تستحلون من غيرها وهي أمكم؟ فإن قلتم إنكم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها فقد كفرتم ولئن قلتم إتها ليست بأمنا فقد كفرتم لأن الله تعالى يقول في سورة الأحزاب: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ فأنتم بعملكم هذا تدورون بين ضلالتين. فإتوا بمخرج من هذه إن إستطعتم. فلم يردوا جوابا. فقلت لهم. أخرجت من هذه الحجة أيضا؟ قالوا: نعم.

وأما قولكم أنه محى أمير المؤمنين من إسمه فأنا آتيكم بمن ترضون، وأراكم سمعتم أنتم أيضا بذلك، بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلّم يوم صالح المشركين يوم الحديبية أمر علي بن أبي طالب أن يكتب معاهدة الصلح التي قام هو بإملائها عليه. فقال له: أكتب. هذا ما صالح عليه محمد رسول الله. فإعترض المشركون على تلك الصيغة وقالوا: لا والله ما نعلم أنك رسول الله ولو كنا نعترف بذلك لأطعناك وما قاتلناك، فإكتب محمد بن عبد الله. فقال الرسول لعلي: أمح كلمتي رسول الله، إن الله ليعلم بأني رسوله، وإكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله. فكان الإتفاق بهذه الصورة. فوالله إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خير من علي وقد محى ذلك حقنا للدماء. ولكن المحو لم يخرجه من النبوة والرسالة. فأيهما أهم النبوة ام الإمامة؟ فقالوا: صدقت.

يقول إبن عباس انه بعد تلك المناظرة رجع من تلك المجموعة ما يقارب الألفان عن غيّهم وانسحبوا من ذلك التجمع وتلك المعارضة أما الباقين فقد أصرّوا على ضلالهم وبغيهم وعنادهم وفضلوا قتال أمير المؤمنين.

بعد أن فشل تبيان بن عباس معهم جمع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام جيشه وخطب فيهم مبينا لهم إنه قد إستنفذ جميع الوسائل السلمية مع الخوارج ولقد دعاهم الى الصلح والتوبة عمّا هم فيه من الغي والضلال ولكنهم لم يصغوا لدعواته ولم يستحيبوا لندءاته. ولم يبقى أمامه سوى قتالهم ووضع حد لإرهابهم للمسلمين وفسادهم في أرض الله.

و لأنه عليه السلام يعلم بأن أصحابه راجعين لتوهم من حرب أرهقتهم وخسروا فيها نصرا كانوا قريبين من تحقيقه، مما جعلهم محبطين وفي وضع هو بالتأكيد لا يسمح لهم بخوض حرب جديدة في ظل تلك النفسيات المحبطة، أراد أن يرفع من معنوياتهم ويزيل ما يعانونه من ألم الحسرة والمرارة. فجعل

يطمأنهم ويبشرهم بنصر حاسم وسريع وغير مكلف قائلا لهم: «مصارعهم دون النطفة (قبل أن يتمكنوا من الوصول إل النهر) والله لا يفلت منهم عشرة ولا يهلك منكم عشرة.» وهذا وعد من الإمام بسرعة المعركة والنصر فيها بأقل عدد من الخسائر. ولم يكن جيش الإمام بحاجة لغير تلك البشارة ليرفع من معنوياته ويثبت قوته و مكانته.

تحرك الإمام بجيشه فإلتقى بجيش الخوارج في منطقة يقال لها النهروان. فأمر الإمام جيشه بالنزول على النهر. ولما عسكر الجيش ارسل الإمام إلى الخوارج من يقول لهم بأن الأمام سيكتفي منهم بإرسال من قام بأعمال القتل والنهب و السلب والتعذيب ليقتص منهم ويطبق الحد عليهم ويسترجع حقوق الناس منهم بعدها يذهب كل واحد الى حال سبيله، حتى وإن لم يقبلوا به أميرا عليهم. قال لهم:«ادفعوا لنا قتلة اخواننا ليقام الحد عليهم ثم أنا تارككم وكاف عنكم فلعل الله يقلب قلوبكم ويردكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم.»

أخذهم الغرور وعدّوا كلام الإمام مبعثه الخوف من قتالهم لذلك او عدم ثقة في من معه فكان ردهم: «كلنا شاركنا في قتلهم وكلنا مستحل لدمائكم ودمائهم وأموالكم وأموالهم و أعراضكم و أعراضهم.»

لما سمع الإمام ردهم إسترجع قائلا: إنا لله وإنا إليه راجعون. قرر أن يذهب إليهم بنفسه وينصحهم. فلما وصل قريبا منهم قال لهم: أكُلّكم شهد معنا صفين؟ فقالوا: منا من شهد ومنا من لم يشهد. فقال لهم: فأمتازوا فرقتين. فليكن من شهد صفين فرقة ولم من يشهدها فرقة حتى أُكلّم كلا بكلامه. ولما فعلوا ما أمرهم توجه عليه السلام إلى الجمع وقال: أمسكوا عن الكلام وأنصتوا لقولي وأقبلوا عليّ بأفئدتكم فمن نشدناه شهادة فليقل بعلمه فيها.

توجه إلى الفرقة التي شهدت صفين وقال لهم: ألم تقولوا عند رفعهم المصاحف حيلة وغيلة ومكرا وخديعة (بأن أولئك القوم) إخواننا وأهل دعوتنا استقالونا واستراحوا إلى كتب الله سبحانه والرأي القبول منهم والتنفيس عنهم فقلت لكم هذا أمر ظاهره إيمان وباطنه عدوان وأوله رحمه وآخره ندامة، فأقيموا على شأنكم وإلزموا طريقتكم وعضوا على الجهاد بنواجذكم ولا تلتفتوا إلى ناعق نعق إن أجيب أضل وإن تُرك ذل...أيتها العصابة التي اخرجها عداوة المراء واللجاجة وصدها عن الحق الهوى وطمح بها النزق واصبحت في الخطب العظيم، إني نذير لكم ان تصبحوا تلعنكم الأمة غدا صرعى بأثناء هذا الوادي وبأهضام هذا الغائط بغير بينة من ربكم ولا برهان مبين. ألم تعلموا اني نهيتكم عن التحكيم ونبأتكم انها مكيدة وان القوم ليسوا بأصحاب دين فعصيتموني. فلما فعلت شرطت واستوثقت على الحكمين ان يحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن فإختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنة. فنبذنا أمرهما ونحن على الأمر الأول. فمن أين أتيتم؟»

ثم إلتفت إلى الفرقة الثانية والتي لم تشهد صفين فخاطبهم: «أما بعد فإن من لم يحذر ما هو صائر إليه لم يقدم لنفسه ما يحرزها. وإعلموا أن ما كُلفتم به يسير وأن ثوابه كثير. ولو لم يكن فيما نهى الله عنه من البغي والعدوان عقاب يُخاف لكان في ثواب اجتنابه مالا عُذر في ترك طلبه. فأنصفوا الناس من أنفسكم.»

كان لكلام أمير المؤمنين عليه السلام وقعا حسنا عند بعض القوم فأخذوا يتسللون من معسكر الخوارج راجعين إلى ديارهم. أما الأكثرية فأصروا على عنادهم وأبوا إلا القتال. ولعلم الإمام عليه السلام أن من بين القوم من يريد الرجوع ولكن خوفهم من غضب قومهم وجفاء من هم في معسكر الأمام لهم صعّب الأمر عليهم الرجوع ولم يجدوا مفرا من البقاء في جيش الخوارج، بالرغم من إقتناعهم بكلام الإمام، رأى الإمام أن يعطي تلك الفئة فرصة

يضمنون من خلالها العود الحسن والكريم. فدفع إلى أبو أيوب الأنصاري راية سمّاها راية الأمان وأمره أن يأخذها قريبا من القوم وينادي: من جاء تحت هذه الراية فهو آمن ومن لم يقاتل فهو آمن ومن ينصرف إلى المدائن والكوفة فهو آمن ومن خرج من هذه الجماعة فهو آمن. لا حاجة لنا في دمائكم بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم.

لما عرف القوم الذين اقتنعوا بكلام الإمام بأن الإمام وفّر لهم الملاذ الآمن والكريم أخذوا يتركون مواقعهم ويغادرون معسكر الخوارج سالكين الجهات الآمنه الموفرة لهم.

نظر قادة جيش الخوارج الى معسكرهم وإذا لم يبقى فيه إلا نصف الجيش أو أقل من النصف. احتاروا فيما يفعلون وكلام الإمام وقوة منطقه حجته تعمل عملها في اصحابهم. اما الإمام فقد أمر عليه السلام أصحابه بعدم الهجوم على القوم علّهم يراجعوا أنفسهم ويوفروا على أنفسهم القتل والذل.

لكن ذلك لم يكن رأي ولا موقف زعماء الجبهة المقابلة، الخوارج. لما رأى قادتهم ما حل بمعسكرهم من تضعضع وتفتت قرروا أن يبدؤا بالهجوم قبل أن يحل بالمعسكر المزيد من الضعف والهوان والتفكك. فشنوا هجومهم على معسكر الإمام الذي كان على أهبة وأتم الإستعداد للقتال. فحاصرهم أصحاب الإمام من ثلاث جهات وتركوا الجهة الرابعة لمن أراد الفرار منهم وترك ساحة القتال.

لم تدم المعركة طويلا، وكانت كما وعد أمير المؤمنين أتباعه قصيرة وقليلة الخسائر، في صفوف معسكر الإمام، وقاصمة ومدمرة بالنسبة للخوارج الذين أخذوا يتساقطون إلى الأرض بين قتيل وجريح. ولم يُقتل من معسكر

الإمام إلا سبعة فقط وعلى الجانب الآخر لم يسلم من الخوارج إلا عشرة، فروا بأنفسهم خوفا من أن يلحق بهم ما لحق بإخوانهم من قتل وإصابات.

يروي الإمام مسلم في صحيحه عن زيد الجمهي أنه، أي زيد، كان في جيش الإمام الذي قضى على فتنة الخوارج. فلما إنتهت الحرب سمع الإمام علي عليه السلام يقول: «إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يقول: يخرج قوم من أمتي يقرأون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرأون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية. لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم بما قضي عليهم على لسان نبيهم لنكلوا عن العمل، وآية ذلك أن فيهم رجلا له عضد وليس له ذراع على رأس عضده مثل حلمة الثدي عليه شعرات. فإلتمسوا ذلك المخدج.»

فقام جماعة من أصحاب الإمام يلتمسون ذلك الأخدج فلم يجدوه. فرجعوا إلى الإمام وأخبروه بأنهم لم يعثروا على رجل بين القتلى فيه تلك الصفات. فقال لهم الإمام ربما لم تبحثوا جيدا. فقام معهم وذهبوا إلى ساحة المعركة. فبينما هم يمشون بين القتلى وإذا بكومة من الرجال قد وقع بعضهم على بعض. فقال الإمام: «فرقوا هذه الجثث.» فلما فرّقت الجثث عُثر عليه في اسفل الكومة ووجهه مما يلي الأرض. فلما رآه الإمام كبّر وقال: «صدق الله و بلغ رسوله.»

الشمعة الثالثة والأربعون
عادل أثرى القضاء بنماذج قضائية ومرافعات هي الأولى من نوعها

بعد دخول اليمن الإسلام بعث أعيانها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يطلبون منه أن يرسل لهم أحد ثقاته يقضي بينهم بالعدل وينشأ لهم نظاما قضائيا إسلاميا. فلما سمع الرسول طلبهم رأى بأن أنسب شخص لهذه المهمة هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. خاصة وأن الوفد اليمني أبدى رغبة في أن يكون الشخص الذي يرسله الرسول اليهم هو أحد ثقاته.

طلب الوفد اليمني لم يكن اعتراضا على اختيار الرسول ولكن لعلمهم بأن من بين من دخل في الإسلام من إخوانهم اليمنيين من لم يتمكن الإسلام من قلبه بعد وأن وجود شخص قريب من النبي يحكم بينهم سيسهل المأمورية وينشر العدل.

وما كان الرسول ليتأخر عن تنفيذ رغبة من رغبات المسلمين. وجد بأن أقرب الناس اليه هو علي بن ابي طالب عليه السلام وهو أفضل من تنطبق عليه المواصفات التي ابداها اليمنيون. كما أن علي بن أبي طالب يحظى بحب وتقدير اليمنيين وخاصة بعدما لمسوا منه من تسامح ومودة خلال حروب اليمن الذي أشرف عليها حيث كان الفاتح الذي لم تنسه نشوة فتوحاته واجباته الدينية والأخلاقية تجاه من فتحت ديارهم، على عكس ما فعله بعض القادة المسلمين.

إستدعى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم علي بن أبي طالب عليه السلام وكان حينها شابا حديث السن. فلما حضر بين يديه أخبره بالمهمة التي قرر إسنادها إليها. فلما سمع أمير المؤمنين كلام الرسول أطرق برأسه إلى الأرض. علم الرسول بأن علي لديه رأي ولكن كالعادة أخلاقه تمنعه من إبدائه أمام الرسول حتى لا يعتبره الآخرون وضعاف الإيمان إعتراضا على أمر الرسول.

طلب الرسول منه إبداء رأيه فقال علي: إنك تبعثني إلى قوم أسنّ مني فكيف القضاء فيهم. نظر الرسول إلى علي وأمره أن يتقدم نحوه. فلما صار قريبا منه أخذ يده الشريفة ومسح بها على قلب علي وقال: «اللهم إهد قلبه وسدد لسانه. إن الله سيهدي قلبك ويُثبّت لسانك. يا علي، إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول، فإنك إن فعلت ذلك تبين لك القضاء.»

ثم أخذ الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم يزوده بتعاليمه وإشاداته ونصائحه وتوجيهاته ويُغذيه بعلمه. أخذ الرسول يسهب في ذلك وكلما زق علما لأمير المؤمنين قابله أمير المؤمنين بقلب مفتوح يستوعب ما يلقى اليه بسلاسة وفهم وادراك لا مثيل له.

أما من حضر من المسلمين فقد أخذتهم الدهشة من سرعة نقل النبي للمعلومات ومن سرعة تلقي وفهم واستيعاب علي لها. يختصر أمير المؤمنين عليه السلام ما حصل عليه من علوم ودروس من الرسول في ذلك اليوم فيقول: «فما شككت في قضاء بين إثنين وما صعب علي حكم منذ ذلك الوقت.» وهذا تبيان واضح وصريح للكم الهائل من المعلومات التي نقلها الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم الى أمير المؤمنين في تلك الفترة القصيرة من الزمن.

هذه الرواية التي رواها غالبية رواة المسلمين، ان لم يكن كلهم، وذكرها الشيخ النسائي الشافعي عن أكثر من مصدر في كتابه «خصائص الإمام أمير المؤمنين،» تدل على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلّم أعدّ الإمام علي عليه السلام ليكون أفقه وأقضى وأعدل الناس بعده، تماما كما هيأه ليكون أشجع الناس بعده وأقواهم جنانا وأكثرهم إيمانا ويقينا وعلما وأرحمهم على عباد الله.

وهذا بالفعل هو ما حدث. فلقد أثبتت الأحداث والتطورات التي حدثت بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم بأن علي بن أبي طالب لما رأى صدود الناس عنه إستغنى عنهم وإبتعد ونأى بنفسه عنهم وعن تكالبهم وتقاتلهم على الخلافة وعلى قيادة الناس وعلى الأمور الدنيوية. لكنهم وبالرغم من إصرارهم على إبعاده عن مركزه وسلبه حقه إحتاجوا إليه ولم يستغنوا عنه ولا عن علمه وعدله وحكمته وشجاعته.

ذهب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى اليمن وأخذ يحكم بينهم بالحق ويدرب قضاة يوليهم المسؤولية بعده. ورُفعت أيام توليه القضاء في اليمن قضايا معقدة وصعبة ولكن أمير المؤمنين أوجد لها أحكاما لم يسبقه إليها أحد قبله.

من أشهر القضايا التي رفعت إليه أيام توليه القضاء في اليمن قضية أربعة أشخاص وقعوا في حفرة بها أسد فقضى عليهم وقضية البقرة التي قتلت حمارا. فحوى الأولى ان أسدا دخل قرية من قرى اليمن وبينما هو في سككها إذ وقع في حفرة لم يستطع الخروج منها. فأقبلو الناس ينظرون إليه وهو في تلك الحفرة العميقة. وبينما هم كذلك إذ زلّت قدم شخص منهم كان على شفير الحفرة فمسك بثوب شحص آخر والثاني مسك بثوب شخص ثالث ومسك الثالث بثوب شخص رابع وهكذا سقط الأربعة جميعا في الحفرة فقضى

عليهم الأسد. فأخذ أهاليهم يطالبون بالدية، كل عائلة شخص تطلب الدية من الشخص الذي تسبب في موت إبنها من خلال تمسكه بثيابه.

بعد مشاورات بينهم اقترحت مجموعة منهم على أن تكون عائلة الشخص الأول هي التي تدفع الديات لكل من وقع في الحفيرة لأنه لولا ابن تلك العائلة لما وقع الثلاثة التالين في الحفرة. احتدم الجدال بينهم وخاصة بين اصحاب ذلك الإقتراح والعائلة المعنية ولما لم يتوصلوا الى حل قرروا رفع الأمر إلى أمير المؤمنين عليه السلام ليحكم في القضية بما يراه.

ذهبوا الى الإمام ولمّا قصوا عليه القصة قال لهم: لا تقتلوا أنفسكم ورسول الله حي وأنا بينكم. إني قاض بينكم بقضاء، إن قبلتموه وإلا فإرسلوا إلى رسول الله يحكم بينكم. إستراحوا لرأي الإمام و أخذوا يستمعون اليه.

أمرهم أن يجمعوا دية تامة من القبائل الذين شهدوا الحدث ونصف دية غيرها وثلث ديه وربع دية. فلما جُمعت كلها أعطى أهل الأول ربع الدية من أجل أنه أهلك فوقه ثلاثة، وأعطى الذي يليه ثلث دية لأنه أهلك فوقه إثنان وأعطى الثالث نصف دية لأنه أهلك فوقه واحد وأعطى الرابع دية كامة لأنه لم يهلك أحد فوقه.

لما سمعوا قضاء على منهم من قبل به ومنهم من لم يقبل. فلما علم أمير المؤمنين بعدم قبول البعض بما قضى به لم يجبرهم على قبول قضائه بل خلق لهم فرصة ليستأنفوا الحكم عند من هو أعلى منه في القضاء وأعلم منه. وكان بعمله ذلك أول من أدخل مبدأ عملية الإستئناف في القضاء.

نظر أمير المؤمنين الى من لم يعجبه قضائه وقال لهم: تمسكوا بقضائي حتى تأتوا رسول الله فيكون القاضي بينكم. فوافقوا على ذلك وبعثوا إلى رسول الله. ولما وصل وفدهم إلى رسول الله أخبر الوفد الرسول بما قضى به علي بن

أبي طالب فقال لهم الرسول: لقد قضى بينكم بما أنزل الله والأمر كما قضى. فقبلوا به.

أما قضية البقرة فرفعت له قضية مفادها أن بقرة قتلت حمارا فأخذ مالك الحمار يطالب مالك البقرة بثمنه. ولما لم يتوصلا إلى حل بينهما رفعا القضية إلى أمير المؤمنين عليه السلام. فقال لهما أن كانت البقرة دخلت على الحمار في منامه وقتلته فعلى ربها (مالكها) قيمة الحمار وإن كان الحمار هو الذي دخل عليها منامها فقتلته فلا غرم على صاحبها. لم يعجب صاحب الحمار حكم الإمام لأن الحمار هو الذي دخل على البقرة زريبتها. فرفع الأمر إلى رسول الله فأقره رسول الله وقال: الحمد لله الذي جعل فينا أهل البيت من يقضي على سنن داوود.

هذه القضايا وكثير غيرها شجعت كثير من اليمنيين على طلب علم القضاء فتتلمذ على يدي أمير المؤمنين الكثير منهم مما ساعد في سرعة إنشاء المحاكم في اليمن وتوفير قضاة مؤهلين يديرون شؤون البلاد ويبسطون العدل والأمن والإستقرار فيها.

ولما تأكد لعلي سلامة القضاء ومتانة المؤسسات العامة في اليمن أرسل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يخبره بما تم تحقيقه. فأرسل الرسول له يأمره بأن يعين رئيسا للقضاة من اليمن ويعود بعد ذلك إلى المدينة. وهذا ما قام به أمير المؤمنين.

بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وبالرغم من وجود قضاة وعلماء من الصحابة بما في ذلك الخليفة الأول أبابكر والخليفة الثاني عمر، إلا أن دور الإمام أمير المؤمنين في القضاء كان ضرورة لا يمكن الإستغناء عنها.

فكما كان الرسول هو رئيس محكمة الإستئناف والمميز الأول للأحكام في حياته كذلك كان الإمام أمير المؤمنين بعد وفاة الرسول. قام بين المسلمين بالدور الذي كان يقوم به الرسول وعمل على إقامة العدل بين الناس وضمان حقوقهم.

رُفع إلى أبي بكر بأن رجلا شرب الخمر ولما أُحضر بين يديه سأله عن ما نسب اليه وما قيل عنه فإعترف بذنبه فأمر أبا بكر بإقامة الحد عليه. نظر الرجل الى ابي بكر وأخبره بأنه شربها وهو لم يعلم بتحريمها وأنه نشأ في قوم يستحلونها. لم يشأ أبابكر أن يظلم الرجل فقال له: قم معي إلى علي بن أبي طالب لنرى رأيه. جاءا إلى علي وأخبراه بالقضية فقال أمير المؤمنين: مُر رجلين أهل ثقة من المسلمين يطوفان به على مجالس المهاجرين والأنصار يناشدانهم: هل فيهم أحد تلى عليه آية التحريم أو أخبره بها فإن شهدا بذلك رجلان فأقم عليه الحد وإن لم يشهد أحد فإستتبه وخل سبيله.

بينما الخليفة الثاني عمر بن الخطاب في المسجد إذ جيء له بإمرأة وهي تبكي من شدة ما تقاسيه من إزدراء الناس لها والناس من خلفها تلعنها وتصفها بأقسى وأرذل الصفات. فلما أُدخلت عليه سألهم عن الموضوع فقيل له إنها زانية. فسألهم عن الدليل فقيل له بأنها ولدت بعد ستة أشهر من زواجها. فسألها عمر عن صحة ما نُسب إليها فقالت له صحيح أنها ولدت بعد ستة أشهر من الزواج ولكنها أقسمت بأنها لم تعاشر رجلا غير زوجها. فرأى ان يحكم عليها عمر بالرجم.

لكنه قبل أن يصدر حكمه إلتفت إلى مستشاره الذي بجانبه، علي بن أبي طالب، وقال له: إني أرى رجمها فما رأيك أنت يا أبا الحسن؟» فقال له أمير المؤمنين: «لو خاصمتك المرأة بكتاب الله لخصمتك. إن الله سبحانه وتعالى يقول: وحمله وفصاله ثلاثون شهرا. ويقول سبحانه وتعالى في آية

أخرى: والولدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة. فإذا أتمت المرأة الرضاعة وكانت مدة الحمل والفصال ثلاثين شهرا كان الحمل ستة أشهر.» نظر عمر إلى علي بإعجاب وفرحة الواثق من رجاحة وسداد رأي مستشاره على وجهه. أخلى سبيل المرأة وأمر بالتأكيد على صحة وسلامة الحمل وإقرار صحة نسب المولود.

و تتكرر القصة ولكن هذه المرة مع إمرأة زنت وحملت من زنى فأمر عمر برجمها وكان أمير المؤمنين علي بن ابي طالب حاضرا فقال: هب ان لك سبيلا عليها فأي سبيل لك على ما في بطنها والله سبحانه و تعالى يقول: ﴿و لا تزر وازرة وزر أخرى.﴾ فقال عمر: لا بقيت لمعضلة لا يكون لها أبو الحسن علي. فما أصنع بها؟ فقال له أمير المؤمنين: إحتط عليها (إعتقلها) حتى تلد فإذا ولدت ووجدت لولدها من يكفله فأقم عليها الحد. امر عمر بإعتقالها وتعهدها فلما جاء وقت ولادتها قام المسؤول عنها بتهيئة امور ومتطلبات الولادة لها فولدت بسلام لكنها ماتت في نفاسها فقال عمر: لولا علي لهلك عمر.

رفع إلى عمر أن إمرأة كانت تسامر الرجال في بيتها. فأرسل جنده إليها فلما طرقوا بابها وعلمت بأنهم مرسلون من قبل الخليفة إرتعبت وفزعت ووقفت لتمشي معهم فزلت قدمها من الخوف وسقطت إلى الأرض وأسقطت جنينها حيا وبعد فترة قصيرة مات الجنين. فبلغ عمر ذلك فجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وسألهم عن رأيهم فقالوا له: نراك مؤدبا لم ترد إلا خيرا ولا شيء عليك.

وكان أمير المؤمنين حاضرا لكنه لم يبدي رأيا. فقال له عمر: قل رأيك يا أبا الحسن. فقال الإمام: إن كان القوم قد قاربوك فقد غشّوك وإن كانوا قد إرتأوا فقد قصروا. إن الدية على عاتقك لأن الصبي قُتل خطأ. فقال عمر: والله لا تبرح حتى تجري الدية علي.

أحبت إمرأة رجلا من الأنصار وطلبت منه الزواج منها ولكنه لم يُجبها إلى ذلك. وكلما تمنّع عنها إزدادت عشقا وهياما به. ولما يئست من الفوز به قررت الإنتقام منه. فأخذت بيضا وكسرته ثم أخرجت صفار البيض منه وصبّت البياض على ثيابها وبين فخذيها وجاءت بعد ذلك إلى عمر فقالت: يا أمير المؤمنين إن فلان أخذني إلى موضع منعزل وفضحني وهذه آثار عمله الرديء.

أمر عمر بأن يأتوا باالأنصاري المتهم ولمّا حضر أخبره عمر بما تدعيه الإمرأة فنفى الأنصاري التهمة وقال إنها هي التي كانت تحاول التقرب منه وهو يصدها. لكن عمر أخبره بأن آثار جريمته واضحة وأن نكرانه لا يفيده شيئا. فهّم عمر أن يُعاقب الأنصاري فنظر الأنصاري إلى علي، وكان جالسا في المجلس، وقال له: دخيلك يا أبا الحسن. إلتفت عمر إلى أمير المرمنين وقال له: ما تقول يا أبا الحسن؟ فقال أمير المؤمنين: آتوني بماء يغلي. ولما جيء له بالماء سكبه على البياض الذي على ثوب المرأة وإذا بالبياض قد تجمّد وأصبح بيضا مسلوقا. فلما رأت المرأة ذلك إعترفت بذنبها وبفعلتها.

جاء شاب إلى عمر يستغيث قائلا له إن أمه تبرأت منه وطردته من البيت وإستحوذت على كل ما يمكله. فأرسل عمر إلى أمه فحضرت وأحضرت معها شهودا يشهدون على أنها ليست بأمه ومن جملة الشهود إخوانها الخمسة. فلما وقفت بين يدي عمر سألها عن قولها في ما يدعيه الشاب فحلفت أنها لا تعرفه وأن الشاب يريد أن يوقع بينها وبين عائلتها وأنها بكر لم تتزوج. سأل عمر الشهود فأكدوا قولها. فأمر بالشاب إلى السجن.

بينما الشرطة يأخذون الشاب إلى السجن وإذا بعلي بن أبي طالب يلقاهم في الطريق. فلما رآه الشاب قال: يا ابن عم محمد إني مظلوم. فسأله الإمام عن قصته فأخبره. فقال للشرطة ردوه إلى عمر وسأوافيكم إلى هناك.

فردوه ودخلوا به على عمر فقال: ألم آمركم بأن تأخذوه إلى السجن؟ قالوا بلى ولكن لقينا علي بن أبي طالب وأمرنا أن نرجعه وهو قادم في أثرنا وقد أمرتنا أن لا نعصي لعلي أمرا.

أقبل أمير المؤمنين عليه السلام وقال لعمر: أتأذن لي أن أقضي في هذه القضية؟ فقال عمر: يا سبحان الله وكيف لا وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يقول: أقضاكم علي بن أبي طالب.

إستدعى علي أم الشاب وسألها فأجابت بما أجابت به عمر. فقال لها: ألك شهود؟ فقالت نعم. وتقدم من كان معها وشهدوا لها. فقال أمير المؤمنين: والله لأقضيّن اليوم بينكما بقضية هي مرضاة للرب علمنيها حبيبي رسول الله. ثم قال للمرأة: ألك ولي؟ فقالت: نعم، هؤلاء إخوتي. فقال لها ولهم: أمري فيكم جائز؟ قالوا: نعم يا ابن عمٍ رسول الله، أمرك فينا وفي أختنا جائز. فقال أمير المؤمنين: أُشهد الله وأشهد من حضر من المسلمين بأني قد زوجت هذه الجارية من هذا الغلام بأربعمائة درهم والنقد من مالي. يا قنبر علي بالدراهم.

جاء قنبر بالدراهم وأعطاها أمير المؤمنين للشاب وقال له: قم خذ هذه الدراهم وإعطها لإمرأتك وإدخل بها ولا تأتينا إلا وبك أثر العرس. عرف الشاب قصد أمير المؤمنين فقال سمعا وطاعة وسحب المرآة من يدها يريد الإختلاء بها وإذا بالمرأة تصرخ وهي ترتجف: الأمان الأمان يا علي، أتريد أن تزوجني من إبني. هذا والله ولدي. لقد زوجوني هجينا فولدت منه هذا الشاب ولما كبر أمروني أن أتبرأ منه وأطرده. فأمر الإمام الشاب أن يأخذ أمه ويذهب معها وأن يُحسن إليها ولا يؤاخذها بما فعلته مكرهة. كما أمر بسجن إخوانها لشهادتهم زورا.

يأتي قوم من أهل الشام إلى المدينة ليسألوا عن مسألة حدثت لهم وعن صحة عمل قاموا به وهم محرمون للحج. دخلوا على الخليفة عمر و سألوه: بينما نحن في طريقنا إلى مكة، ونحن محرمون، مررنا بأدحى (عش) نعامة فيه خمس بيضات فأخذنا البيض وشويناه وأكلناه. فهل أخل ذلك العمل بإحرامنا؟ فقال لهم عمر: تعالوا معي لنسأل من أُمرنا بالرجوع إليه في مثل هذه المسائل.

قاموا معه وذهبوا إلى أمير المؤمنين عليه السلام. فلما وصلوا إلى أمير المؤمنين قال لعمر: هلا أرسلت لنا فنأتيك؟ فقال عمر: الحكم يؤتى في بيته. فقص عليه عمر قصة القوم وسأله إن كان ما عملوا قد أخل بإحرامهم. فقال لهم أمير المؤمنين بأنه قد حصل. فسأله عمر عن كفّارة ذلك العمل فقال أمير المؤمنين: فليعمدوا إلى خمس قلائص (أبكار) من الإبل فليطرقوها الفحل فإذا أنتجت (ولدت) أهدوا ما نتج منها جزاء ما أصابوا من بيض النعام. فقال عمر: يا أبا الحسن إن الناقة قد تجهض. فقال أمير المؤمنين: وإن البيضة قد تمرق. فقال عمر: صدقت يا أبا الحسن، ولهذا أُمرنا بالرجوع إليك.

يروي الأصبغ بن نباته قائلا: دخلت المسجد ومعي أمير المؤمنين عليه السلام فإستقبله شاب حدث السن يبكي والقوم يُسّكنونه فلما رأى الشاب أمير المؤمنين قال: يا أمير المؤمنين إن شريحا قضى علي في قضية وما أدري لمن أذهب. فسأله أمير المؤمنين عن القضية وعن حكم شريح فيها. فقال الشاب: ثلاثة نفر خرجوا مع أبي في سفر فرجعوا ولم يرجع معهم وكان معه مال أخذه معه. فسألتهم عنه فقالوا مات ولما سألتهم عن ماله قالوا ما ترك مالا. فشكوت عليهم عند شريح فأحضرهم فإستحلفهم وأطلق سراحهم وأنا متأكد بأن أبي حمل معه مال كثير. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: لا عليك. وأنشأ يقول:

أوردها سعد و سعد مشتمل   يا سعد ما تروى بهاذاك الإبل

ثم إستدعى المتهمين ولما أَحضروا قال: يا قنبر، أدع لي شرطة الخميس. فلما جيء بالشرطة أوكل بكل رجل من المتهمين رجلين من الشرطة ثم دعاهم جميعا وقال لهم: ما تقولون كأني لا أعلم ما بأبي هذا الفتى. ثم أمر بهم أن يُفّرقوا ففرق بينهم وجُعل كل واحد بعيدا عن صاحبه. ثم دعى كاتبه عبد الله بن أبي رافع وأمره أن يكتب الحكم وقال للجالسين: إذا كبّرت فكبروا معي. ثم دعى بأحدهم وسأله في أي يوم خرجوا وفي أي شهر وفي أي سنة وإلى أين اوجهوا وفي أي منزل مات أبو الفتى ومن تولى غسله ودفنه والصلاة عليه والرجل يجيبه.

لما إنتهى من إجابته كبّر أمير المؤمنين عليه السلام فكبّر الحاضرون لتكبيرته. فلما سمع الإثنان التكبير إرتابوا وتيقنوا بأن صاحبهم قد أقّر عليهم وعلى نفسه. أمر أمير المؤمنين بالرجل إلى الحبس ثم إستدعى الثاني فقال له: زعمت بأني لا أعلم ما صنعتم بالرجل. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين ما أنا إلا كواحد منهم ولقد كنت كارها لقتله. فلما أقر الرجل إستدعى الثالث وعمل معه ما عمل مع صاحبه فإعترف بمثل ما إعترف به صاحبه. ثم إستدعى الرجل الأول الذي أُخذ للسجن فأقر أيضا بمثل ما أقر به صاحباه. فألزمهم الإمام بدفع المال و الدم.

نظر شريح إلى أمير المؤمنين عليه السلام وسأله كيف توصل إلى هذا الحكم فقال أمير المؤمنين إنه حكم نبي الله داوود عليه السلام. فلقد مر نبي الله داوود عليه السلام بغلمان يلعبون وينادي بعضهم على غلام كان معهم «يا مات الدين.» تعجب نبي الله داود وسأل الغلام عن إسمه فقال «مات الدين.» فسأله: من سمّاك بهذا الإسم؟ فقال الصبي: أمي. فقال داود: هلم بنا إلى أمك. فلما وصل البيت ناداها ولما خرجت سألها عن سبب تسميتها لإبنها بهذا الإسم فقالت: إن أباه خرج في سفر ومعه قوم وأنا حامل بهذا الصبي. رجع القوم ولم يرجع معهم زوجي فسألتهم عنه فقالوا إنه مات في الطريق وأنه

أوصى أن إذا ولدت صبيا أن أسميه مات الدين. فولدت هذا الغلام وسميته حسب وصية أباه. فسألها نبي الله داود إن كانت تعرف القوم فقالت نعم. فطلب منها أن تأخذه إليهم. فخرجوا إليه ولما سألهم عن الرجل أجابوه بمثل ما أجابوا أم الغلام. فعمل معهم ما عملت مع قتلة الشاب وتبين أنهم قتلوه واستولوا على ماله فحكم عليهم بمثل ما حكمت.

الشمعة الرابعة و الأربعون
إنسانا يعمل لخير الإنسان والإنسانية

بلغت شخصية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أقصى مراتب الكمال فتزينت بجمبع الصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة. في مقدمة الصفات التي تمتع بها امير المؤمنين ذلك الحس الإنساني الرفيع الذي لم يسبقه إليه أحد غير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم. فهو في السلم الأب والأخ الرحيم العطوف وفي الحرب الشجاع والبطل الرؤوف وفي الحكم الحاكم العادل النصوف وفي العطاء المنصف المعروف. القريب والبعيد عنده سواء، كلهم أبناء لآدم وحواء، ليس لأحدهم فضل على الآخر إلا بالتقوى.

في السلم يحث أصحابه على التزين بحسن الأخلاق قائلا لهم: «خالطوا الناس مخالطة إن متم معها بكوا عليكم وإن عشتم حنّوا إليكم.» ويُهّذب أصحابه ويأمرهم أن يصونوا ألسنتهم عن الشتم إذا لا يليق بالمؤمن أن يكون شتّاما، مهما كانت شدة خصومته مع الآخرين ومع أي من البشر كانت تلك الخصومة، حتى وإن كانت مع الأعداء. فيقول في ذلك: «إني أكره أن تكونوا سبّابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم (أي أعمال خصومهم) وذكرتم حالهم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبّكم إياهم اللهم إحقن دماءنا ودمائهم وأصلح ذات بيننا وبينهم واهدهم من ضلالهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به.»

ﻓﻲ الحرب يأمر أَمراء جيشه بأن يأمروا جنودهم بأن: «لا يتبعوا موليا ولا يجهزوا على جريح ولايقتلوا مستأسر وأن يعطوا الأمان لمن ألقى سلاحه.» يطالبهم ليس فقط بإحترام آدمية خصومهم بل أيضا احترام بيئتهم فيأمره بأن لا يقطعوا شجر ولا يدمروا ما بني وعُمّر. يأمرهم بالمحافظة على نظافة بيئتهم وسلامتها فيأمرهم بأن لا يتركوا ﻓﻲ الطرقات ما يضر مستخدمها او يشوه منظرها او يكدر عليلها.

ﻓﻲ حكمه يأمر ولاته بالرأفة بالرعية ووجوب مراعات ظروفهم والنظر إليهم بعين الرأفة والرحمة. فلا إرهاق للرعية ولا يجب تحميلهم أكثر من طاقتهم. يأمر ولاته على الأمصار قائلا: «أنصفوا الناس من أنفسكم واصبروا لحوائجهم، فإنهم خزان الرعية، ولا تحسموا أحدا عن حاجة ولا تحبسوه عن طلبته ولا تبيعن للناس ﻓﻲ الخراج كسوة شتاء ولاصيف ولا دابة يحملون عليها ولا عبدا ولا تضربن أحد سوطا لمكان درهم،» اي يجب ان لا يجبر احد على بيع كسوته او دابته لكي يسدد ضريبة عليه لبيت مال المسلمين. فإذا لم يكن لدى الإنسان ما يزيد عن حاجته وحاجة عياله تسقط الضرائب عنه بل وإن كان ما لديه لا يكفيه وعياله يجب ان يُعطى من بيت مال المسلمين ما يحتاج اليه لسد حاجته.

من أروع كتبه عليه السلام كتابا موحدا كان يرسله إلى كل شخص يكلفه بجمع الزكاة والخراج والضرائب. يبين هذا الكتاب الجانب الإنساني الرفيع عند الإمام عليه السلام وكيف أن وصاياه تتعدى الرفق بالبشر لتشمل الرفق بالحيوان. يقول ﻓﻲ ذلك الكتاب آمرا جامع الضرائب: «انْطَلِقْ عَلَى تَقْوَى اللهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَلاَ تُرَوِّعَنَّ مُسْلماً، وَلاَ تَجْتَازَنَّ عَلَيْهِ كَارِهاً، وَلاَ تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ اللهِ ﻓﻲ مَالِه. فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَى الْحَيِّ فَانْزِلْ بِمَائِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَالِطَ أَبْيَاتَهُمْ، ثُمَّ امْضِ إِلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ، حَتَّى تَقُومَ بَيْنَهُمْ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ، وَلاَ تُخْدِجْ (لا تبخل) بِالتَّحِيَّةِ لَهُمْ، ثُمَّ تَقُولَ: عِبَادَ اللهِ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ

وَليُّ اللهِ وَخَليفَتُهُ، لاخُذَ منْكُمْ حَقَّ اللهِ في أَمْوَالكُمْ، فَهَلْ للهِ في أَمْوَالكُمْ منْ حَقّ فَتُؤَدُّوهُ إلَى وَليِّه؟ فَإنْ قَالَ قَائلٌ: لاَ، فَلاَ تُرَاجعْهُ، وَإنْ أَنْعَمَ لَكَ مُنْعمٌ فَانْطَلقْ مَعَهُ منْ غَيْر أَنْ تُخيفَهُ أَوْ تُوعدَهُ أَوْ تَعْسفَهُ أَوْ تُرْهقَهُ، فَخُذْ مَا أَعْطَاكَ منْ ذَهَب أَوْ فضَّة، فَإنْ كَانَتْ لَهُ مَاشيَةٌ أَوْ إبلٌ فَلاَ تَدْخُلْهَا إلاَّ بإذْنه، فَإنَّ أَكْثَرَهَا لَهُ، فَإذَا أَتَيْتَهَا فَلاَ تَدْخُلْها دُخُولَ مُتَسَلِّط عَلَيْه وَلاَ عَنيف به، وَلاَ تُنَفِّرَنَّ بَهيمَةً وَلاَ تُفْزعَنَّهَا، وَلاَ تَسُوءَنَّ صَاحبَهَا فيهَا، وَاصْدَع (قسّم) الْمَالَ صَدْعَيْن (قسمين)، ثُمَّ خَيِّرْهُ، فَإذَا اخْتَارَ فَلاَ تَعْرِضَنَّ لمَا اخْتَارَهُ، ثُمَّ اصْدَع الْبَاقيَ صَدْعَيْن، ثُمَّ خَيِّرْهُ، فَإذَا اخْتَارَ فَلاَ تَعْرِضَنَّ لمَا اخْتَارَ، فَلاَ تَزَالُ بذلكَ حَتَّى يَبْقَى مَا فيه وَفَاءٌ لحَقِّ اللهِ في مَاله، فَاقْبضْ حَقَّ اللهِ منْهُ، فَإن اسْتَقَالَكَ فَأَقلْهُ، ثُمَّ اخْلطْهُمَا، ثُمَّ اصْنَعْ مثْلَ الَّذي صَنَعْتَ أَوَّلاً حَتَّى تَأْخُذَ حَقَّ اللهِ في مَاله.

وَلاَ تَأْخُذَنَّ عَوْداً (المسنة من الإبل) وَلاَ هَرمَةً، وَلاَ مَكْسُورَةً، وَلاَ مَهْلُوسَةً (ضعيفة)، وَلاَ ذَاتَ عَوَار. وَلاَ تَأْمَنَنَّ عَلَيْهَا إلاَّ مَنْ تَثقُ بدينه، رَافقاً بمَال الْمُسْلمينَ حَتَّى يُوصلَهُ إلَى وَليِّهمْ فَيَقْسمَهُ بَيْنَهُمْ. وَلاَ تُوَكِّلْ بهَا إلاَّ نَاصحاً شَفيقاً، وَأَميناً حَفيظاً، غَيْرَ مُعَنِّف وَلاَ مُجْحف، وَلاَ مُلْغب وَلاَ مُتْعب. ثُمَّ احْدُرْ (سق إلينا سريعا) إلَيْنَا مَا اجْتَمَعَ عنْدَكَ، نُصَيِّرْهُ حَيْثُ أَمَرَ اللهُ به. فَإذَا أَخَذَهَا أَمينُكَ فَأَوْعزْ إلَيْه: أَلاَّ يَحُولَ بَيْنَ نَاقَة وَبَيْنَ فَصيلهَا، وَلاَ يَمْصُرَ لَبَنَهَا (لا يحلب كل ما فيها من اللبن) فَيَضُرَّ ذلكَ بوَلَدهَا، وَلاَ يَجْهَدَنَّهَا رُكُوباً، وَلْيَعْدلْ بَيْنَ صَوَاحبَاتهَا في ذلكَ وَبَيْنَهَا، وَلْيُرَفِّهْ عَلَى اللاَّغب، وَلْيَسْتَأْن (يرفق) بالنَّقب (قرح في الخُف) وَالظَّالع، وَلْيُوردْهَا مَا تَمُرُّ به منَ الْغُدُر (جمع غدير أي يوردها الماء كلما مر بغدير ماء)، وَلاَ يَعْدلْ بهَا عَنْ نَبْت الأَرْض إلَى جَوَادّ الطُّرُق، وَلْيُرَوِّحْهَا في السَّاعَات، وَلْيُمْهلْهَا عنْدَ النِّطَاف وَالأَعْشَاب، حَتَّى تَأْتيَنَا بإذْن اللهِ بُدَّناً مُنْقيَات، غَيْرَ مُتْعَبَات وَلاَ مَجْهُودَات، لنَقْسمَهَا عَلَى كتَاب اللهِ وَسُنَّة نَبيِّه (عليه السلام) فَإنَّ ذلكَ أَعْظَمُ لأَجْركَ، وَأَقْرَبُ لرُشْدكَ، إنْ شَاءَ اللهُ.»

و في عهد آخر لمحمد بن أبي بكر لما ولاه مصر قال عليه السلام: «فَاخْفض لَهُمْ جَنَاحَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَآسِ بَيْنَهُمْ في اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ، حَتَّى لاَ يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ في حَيْفِكَ لَهُمْ، وَلاَ يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ. وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُسَائِلُكُمْ مَعْشَرَ عِبَادِهِ عَنِ الصَّغِيرَةِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَالْكَبِيرَةِ، وَالظَّاهِرَةِ وَالْمَسْتُورَةِ، فَإِنْ يُعَذِّبْ فَأَنْتُمْ أَظْلَمُ، وَإِنْ يَعْفُ فَهُوَ أَكْرَمُ. وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ، أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الآخِرَةِ، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا في دُنْيَاهُمْ، وَلَمْ يُشَارِكْهُمْ أَهْلُ الدُّنْيَا في آخِرَتِهِمْ؛ سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ، وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ، فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ، وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ، ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبَلِّغِ، وَالْمَتْجَرِ الرَّابِحِ، أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا في دُنْيَاهُمْ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ اللهِ غَداً في آخِرَتِهِمْ، لاَ تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ، وَلاَ يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ. فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللهِ الْمَوْتَ وَقُرْبَهُ، وَأَعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ، فَإِنَّهُ يَأْتِي بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، وَخَطْبٍ جَلِيلٍ، بِخَيْرٍ لاَ يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَداً، أَوْ شَرٍّ لاَ يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَداً، فَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى الْجَنَّةِ مِنْ عَامِلِهَا! وَمَنْ أَقْرَبُ إِلى النَّارِ مِنْ عَامِلِهَا! وَأَنْتُمْ طُرَدَاءُ الْمَوْتِ، إِنْ أَقَمْتُمْ لَهُ أَخَذَكُمْ، وَإِنْ فَرَرْتُمْ مِنْهُ أَدْرَكَكُمْ، وَهُوَ أَلْزَمُ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ، الْمَوْتُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ، وَالدُّنْيَا تُطْوَى مِنْ خَلْفِكُمْ. فَاحْذَرُوا نَاراً قَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَحَرُّهَا شَدِيدٌ، وَعَذَابُهَا جَدِيدٌ، دَارٌ لَيْسَ فِيهَا رَحْمَةٌ، وَلاَ تُسْمَعُ فِيهَا دَعْوَةٌ، وَلاَ تُفَرَّجُ فِيهَا كُرْبَةٌ. وَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ يَشْتَدَّ خَوْفُكُمْ مِنَ اللهِ، وَأَنْ يَحْسُنَ ظَنُّكُمْ بِهِ، فَاجْمَعُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَكُونُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ عَلَى عَلَى قَدْرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ، وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ ظَنّاً بِاللهِ أَشَدُّهُمْ خَوْفاً للهِ.

وَاعْلَمْ (يَا مُحَمَّدُ بْنَ أَبِي بَكْرٍ) أَنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِي في نَفْسِي أَهْلَ مِصْرَ، فَأَنْتَ مَحْقُوقٌ أَنْ تُخَالِفَ عَلَى نَفْسِكَ، وَأَنْ تُنَافِحَ عَنْ دِينِكَ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلاَّ سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ، وَلاَ تُسْخِطِ اللهَ بِرِضَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَإِنَّ في اللهِ خَلَفاً مِنْ غَيْرِهِ، وَلَيْسَ مِنَ اللهِ خَلَفٌ في غَيْرِهِ. صَلِّ الصَّلاَةَ لِوَقْتِهَا الْمُوَقَّتِ لَهَا،

وَلاَ تُعَجِّلْ وَقْتَهَا لِفَرَاغ، وَلاَ تُؤَخِّرْهَا عَنْ وَقْتِهَا لاشْتغَال، وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ شَيْء مِنْ عَمَلكَ تَبَعٌ لِصَلاَتكَ. فَإِنَّهُ لاَ سَوَاءَ، إِمَامُ الْهُدَى وإِمَامُ الرَّدَى، وَوَلِيُّ النَّبِيِّ وَعَدُوُّ النَّبِيِّ، وَلَقَدْ قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وآله): «إِنِّي لاَ أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مُؤْمِناً وَلاَ مُشْرِكاً، أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَمْنَعُهُ اللهُ بِإِيمَانِه، وَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيَقْمَعُهُ اللهُ بِشِرْكِه، لكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مُنَافِقِ الْجَنَانِ، عَالِمِ اللِّسَانِ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ، وَيَفْعَلُ مَا تُنْكِرُونَ».

أما واليه على البصرة، عثمان بن حنيف، فلقد نال أكبر قسط من التوبيخ، لا لشيء سوى أنه دعي إلى مائدة من موائد أثرياء البصرة فأجاب إليها. فأرسل إليه أمير المؤمنين يوبخه ليس لتلبيته الدعوة وإنما لحضوره مائدة خاصة بالوجهاء ومستثنى منها الفقراء. طلب منه أن يكون ممثلا حقيقيا لمن أرسله وأن يعمل ما يعمله مُرسله من أعمال.

كتب عليه السلام إلى عثمان كتابا يقول فيه: «أَمَّا بَعْدُ، يَابْنَ حُنَيْف، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلاً مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَأْدُبَة، فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا، تُسْتَطَابُ لَكَ الاْلْوَانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ، وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْم، عَائِلُهُمْ (المحتاج منهم) مَجْفُوٌّ، وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ. فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضَمُهُ (تأكله) مِنْ هذَ الْمَقْضَمِ، فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وُجُوهِهِ فَنَلْ مِنْهُ. أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُوم إِمَاماً، يَقْتَدِي بِهِ، وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ. أَلاَ وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ (الثوب البالي)، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ.

أَلاَ وَإِنَّكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ عَلَى ذلِكَ، وَلكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَع وَاجْتِهَاد، وَعِفَّة وَسَدَاد. فَوَاللهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً (الذهب أو الفضة)، وَلاَ ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً (مالا)، وَلاَ أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْرا. بَلَى! كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكٌ مِنْ كُلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّماءُ، فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْم، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ، وَنِعْمَ الْحَكَمُ اللهُ. وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَك وَغَيْرِ فَدَك، وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا فِي غَد جَدَثٌ

(القبر)، تَنْقَطِعُ فِي ظُلْمَتِه آثَارُهَا، وَتَغيبُ أَخْبَارُهَا، وَحُفْرَةٌ لَوْ زِيدَ فِي فُسْحَتِهَا، وَأَوْسَعَتْ يَدَا حَافِرِهَا، لأَضْغَطَهَا الْحَجَرُ وَالْمَدَرُ، وَسَدَّ فُرَجَهَا التُّرَابُ الْمُتَرَاكِمُ، وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الأَكْبَرِ، وَتَثْبُتَ عَلَى جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ. وَلَوْ شِئْتُ لاَهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ، إِلَى مُصَفَّى هذَا الْعَسَلِ، وَلُبَابِ هذَا الْقَمْحِ، وَنَسَائِجِ هذَا الْقَزِّ (الحرير)، وَلكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخَيُّرِ الأَطْعِمَةِ ـ وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوِ بِالْيَمَامَةِ مَنْ لاَطَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلاَ عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ ـ أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى وَأَكْبَادٌ حَرَّى، أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ: وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ × وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَى الْقِدِّ.

أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلاَ أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ! فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ، كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ هَمُّهَا عَلَفُهَا، أَوِ الْمُرْسَلَةِ شُغُلُهَا تَقَمُّمُهَا، تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلاَفِهَا، وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا، أَوْ أُتْرَكَ سُدىً، أَوْ أُهْمَلَ عَابِثاً، أَوْ أَجُرَّ حَبْلَ الضَّلاَلَةِ، أَوْ أَعْتَسِفَ (ركب) طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ!

وَكَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ: إِذَا كَانَ هذَا قُوتُ ابْنِ أَبِي طَالِب، فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الأَقْرَانِ وَمُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ. أَلاَ وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُوداً، وَالرَّوَائِعَ الْخَضِرَةَ أَرَقُّ جُلُوداً، وَالنَّابِتَاتِ الْعِذْيَةَ أَقْوَى وَقُوداً، وَأَبْطَأُ خُمُوداً، وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وآله) كَالصِّنْوِ مِنَ الصِّنْوِ، وَالذِّرَاعِ مِنَ الْعَضُدِ. وَاللهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا، وَلَوْ أَمْكَنَتِ الْفُرَصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا، سَأَجْهَدُ فِي أَنْ أُطَهِّرَ الأَرْضَ مِنْ هذَا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ، وَالْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ، حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدَرَةُ (قطعة الطين اليابس) مِنْ بَيْنِ حَبِّ الْحَصِيدِ

إِلَيْكَ عَنِّي يَا دُنْيَا، فَحَبْلُكِ عَلَى غَارِبِكِ، قَدِ انْسَلَلْتُ مِنْ مَخَالِبِكِ، وَأَفْلَتُّ مِنْ حَبَائِلِكِ، وَاجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ فِي مَدَاحِضِكِ. أَيْنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ غَرَرْتِهِمْ

بِمَدَاعِبِكِ؟! أَيْنَ الأُمَمُ الَّذِينَ فَتَنْتِهِمْ بِزَخَارِفِكِ؟! هَاهُمْ رَهَائِنُ القُبُورِ، وَمَضَامِينُ اللُّحُودِ. وَاللهِ لَوْ كُنْتِ شَخْصاً مَرْئِيّاً، وَقَالَباً حِسِّيّاً، لأَقَمْتُ عَلَيْكِ حُدُودَ اللهِ فِي عِبَادٍ غَرَرْتِهِمْ بِالأَمَانِي، وَأُمَمٍ أَلْقَيْتِهِمْ فِي المَهَاوِي، وَمُلُوكٍ أَسْلَمْتِهِمْ إِلَى التَّلَفِ، وَأَوْرَدْتِهِمْ مَوَارِدَ البَلاَءِ، إِذْ لاَ وِرْدَ وَلاَ صَدَرَ! هَيْهَاتَ! مَنْ وَطِئَ دَحْضَكِ زَلِقَ، وَمَنْ رَكِبَ لُجَجَكِ غَرِقَ، وَمَنِ ازْوَرَّ عَنْ حَبَائِلِكِ وُفِّقَ، وَالسَّالِمُ مِنْكِ لاَيُبَالِي إِنْ ضَاقَ بِهِ مُنَاخُهُ، وَالدُّنْيَا عِنْدَهُ كَيَوْمٍ حَانَ انْسِلاَخُهُ.

اعْزُبِي عَنِّي! فَوَاللهِ لاَ أَذِلُّ لَكِ فَتَسْتَذِلِّينِي، وَلاَ أَسْلَسُ لَكِ فَتَقُودِينِي. وَايْمُ اللهِ - يَمِيناً أَسْتَثْنِي فِيهَا بِمَشِيئَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ - لأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهِشُّ مَعَهَا إِلَى القُرْصِ إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مَطْعُوماً، وَتَقْنَعُ بِالمِلْحِ مَأْدُوماً؛ وَلأَدَعَنَّ مُقْلَتِي كَعَيْنِ مَاءٍ، نَضَبَ مَعِينُهَا، مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا. أَتَمْتَلِئُ السَّائِمَةُ مِنْ رِعْيِهَا فَتَبْرُكَ؟ وَتَشْبَعُ الرَّبِيضَةُ مِنْ عُشْبِهَا فَتَرْبِضَ؟ وَيَأْكُلُ عَلِيٌّ مِنْ زَادِهِ فَيَهْجَعَ؟ قَرَّتْ إِذاً عَيْنُهُ إِذَا اقْتَدَى بَعْدَ السِّنِينَ المُتَطَاوِلَةِ بِالبَهِيمَةِ الهَامِلَةِ، وَالسَّائِمَةِ المَرْعِيَّةِ! طُوبَى لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَى رَبِّهَا فَرْضَهَا، وَعَرَكَتْ بِجَنْبِهَا بُؤْسَهَا، وَهَجَرَتْ فِي اللَّيْلِ غُمْضَهَا، حَتَّى إِذَا غَلَبَ الكَرَى عَلَيْهَا افْتَرَشَتْ أَرْضَهَا، وَتَوَسَّدَتْ كَفَّهَا، فِي مَعْشَرٍ أَسْهَرَ عُيُونَهُمْ خَوْفُ مَعَادِهِمْ، تَجَافَتْ عَنْ مَضَاجِعِهِمْ جُنُوبُهُمْ، وَهَمْهَمَتْ بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شِفَاهُهُمْ، وَتَقَشَّعَتْ بِطُولِ اسْتِغْفَارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ، أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾. فَاتَّقِ اللهَ يَابْنَ حُنَيْفٍ، وَلْتَكْفُفْ أَقْرَاصُكَ، لِيَكُونَ مِنَ النَّارِ خَلاَصُكَ.»

في قضاءه مزج العدل بالرحمة. جاءوا بإمرأة إلى الخليفة عمر أجهدها العطش وأشرفت على الموت فمرت على راع فأبى أن يسقيها إلا أن تمكنه من نفسها. ففعلت. إستشار عمر الحضور فأشاروا عليه برجمها. وكان علي حاضرا فقال لعمر: إنها مضطرة وليست باغية. فأمر عمر بأن يخلى سبيلها. وهكذا كان حال تلك التي حملت من زنا فأمر أن لا ترجم حتى تضع ما في بطنها، كما سبق ذكره.

أما اليتيم فقد كان له النصيب الأوفر في إنسانية أمير المؤمنين عليه السلام. يمر يوما بدار فيسمع صراخ أطفال وأم تحاول تهدئتهم وتسكيتهم من غير جدوى. يقف الإمام أمام باب الدار ويطرق الباب طرقا خفيفا فترد المرأة مستفسرة عن من بالباب فيجيبها معرفا نفسه بأنه أحد المؤمنين بالله وبرسوله. ثم يسألها ما بال الصبية يصرخون فتقول له بأن والدهم استشهد في احدى المعارك وترك وراءه هذان اليتيمان من غير دخل يعيشان منه.

لما سمع مقالتها إستأذن منها وذهب من وقته وساعته إلى داره. دخل داره فوضع شيء من الطحين والسمن في اكياس وأمر مولاه قنبر أن يحمله معه إلى دار المرأة.

طرق الباب فتفتح المرأة له ودخل الى بهو الدار. لما صاروا وسط البهو قال للمرأة: أمة الله، هذا طحين وسمن إما أن تخبزي الطحين وأنا أُسلي الأطفال حتى يتم الخبز أو أن تُسلي الأطفال وأنا أقوم بالخبز. إستحت المرأة وقالت لا بل أنا الذي سأقوم بعجن الطحين وخبزه. فأخذت تخبز الطحين والإمام يلعب مع الصبيين ويسليهما ليتغلبا على جوعهما حتى فرغت أمهما من عمل الخبز وجاءت به إليهما.

أخذ سلام الله عليه يُقّطع الخبز ويلقمهما وأمهما تنظر إلى ما يفعل ما أبنائها. فأكلا حتى شبعا ثم خلدا إلى النوم. فلما ناما قام مستأذنا للإنصراف فسألته المرأة عن إسمه فقال لها «عبد من عباد الله.» وأمر قنبر أن يأتيهم يوميا بالطعام وأن يتفقد أحوالهم. ولما خرج أمير المؤمنين عليه السلام من عند المرأة أنشا، من شدة تأثره بما شاهده، يقول:

ما إن تأوهت في شيء رُزئت به ... كما تأوهت للأطفال في الصغر
قد مات والدهم من كان يكفلهم ... في النائبات و في الأسفار و الحضر

خرج ولم يفصح للمرأة عن شخصيته ولم تعلم من هو إلا بعد وفاته عليه السلام عندما تأخّرت زيارة قنبر لهم لمدة ثلاثة أيام واعتقدت بأن فاعل الخير إما إنه قد ملّ او انه قد حل به مكروه. فلما جاء قنبر سألته عن سبب عدم زيارته لهم في الأيام الثلاثة الماضية فأخبرها بأن من يُرسل لها المؤونة قد تم إغتياله من قبل شقي من الأشقياء وهو يصلي الفجر. ثم أخبرها بمن يكون.

هذه فقط نماذج يسيرة عن سمو روحه عليه السلام وإنسانيته الفريدة وحبه لبني جنسه حبا دفعه للمحافظة عليه وإيجاد كل ما من شأنه صون كرامة وآدمية الإنسان، بغض النظر عن لونه وعرقه وجنسه ودينه. وفي هذا يقول عليه السلام:

أيها الفاخر جهلا بالنسب ... إنما الناس لأم ولأب
هل تراهم خلقوا من فضة ... أم حديد أم نحاس أم ذهب
بل تراهم خلقوا من طينة ... هل سوى لحم و عظم و عصب
إنما الفخر لعقل ثابت ... و حياء و عفاف و أدب

الشمعة الخامسة والأربعون
حكيما سديد الرأي قوي الفراسة

بالإضافة إلى مواقفه الإجتماعية طوال فترة حياته العامرة بالنشاط الإجتماعي الدؤوب والذي كان يتوجه بتبيان أهمية المشاركة الشعبية في الحياة العامة وخاصة فيما يتعلق ببناء المجتمع الفاضل والقوي، حوت خطب أمير المؤمنين عليه السلام وكتبه ومراسلاته كنوزا من المعارف الرامية للمشاركة في بناء المجتمع والكثير من الحكم والمواعظ.

ولم تكن توجيهاته ومواعظه وارشاداته موجهة لبني عصره فقط بل للإنسان في كل عصر ومكان. أساليب وحكما ومواعظ فيها من الصدق والإخلاص والأريحية والفراسة والنظرة الثاقبة والقراءة المستقبلية العملية والموثقة ما يجعلها صالحة لكل عصر ومناسبة لكل الأجيال وتستحوذ على اهتمام وتقدير علماء الإجتماع.

فتارة يتكلم عن الأخلاق الكريمة والمثل الفاضلة كوحدة واحدة مبينا فوائدها وإنعكاساتها على الفرد والمجتمع ومرات كثيرة غيرها يفرد لكل خلق وقيمة مقالا منفردا يزيد فيه من الشرح والإيضاح.

حول الأخلاق كوحدة ومجموعة واحدة لا تقل الواحدة منها اهمية عن الأخرى يقول عليه السلام: «أَزْرَى (حقّر) بِنَفْسِه مَن اسْتَشْعَرَ الطَّمَعَ، وَرَضِيَ بِالذُّلِّ مَنْ كَشَفَ ضُرَّهُ، وَهَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ مَنْ أَمَّرَ عَلَيْهَا لِسَانَهُ. وَالْبُخْلُ عَارٌ،

وَالجُبْنُ مَنْقَصَةٌ، وَالفقْرُ يُخرسُ الْفطنَ عَنْ حُجَّته، وَالْمقلُّ (الفقير) غريبٌ في بَلْدَته، وَالْعَجْزُ آفَةٌ، وَالصَّبْرُ شَجَاعَةٌ، وَالزُّهْدُ ثرْوَةٌ، وَالْوَرَعُ جُنَّةٌ، وَنعْمَ الْقَرينُ الرِّضَى، وَالْعلْمُ وِرَاثَهٌ كَريمَةٌ، وَالادَبُ حُلَلٌ مُجَدَّدَةٌ، وَالْفكْرُ مرْآةٌ صَافيَةٌ، وَصَدْرُ الْعَاقِلِ صُنْدُوقُ سِرِّه، وَالْبَشَاشَةُ حِبَالَةُ الْمَوَدَّةِ، وَالاحْتمالُ قَبْرُ الْعُيُوبِ.»

ويواصل عليه السلام حثه على الأخلاق الفاضلة فيقول: أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجزَ عَنِ اكْتسَابِ الاخْوَانِ، وَأَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ ظَفرَ به مِنْهُمْ...و مَنْ أَسْرَعَ إِلَى النَّاسِ بِمَا يَكْرَهُونَ، قَالُوا فيه ما لاَ يَعْلَمُونَ...و مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ للنَّاسِ إِمَاماً فَعَلَيْه أَنْ يَبْدَأَ بتَعْليم نَفْسه قَبْلَ تَعْليم غَيْره، وَلْيَكُنْ تَأْديبُهُ بسيرَته قَبْلَ تَأْديبه بلسَانه، وَمُعَلِّمُ نَفْسَه وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بالاجْلاَلِ منْ مُعَلِّم النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ... خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً إِنْ مِتُّمْ مَعَهَا بَكَوْا عَلَيْكُمْ، وَإِنْ عِشْتُمْ حَنُّوا إِلَيْكُمْ. «

في طريقه إلى صفين مر عليه السلام بجيشه على مدينة الأنبار في العراق وكانت كثيرة البساتين وافرة الظلال كثيرة الثمار. فلما توسط المدينة خرج إليه دهاقين، أي قادة المزارعين، يستقبلونه بما هو أهله من الترحاب والتبجيل. فلما وصلوا إليه ترجّلوا عى رواحلهم وأخذوا يحنون رؤوسهم إحتراما وتعظيما له.

ساءه ما شاهده من فعل القوم ومبالغتهم في الترحيب والتبجيل. فقال لهم: «مَا هذَا الَّذي صَنَعْتُمُوهُ؟ فقالوا: «خُلُقٌ منَّا نُعَظِّمُ به أُمَرَاءَنَا.» فرد عليهم عليه السلام قائلا: «وَالله مَا يَنْتَفعُ بهذَا أُمَرَاؤُكُمْ! وَإِنَّكُمْ لَتَشُقُّونَ به عَلَى أَنْفُسكُمْ في دُنْيَاكُمْ، وَتَشْقَوْنَ به في آخرَتكُمْ، وَمَا أَخسَرَ الْمَشَقَّةَ وَرَاءَهَا الْعقَابُ، وَأَرْبَحَ الدَّعَةَ مَعَهَا الاْمَانُ منَ النَّارِ!» و أمرهم بأن لا يأتوا بمثل هذا العمل لا أمامه ولا أمام أي مخلوق آخر حفاظا على كرامتهم التي أنعم الله سبحانه وتعالى بها عليهم وأخبرهم بأنه لا يجوز الإنحناء إلا أمام الله سبحانه و تعالى.

ويواصل نصائحه لهم وللمسلمين والناس في كل زمان ومكان بما يحفظ لهم كرامتهم وعزتهم قائلا: «أُوصيكُمْ بخَمْس لَوْ ضَرَبْتُمْ إِلَيْهَا آبَاطَ الأبل لَكَانَتْ لذلك أَهْلاً: لاَ يَرْجُوَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إلاَّ رَبَّهُ، وَلاَ يَخَافَنَّ إلاَّ ذَنْبَهُ، وَلاَ يَسْتَحْيِيَنَّ أَحَدٌ إِذَا سُئِلَ عَمَّا لاَ يَعْلَمُ أَنْ يَقُولَ: لاَ أَعْلَمُ، وَلاَ يَسْتَحْيِيَنَّ أَحَدٌ إِذَا لَمْ يَعْلَم الشَّيْءَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ. وَبالصَّبْر، فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الأيمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَد، وَلاَ خَيْرَ فِي جَسَد لاَ رأْسَ مَعَهُ، وَلاَ فِي إيمَان لاَ صَبْرَ مَعَهُ.»

ثم يتوجه بعد ذلك ليخصص لكل فضيلة وقيمة بابا وشرحا وتوضيحا خاصا بها. ففي وجوب المحافظة على نعم الله سبحانه وكيفية الإستزادة منها يقول عليه السلام: «إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْكُمْ أَطْرَافُ (أوائل) النِّعَم فَلاَ تُنْفِرُوا أَقْصَاهَا بقِلَّة الشُّكْرِ...يَابْنَ آدَمَ، إِذَا رَأَيْتَ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ يُتَابِعُ عَلَيْكَ نِعَمَهُ وَأَنْتَ تَعْصِيه فَاحْذَرْهُ.»

في التواصل الإجتماعي يقول عليه السلام: «أَقِيلُوا ذَوِي الْمُرُوءَاتِ عَثَرَاتِهِمْ، فَمَا يَعْثُرُ مِنْهُمْ عَاثِرٌ إلاَّ وَيَدُهُ بيَد الله يَرْفَعُهُ... مِنْ كَفَّارَاتِ الذُّنُوبِ الْعظَام إِغَاثَةُ الْمَلْهُوف، وَالتَّنْفِيسُ عَنِ الْمَكْرُوب... فَاعِلُ الْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْهُ، وَفَاعِلُ الشَّرِّ شَرٌّ مِنْهُ... لاَ تَسْتَحِ مِنْ إِعْطَاءِ الْقَلِيلِ، فَإِنَّ الْحِرْمَانَ أَقَلُّ مِنْهُ.»

سُئِلَ عليه السلام يوما عن الإيمان فقال: «الأيمَانُ عَلَى أَرْبَع دَعَائمَ: عَلَى الصَّبْر، والْيَقِين، وَالْعَدْل، وَالْجِهَاد. فَالصَّبْرُ مِنْهَا عَلَى أَربَع شُعَب: عَلَى الشَّوْق، وَالشَّفَق، وَالزُّهْد، وَالتَّرَقُّب: فَمَن اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّة سَلاَ عَن الشَّهَوَات، وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّار اجْتَنَبَ الْمُحَرَّمَات، وَمَنْ زَهدَ فِي الدُّنْيَا اسْتَهَانَ بالْمُصيبَات، وَمَن ارْتَقَبَ الْمَوْتَ سَارَعَ فِي الْخَيْرَات. وَالْيَقِينُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَع شُعَب: عَلَى تَبْصرَة الْفطْنَة، وَتَأَوُّل الْحكْمَة، وَمَوْعظَة الْعبْرَة، وَسُنَّة الأوَّلين: فَمَنْ تَبَصَّرَ فِي الْفطْنَة تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحكْمَةُ، وَمَنْ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحكْمَةُ عَرَفَ الْعبْرَةَ، وَمَنْ عَرَفَ الْعبْرَةَ فَكَأَنَّمَا كَانَ فِي الأوَّلِينَ. وَالْعَدْلُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَع شُعَب: عَلَى غَائص الْفَهْم، وَغَوْرِ

الْعِلْم، وَزُهْرَةِ الْحُكْم، وَرَسَاخَةِ الْحِلْم: فَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْم، وَمَنْ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ صَدَرَ عَنْ شَرَائِعِ الْحُكْمِ، وَمَنْ حَلُمَ لَمْ يُفَرِّطْ فِي أَمْرِهِ وَعَاشَ فِي النَّاسِ حَمِيداً.

وَالْجِهَادُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنكَرِ، وَالصِّدْقِ فِي الْمَوَاطِنِ، وَشَنَآنِ الْفَاسِقِينَ: فَمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ شَدَّ ظُهُورَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَنْ نَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ أَرْغَمَ أُنُوفَ الْمُنَافِقِينَ، و مَنْ صَدَقَ فِي الْمَوَاطِنِ قَضَى مَا عَلَيْهِ، وَمَنْ شَنِىءَ الْفَاسِقِينَ وَغَضِبَ لِلَّهِ غَضِبَ اللهُ لَهُ وَأَرْضَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَالْكُفْرُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ: عَلَى التَّعَمُّقِ، وَالتَّنَازُعِ، وَالزَّيْغِ، وَالشِّقَاقِ: فَمَنْ تَعَمَّقَ لَمْ يُنِبْ إِلَى الْحَقِّ، وَمَنْ كَثُرَ نِزَاعُهُ بِالْجَهْلِ دَامَ عَمَاهُ عَنِ الْحَقِّ، وَمَنْ زَاغَ سَاءَتْ عِنْدَهُ الْحَسَنَةُ وَحَسُنَتْ عِنْدَهُ السَّيِّئَةُ وَسَكِرَ سُكْرَ الضَّلاَلَةِ، وَمَنْ شَاقَّ وَعُرَتْ عَلَيْهِ طُرُقُهُ وَأَعْضَلَ (صعب) عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَضَاقَ مَخْرَجُهُ.

وَالشَّكُّ عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى التَّمَارِي، وَالْهَوْلِ، وَالتَّرَدُّدِ وَالاَسْتِسْلاَمِ: فَمَنْ جَعَلَ الْمِرَاءَ دَيْدَناً لَمْ يُصْبِحْ لَيْلُهُ، وَمَنْ هَالَهُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ، وَمَن تَرَدَّدَ فِي الرَّيْبِ وَطِئَتْهُ سَنَابِكُ الشَّيَاطِينِ، وَمَنِ اسْتَسْلَمَ لِهَلَكَةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ هَلَكَ فِيهِمَا.»

في البخل يقول عليه السلام: «عجبت للبخيل يسارع للفقر الذي هرب منه ويفوته الغنى الذي إياه طلب. فيعيش في الدنيا عيش الفقراء ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء.»

في الصداقة الحقيقية يقول عليه السلام: «لا يكون الصديق صديقا حتى يحفظ أخاه في ثلاث: في نكبته وفي غيبته وبعد وفاته.» و يقول: «أصدقاؤك ثلاثة وأعداؤك ثلاثة. فأما أصدقاؤك فهم صديقك وصديق صديقك وعدو عدوك. و أما أعداؤك فهم عدوك وعدو صديقك وصديق عدوك.» وقال لابنه

الحسن عليهما السلام: يَا بُنَيَّ، احْفَظْ عَنِّي أَرْبَعاً وَأَرْبَعاً، لاَ يَضُرَّكَ مَا عَمِلْتَ مَعَهُنَّ: إِنَّ أَغْنَى الْغِنَىٰ الْعَقْلُ، وَأَكْبَرَ الْفَقْرِ الْحُمْقُ، وَأَوحَشَ الْوَحْشَةِ الْعُجْبُ، وَأَكْرَمَ الْحَسَبِ حُسْنُ الْخُلُقِ. يَا بُنَيَّ، إِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الأَحْمَقِ، فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرَّكَ. وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْبَخِيلِ، فَإِنَّهُ يَقْعُدُ عَنْكَ أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ. وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْفَاجِرِ، فَإِنَّهُ يَبِيعُكَ بِالتَّافِهِ. وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْكَذَّابِ، فَإِنَّهُ كَالسَّرَابِ: يُقَرِّبُ عَلَيْكَ الْبَعِيدَ، وَيُبَعِّدُ عَلَيْكَ الْقَرِيبَ.

في المعرفة والعلم يقول عليه السلام: «الناس أعداء ما جهلوا.» ويقول: خُذِ الْحِكْمَةَ أَنَّى كَانَتْ، فَإِنَّ الْحِكْمَةَ تَكُونُ فِي صَدْرِ الْمُنَافِقِ فَتَتَلَجْلَجُ فِي صَدْرِهِ حَتَّى تَخْرُجَ فَتَسْكُنَ إِلَى صَوَاحِبِهَا فِي صَدْرِ الْمُؤْمِنِ.» و في مناسبة أخرى يُعّرف الحكمة على أنها: «ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، فَخُذِ الْحِكْمَةَ وَلَوْ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ... أَوْضَعُ الْعِلْمِ (أدناه) مَا وُقِفَ عَلَى اللِّسَانِ، وَأَرْفَعُهُ مَا ظَهَرَ فِي الْجَوَارِحِ وَالأَرْكَانِ.»

و لكون المجتمع يحتاج الى جهد كل فرد فيه أخذ عليه السلام يحث على العمل، ليس لأنه مهما من اجل المكسب والإعاشة فقط بل ايضا لما لعمل الفرد من مشاركة فعّالة في بناء المجتمع. وحتى لا يشعر أي فرد من المجتمع وخاصة ذووا الأعمال البسيطة بأن لا أهمية لأعمالهم وأن لا يحتقر باقي أفراد المجتمع الأعمال البسيطة أو من يعمل في تلك الأعمل قال عليه السلام: «قِيمَةُ كُلِّ امْرِىءٍ مَا يُحْسِنُهُ.» أي ان المهم هو إجادة العمل وليس نوعه. فقد يكون العمل رفيعا ولكن لا تأثير له في المجتمع وذلك بسبب عدم إجادته. وقد يكون العمل بسيطا لكنه مؤثرا في المجتمع لا لشيء سوى أنه تمت تأديته بصورة سليمة وصحيحة.

ثم يتحدث عليه السلام بعد ذلك عن العلاقة السليمة بين الله سبحانه وتعالى وبين الإنسان وبين الإنسان ومجتمعه فيقول: «مَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ أَصْلَحَ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ أَصْلَحَ أَمْرَ آخِرَتِهِ أَصْلَحَ اللهُ لَهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ.» و لما سئل عن

كيف يصلح الإنسان ما بينه وبين الله أجاب بأن يخاف الله كأنه يراه. عندها سئل عن كيف يضمن الإنسان النجاة من عذاب الله سبحانه وتعلى قال بأن الإستغفار هو الوقاية من العذاب لأن الإستغفار معناه التوبة وعدم الرجوع الى المعصية وعدم الرجوع الى المعصية معناه إستقامة دور الفرد في المجتمع واستقامة دور الفرد في المجتمع معناه المشاركة في بناء مجتمع قوي وسليم.

عن الإمام أبو جعفر محمد بن علي الباقرعليهم السلام أَنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال: «كَانَ فِي الأَرْضِ أَمَانَانِ مِنْ عَذَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ، وَقَدْ رُفِعَ أَحَدُهُمَا، فَدُونَكُمُ الآخَرَ فَتَمَسَّكُوا بِهِ: أَمَّا الأَمَانُ الَّذِي رُفِعَ فَهُوَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله. وَأَمَّا الأَمَانُ الْبَاقِي فَالاْسْتِغْفَارُ، قَالَ اللهُ عزّوجلّ: ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ. ﴾»

أول من وضع قانون إذاعة الخبر:

وتمتد رؤيته إلى أبعد من الجيل الذي يعيشه فيضع قاعدة لإعتماد الخبر ونقله. تلك القاعدة التي تم تبنيها فيما بعد، بعد وفاته عليه السلام بقرون، كقاعدة اساسية للعمل الصحفي وللتعامل مع الأخبار. يقول عليه السلام: «إِعْقِلُوا الْخَبَرَ إِذَا سَمِعْتُمُوهُ عَقْلَ رِعَايَة لاَ عَقْلَ رِوَايَة، فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرُعَاتَهُ قَلِيلٌ.» هذا المبدأ هو نفس المبدأ الذي إتخذته صناعة الصحافة فيما بعد أساسا ومنطلقا للعمل الصحفي فلا ينشر الخبر إلا بعد التأكد من نقله في أكثر من مصدر خبري و عضهم لا ينقله إلا بعد أن يقوم بالإتصال بمراسله في بلد مصدر الخبر ويستطلع رأيه فيما وصل من اخبار. كل ذلك بغرض التأكد من صحة الخبر، وهو تأكيد لما قاله الإمام عليه السلام من ان رواة الأخبار كثير ولكن (الرُعَاتَ) أي الثقاة قليل.

الشمعة السادسة والأربعون
أول من وضع تعريفا وقانونا لحقوق الإنسان

وثيقتان وعهدان عهدهما أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وضعا اللبنة الأساسية والقواعد الضرورية لإيجاد قانون عالمي لحقوق الإنسان يحفظ للإنسان كرامته وآدميته التي منحها إياه خالقه سبحانه وتعالى ويدافع عن تلك الحقوق. من خلال تلك الوثائق والعهود بيّن أمير المؤمنين حقوق وواجبات الدولة والفرد وشدد على حقوق الأخير لكونه الأضعف في المعادلة.

فالدولة والسلطان (الحكومة) بيدهما القوة التي تضمن لهما حقوقهما وتجبر الآخرين على الوفاء بها. لكن الفرد يفتقد لمثل تلك القوة التي من خوفه منها ومن جبروتها يُفضّل في أحيان كثيرة التضحية بحقوقه في مقابل الأمان والوقاية من شرها و جبروتها.

الوثيقة الأولى والعهد الأول كان كتابه إلى مالك الأشتر النخعي، لمّا ولاه على مصر وأعمالها وتمثيله فيها ولدى أهلها. في هذا العهد الشامل الوافي يطلب الإمام عليه السلام من واليه تهذيب نفسه قبل أن يقوم بتهذيب وتعليم رعيته ومن ولي أمرهم من أهل مصر.

يخبره بأن توليته إمارة مصر إنما هو تكليف له وواجب وعمل طُلب منه القيام به وعليه أن يقوم بذلك الواجب على أتم وجه وان يُتمه بأفضل صورة.

عليه ان يتذكر بأنه لا يمكنه القيام بهذا الواجب والتكليف بالصورة الصحيحة إلا إذا أطاع الله ورسوله وقام بتنفيذ ما طلبه الله سبحانه وتعالى منه و كلفه به أميره. وفي هذا السياق فإنه لا شيء يرضي الله ورسوله أكثر من تأمين حقوق الناس والمحافظة عليها.

ثم يأمره بعد ذلك بالعدل بين الناس ومعاملتهم معاملة حسنة ليس فقط لأن الله سبحانه وتعالى امره بذلك، وهو سبب لا يحتاج الى ما يدعمه، بل ايضا لأنهم في الحقيقة إخوانا له قبل أن يكونوا رعيته. عليه ان يتذكر بأن سلطان القوة الذي يملكه إنما هو لحفظ حقوقهم والدفاع عنها وتنميتها. وفي ختام كتابه أمره بأن لا يأخذه الغرور والعجب وأن يتذكر بأنه مهما بلغت القوة التي لديه ومهما وسع وقوي نفوذه فإن تلك القوة وذلك النفوذ لا يساوي شيئا أمام قوة الله وسلطانه وأن الله قريب جدا من المظلوم ودعوته.

أما العهد والميثاق الثاني فكانت وصيته إلى إبنيه الحسن والحسين عليه وعليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام، الوصية التي بالرغم من انها كانت وصية الى ابنيه إلا انها خاطبت ابناء عبد المطلب والمسلمين عامة، في كل زمان ومكان.

يقول الإمام في كتابه إلى ولديه: «أُوصيكُمَا بِتَقْوَى الله، وَأنْ لاَ تَبْغيَا الدُّنْيَا وَإنْ بَغَتْكُمَا، وَلاَ تَأْسَفَا عَلَى شَيْء مِنْهَا زُوِيَ عَنْكُمَا، وَقُولاَ بالْحَقِّ، وَاعْمَلاَ لِلأجْر، وَكُونَا لِلظَّالم خَصْماً، وَلِلْمَظْلُوم عَوْناً. أوصيكُمَا، وَجَمِيعَ وَلَدي وَأَهْلي وَمَنْ بَلَغَهُ كتَابي، بِتَقْوَى الله، وَنَظْم أَمْرِكُمْ، وَصَلاَح ذَات بَيْنكُمْ، فَإنِّي سَمعْتُ جَدَّكُمَا ـ صَلَّى الله عَلَيْه وَآله وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: «صَلاَحُ ذَات الْبَيْن أَفْضَلُ منْ عَامَّة الصَّلاَة والصِّيَام». اللهَ اللهَ في الأيْتَام، فَلاَ تُغبُّوا أَفْوَاهَهُمْ، وَلاَ يَضيعُوا بحَضْرَتكُمْ. وَاللهَ اللهَ في جيرَانكُمْ، فَإنَّهُمْ وَصيَّةُ نَبيِّكُمْ، مَا زَالَ يُوصي بهمْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ. وَاللهَ اللهَ في الْقُرْآنِ، لاَ يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ.

وَاللّهَ اللّهَ فِي الصَّلاَة، فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ. وَاللّهَ اللّهَ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ، لاَ تُخْلُوهُ مَا بَقِيتُمْ، فَإِنَّهُ إِنْ تُرِكَ لَمْ تُنَاظَرُوا. وَاللّهَ اللّهَ فِي الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ. وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّبَاذُلِ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدَابُرَ وَالتَّقَاطُعَ. لاَ تَتْرُكُوا الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَيُوَلَّى عَلَيْكُمْ أَشْرَارُكُمْ، ثُمَّ تَدْعُونَ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَكُمْ. يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لاَ أُلْفِيَنَّكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضاً، تَقُولُونَ: قُتِلَ أَمِيرُالْمُؤْمِنِينَ. أَلاَ لاَ تَقْتُلُنَّ بِي إِلاَّ قَاتِلِي. انْظُرُوا إِذَا أَنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَته (يعني بذلك قاتله عبد الرحمن بن ملجم) هذه، فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَة، وَلاَ يُمَثَّلُ بِالرَّجُلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وَالْمُثْلَةَ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ.»

هذان العهدان وضعا دستورا شاملا لحقوق الإنسان شمل تعريفا لتلك الحقوق ومساحتها وكيفية تحقيقها والمحافظة عليها والدفاع عنها. لقد بين العهدان اهمية تلك الحقوق وما تعنيه بالنسبة للفرد وبالنسبة المجتمع وما هي المردودات الإيجابية والسلبيات الناتجة عن منع وحضر تلك الحقوق عن مستحقيها واهلها.

فمن ناحية الحقوق إختصر سلام الله عليه تعريفها على تعريف الإنسان، وهي من البلاغة التي لم يسبقه إليها أحد قبله ولا توصل لها أحد بعده. فبين الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بأن البشر إخوان متساوون مهما إختلفت ألوانهم وأجناسهم وأجسامهم ولغاتهم ودياناتهم فهم إما إخوان في الدين أو إخوان من حيث الخلقة، تحقيقا لقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلّم: «كلكم لآدم و آدم من تراب.»

و لأنهم إخوة فمن الطبيعي أن يُحظى الإخوة بحقوق متساوية. فالحقوق الطبيعية والفطرية تقسم بالتساوي بين الإخوان ولا يختلف الإخوة عن بعضهم البعض إلا بقدر تصرف كل واحد منهم في حصته من ذلك الحق. فمن ينمي

حصته ويدافع عنها ينمو رصيده ومن يهمل حصته او يسوء استغلالها يعرض حصته الى الوهن و الفناء. وذلك تجسيدا لقول الله سبحانه وتعالى «إن أكرمكم عند الله اتقاكم» وقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى.» اي ان الناس في الأصل إخوة متساوون في الحقوق والواجبات وما يفرق بينهم ويجعل بعضهم مختلف عن البعض الآخر هو مقدار الإستفادة من الحقوق وكيفية أداء تلك الواجبات.

ثم بيّن الإمام عليه السلام بأن وجود القوة والنفوذ والسيطرة بيد الإنسان لا يخوله إبتزاز حقوق أخيه لأن الغرض الأساسي من القوة، سواء كانت بيد الفرد أو الدولة، هو المحافظة على حقوق المواطنين وصيانه الأمن والسلام في المجتمع. يجب أن لا تكون القوة مدعاة للظلم والبغي والإستبداد، لأن الإستبداد خُلُق من حرمه الله سبحانه وتعالى سلطان العقل ومن يعيش في مجتمع الغاب والمجتمعات البربرية والجاهلية، و تلك مجتمعات وبيئات حاربها الإسلام وسعى للقضاء عليها.

لقد بين الإمام عليه السلام بأن الإستخدام الأمثل للقوة هو استخدامها كأداة للردع ولحماية الحقوق وتطبيق ونشر العدالة في المجتمع. لذلك فإن القوة يجب أن لا تُستخدم في غير المهام التي عيّنها الإسلام لها.

بعد ذلك بيّن أمير المؤمنين عليه السلام بأن الحقوق لا تُضمن بالقوة فقط. فهناك أعمال وإجراءات يجب علي الولاة والحكام أن يقوموا بها لكي يضمنوا تحقيق ونشر تلك الحقوق. من تلك الأعمال والإجراءات نشر العدالة في المجتمع فبدونها تنتهك الحقوق وخاصة حقوق الضعفاء ومن لا ناصر لهم غير الله سبحانه وتعالى. فالعدالة تضمن للفرد والمجتمع حقوقهم وتّهذب القوة وتجعلها قوة بناء لا قوة بغي وهدم.

ومن تلك الأعمال قول الصدق فالكذب هو رأس كل خطيئة ولا يمكن إصلاح المجتمع إذا إنتشر الكذب بين أفراده ولا يمكن للعدالة أن تتم إذا إنتشر الكذب وشهود الزور والإفتراء. ومن تلك الأعمال والإجراءات إصلاح ذات البين لأن من لا خير له في أهله لا خير له في الآخرين ومن دعته نفسه لسلب حقوق أهله هان عليه سلب حقوق الآخرين.

من تلك الأعمال بل ومن أهمها الإتصال بالله سبحانه وتعالى عن طريق تأدية الواجبات وفي مقدمتها إقامة الصلاة التي هي الصلة بين الله وخلقه ومتى ما كان الإنسان على صلة بربه يخاف عقابه ويأتمر بأمره وينتهي عن ما نهاه عنه تكون لديه رادع قوي يردعه عن ظلم الناس وسلب لحقوقهم.

ومنها أيضا كفالة اليتيم، فهي علامة من علامات الرحمة والتواصل بين افراد المجتمع ومتى ما وجدت الرحمة عند الإنسان ذهب الظلم عنه ومتى وجد التواصل ذهبت القطيعة والجفاء وتماسك المجتمع.

ومنها حفظ حقوق الجيران والعمل بما جاء به القرآن الكريم والجهاد في سبيل الله والتواصل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعدل في القصاص وكلها أمور من شأنها إستتباب العدل والألفة والمحبة في المجتمع وبين البشر بصفة عامة.

وهكذا وضع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قانونا متكاملا لحقوق الإنسان عرّف من خلاله الحقوق وبين كيفية تحقيها وحمايتها ورعايتها.

الشمعة السابعة والأربعون
سياسياً وزعيماً فريداً

من جملة القوانين والتشريعات الكثيرة التي وضعها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام والإبتكارات المتعددة التي قدمها للبشرية تقديمه تعريفا هو الأول من نوعه لمعنى السياسة، وما هي السياسة وما هي أهدافها.

رأى بأن البيت الأموي بقيادة معاوية بن أبي سفيان قد لعب بهذا المصطلح وحرّفه وجيّره لمصلحته وأهوائه، تماما كما جيّر وحرف الكثير من المفاهيم والمصطلحات. لقد لعب معاوية بالمعنى الحقيقي للسياسة لدرجة انه كان يعتبر كل خُلق ذميم يحقق من خلاله مصلحة يُعتبر حنكة وحكمة ودهاء وسياسة.

أصبح في عرف معاوية، وتبعه على ذلك المنوال الكثير بعده، بأن السياسة هي التفنن في المكر والخداع والغش ونقض العهود والمواثيق والتلاعب بالأفاظ والكلمات. وأرسى معاوية بذلك عرفا مغلوطا وفهما خاطئا في المجتمع دفع بالكثير من أفراد المجتمع لأن يعتقدون يصفون معاوية بأنه أكثر سياسة ودهاء من الإمام، خاصة بعد مهزلة التحكيم التي لم تكن من إنتاج معاوية بل من انتاج ومكر و خداع مستشاريه المتأسلم منهم والمتهود، ولم تحظى بقبول علي بل أجبر على قبولها.

أمام ذلك الواقع المظلم والسيء الذي اصبح فيه كل ما يقوله ويفعله معاوية هو الصحيح والسليم واصبحت المفاهيم التي يضعها عميد البيت الأموي هي المفاهيم الصحيحة وما تعارض معها هو الغير صحيح رأى الإمام

عليه السلام بأن الواجب يحتم عليه وضع التعريف السليم والصحيح للسياسة حتى يعرف الناس الحخقيقة فيعدلوا عن الوهم والفهم الخاطئ والظلمة التي دفعهم معاوية للعيش فيها.

وجد الإمام ان واجبه ودوره الديني والأخلاقي يحتم عليه تصحيح تلك المفاهيم الخاطئة والمغلوطة لكي ينقذ من شرب من كأس خداع ومكر معاوية ويحمي من لم تصل اليه تلك المفاهيم الخاطئة بعد. واجبه كان يحتم عليه وضع حد لإستغلال معاوية لطيبة وحسن ظن المجتمع الإسلامي وأن يوقف المفاهيم المغلوطة التي أخذ معاوية ينشرها بين الناس.

كان جامع الكوفة مقصد المسلمين من كل حدب وصوب. فلقد كان الجامع عبارة عن بيت الله المخصص للعبادة ودار الحكم والإفتاء وبيت مال المسلمين والمكان الذي يلتقي فيه أمير المؤمنين بالمؤمنين والجامعة الكبيرة التي يلتحق بها الكثير من طلبة العلوم. لذلك أصبح مقصد الكثير من الناس من جميع الأقطار. وكان أمير المؤمنين عليه السلام هو المحاضر الأول الذي ما إن يعلن عن نيته توجيه خطاب حتى يجتمع طلاب وأساتذة الحلقات المتنوعة حول منبره الشريف ويكونوا حلقة واحدة تستمع الى محاضر واحد.

فكان من الطبيعي جدا ان يختار أمير المؤمنين ذلك الجمع القادم من بلدان ومدن شتى بما في ذلك الشام معقل الأمويين ويخطب فيهم خطبة يبين فيها خداع ومكر معاوية. فقام خطيبا وبعد ان حمد الله واثنى عليه وذكر النبي فصلى عليه ذكر للمستمعين ما احدثه معاوية من مفاهيم خاطئة للسياسة والحكم والحنكة والفطنة وقال: «وَاللهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَى مِنِّي، وَلكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ، وَلَوْلاَ كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ، وَلَكِنْ كُلُّ غَدَرَةٍ فَجَرَةٌ، وَكُلُّ فَجَرَةٍ كَفَرَةٌ، وَلِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَاللهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ، وَلاَ أُسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ.»

اوضح الإمام عليه السلام المعنى الحقيقي للسياسة وقال انها تعني الصدق والحلم والقدرة على اظهار الحق ونيل الحقوق والمعاملة بالتي هي أحسن والوفاء بالعهود. إنها لا تعني المكر والخداع والمواراة والخنوع.

ثم واصل خطبته قائلا: «إِنَّ الْوَفَاءَ تَوْأَمُ الصِّدْقِ، وَلاَ أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْقَى مِنْهُ، وَمَا يَغْدِرُ مَنْ عَلِمَ كَيْفَ الْمَرْجِعُ، وَلَقَدْ أَصْبَحْنا فِي زَمَان اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِه الْغَدْرَ كَيْساً (فطنة) وَنَسَبَهُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ فيه إلى حُسْنِ الْحِيلَة، مَا لَهُمْ! قَاتَلَهُمُ اللهُ! قَدْ يَرَى الْحُوَّلُ الْقُلَّبُ (البصير بالأمر) وَجْهَ الْحِيلَة وَدُونَهَا مَانعٌ مِنْ أَمْرِ اللهِ وَنَهْيِه، فَيَدَعُهَا رَأْيَ عَيْن بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لاَ حَرِيجَةَ لَهُ فِي الدِّينِ.»

وفي هذا المقطع من الخطبة يوضح الإمكام عليه السلام بأن الحيلة لا تستعصي على أحد ومعرفتها والعمل بها ليس حكرا على معاوية دون غيره. بإستطاعة كل إنسان ان يهتدي إليها ويعمل بها ويتخذها منهجا ينتهجه، وذلك بالفعل ما قام به الكثير ممن أتى قبل وبعد معاوية. الموضوع هو أن هناك إنسان عندما يرى الحيلة تتعارض والتعاليم الإلهية وأنها «مانع من أمر الله» كما يقول الإمام يرفضها ذلك الإنسان في الوقت الذي تجد فيه إنسان آخر لا يعبأ بالموانع الإلهية فتغلب عليه شقوته فيفضلها ويعتبرها دهاء وذكاء وسياسة. و هذا الفرق بين معنى السياسة عند الإمام عليه السلام ومعناها عند معاوية.

بالرغم من تعريف الإمام للسياسة وتفنيده للتعريف الأموي لها إلا أن هناك الكثير من الناس شربوا، لسبب أو لآخر، تعريف معاوية للسياسة وأخذوا يعيبون في سياسة الإمام عليه السلام، ومع الأسف الشديد من هؤلاء جمع لا بأس به من المؤرخين والمثقفين. لم يقوموا بدراسة الشخصيتان دراسة متأنية وحرة ولم يتعمقوا بحيادية في تفكير الرجلين. إكتفوا بما حققه معاوية من نصر مؤقت وأرجعوا ما إدعوه نصرا الى نجاح سياسته لدرجة أن بعضهم اخذ

يضرب بسياسة معاوية الأمثال ويفتخر بتطبيقها وإتباعها. جهلهم بحقيقة الإمام وإغلاقهم باب الإجتهاد على ما أورده وفعله معاوية ومن ركب مركبه وحبهم الفطري في تحقيق نصر سهل وسريع كلها عوامل دفعتهم لإنتقاد سياسة الإمام وإعتبار معاوية أكثر سياسة منه.

في البداية كانت مقارنتهم الظالمة بين ما قام به الإمام وما قام به معاوية. أغفلوا كل الفوارق الرئيسية والأساسية وإكتفوا بالأخذ بالإعتبار بأن الشخصان رجلان سياسيان، من غير الرجوع الى خلفيتهما والبئية التي عاشا فيها ودورهما السياسي والإجتماعي.

فعلي بن أبي طالب الذي لم يسجد لصنم قط هو بالتأكيد غير معاوية الذي ما أسلم إلا بعد أن أكره وإختار أن يكون طليقا، أو بالأحرى قائدا لطلقاء فتح مكة. علي بن أبي طالب الذي وقف أباه مدافعا عن الإسلام ونبيه هو بالتأكيد غير معاوية الذي وقف أباه محاربا للإسلام ونبيه. علي بن أبي طالب الذي أمه فاطمة بنت أسد التي كفلت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم هو بالتأكيد غير معاوية الذي أمه من حشّدت الجيوش على الرسول. علي بن أبي طالب الذي تربى في حجر الرسول هو غير معاوية الذي تربى في حجور العهر. علي بن أبي طالب زوج سيدة نساء العالمين هو غير معاوية زوج أكلة الأكباد. علي بن أبي طالب الذي ما قام الإسلام إلا بسيفه هو غير معاوية الذي عانى الإسلام من سيفه ما عانى.

هناك فروق شاسعة في الخلفية التكوينية والتربوية والعقائدية بين الرجلين غفلها من سمح لنفسه بعمل مثل تلك المقارنة الظالمة. هناك فرق شاسع بين من يقول لولده «لو نازعتني الملك لأخذت الذي فيه عيناك» وبين من يقول لولديه «لا تبغيا الدنيا وإن بغتكما.» علي بن أبي طالب لن يسمح لنفسه بأن يستعمل القوة من أجل الظفر بالسلطان أو من أجل سلب الناس حقهم،

بينما معاوية ما استخدم القوة وتبناها وعمل بها إلا من أجل أن يسلب الناس حقهم ويتأمر عليهم، «ما قاتلتكم لتصوموا أو لتصلوا ولكن لأتأمر عليكم،» كما ورد على لسانه.

لأسباب فطرية وتربوية وعقائدية وخُلُقية ودينية كان لا بد لتعريف الإمام عليه السلام للسياسة أن يختلف إختلافا كليا عن تعريف معاوية لها. يأخذون على علي أنه لم يتقي شرّ معاوية بإقراره واليا على الشام، كما فعل من جاء قبله، ويغفلون حقيقتان هامتان. الحقيقة الأولى هي ان سياسة الإمام بناها على قاعدة "أن لا تأخذه في الله لومة لائم" أو كما قال هو عليه السلام: «والله لا أداهن في ديني ولا أُعطي الدنية في أمري.» ولو أن الإمام كان يقبل بمثل ذلك العمل لما كان ضروريا لأن يقتل، بأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله و سلّم، ما قتل من المنافقين والكافرين بما في ذلك حنظلة أخو معاوية وخاله الوليد وجده عتبة، وكلهم لم يقفوا ضد الإسلام إلا خوفا منه على سلطانهم.

ولو أن عليا، ومن قبله مربيه ومدرسه الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم، كان يرى فيما ذهب إليه منتقدوا سياسة الإمام صوابا وعدلا لما سبقه خصومه وخصوم الرسول للعمل به. فذلك بالفعل ما كان يُطالب به مشركوا قريش في عهد الرسول و في بداية الدعوة بالتحديد عندما طلبوا من الرسول أن لا يحارب دينهم ويترك دينه وفي المقابل سيولونه عليهم ويسلمونهم املاكهم ورقابهم. علي بن أبي طالب هو إمتداد للرسول ولا يمكنه قبول ما لم يقبل به الرسول او ان يخط لنفسه خطا غير ذلك الذى خطه الرسول له.

الحقيقة الثانية التي غابت عن أؤلئك المؤرخين والكتاب والموالين لمعاوية هو أن معاوية لن يقنع بولاية الشام وأنه ما إتخذ الشام إلا قاعدة إنطلاق لملك يؤسس له. وما وقوف أبو سفيان على قبر الحمزة وشماتته والتوعد بالإستيلاء على الخلافة، كما ذكرنا سابقا، إلا دليل على خطط البيت الأموي وتربصهم

بالدولة الإسلامية. أضف إلى ذلك أن تثبيت الإمام عليه السلام لمعاوية على ولاية الشام، لو حدث، فإن ذلك سيمثل شهادة قوية من قبل الإمام بنزاهة واستقامة معاوية وهي ورقة سيستغلها معاوية بلا شك لدعم خططه وبرامجه ومؤامراته وظلمه لعباد الله ولدعم ملكه «العقيم»، كما يقول.

لقد وضع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام معان حقيقية للسياسة وبيّن كيف بإمكانها مواكبة العقيدة وعدم الإنفصال عنها. بل انه بإمكان السياسة أن تكون رافدا وداعما للدين وقيمه ومبادئه.

يُسأل عن من جلس للحكم بين الناس وهو ليس بالمؤهل لذلك فيقول عليه السلام: «إنَّ أَبْغَضَ الخَلائقِ إلَى اللَّه تعالى رَجُلان: رَجُلٌ وَكَلَهُ اللَّه إلَى نَفْسه، فَهُوَ جَائرٌ عَنْ قَصْد السَّبيل، مَشْغُوفٌ بكَلاَم بدْعَة، وَدُعَاء ضَلاَلَة، فَهُوَ فتْنَةٌ لَمن افْتَتَنَ به، ضَالٌّ عَنْ هَدْي مَنْ كَانَ قَبْلَهُ، مُضلٌّ لمَن اقْتَدَى به في حَيَاته وَبَعْدَ وَفَاته، حَمَّالٌ خَطَايَا غَيْره، رَهْنٌ بخَطيئَته. وَرَجُلٌ قَمَشَ جَهْلاً (جمع الجهل)، مُوضعٌ في جُهَّال الأُمَّة، غادر في أَغْبَاش (ظلمة) الفتْنَة، عم (عمي) بمَا في عَقْد الهُدْنَة (من مصلحة للناس)، قَدْ سَمَّاهُ أَشْبَاهُ النَّاس عَالماً وَلَيْسَ به، بَكَّرَ فَاسْتَكْثَرَ منْ جَمْع، مَا قَلَّ منْهُ خَيْرٌ ممَّا كَثُر، حَتَّى إذَا ارْتَوَى منْ مَاء آجن، وَأَكْثَر من غَيْر طَائل، جَلَسَ بَيْنَ النَّاس قَاضياً ضَامناً لتَخْليص (لتبيين) مَا التَبَسَ عَلَى غيْرِه، فَإنْ نَزَلَتْ بِهِ إحْدَى المُبْهَمَاتِ هَيَّأَ لَهَا حَشْواً رَثّاً مِنْ رَأْيِه، ثُمَّ قَطَعَ بِهِ،

فَهُوَ منْ لَبْس الشُّبُهَات في مثْل نَسْج العَنْكَبُوت: لاَ يَدْري أَصَابَ أَمْ أَخْطَأَ، إنْ أَصَابَ خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَخْطَأَ، وَإنْ أَخْطَأَ رَجَا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ. جَاهلٌ خَبَّاطُ جَهلات، عَاش (أعمى البصيرة) رَكَّابُ عَشَوَات (الطرق المظلمة)، لَمْ يَعَضَّ عَلَى العلْم بضرْس قَاطع، يُذري الرِّوَايَات إذْرَاءَ الرِّيح الهَشيمَ، لاَ مَليٌّ (قادر) ـ وَاللهِ ـ بإصْدَارِ مَا وَرَدَ عَلَيْهِ، وَلاَ هُوَ أَهْلٌ لِما فُوّضَ إليه، لاَ يَحْسَبُ العِلْمَ

فِي شَيْءٍ مِمَّا أَنْكَرَهُ، وَلاَ يَرَى أَنَّ مِنْ وَرَاءِ مَا بَلَغَ منه مَذْهَباً لِغَيْرِه، وَإِنْ أَظْلَمَ عَلَيْه أَمْرٌ اكْتَتَمَ بِه لِمَا يَعْلَمُ مِنْ جَهْلِ نَفْسِه، تَصْرُخُ مِنْ جَوْرِ قَضَائِه الدِّمَاءُ، وَتَعَجُّ مِنْهُ الْمَوَارِيثُ. إِلَى اللهِ أَشْكُو مِنْ مَعْشَرٍ يَعِيشُونَ جُهَّالاً، وَيَمُوتُونَ ضُلاَّلاً، لَيْسَ فِيهِمْ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلاَوَتِه، وَلاَ سِلْعَةٌ أَنْفَقُ بَيْعاً وَلاَ أَغْلَى ثَمَناً مِنَ الْكِتَابِ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلاَ عِنْدَهُمْ أَنْكَرُ مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَلاَ أَعْرَفُ مِنَ الْمُنْكَرِ!»

ولما تولى الخلافة خطب في المسلمين مبينا لهم السياسة التي سيتبعها في حكمه والمبادئ التي ترتكز عليها تلك السياسة، فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً، وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ: فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ: فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ (الخراج أو ما يحويه بيت المال) عَلَيْكُمْ، وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلا تَجْهَلُوا، وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْما تَعْلَمُوا. وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ: فَالْوَفَاءُ بِالْبَيْعَةِ، وَالنَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ، وَالاْجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ، وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ. إِنَّهُ لَيس عَلَى الاْمَامِ إِلاَّ مَا حُمِّلَ مِنْ أَمْرِ رَبِّه: الاْبْلاَغُ فِي الْمَوْعِظَةِ، وَالاجْتِهَادُ فِي النَّصِيحَةِ، وَالاْحْيَاءُ لِلسُّنَّةِ، وَإِقَامَةُ الْحُدُود عَلَى مُسْتَحِقِّيهَا، وَإِصْدَارُ السُّهْمَانِ (إعادة الأسهم أو الأنصبة) عَلَى أَهْلِهَا. فَبَادِرُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ تَصْوِيحِ (تجفيف) نَبْتِه، وَمِنْ قَبْلِ أَنْ تُشْغَلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ مُسْتَثَارِ الْعِلْمِ مِنْ عِنْدِ أَهْلِه، وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَتَنَاهَوْا عَنْهُ، فَإِنَّمَا أُمِرْتُمْ بِالنَّهْيِ بَعْدَ التَّنَاهِي!»

ويختصر سلام الله عليه تعريفه للسياسة والحكم بين الناس على أنه تطبيق للشرائع والحدود فيقول: «فَرَضَ اللهُ الاْيمَانَ تَطْهِيراً مِنَ الشِّرْكِ، وَالصَّلاَةَ تَنْزِيهاً عَنِ الْكِبْرِ، وَالزَّكَاةَ تَسْبِيباً لِلرِّزْقِ، وَالصِّيَامَ ابْتِلاَءً لاِخْلاَصِ الْخَلْقِ، وَالْحَجَّ تَقْرِبَةً (سببا لإلتقاء المسلمين) لِلدِّينِ، وَالْجِهَادَ عِزّاً لِلاْسْلاَمِ، وَالاْمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلْعَوَامِّ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ رَدْعاً لِلسُّفَهَاءِ، وَصِلَةَ الاْرْحَامِ مَنْمَاةً لِلْعَدَدِ، وَالْقِصَاصَ حَقْناً لِلدِّمَاءِ، وَإِقَامَةَ الْحُدُودِ إِعْظَاماً لِلْمَحَارِمِ، وَتَرْكَ شُرْبِ الْخَمْرِ تَحْصِيناً لِلْعَقْلِ، وَمُجَانَبَةَ السَّرِقَةِ إِيجَاباً لِلْعِفَّةِ، وَتَرْكَ الزِّنَى

تَحْصيناً للنَّسَب، وَتَرْكَ اللِّوَاط تَكْثيراً للنَّسْل، وَالشَّهَادَات (الإدلاء بالشهادة) اسْتظهَاراً عَلَى الْمُجَاحَدَات، وَتَرْكَ الْكَذب تَشْريفاً للصِّدْق، وَالسَّلاَمَ أَمَاناً منَ الْمَخَاوف، وَالأَمَامَةَ نظَاماً للأُمَّة، وَالطَّاعَةَ تَعْظيماً للإمَامَة.»

تلك هي السياسة كما يفهمها أمير المؤمنين عليه السلام وهي كما وضعها وبينها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم بأمر من الله سبحانه وتعالى.

الشمعة الثامنة والأربعون
له السبق في وضع علم الإقتصاد

أثبت الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بأنه الزعيم العالم والعامل والشامل الذي تحتاجه الأمة الإسلامية. لم يشغله الهم الأمني عن القيام بالأعمال المهمة الأخرى التي كانت الدولة الإسلامية بحاجة لها وخاصة في الجانب الإقتصادي. عمله الدائم وإنشغاله بإطفاء نار الفتن والعمل على إستباب الأمن والأمان لم يمنعه من القيام بأعمال وأجراءات إقتصادية عظيمة ومهمة قادت إلى تنظيم النشاط والوضع الإقتصادي للدولة الإسلامية وكان لهما الأثر البالغ في قوة وإستقلالية إقتصاد الدولة.

وجد ان الوضع الإقتصادي لا يقل اهمية عن الأمن والإستقرار، بل إنه هو الجالب للأمن والإستقرار، لذلك اولى هذا الجانب درجة كبيرة من الأهمية ومنحه الكثير من التفكير والتخطيط. عمل على ضمان النمو الإقتصادي و ريته وإستقلاليته وإنفتاحه.

من أهم الإجراءات الإقتصادية التي قام بها أمير المؤمنين هو نقل عاصمة الدولة الإسلامية من المدينة المنورة إلى الكوفة في العراق. ربما كان كثرة الناصر والداعم والمؤيد له في الكوفة عاملا مهما شجع أمير المؤمنين على نقل الخلافة للكوفة، كما ذهب الى ذلك الكثير من المؤرخين، لكنه إن كان كذلك فهو بالتأكيد ليس العامل الوحيد ولا السبب الوحيد. فبعد أن تولى الخلافة وجد أن العراق كان يمثل السلة الغذائية المهمة والرئيسية للدولة الإسلامية. ففيه

الثروة الزراعية والثروة الحيوانية التي تلبي معظم الإحتياجات الإقتصادية للدولة الإسلامية. كما وجد ان الإنتاج الزراعي والحيواني في العراق ليس مستغلا استغلالا سليما وان البلد بإمكانه زيادة الإنتاج وتحسين جودته إن تم التركيز عليه والإهتمام به وانه من الممكن جدا تحويله لبلد مصدر للغذاء للكثير من مدن الجوار وخاصة المدن غير زراعية.

هذا بالإضافة إلى أن العراق يقع وسط سلال غذائية مهمة أخرى، لا تقل أهمية عنه، كالشام وإيران وتركيا وبفضل التقارب الجغرافي بين هذه البلدان والعراق يصبح بالإمكان تبادل الخبرات والمنتجات الزراعية والإقتصادية مع تلك الدول المجاورة بيسر وسهولة وسرعة.

تلك الأسباب مجتمعة دفعت الإمام عليه السلام الى نقل عاصمة الخلافة الى الكوفة ليكون قريبا من أهم مصدر للدخل القومي وليعمل مباشرة على تنمية ذلك المصدر وتحريره من القيود التي كانت تمنع تطوره. فعمل ومنذ وصوله للكوفة على تنظيم الزراعة ودعم المزارعين والطبقة العاملة في الزراعة.

عمد إلى إستصلاح الأراضي وزيادة الرقعة الزراعية في العراق وتشجيع المزارعين على الإهتمام بزراعتهم والثروة الحيوانية التي يملكونها من خلال إيجاد أسواق محلية وإقليمية لمنتجاتهم ومن خلال توفير المواصلات الضرورية لنقل المنتجات الزراعية بما في ذلك إستيراد البغال والدواب اللازمة وتقديمها للمزارعين بأسعار رمزية.

كما عمد إلى تحرير الصناعة الزراعية من خلال توصيل قنوات الري إلى أراض واسعة وتوزيع تلك الأراضي على المواطنين الذين كانوا يرغبون في العمل في مزارع خاصة بهم بدلا من العمل عند اللآخرين. أما بالنسبة لمن

إقتنع بالعمل في مزارع الغير فقد أوجد له قانونا يحمي حقوقه وأنشا ولأول مرة في التاريخ سجلا للعاملين في الزراعة يتضمن أسماء العمال وأماكن عملهم وأجرتهم وبذلك ضمن حقوق العامل وقضى على البطالة التي كانت منشرة في المجتمع الكوفي بالذات والمجتمع العراقي بصفة عامة.

الإجراء الإقتصادي المهم الآخر الذي قام به الإمام أمير المؤمنين عليه السلام هو سك النقود وإيجاد عملة خاصة بالدولة الإسلامية. فقبل الإسلام كانت العرب تتعامل بالدراهم والدنانير الفارسية والقيصرية. ولما تولى الخليفة عمر الخطاب الخلافة قرر أن تكون للدولة الإسلامية عملة خاصة بها. فعمد إلى الدراهم القيصرية وشكلها بأشكال إسلامية وكتب على بعضها عبارات إسلامية مثل «الحمد لله» و «محمد رسول الله.» ولم تكن تختلف العملة الإسلامية عن الدراهم القيصرية كثيرا كما ان العملة الإسلامية حملت نفس القيمة السوقية للدراهم القيصرية.

ولما تولى الإمام أمير المؤمنين الخلافة رأى بأن إقتصاد الدولة الإسلامية يجب أن يكون مستقلا لا تربطه بالإقتصاد الأجنبي روابط مصيرية مثل العملة المشتركة. فوجود عملة مشتركة، مؤسسة اصلا لتكون عملة بلد اجنبي له سياساته وتوجهاته الخاصة به وقراراته السيادية يحرم الدولة الإسلامية من التدخل الفوري والمباشر لحماية العملة من تقلبات الأسعار والإقتصاد. التحكم في العملة هو بيد صاحب العملة الأصلي كونه صاحب الحق ولا يحق للغيره القيام بأي تعديل مهما كانت درجة التأثير ومهما كانت درجة الضرورة.

لذلك قرر الإمام عليه السلام ايجاد عملة بديلة خاصة بالدولة الإسلامية تكون للدولة الإسلامية حرية التصرف فيها. فقام بسك دراهم إسلامية جديدة من حيث الشكل والمضمون، لها قيمتها السوقية المستقلة والخاصة بها، كما ورد في كتاب «قبس من حياة أمير المؤمنين» للمؤرخ الكبير

السيد جواد شبّر نقلا عن دائرة المعارف البريطانية. وبذلك فك إرتباط العملة الإسلامية بالعملات الأجنبية.

يحدث التاريخ بأن الدراهم الإسلامية التي قام أمير المؤمنين عليه السلام بسكها بقيت على حالها العملة الرئيسية للدولة الإسلامية حتى استولى الأمويون على الخلافة. فلما تولى معاوية الخلافة قام بإلغاء العملة التي سكّها أمير المؤمنين عليه، لا لشيء سوى أنها كانت «تذكره بإنجازات علي بن ابي طالب،» كما قال لإبن العاص، وحلّ محلها الدراهم الكسروية.

بقيت الدراهم الكسروية العملة الرئيسية حتى آل الأمر الى عبد الملك بن مروان. في خلافة عبد الملك حدث خلافا بينه وبين ملك الروم حول إقتسام الغلال لبعض الأراضي الزراعية الحدودية الغير خاضعة سياسيا لأي من الدولتين. فهدد ملك الروم بأن يضرب النقود من جديد وأن يُضّمنها صورا وكلمات تذكر النبي بالسوء وبما يكره المسلمون.

استشار عبد الملك بعض وزراءه وكان بعضهم ممن عاصر سك النقود في عهد الإمام أمير المؤمنين فأشاروا عليه بأن يستشير الإمام الباقر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام حيث انه الأعلم بعلم جده أمير المؤمنين. فبعث عبد الملك الى عامله بالمدينة بأن يرسل إليه الإمام الباقر معززا مكّرما وأن يخبره بأن الغرض من الزيارة هو الإستشارة في أمر يهم الإسلام والمسلمين.

ذهب الإمام الباقر الى عبد الملك فأكرم وفادته وبعدها أخبره بما ينوي ملك الروم عمله. فقال له الإمام الباقر: «لا يعظم هذا عليك. أدع هذه الساعة صُنّاعا فيضربون بين يديك سككا للدراهم والدنانير تجعل عليها سورة التوحيد وذكر الرسول.» ثم أخبره كيف أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب

عليه السلام قام بسك النقود وكيف أخذ قيمتها من مثاقيل الذهب وأعطاها قيمة خاصة بها مقابل عدد المثاقيل المخصصة لكل فئة من العملة.

قال له الإمام الباقر قائلا: «تجعل في مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الذي يُضرب فيه والسنة التي تُضرب فيها تلك الدراهم وتعمد إلى وزن ثلاثين درهما عددا من الأصناف الثلاثة التي العشرة منها وزن عشرة مثاقيل وعشرة منها وزن ستة مثاقيل وعشرة منها وزن خمسة مثاقيل فتكون أوزانها جميعا واحدا وعشرين مثقالا فتجزئها من الثلاثين فتصير العدة من الجميع وزن سبعة مثاقيل وتصب صنجات من قوارير لا تستحيل إلى زيادة أو نقصان فتضرب الدراهم على وزن عشرة مثاقيل والدنانير على وزن سبعة مثاقيل.»

وهكذا أراد الله سبحانه وتعالى وقدّر أن تُحيا فكرة الإمام أمير المؤمنين ونظرته الثاقبة لإستقلال الإقتصاد الإسلامي من جديد وعلى يد أحد أحفاده الذين ورثوا علم وحكمة وفراسة جدهم الذي هو علم وحكمة وفراسة جدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم. قضت مشيئة الله سبحانه وتعالى أن يؤخذ بفكر الإمام الإقتصادي ويُعتمد رسميا بل وأن يدافع عنه بقوة من قبل أبناء من أراد طمس ذلك الفكر الثاقب. يقوم معاوية، أول خلفاء الأمويون، برفض ومحاربة فلسفة الإمام الإقتصادية، لا لشيء سوى كرهه للإمام ويأتي بعده وريثه الرابع فيُقر تلك الفلسفة بل ويحارب من أجل تطبيقها. فبعد أن سُكت الدنانير الإسلامية وإنتشرت في البلدان الإسلامية ألزم عبد الملك بن مروان المسلمين في جميع بقاع الأرض بإستخدامها وهدد بقتل كل من يتعامل بغير تلك النقود.

الإجراء الإقتصادي المهم الثالث الذي قام به أمير المؤمنين عليه السلام هو إهتمامه البالغ بالثروة والمصادر المائية في الدولة الإسلامية والعمل على المحافظة عليها. فبالإضافة إلى شقه القنوات المائية لتنقل المياه إلى الأراضي

اليابسة أوجد قانون الحصص المائية الذي بموجبه ينال كل فلاح نصيبه من الماء في أوقات محددة من اليوم يتفق عليها مع زملائه أصحاب المزارع الأخرى التي تستخدم نفس المصدر المائي فيقسمون اليوم والإسبوع الى حصص توزع فيما بينهم بالتساوي، وحسب حجم ومساحة وحاجة مزارعهم الى الماء.

ذلك كان بالنسبة للبلدان والمدن التي لديها مخزون مائي كالأنهر والآبار. أما بالنسبة للبلدان التي تعتمد على الأمطار كمصدر رئيسي للماء فلقد علّمهم دعائه المعروف بدعاء الإستسقاء الذي جمع بين الدعاء والمعرفة بأهمية الماء والمطر وطرق المحافظة على ما يهطل من ماء. فمن خلال مناجاته لربه أخذ يبين كيفية الدعاء وأهمية الماء، قاصدا بذلك تعريف الناس بأهمية الماء ليدفعهم للمحافظة عليه. يقول عليه السلام في دعائه:

«اللَّهُمَّ قَد انْصَاحَتْ (يبست) جِبَالُنَا، وَاغْبَرَّتْ أَرْضُنَا، وَهَامَتْ (من شدة العطش) دَوَابُّنَا، وَتَحَيَّرَتْ فِي مَرَابِضِهَا، وَعَجَّتْ عَجِيجَ الثَّكَالَى عَلَى أَوْلاَدِهَا، وَمَلَّتِ التَّرَدُّدَ فِي مَرَاتِعِهَا، وَالحَنِينَ إِلَى مَوَارِدِهَا.

اللَّهُمَّ فَارْحَمْ أَنِينَ الآنَّة (الشاة)، وَحَنِينَ الْحَانَّة (الناقة). اللَّهُمَّ فَارْحَمْ حَيْرَتَهَا فِي مَذَاهِبِهَا، وَأَنِينَهَا فِي مَوَالِجِهَا. اللَّهُمَّ خَرَجْنَا إِلَيْكَ حِينَ اعْتَكَرَتْ عَلَيْنَا حَدَابِيرُ السِّنِينَ، وَأَخْلَفَتْنَا مَخَايِلُ (سجاب) الْجُودِ، فَكُنْتَ الرَّجَاءَ لِلْمُبْتَئِس، وَالْبَلاَغَ لِلْمُلْتَمس. نَدْعُوكَ حِينَ قَنَطَ الأَنَامُ، وَمُنِعَ الْغَمَامُ، وَهَلَكَ السَّوَامُ (البهائم)، أَلاَّ تُؤَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا، وَلاَ تَأْخُذَنَا بِذُنُوبِنَا، وَانْشُرْ عَلَيْنَا رَحْمَتَكَ بِالسَّحَابِ الْمُنْبَعِقِ (المنهمر منه المطر)، وَالرَّبِيعِ الْمُغْدِقِ، وَالنَّبَاتِ الْمُونِقِ، سَحّاً وَابِلاً تُحْيِي بِهِ مَا قَدْ مَاتَ، وَتَرُدُّ بِهِ مَا قَدْ فَاتَ.

اللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْكَ مُحْيِيَةً مُرْوِيَةً، تَامَّةً عَامَّةً، طَيِّبَةً مُبَارَكَةً، هَنِيئَةً مَرِيعَةً (خصيبة)، زَاكِياً نَبْتُهَا، ثَامِراً فَرْعُهَا، نَاضِراً وَرَقُهَا، تُنْعِشُ بِهَا الضَّعِيفَ مِنْ

عِبَادِكَ، وَتُحْيِي بِهَا المَيِّتَ مِنْ بِلاَدِكَ! اللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْكَ تُعْشِبُ بِهَا نِجَادُنَا (المرتفع من الأرض)، وَتَجْرِي بِهَا وِهَادُنَا (المنخفض من الأرض)، وَيُخْصِبُ بِهَا جَنَابُنَا وَتُقْبِلُ بِهَا ثِمَارُنَا، وَتَعِيشُ بِهَا مَوَاشِينَا، وَتَنْدَى بِهَا أَقَاصِينَا، وَتَسْتَعِينُ بِهَا ضَوَاحِينَا، مِنْ بَرَكَاتِكَ الْوَاسِعَةِ، وَعَطَايَاكَ الْجَزِيلَةِ، عَلَى بَرِيَّتِكَ الْمُرْمِلَةِ، وَوَحْشِكَ الْمُهْمَلَةِ. وَأَنْزِلْ عَلَيْنَا سَمَاءً مُخْضِلَةً، مِدْرَاراً هَاطِلَةً، يُدَافِعُ الْوَدْقُ (المطر) مِنْهَا الْوَدْقَ، وَيَحْفِزُ (يدفع) الْقَطْرُ مِنْهَا الْقَطْرَ، غَيْرَ خُلَّبٍ بَرْقُهَا، وَلاَ جَهَامٍ عَارِضُهَا (السحاب الذي لا مطر فيه)، وَلاَ قَزَعٍ رَبَابُهَا السحاب الأبيض)، وَلاَ شَفَّانٍ ذِهَابُهَا، حَتَّى يُخْصِبَ لاِمْرَاعِهَا الْمُجْدِبُونَ، وَيَحْيَا بِبَرَكَتِهَا الْمُسْنِتُونَ، فَإِنَّكَ تُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا، وَتَنْشُرُ رَحْمَتَكَ، وَأَنْتَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ.»

اراد الإمام عليه السلام من العمل بهذه المناجاة تحقيق عدة أمور. الأمر الأول هو ربط الإنسان بخالقه أكثر وأكثر لأن أحد أسباب إستجابة الدعاء هو الصدق والإخلاص فيه وفي العمل. الأمر الثاني ان يبين للناس أهمية عطايا الخالق ليس للإنسان فقط بل لكل المخلوقات. الأمر الثالث هو بما ان المخلوقات كلها هي خلق الله فإن الله سبحانه وتعالى ينزل الغيث ليس فقط للإنسان و بسببه بل لكل المخلوقات وبسببها كلها. فقد يكون سبب نزول الغيث مخلوق غير الإنسان. الأمر الرابع هو المحافظة على البيئة من خلال توضيح حق الحيوانات والنباتات في المشاركة في المياه.

الشمعة التاسعة و الأربعون

مبتكر عظيم

الإبحار في عبقرية الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقود الى معرفة حقيقة مهمة وهي أنه شخصية تدين له البشرية بالكثير من الإبتكارات والتشريعات القانونية واللغوية والإجتماعية والسياسية. مشكلة هذه الشخصية الفريدة هي أنها وجدت وبرزت في غير وقتها وعاشت بين غير أهلها. وإلا فما معنى أن يقف الإمام متحديا قائلا «سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني عن طرق السماوات فإني أعلم بها من طرق الأرض،» وهي كلمات تلزم قائلها ولم يبرز إليه إلا قلة تسأله عن أشياء تافهة لا أهمية لها لا بالنسبة للسائل ولا بالنسبة المستمع.

بالرغم من المجتمع الجامد الذي عاش فيه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلا أنه أخذ يغتنم الفرص ليبرز شيئا من عبقريته وإبتكاراته موضحا الحاجة الى ذلك الإبتكار. فعندما تحدث مشكلة سواء شرعية او قانونية او علمية ويعجز المتصدرين لها عن إيجاد حل لها، يتقدم أمير المؤمنين عليه السلام فيوجد لتلك المسألة تشريعا يستنبطه من القرآن الكريم أو السنة النبوية، ويوجد لتلك القضية قانونا علميا يتوصل إليه من خلال معرفته بمخلوقات الله والغرض من خلقها.

فهو أول من فرّق بين لبن أم الذكر ولبن أم الأنثى. فعن شريح القاضي قال: كنت يوما أقضي لعمر بن الخطاب فأتاني رجل وقال لي: يا أبا أمية، إن

رجلا أودعني إمرأتين إحداهما حرة مهيرة، أي غالية المهر، وأخرى سرية فجعلتهما في دار واحدة. وبعد أيام و لدتا غلاما وجارية وأخذت كل واحدة تدعي بأن الغلام هو إبنها. فإقض بينهما بقضاءك؟ فقلت له: لا يحضرني شيء فيهما، فلنذهب إلى عمر. فقمنا وذهبنا إلى عمر و قصصت عليه القصة فسألني: فما قضيت بينهما؟ قلت: لو كان عندي قضائهما ما أتيتك.

يقول شريح: جمع عمر من حضر في ذلك المجلس من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمرني أن أقص عليهم القصة فلم يتوصل أحد منهم إلى قضاء. فقال عمر: ولكني أعرف حيث مفزعها وأين منزعها. فقالوا: كأنك تعني ابن عم الرسول علي بن أبي طالب؟ قال عمر: نعم، و اين المذهب عنه؟ قالوا: فإبعث إليه يأتيك. قال عمر: لا له شمخة من هاشم وأثرة من علم يؤتى لها ولا تأتي وفي بيته يؤتى الحكم والعلم، فقوموا بنا إليه.

فقمنا وذهبنا الى دار علي بن أبي طالب فلم نجده وقيل لنا انه خرج لعمله. ذهبنا نبحث عنه فوجدناه في حائط يركل فيه على مسحاة يسوي من خلالها الأرض وهو يقرأ: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى،﴾ وهو يبكي. فأمهلناه حتى سكن نحيبه فسلمنا عليه واستأذناه في الجلوس لأمر جئنا من أجله.

يواصل شريح القاضي روايته، كما ورد في كتاب «قبس من حياة أمير المؤمنين» للسيد جواد شبر، فيقول: سلمنا عليه فرد علينا السلام ثم قال: مالذي جاء بك يا عمر؟ فقال عمر: أمر عارض. نظر الي عمر وأمرني أن أسرد عليه القصة فقصصتها عليه. فقال لي: فيم حكمت؟ قلت: لم يحضرني فيها حكم. فأخذ بيده شيئا من تراب الأرض ثم قال: «الحكم أهون من هذا.»

أمر الإمام بإحضار الإمرأتين وأمر بإحضار قدحا وميزانا. فلما أحضرتا دفع القدح إلى إحداهما وقال لها: إحلبي فيه؟ إلتفت إلى ناحية وحلبت في القدح ثم جاءت به فوزن القدح وسجل الوزن وأفرغ ما في القدح ثم دفعه للأخرى وأمرها أن تفعل نفس الشيء ففعلت وجاءت بالقدح فوزنه. ثم إلتفت إلى صاحبة اللبن الخفيف قال لها قوموا وخذي إبنتك ولصاحبة اللبن الثقيل قومي وخذي إبنك.

ثم إلتفت إلى عمر وقد أخذته وجميع من حضر الدهشة وقال: أما علمت أن لبن الجارية على النصف من لبن الغلام وأن ميراثها نصف ميراثه وأن عقلها نصف عقله وأن شهادتها نصف شهادته؟ نظر عمر إلى علي وقال له: أرادك الحق يا أبا الحسن ولكن قومك أبوا.

من عبقريته وابتكاراته أيضا كونه أول من إستخدم علم الجينيات للفصل في القضاء، وذلك قبل أكثر من أربعة عشر قرنا من إستخدام هذا العلم على مستوى واسع.

يروي فضيلة السيد محمد باقر الفالي، عن مصادر عدة، في محاضرة له في الحسينية الكربلائية بالكويت في رمضان ١٤٢٤ هجرية بأن رجلا توفت زوجته وتركت له صبيا. بعد فترة من وفاة زوجته تزوج الرجل من أرملة لها إبن من زوجها الذي توفى عنها. بعد فترة توفيت المرأة وأصبح الرجل يرعى إبنه وإبن زوجته ويعامل ابن زوجته كما يعامل ابنه الذي هو من صلبه. وكان الرجل تاجرا ثريا يملك الكثير من المال. خرج ذات اليوم مع قافلة من التجار وإصطحب معه إبن زوجته وترك إبنه في البيت يرعى تجارته.

و بعد أن إشترى من البضائع ما أراد رجع إلى المدينة وفي الطريق جاءه أمر الله وإنتقل إلى ربه. قام ابن زوجته وبمساعدة من معهم في القافلة بتجهيزه

ودفنه ثم رجع إلى البيت وبعد إنتهاء العزاء طالبه إبن زوج أمه، الإبن الحقيقي للمتوفى، بما معه من المال فرفض ان يعطيه مدعيا بأنه الإبن الشرعي للرجل وأن الآخر هو إبن زوجة أبيه.

رفعا القضية الى الخليفة عمر بن الخطاب فأمر ابن الرجل، المدعي، بأن يأتي بشهود يشهدون له على إنه إبن الرجل. ذهب الولد يطلب من الجيران الشهادة ولكن الجميع رفض الشهادة، لا لأنهم لا يرغبون في الإدلاء بها ولكن لحسن معاملة الرجل لكلا الشابين وعدم التفريق والتمييز بينهما أصبح الناس من جيران وأصدقاء لا يستطيعون التمييز بين الإبن الحقيقي وابن الزوجة. لذلك إمتنعوا عى الإدلاء بالشهادة خوفا من ان يشتبه الأمر عليهم. لذلك لم يحصل الإبن الحقيقي على شهود تشهد له، كما طلب منه القضاء.

رجع الإبن مكسور الخاطر إلى عمر وأخبره بما كان من أمره فحكم لإبن الزوجة على أنه إبن الرجل ووريثه. خرج الإبن من عند عمر وهو يبكي وفي الطريق لقيه عمّار بن ياسر فسأله عمّا به فأخبره بقصته. قال له عمّار لا عليك، هيا بنا إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

وصلا الى أمير المؤمنين وقصّ عمّار عليه قصة الولد فطلب منه الذهاب معه إلى الخليفة عمر. دخل أمير المؤمنين على الخليفة وسلّم عليه وسأله عن حكمه في قضية الولد فقال عمر بأن المدعي لم يستطع إحضار من يشهد له بما يدعي.

أمر أمير المؤمنين عليه السلام بإستدعاء الشاب الآخر، الذي إدعى أنه الإبن الحقيقي للمتوفى. ولما أُحضر سأله أمير المؤمنين إن كان يتذكر موقع قبر الرجل فقال نعم إنه على بعد كذا ميل وأحظر من شهد الدفن وشهد معه بذلك.

أمر أمير المؤمنين عليه السلام قنبر أن يأخذ الولد إلى حيث دفن الرجل وأن ينبش القبر ويأتي بعظم من عظام الرجل. وأمر أن يأخذا معهما من يساعدهما على ذلك. ذهب قنبر والشاب إلى حيث أمرهما علي بن بن أبي طالب. وبعد فترة رجعا ومعهما عظما من عظام المتوفى. طلب أمير المؤمنين من الشخصين أن يقتربا منه فلما إقتربا أمر حجّاما بأن يستخرج بعض الدم من المدعى عليه وبعد أن استخرج الدم صبّه على العظم فسال على العظم من غير أن يحدث فيه تغييرا. ثم أمر الحجّام بأن يفعل الشي نفسه مع المدعي ففعل وإستخرج شيئا من دمه. صبّه الإمام على العظم فإذا به قد إكتسى بلون الدم وصار أحمرا. فقال هذا هو إبن الرجل ووريثه.

حكم عمر لصالح الإبن الحقيقي وأنزل العقاب بإبن المرأة بعد أن إسترجع منه كل ما إستولى عليه من الأموال. و بذلك يكون الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أول من إستخدم الجينيات في الأدلة الجنائية.

من إبتكاراته عليه السلام ايضا أنه أول من بيّن حقيقة دوران الأرض، وهي حقيقة لم يتم التوصل اليها الا بعد وفاة الإمام بقرون. ففي خطبته المعروفة بخطبة «الأشباح» يقول عليه السلام: «كَبَسَ الأَرْضَ عَلى مَوْرِ (التحرك الشديد) أَمْوَاجٍ مُسْتَفْحِلَةٍ (هائجة)، وَلُجَجِ بِحَارٍ زَاخِرَةٍ، تَلْتَطِمُ أَوَاذِيُّ (أعالي الموج) أَمْوَاجِهَا، وَتَصْطَفِقُ مُتَقَاذِفَاتُ أَثْبَاجِهَا، وَتَرْغُو زَبَداً كَالْفُحُولِ عِنْدَ هِيَاجِهَا، فَخَضَعَ جِمَاحُ الْمَاءِ الْمُتَلاَطِمِ لِثِقَلِ حَمْلِهَا، وَسَكَنَ هَيْجُ ارْتِمَائِهِ إِذْ وَطِئَتْهُ بِكَلْكَلِهَا، وَذَلَّ مُسْتَخْذِياً (منكسرا) إِذْ تَمَعَّكَتْ (تمرغت في التراب) عَلَيْهِ بِكَوَاهِلِهَا، فَأَصْبَحَ بَعْدَ اصْطِخَابِ أَمْوَاجِهِ، سَاجِياً (ساكنا) مَقْهُوراً، وَفِي حَكَمَةِ الذُّلِّ مُنْقَاداً أَسِيراً، وَسَكَنَتِ الأَرْضُ مَدْحُوَّةً (مبسوطة) فِي لُجَّةِ تَيَّارِهِ، وَرَدَّتْ مِنْ نَخْوَةِ بَأْوِهِ (زهوه) وَاعْتِلاَئِهِ، وَشُمُوخِ أَنْفِهِ وَسُمُوِّ غُلَوَائِهِ، وَكَعَمَتْهُ (شدّه) عَلَى كِظَّةِ جَرْيَتِهِ، فَهَمَدَ بَعْدَ نَزَقَاتِهِ، وَبَعْدَ زَيَفَانِ وَثَبَاتِهِ.

فَلَمَّا سَكَنَ هَيْجُ المَاء مِنْ تَحْت أَكْنَافِهَا، وَحَمْلِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ الْبُذّخ (الرفيع) عَلَى أَكْتَافِهَا، فَجَّرَ يَنَابِيعَ الْعُيُونِ مِنْ عَرَانِينِ أُنُوفِهَا، وَفَرَّقَهَا فِي سُهُوبِ بِيدِهَا وَأَخَادِيدِهَا، وَعَدلَ حَرَكَاتِهَا (و هنا التأكيد على دوران الأرض فلم يقل عليه السلام أوقف بل قال عدّل، أي رتب دورانها) بِالرَّاسِيَاتِ مِنْ جَلاَمِيدِهَا (الحجارة الصلبة)، وَذَوَاتِ الشَّنَاخِيبِ (رؤس الجبال) الشُّمِّ (الرفيعة) مِنْ صَيَاخِيدِهَا (الصخور) فَسَكَنَتْ مِنَ الْمَيَدَانِ (التحرك و الإضطراب) بِرُسُوبِ الْجِبَالِ فِي قِطَعِ أَدِيمِهَا (السطح)، وَتَغَلْغُلِهَا مُتَسَرِّبَةً فِي جَوْبَاتِ خَيَاشِيمِهَا، وَرُكُوبِهَا أَعْنَاقَ سُهُولِ الأَرَضِينَ وَجَرَاثِيمِهَا.»

من عبقريته ومخزون علمه أيضا انه عليه السلام أول من أخبر بإمكانية إستخراج الكهرباء من الماء. ففي إحدى جولاته التفقدية بصحبة بعض من أصحابه مر عليه السلام بنهر الفرات فأشار إلى ماء النهر بإصبعه ونظر إلى مرافقيه قائلا: «لو شئت لإستخرجت من هذا الماء نورا تستضيؤن به.» من سوء حظ الأمة أن مرافقيه غلبت عليهم معرفتهم لعلي بن أبي طالب وتصديقهم لما يقول فلم يفكر أي منهم في سؤاله عن التفصيل ولربما إعتبر بعضهم مثل ذلك السؤال تشكيكا في قول الإمام فإكتفوا بالتصديق، وهو بالتأكيد ما لم يكن يرغب فيه الإمام ولا يأمله منهم. ولو أنهم سألوا عن كيفية إستخراج النور من الماء لكان السبق لهم في إستخراج الكهرباء.

لم يكن حديثه عليه السلام عن إستخراج الكهرباء من الماء هو التنبوء أو الإبتكار الوحيد بل واحدا من إبتكارات كثيرة في العلوم والطب وجميع نواحي المعرفة. إستغل عليه السلام كل المناسبات المتاحة ليعرض علمه على مجتمعه ولكن القوم أبوا إلا أن يكونوا مستمعين سلبيين يكتفون بتصديق ما يسمعون ويعتبرونه معجزة من معاجزه وكأنه كان بحاجة لتقديم المعاجز للبرهان على علمه ومقدرته وأحقيته.

مرة ينظر إلى أصحابه فيقول لهم: «تَوَقَّوا الْبَرْدَ فِي أَوَّله، وَتَلَقَّوْهُ فِي آخِرِه، فَإِنَّهُ يَفْعَلُ فِي الأَبْدَانِ كَفِعْله فِي الأَشْجَارِ، أَوَّلُهُ يُحْرِقُ وَآخِرُهُ يُورِقُ.» فيعتبرون ذلك نصيحة يجب إتباعها ولا شيء غير ذلك. أما لماذا وكيف يؤثر كل من البرد والحر على الإنسان وما هي فوائد ومضار كل منهما، فذلك ما لم يدر بخلد أي من مستمعيه، أيضا لقناعتهم بصحة ما يقول.

ومن عجائب نصائحه الطبية قصيدته التي يقول فيها:

توقّ مدى الأيام إدخـــــال مطعــم	على مطعم من قبل مضغ المطاعــم
و كل طعام يُعجـــز الســن مضغــه	فلا تقربنّه فهو شر لطاعـــم
و وفر على الجســـم الدماء فإنهـــا	لقوة جسم المرء خير الدعائـــم

مرة أخرى يستمع الحضور الى قصيدته فيعجبون بها ولكن لا أحد منهم يسأل الإمام عن شرح الموضوع الذي قدمته أبيات شعره عن أنواع الطعام التي يحتاجها جسم الإنسان وطريقة الأكل وأهميتها على المعدة وما هو الطعام الأنسب لجسم الإنسان وما هي علة الدماء ومكوناتها والعوامل المؤثرة فيها سلبا وايجابا. ولو أنهم فعلوا لكان لهم السبق في الوصول الى الكثير إكتشاف الأمراض والأدوية.

الشمعة الخمســون
أول من أنشأ نظاماً إجتماعياً تكافلياً شاملاً

كان أمير المؤمنين عليه السلام يعلم بأن الكلمات والمواعظ والإرشادات والنصائح والقوانين الإلهية والإدراية إنما وضعت لتكون برنامج عمل وترسم طريق وخطة العمل. ويجب ان تترجم تلك القوانين وتطبق على ارض الواقع حتى تتحق الفائدة المرجوة منها. يجب ان تتحول الكلمات الى سياسات وافعال يستفيد منها الإنسان ومن يعيش معه في مجتمعيه الصغير والكبير وعالميه المحلي والخارجي.

لذلك بمجرد ان تولى أمير المؤمنين عليه السلام الخلافة وضع برامج عمل وسياسات تلتزم الحكومة بتنفيذها من اجل خدمة عامة الناس وارساء الإستقرار والعيش الكريم في المجتمع. فبدأها بالتعليم فوضع قواعده وأسسه وهيأ له مدرسين واساتذة واوكل إليهم مهمة التعليم المجاني.

من خلال ذلك البرنامج قام بتشجيع أفراد المجتمع على التحصيل المعرفي والثقافي والمعلوماتي اللازم والضروري لبناء المجتمع وتنظيمه. وبعد فترة قصيرة استطاع برنامج التعليم ان ينشر الوعي وان يخلق كوادر في المحتمع قادرة على مواكبة التطور وخلق برامج تتناسب مع تطور المجتمع واحتياجاته.

بالتوازي مع برنامج التعليم المجاني أعطى الإمام عليه السلام أهمية كبرى لأكبر هم يواجهه المواطن وهو لقمة توفير لقمة العيش. جعل الإمام من توفير المساعدة من بيت المسلمين لكل محتاج كان حلا مؤقتا لقناعته بأنه ليس

العلاج الشافي لمشكلة الفقر و العوز. كان برنامجه يهدف الى تعليم الإنسان كيف يتحصل على لقمة العيش وكيف يكسب رزقه بنفسه لأن في ذلك ليس فقط إنتشاله من حالة العوز بل أيضا نقله الى خانة المنتجين والمنفقين في سبيل الله والمجتمع والمشاركين في بناء مجتمعه.

إعتمد في برنامجه على إيصال المعلومة لأبناء المجتمع مهيئا إياهم للدخول في العملية الإنتاجية الوطنية. فأخذ يشرح لهم بأن الإعتقاد بأن الغذاء حق للجميع هو إعتقاد صحيح تماما وكذلك صحيحا بأنه لا يجب ان يحرم من الغذاء احد ولكن الصحيح ايضا ان الله سبحانه وتعالى لما خلق الخلق هيّأ لهم سبل الرزق والعيش وأرشدهم إلى مصادر ذلك الرزق وحثهم على طلبه ليس فقط ليضمنوا بقائهم في الدنيا بل أيضا ليجعل منهم مشاركين فاعلين في التنمية الإقتصادية والإجتماعية.

بعد ذلك بين للمسلمين الطرق التي من شأنها تنمية الرزق وشرح كيف تتم الإستفادة منه إستفادة صحيحة سليمة ومفيدة. ثم إنتقل بعد ذلك إلى التنبيه بمخاطر الفقر والمجاعة وأخذ يُعطي النصائح ويُعرّف بالمكاسب ويُحذر من المخاطر والمردودات السلبية لتفشي الفقر والعوز.

يصف عليه السلام كيف يوزع الله سبحانه وتعالى الرزق فيقول: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الأمْرَ يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ إِلَى الأرْضِ كَقَطرِ المَطَرِ إِلَى كُلِّ نَفْس بِمَا قُسِمَ لَهَا مِنْ زِيَادَة أَوْ نُقْصَان، فإذا رَأَى أَحَدُكُمْ لاَخِيهِ غَفِيرَةً (زيادة و كثرة) في أَهْل أَوْ مَال أَوْ نَفْس فَلاَ تَكُونَنَّ لَهُ فِتْنَةً.»

في خطبة أخرى، وهي الخطبة المعروفة «بالغرّاء» يواصل تعريفه للرزق فيقول عليه السلام: «أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي ضَرَبَ لَكُمُ الأمْثَالَ، وَوَقَّتَ لَكُمُ الآجَالَ، وَأَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ، وَأَرْفَغَ لَكُمُ المَعَاشَ، وَأَحَاطَ بِكُمُ الإحْصَاءَ،

وَأَرْصَدَ لَكُمُ الْجَزَاءَ، وَآثَرَكُمْ بِالنِّعَمِ السَّوَابِغِ، وَالرِّفْدِ (العطية) الرَّوافِغِ، وَأَنْذَرَكُمْ بِالْحُجَجِ الْبَوَالِغِ، فَأَحْصَاكُمْ عَدداً، ووَظَّفَ لَكُمْ مُدداً، في قَرَارِ خِبْرَة، وَدَارِ عِبْرَة، أَنْتُمْ مُخْتَبَرُونَ فيهَا، وَمُحَاسِبُونَ عَلَيْهَا. سُبْحَانَكَ خَالِقاً وَمَعْبُوداً! بِحُسْنِ بَلاَئِكَ عِنْدَ خَلْقِكَ، خَلَقْتَ دَاراً، جَعَلْتَ فيهَا مَأْدُبَةً: مَشْرَباً وَمَطْعَماً، وَأَزْوَاجاً وَخَدَماً، وَقُصُوراً، وَأَنْهَاراً، وَزُرُوعاً، وَثِمَاراً.»

بين عليه السلام من خلال هذه الخطب وكثير أمثالها أن الرزق مقدر من قبل الله سبحانه تعالى وأن الخالق جلّ وعلى كفل لكل مخلوق رزقه. لكن الرزق هو لمن يطلبه ويحافظ عليه.

وحتى لا يفهم الناس قوله خطأ فيقعدون عن طلب الرزق إعتمادا على أن الله كافله، رأى عليه السلام ضرورة تبيان أن الله سبحانه وتعالى كفل الرزق لمن يطلبه وأن لا نصيب لقاعد عن مقدرة. فأخذ يحث الناس على العمل والعطاء، فتارة يخاطبهم نثرا وتارة اخرى شعرا.

في احد خطبه يقول عليه السلام: «الْعَمَلَ الْعَمَلَ، ثُمَّ النِّهَايَةَ النِّهَايَةَ، وَالاسْتَقَامَةَ الاسْتِقَامَةَ، ثُمَّ الصَّبْرَ الصَّبْرَ، وَالْوَرَعَ الْوَرَعَ! إِنَّ لَكُمْ نِهَايَةً فَانْتَهُوا إِلى نِهَايَتِكُمْ، وَإِنَّ لَكُمْ عَلَماً فَاهْتَدُوا بِعَلَمِكُمْ، وَإِنَّ للإِسْلاَمِ غَايَةً فَانْتَهُوا إِلى غَايَتِه، وَاخْرُجُوا إِلَى اللهِ بِمَا افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَقِّه، وَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ وَظَائِفِه. أَنَا شَاهِدٌ لَكُمْ، وَحَجِيجٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْكُمْ.»

ثم في خطبة أخرى يقول عليه السلام: «قَدْ تُكُفِّلَ لَكُمْ بِالرِّزْقِ، وَأُمِرْتُمْ بِالْعَمَلِ، فَلاَ يَكُونَنَّ الْمَضْمُونُ لَكُمْ طَلَبُهُ أَوْلَى بِكُمْ مِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَيْكُمْ عَمَلُهُ، مَعَ أَنَّهُ واللهِ لَقَد اعْتَرَضَ الشَّكُّ، وَدَخِلَ الْيَقِينُ، حَتَّى كَأَنَّ الَّذي ضُمِنَ لَكُمْ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ، وَكَأَنَّ الَّذي قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ قَدْ وُضِعَ عَنْكُمْ. فَبَادِرُوا الْعَمَلَ، وَخَافُوا بَغْتَةَ الأَجَلِ، فَإِنَّهُ لاَ يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ الْعُمُرِ مَا يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ الرِّزْقِ،

مَا فَاتَ الْيَوْمَ منَ الرِّزْقِ رُجِيَ غَداً زِيَادَتُهُ، وَمَا فَاتَ أَمْسِ منَ الْعُمُرِ لَمْ يُرْجَ الْيَوْمَ رَجْعَتُهُ. الرَّجَاءُ مَعَ الْجَائِي، وَالْيَأْسُ مَعَ الْمَاضِي، فَـ﴿ اتَّقُوا اللّه حَقَّ تُقَاته وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.»

وتارة يخاطبهم بالطريقة التي يتذوقونها وتُطرب أسماعهم وتصل إلى قلوبهم ألا وهي الشعر الذي عشقوه وتفاخروا به فيقول:

خـــاطر بنفسك لا تقعد بمعجــزة فليس حرّ على عجز بمعــذور
إن لـــم تنل في مقـــام ما تحاولــه فلتبل عذرا بإدلاج و تهجيــر

حث عليه السلام الناس على طلب الرزق أينما كان حتى وإن إستدعى الأمر الهجرة الى اوطان يكثر فيها و يسهل تحصيله، وبيّن لهم بأنه غير معذور من إستطاع العمل ولم يعمل. وحتى يقطع الطريق على المتعذرين والكسالى الذين يكتفون بمحاولة أو عدة محاولات حتى اذا لم تنجح تلك المحاولات ركنوا إلى الإستسلام وجمدوا في مكانهم، قال الإمام عليه السلام:

إصبر على الدهر لا تغضب على أحد فلا يُرى غير ما في الدهـر مخطـوط
و لا تقيـــــــمن بدار لا إنتفاع بهـــا فالأرض واسعة و الرزق مبســوط

هكذا وضع عليه السلام تعريفا وافيا للرزق وكيفية التحصيل عليه. فهو من جهة مقدر من الله سبحانه وتعالى ولكنه مقدر لمن يطلبه. ولا عذر لمن لا يطلبه إن كان قادرا على ذلك، عاملا بقوله تعالى في سورة النساء، الآية ٩٧: ﴿ إِنَّ الَّذينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئكَةُ ظَالمِي أَنْفُسهِمْ قَالُواْ فيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفينَ في الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾

في مقام آخر يقول عليه السلام لمجمع من أصحابه: «الغنى في الغربة وطن والفقر في الوطن غربة.» ويقول أيضا في أبيات شعر شرح فيها فوائد السفر:

تغّرب عن الأوطان في طلب العلى و سافر ففي الأسفار خمس فوائد
تفّريج هم و إكتساب معيشة و علم و آداب و صحبة ماجد
فإن قيل في الأسفار ذل و محنة و قطع الفيافي و إرتكاب الشدائد
فموت الفتى خير له من قيامه بدار هوان بين واش وحاسد

بعد أن وضع الخطوط العريضة للسعي طلبا للرزق وهو ما يعرف حاليا بالعمل، إتجه عليه السلام إلى معالجة الجانب الآخر من الموضوع وهو مصير أؤلئك الذين لديهم موانع جسدية ونفسية وإجتماعية تعيقهم عن طلب الرزق والعمل. فطلب الرزق فرض على المستطيع وأن لا عذر له إن قعد عن ذلك، ولكن ما هو مصير وحكم غير المستطيع؟ ما هو مصير الفقراء الذين لا يملكون قوتهم ولا يستطيعون العمل؟ ما هو حكم الجرحى ومن أقعدتهم الحروب والأمراض عن العمل؟

نظر الإمام عليه السلام إلى هذا الأمر بعناية تامة وأولاه جُل إهتمامه فعمد إلى تفعيل تأدية الحقوق الشرعية وتوصيل الحقوق إلى أصحابها من الفقراء والمساكين والمحتاجين حتى يضمن لتلك الشريحة من أبناء المجتمع العيش الكريم.

يخاطب الأغنياء والموسرين قائلا لهم بأن المال الذي عندهم إنما هو نعمة من نعم الله سبحنه وتعالى وبما أنهم يرغبون في دوام تلك النعمة فعليهم تقديم الشكر للمنعم وتقديم الشكر لا يكون بالكلمة بل بالعمل والعمل هو إخراج ما في أموالهم من حق لله ولرسوله وللفقراء والمساكين.

يقول عليه السلام في إحدى خطبه:«إِنَّ الْمَالَ وَالبَنِينَ حَرْثُ الدُّنْيَا، والعَمَلَ الصَّالِحَ حَرْثُ الآخِرَة، وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا الله لأقْوَام، فَاحْذَرُوا مِنَ الله مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسه، وَاخْشَوْهُ خَشْيَةً لَيْسَتْ بتَعْذِير، وَاعْمَلُوا في غَيْرِ رِيَاء وَلاَ سُمْعَة، فَإِنَّهُ مَنْ يَعْمَلْ لغَيْرِ الله يَكِلْهُ الله إِلَى مَنْ عَمِلَ لَهُ. نَسْأَلُ الله مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَمُعَايَشَةَ السُّعَدَاءِ، وَمُرَافَقَةَ الأنْبِيَاءِ.»

في خطبة أخرى يبين للناس كيف أن الإنفاق في سبيل الله وبذل المال للمحتاجين وخاصة من أولي القربى، له مردودات إيجابية على المنفق في الدنيا قبل اللآخرة. فيقول عليه السلام: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لاَ يَسْتَغْنِي الرَّجُلُ ـ وَإِنْ كَانَ ذَا مَال ـ عَنْ عَشيرَته، وَدفَاعهمْ عَنْهُ بأَيْديهِمْ وَأَلسنَتهِمْ، وَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ حَيْطَةً (رعاية) مِنْ وَرَائه وَأَلَمُّهُمْ لشَعَثه، وَأَعْطَفُهُمْ عَلَيْه عِنْدَ نَازلَة إِنْ نَزَلَتْ به. وَلسَانُ الصِّدْقِ يَجْعَلُهُ الله للْمَرْءِ في النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ المَالِ: يُورِثُهُ غيرَهُ...أَلاَ لاَيَعْدلَنَّ أَحَدُكُمْ عَنِ القَرَابةِ يَرَى بهَا الخَصَاصَةَ (الفقر و الحاجة) أَنْ يَسُدَّهَا بِالَّذي لاَيَزِيدُهُ إِنْ أَمْسَكَهُ وَلاَ يَنْقُصُهُ إِنْ أَهْلَكَهُ (بذله)، وَمَنْ يَقْبِضْ يَدَهُ عَنْ عَشيرَته، فَإِنَّمَا تُقْبَضُ منْهُ عَنْهُمْ يَدٌ وَاحدَةٌ، وَتُقْبَضُ منْهُمْ عَنْهُ أَيْد كَثيرَةٌ، وَمَنْ تَلِنْ حَاشيَتُهُ يَسْتَدِمْ مِنْ قَوْمِه المَوَدَّةَ.»

وما أبلغه من كلام. فالإمام عليه السلام يبين للناس بأن من يضن بخيره عن قومه إنما يمنع يد نفع واحده وهي يده ولكنه في المقابل يمنع ترافد أياد كثيرة، وهي أياد قومه، عندما يحتاج إليهم فلا ينهضوا لنصرته، لعدم وقوفه معهم عند حاجتهم إليه.

بعد أن بيّن مصادر الرزق وحث على طلبه وإخراج الحقوق الشرعية لتصل إلى مستحقيها إنتقل إلى الجانب الثالث في الموضوع وهو دور السلطة التنفيذية وخاصة فيما يتعلق بتطبيق العدل والمساوات، أو ما يُعرف الآن بالتوزيع العادل للثروات.

وحتى يردع الناس، وخاصة من هم في السلطة، عن غصب إخوانهم حقوقهم جعل يضرب لهم الأمثال عمليا وليس بالكلمة فقط. أخذ ينأى بنفسه ويتبرأ عليه السلام من ظلم العباد وغصبهم حقهم. فعمل على إسترداد كل حق إغتصب من اهله نصرة منه للمظلوم والمهضوم حقه.

ولشدة حرصه على تثبيت الحقوق والإنصاف خاف المسلمين عليه من تبعات ذلك الأمر الذي أغضب الكثير ممن قام بسلب الحقوق وخاصة من لهم القوة والمقدرة على المواحهة. فعندما لامه الناس على إسترجاع ما أعطاه عثمان لبعض ولاته الأمويين من غير ان يكونوا مستحقين لذلك العطاء قال قولته المشهورة: « وَاللهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّسَاءُ، وَمُلِكَ بِهِ الْإمَاءُ، لَرَدَدْتُهُ، فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً، وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ، فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ!»

جاءه أخيه عقيل بن ابي طالب يطلب أكثر من حصته من بيت مال المسلمين، ليس ترفا ولا طمعا وإنما لأنه بالفعل في أمس الحاجة لذلك لكثرة عياله وتعدد مسؤولياته. فرده الإمام ورفض طلبه، ليس لأنه لا يستحق بل لأنه نال نصيبه كأي مسلم آخر ولا يوجد فائض في بيت مال المسلمين لكي يعطيه منه. وجد ان تلبية طلب عقيل معناه التعدي على حقوق آخرين وحاشى للإمام ان يفعل ذلك وهو الذي تعهد بأن لا يسلب نملة جلد شعيرة. رده الإمام ردا عمليا مقنعا، حمل التبرير الواضح السبب المقنع والنصح البليغ.

يشرح عليه السلام ما حدث بينه وبين اخيه عقيل قائلا: «وَاللهِ لَأَنْ أَبِيتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ (نبت بري له شوك) مُسَهَّداً، أَوْ أُجَرَّ فِي الْأَغْلاَلِ مُصَفَّدا، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعِبَادِ، وَغَاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ، وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَداً لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى الْبِلَى قُفُولُهَا (رجوعها)، وَيَطُولُ فِي الثَّرَى حُلُولُهَا؟! وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلاً وَقَدْ أَمْلَقَ (إفتقر أشد الفقر) حَتَّى اسْتَماحَنِي مِنْ بُرِّكُمْ (القمح) صَاعاً، وَرَأَيْتُ صِبْيَانَهُ شُعْثَ

الشُّعُور، غُبْرَ الألْوَانِ، مِنْ فَقْرِهِمْ، كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ، وَعَاوَدَنِي مُؤَكِّداً، وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّداً، فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمْعِي، فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي، وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ، مُفَارِقاً طَرِيقِي، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً، ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا، فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ (مرض) مِنْ أَلَمِهَا، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيسَمِهَا، فَقُلْتُ لَهُ: ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ يَا عَقِيلُ! أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ، وَتَجُرُّنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ! أَتَئِنُّ مِنَ الأذَى وَلاَ أَئِنُّ مِنْ لَظىً؟!»

يدخل عليه بعض المسلمين فيعاتبونه على تصييره الناس أسوة في العطاء من غير النظر إلى مكانتهم الإجتماعية وأسبقيتهم في الإسلام وكونهم من أصحاب السابقات والشرف. نظر عليه السلام إليهم بإبتسامته المعهودة وقال: «أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ! وَاللهِ لاَ أَطُورُ (آمر) بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ (مدى الدهر)، وَمَا أَمَّ (قصد) نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْماً! لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللهِ لَهُمْ.»

وهكذا وضع عليه السلام برنامج إجتماعيا متكاملا ضمن من خلاله العيش الكريم لكل فرد في المجتمع من خلال الحث على العمل وإيجاد فرص العمل، كما تقدم في باب سياسته الإمام الإقتصادية، وعمل و حث على إخراج الحقوق الشرعية وطبّق التوزيع العادل للثروات.

الشمعة الحادية و الخمسون
عرف ربّه فعرف كيف يؤدي حقه

في يوم من الأيام القائضة كان الصحابي الجليل سلمان الفارسي (المحمدي) رضوان الله عليه يتمشّى في أحد البساتين وإذا به يسمع همهمات تأتي من ناحية بعض الأشجار الوارفة الظلال. إتجه نحو مصدر الصوت والهمهمات وإذا به يجد رجلا إبتعد عن أعين الناس وإختفى وراء شجرة كثيرة الأغصان كثيفة الأوراق وارفة الظلال بحيث لا يراه أحد.

وقف سلمان مندهشا مما يرى وأمعن النظر في الرجل الذي إتخذ من الشجر سترا يحجبه عن الناس وإذا به يرى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وقد إرتفع أنينه كأنه عليل يئن من علة موجعة لا يستطيع تحمل ألمها ولا يريد ان تراه الناس يتألم او تسمع أنينه.

و قف سلمان خلف الإمام مندهشا لما يرى و إذا به يسمع أمير المؤمنين يناجي ربه وهو يرتعش من خوفه من خالقه. سيطر المنظر على فكر وقلب وإحساس سلمان ووقف متسمرا مكانه يستمع إلى مناجاة أمير المؤمنين وتضرعه ودموعه تسيل على خديه.

بعد أن أفاق سلمان من وقع المفاجأة ركّز على مناجاة الإمام وإذا بالإمام يناجي ربه، كما حدث بذلك سلمان، ويقول في مناجاته: «إلهي كم من موبقة حلمت عن مقابلتها بنقمتك، وكم من جريرة تكّرمت عن كشفها بكرمك. إلهي إن طال في عصيانك عمري وعظم في الصحف ذنبي فما أنا مؤمل غير غفرانك ولا أنا براج غير رضوانك.»

و بعد أن فرغ من المناجاة خرّ ساجدا وأخذ في البكاء والتضرع وهو يقول: «آه من نار تنضج الأكباد والكلى. آه من نار نزّاعة للشوى. أه من غمرة من ملهبات لظى.»

يقول سلمان: ثم إنقطع الصوت فظننت أن الإمام عليه السلام قد أدركه التعب فنام. فأقتربت أكثر منه وناديته فلم يرد جوابي. حرّكته فإذا به كالخشبة اليابسة. فقلت في نفسي: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. قد مات و الله سيدي ومولاي.

رجعت مسرعا باكيا متجها إلى بيت الإمام. طرقت الباب ففتحت لي سيدتي ومولاتي فاطمة الزهراء عليها السلام فقلت لها: آجرك الله في أبا الحسن وذكرت لها ما كان من أمره وكيف خلفته. لم تستغرب الزهراء ما سمعت وبدى الأمر وكأنه ليس غريبا بالنسبة لها. قالت لي الزهراء عليها السلام: «على هونك إن الأمر ليس كما إعتقدت. إنها حالة تعرض له كلما ناجا ربّه وتذّكر الله والنار والآخرة. لا عليك. إذهب إليه ورُشّ عليه قليلا من الماء فأنه سيفيق.» يواصل سلمان حديثه فيقول: لما سمعت مقالة الزهراء عليها السلام حمدت الله وعدت مسرعا إلى سيدي ورششت عليه قليلا من الماء، كما أمرتني سيدتي ومولاتي فإستفاق.

علاقة أمير المؤمنين بخالقه لها خصوصية فريدة تفوق علاقة أي عبد من عباد الله بالخالق سبحانه وتعالى، طبعا بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم. علاقة يصفها سلام الله عليه في قوله «عبدتك لا طمعا في جنتك ولا خوفا من نارك وإنما وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك.»

هذه العلاقة أسست على أُسس قوية قاعدتها الأساسية معرفة الله معرفة حقيقية. فهو ومنذ أن أعلن إسلامه قال قولته المشهورة: «لقد خلقني

الله من غير أن يشاور أبا طالب فما حاجتي إلى مشاورته لكي أعبد الله.» وذلك بعد أن سأله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم إن كان شاور أباه في أمر دخوله في الإسلام.

فإذا كان ذلك هو جواب علي بن أبي طالب الصبي فمن الطبيعي إذا أن يخاطب علي بن أبي طالب الشاب والرجل ربّه بما خاطبه به ويصف عبادته بأن عبادة من أقر لله بالعبودية والفضل الذي له أول وليس له آخر، كما بين ذلك سلام الله عليه في حديث فضل الله ونعمه على الإنسان الذي سبق وان ذكرناه في فصول سابقة.

لم يتوصل أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم لمعرفة الله كما توصل إليها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. عرف الله معرفة جعلته يصف الله بما لم يصفه أحد قبله وبما لا يستطيع أحد ان يصفه بعده. في خطبة له عُرفت بخطبة «التوحيد» يصف أمير المؤمنين عليه السلام الخالق سبحانه وتعالى فيقول:

«مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ، وَلاَ أدرك حَقِيقَتَهُ و لا أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ، وَلاَ إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ، وَلاَ صَمَدَهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْه وَتَوَهَّمَهُ. كُلُّ مَعْرُوف بِنَفْسه مَصْنُوعٌ، وَكُلُّ قَائم في سوَاهُ مَعْلُولٌ. فَاعلٌ لاَ بِاضْطرَابِ آلَة، مُقَدِّرٌ لاَ بِجَوْلِ فكْرَة، غَنيٌّ لاَ بِاسْتفَادَة. لاَ تَصْحَبُهُ الأَوْقَاتُ، وَلاَ تَرْفِدُهُ الأَدَوَاتُ، سَبَقَ الأَوْقَاتَ كَوْنُهُ، وَالْعَدَمَ وُجُودُهُ، وَالابْتدَاءَ أَزَلُهُ. بِتَشْعيرِه الْمَشَاعرَ عُرِفَ أَنْ لاَ مَشْعَرَ لَهُ، وَبِمُضَادَّته بَيْنَ الأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لاَ ضِدَّ لَهُ، وَبِمُقَارَنَته بَيْنَ الأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لاَ قَرِينَ لَهُ.

ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَة، وَالْوُضُوحَ بِالْبُهْمَة، وَالْجُمُودَ بِالْبَلَلِ، وَالْحَرُورَ بِالصَّرَدِ (البرد). مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتهَا، مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتهَا، مُقَرِّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِداتِهَا، مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا. لاَ يُشْمَلُ بِحَدّ، وَلاَ يُحْسَبُ بِعَدٍّ، وَإِنَّمَا تَحُدُّ

الأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا، وَتُشِيرُ الآلاَتُ إِلَى نَظَائِرِهَا، مَنَعَتْهَا «مُنْذُ» الْقِدْمَةَ، وَحَمَتْهَا «قَدُ» الأَزَلِيَّةَ، وَجَنَّبَتْهَا «لَوْلاَ» التَّكْمِلَةَ! بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ، وَبِهَا امْتَنَعَ عَنْ نَظَرِ الْعُيُونِ.

لاَ يَجْرِي عَلَيْهِ السُّكُونُ وَالْحَرَكَةُ، وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ، وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ، وَيَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَحْدَثَهُ ؟! إِذاً لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ، وَلَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ، وَلاَمْتَنَعَ مِنَ الأَزَلِ مَعْنَاهُ، وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءٌ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمَامٌ، وَلاَلْتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ. وَإِذاً لَقَامَتْ آيَةُ الْمَصْنُوعِ فِيهِ، وَلَتَحَوَّلَ دَلِيلاً بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولاً عَلَيْهِ، وَخَرَجَ بِسُلْطَانِ الامْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ مَا يُؤَثِّرُ فِي غَيْرِهِ. الَّذِي لاَ يَحُولُ وَلاَ يَزُولُ، وَلاَ يَجُوزُ عَلَيْهِ الأُفُولُ. لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُوداً، وَلَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُوداً، جَلَّ عَنِ اتِّخَاذِ الأَبْنَاءِ، وَطَهُرَ عَنْ مُلاَمَسَةِ النِّسَاءِ.

لاَ تَنَالُهُ الأَوْهَامُ فَتُقَدِّرَهُ، وَلاَ تَتَوَهَّمُهُ الْفِطَنُ فَتُصَوِّرَهُ، وَلاَ تُدْرِكُهُ الْحَوَاسُّ فَتُحِسَّهُ، وَلاَ تَلْمِسُهُ الأَيْدِي فَتَمَسَّهُ. وَلاَ يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ، وَلاَ يَتَبَدَّلُ فِي الأَحْوَالِ، وَلاَ تُبْلِيهِ اللَّيَالِي وَالأَيَّامُ، وَلاَ يُغَيِّرُهُ الضِّيَاءُ وَالظَّلاَمُ، وَلاَ يُوصَفُ بِشَيءٍ مِنَ الأَجْزَاءِ، وَلاَ بِالْجَوَارِحِ وَالأَعْضَاءِ، وَلاَ بِعَرَضٍ مِنَ الأَعْرَاضِ، وَلاَ بِالْغَيْرِيَّةِ وَالأَبْعَاضِ. وَلاَ يُقَالُ: لَهُ حَدٌّ وَلاَ نِهَايَةٌ، وَلاَ انْقِطَاعٌ وَلاَ غَايَةٌ، وَلاَ أَنَّ الأَشْيَاءَ تَحْوِيهِ فَتُقِلَّهُ أَوْ تُهْوِيَهُ، أَوْ أَنَّ شَيْئاً يَحْمِلُهُ، فَيُمِيلَهُ أَوْ يُعَدِّلَهُ.

لَيْسَ فِي الأَشْيَاءِ بِوَالِجٍ، وَلاَ عَنْهَا بِخَارِجٍ. يُخْبِرُ لاَ بِلِسَانٍ وَلَهَوَاتٍ (شفاه)، وَيَسْمَعُ لاَ بِخُرُوقٍ وَأَدَوَاتٍ، يَقُولُ وَلاَ يَلْفِظُ، وَيَحْفَظُ وَلاَ يَتَحَفَّظُ، وَيُرِيدُ وَلاَ يُضْمِرُ.

يُحِبُّ وَيَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ، وَيُبْغِضُ وَيَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ. يَقُولُ لِمَا أَرَادَ كَوْنَهُ: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، لاَ بِصَوْتٍ يَقْرَعُ، وَلاَ بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ، وَإِنَّمَا كَلاَمُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَمَثَّلَهُ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذلِكَ كَائِناً، وَلَوْ كَانَ قَدِيماً لَكَانَ إِلهاً ثَانِياً. لاَ يُقَالُ: كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، فَتَجْرِيَ عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحْدَثَاتُ، وَلاَ يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ

فَضْلٌ، وَلاَ لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ، فَيَسْتَوِي الصَّانِعُ وَالْمَصْنُوعُ، وَيَتَكَافَأُ الْمُبْتَدَعُ وَالْبَدِيعُ. خَلَقَ الْخَلاَئِقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلاَ مِنْ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَى خَلْقِهَا بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ.

وَأَنْشَأَ الأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ اشْتِغَالٍ، وَأَرْسَاهَا عَلَى غَيْرِ قَرَارٍ، وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمَ، وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمَ، وَحَصَّنَهَا مِنَ الأَوَدِ وَالاعْوِجَاجِ، وَمَنَعَهَا مِنَ التَّهَافُتِ وَالانْفِرَاجِ، أَرْسَى أَوْتَادَهَا، وَضَرَبَ أَسْدَادَهَا، وَاسْتَفَاضَ عُيُونَهَا، وَخَدَّ أَوْدِيَتَهَا، فَلَمْ يَهِنْ مَا بَنَاهُ، وَلاَ ضَعُفَ مَا قَوَّاهُ. هُوَ الظَّاهِرُ عَلَيْهَا بِسُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَهُوَ الْبَاطِنُ لَهَا بِعِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَالْعَالِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا بِجَلاَلِهِ وَعِزَّتِهِ. لاَ يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنْهَا طَلَبَهُ، وَلاَ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ فَيَغْلِبَهُ، وَلاَ يَفُوتُهُ السَّرِيعُ مِنْهَا فَيَسْبِقَهُ، وَلاَ يَحْتَاجُ إِلَى ذِي مَالٍ فَيَرْزُقَهُ.

خَضَعَتِ الأَشْيَاءُ لَهُ، وَذَلَّتْ مُسْتَكِينَةً لِعَظَمَتِهِ، لاَ تَسْتَطِيعُ الْهَرَبَ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَى غَيْرِهِ فَتَمْتَنِعَ مِنْ نَفْعِهِ وَضَرِّهِ، وَلاَ كُفْؤَ لَهُ فَيُكَافِئَهُ، وَلاَ نَظِيرَ لَهُ فَيُسَاوِيَهُ. هُوَ الْمُفْنِي لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا، حَتَّى يَصِيرَ مَوْجُودُهَا كَمَفْقُودِهَا. وَلَيْسَ فَنَاءُ الدُّنْيَا بَعْدَ ابْتِدَاعِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ إِنْشَائِهَا وَاخْتِرَاعِهَا، وَكَيْفَ وَلَوِ اجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا مِنْ طَيْرِهَا وَبَهَائِمِهَا، وَمَا كَانَ مِنْ مُرَاحِهَا وَسَائِمِهَا، وَأَصْنَافِ أَسْنَاخِهَا وَأَجْنَاسِهَا، وَمُتَبَلِّدَةِ أُمَمِهَا وَأَكْيَاسِهَا، عَلَى إِحْدَاثِ بَعُوضَةٍ، مَا قَدَرَتْ عَلَى إِحْدَاثِهَا، وَلاَ عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى إِيجَادِهَا، وَلَتَحَيَّرَتْ عُقُولُهَا فِي عِلْمِ ذَلِكَ وَتَاهَتْ، وَعَجَزَتْ قُوَاهَا وَتَنَاهَتْ، وَرَجَعَتْ خَاسِئَةً حَسِيرَةً، عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ، مُقِرَّةً بِالْعَجْزِ عَنْ إِنْشَائِهَا، مُذْعِنَةً بِالضَّعْفِ عَنْ إِفْنَائِهَا؟!

وَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ، يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحْدَهُ لاَ شَيْءَ مَعَهُ، كَمَا كَانَ قَبْلَ ابْتِدَائِهَا، كَذَلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا، بِلاَ وَقْتٍ وَلاَ مَكَانٍ، وَلاَ حِينٍ وَلاَ زَمَانٍ، عُدِمَتْ عِنْدَ ذَلِكَ الآجَالُ وَالأَوْقَاتُ، وَزَالَتِ السِّنُونَ وَالسَّاعَاتُ، فَلاَ شَيْءَ إِلاَّ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ الأُمُورِ، بِلاَ قُدْرَةٍ مِنْهَا كَانَ ابْتِدَاءُ خَلْقِهَا، وَبِغَيْرِ امْتِنَاعٍ مِنْهَا كَانَ فَنَاؤُهَا، وَلَوْ قَدَرَتْ عَلَى الامْتِنَاعِ لَدَامَ بَقَاؤُهَا.

لَمْ يَتَكَاءَدْهُ (يشق عليه) صُنْعُ شَيْءٍ مِنْهَا إِذْ صَنَعَهُ، وَلَمْ يَؤُدْهُ (يثقله) مِنْهَا خَلْقُ مَا بَرَأَهُ وَخَلَقَهُ، وَلَمْ يُكَوِّنْهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ، وَلاَ لِخَوْفٍ مِنْ زَوَالٍ وَنُقْصَانٍ، وَلاَ لِلاِسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى نِدٍّ (مثل) مُكَاثِرٍ، وَلاَ لِلاِحْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدٍّ مُثَاوِرٍ، وَلاَ لِلاِزْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ، وَلاَ لِمُكَاثَرَةِ شَرِيكٍ فِي شِرْكِهِ، وَلاَ لِوَحْشَةٍ كَانَتْ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْهَا. ثُمَّ هُوَ يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا، لاَ لِسَأَمٍ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي تَصْرِيفِهَا وَتَدْبِيرِهَا، وَلاَ لِرَاحَةٍ وَاصِلَةٍ إِلَيْهِ، وَلاَ لِثِقَلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ. لاَ يُمِلُّهُ طُولُ بَقَائِهَا فَيَدْعُوَهُ إِلَى سُرْعَةِ إِفْنَائِهَا، لكِنَّهُ سُبْحَانَهُ دَبَّرَهَا بِلُطْفِهِ، وَأَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ، وَأَتْقَنَهَا بِقُدْرَتِهِ. ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا، وَلاَ اسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهَا، وَلاَ لاِنْصِرَافٍ مِنْ حَالِ وَحْشَةٍ إِلَى حَالِ اسْتِئْنَاسٍ، وَلاَ مِنْ حَالِ جَهْلٍ وَعَمىً إِلَى (حَال) عِلْمٍ وَالْتِمَاسٍ، وَلاَ مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ إِلَى غِنىً وَكَثْرَةٍ، وَلاَ مِنْ ذُلٍّ وَضَعَةٍ إِلَى عِزٍّ وَقُدْرَةٍ.»

حريٌّ بمن عرف الله هذه المعرفة أن يعبد الله عبادة صحيحة لم يعبده بها أحد قبله، بعد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم، و لن يعبده بمثلها أحد بعده. حريٌّ بمن عرف الله هذه المعرفة أن يناجيه بما يستحق و يحمده قائلا: «الْحَمْدُ للهِ الَّذي بَطَنَ (علم) خَفِيَّاتِ الاُمُورِ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلاَمُ (أدلة) الظُّهُورِ، وَامْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ الْبَصِيرِ; فَلاَ عَيْنُ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ، وَلاَ قَلْبُ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُهُ، سَبَقَ فِي الْعُلُوِّ فَلاَ شَيءَ أَعْلَى مِنْهُ، وَقَرُبَ فِي الدُّنُوِّ فَلاَ شَيْءَ أَقْرَبُ مِنْهُ، فَلاَ اسْتِعْلاَؤُهُ بَاعَدَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلاَ قُرْبُهُ سَاوَاهُمْ فِي الْمَكَانِ بِهِ، لَمْ يُطْلِعِ الْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ، وَلَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ، فَهُوَ الَّذِي تَشْهَدُ لَهُ أَعْلاَمُ الْوُجُودِ، عَلَى إِقْرَارِ قَلْبِ ذِي الْجُحُودِ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُ الْمُشَبِّهُونَ بِهِ وَالْجَاحِدُونَ لَهُ عُلُوّاً كَبِيراً!»

وحريٌّ بمن عرف الله هذه المعرفة الصادقة و القريبة أن يراعي خلقه و يحافظ على حقوقهم و دمائهم و ممتلكاتهم. فهو لا يخطو خطوة إلا بعد أن يتأكد بأن لله فيها رضا و لخلقه فيها مصلحة و منفعة و خدمة. لا يتكلم إلا

عندما يكون الكلام يجلب فائدة او يدفع مضرة. لا يحدث إلا صدقا و لا ينطق إلا حقا و لا يقضي إلا عدلا ولا يجيب إلا عن معرفة. يقدم النصح مخلصا ولا يمنع إلا عن مضر و ضرر. لا يحارب إلا عندما تكون الحرب دواء لا بد من تجرعه للقضاء على الداء و لا يهادن إلا إذا كانت الهدنة حقنا للدماء و حفظا للنفس و العرض و الدين و الملأ. ذلك هو عبد الله و أخو رسوله أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام الذي جعل الله أمام ناظريه في كل حركاته و أقواله و أفعاله.

الشمعة الثانية والخمسون

إمام الوسطية: عمل للدنيا وللآخرة

جانب آخر مهم من حياة أمير المؤمنين عليه السلام لم ينل حقه من التغطية والإشادة من قبل الكثير من المؤلفين والمؤرخين وهو دور الإمام في نشر الوسطية ومبادئها وقيمها وتعليم الوسطية الحقيقية للمجتمع والحث عليها كمبدأ من مبادئ إنصاف النفس وركيزة من ركائز التعايش السلمي وتصالح الإنسان مع اخيه الإنسان ومع بيئته ومجتمعه بصفة عامة.

لقد كان سلام الله عليه وسطا في كل شيء، في أقواله، في أفعاله في ممارساته وفي تعليماته. أعطى كل جانب من جوانب الحياة والمعرفة والعقيدة حقه ولم يبخسه شيئا.

الكثير ممن كتبوا عن الإمام أمير المؤمنين كتبوا من منطلق عقائدي او ايدلوجي او سياسي بحت، أي أنهم بحثوا في سيرة الإمام وهم ينشدون ما يخدم هدفهم من الكتابة. لذلك أبرز كل واحد منهم من حياة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ما يتناسب ومضمون وهدف الموضوع الذي كتب فيه ومن اجله وما يخدم أهدافه وغاياته من الكتابة.

أخذ كل واحد منهم من أقوال وأفعال وممارسات أمير المؤمنين ما يؤيد توجهه ويدعم حجته ووجهة نظره. لم نجد سوى القليل منهم من عالج حياة أمير المؤمنين من موقع دراسي وبحثي وأكاديمي خالص ومتجرد من أي هدف سوى هدف ابراز هذه الشخصية الهامة على حقيقتها ففتحوا تاريخ وحياة أمير المؤمنين للتعرف عليها وعلى مكنوناتها دافعهم الوحيد الى ذلك التوصل

إلى حقيقة تلك الشخصية الفريدة والمتميزة وسبر سيرتها والنهل من منابعها العذبة الروية.

فعلى سبيل المثال هناك الكثير من المؤرخين من أبرز الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على أنه رجل آخرة حارب الدنيا محاربة قوية وإبتعد عنها إبتعادا لا تقارب معه. وإستدلوا على ذلك بالكثير من أقواله وأفعاله عليه السلام. وهي بكل تأكيد أحاديث وروايات صحيحة ولكن مع الأسف الشديد إنتاب عملية إبرازها النقص لأن ما تم إبرازه لا يمثل إلا نصف الحقيقية.

تلك الأحاديث والروايات والأفعال قيلت ووقعت في مناسبات محددة تتوجب قولها وفعلها بالصورة والكيفية التي قالها وفعلها أمير المؤمنين. أراد الإمام من قولها توصيل رسالة محددة الى أشخاص او أقوام محددين في مواضيع محددة. إنها بكل تأكيد لا تبرز الصورة الكاملة لحياة هذه الشخصية العظيمة وإسهاماتها في المجتمع الإسلامي.

لقد بيّنوا على أن أمير المؤمنين عليه السلام حارب الدنيا محاربة شديدة وخاصمها مخاصمة لا تلاقي ولا تصالح بعدها وجاؤوا بأحاديث وروايات وأعمال قام بها عليه السلام في هذا الخصوص كقوله: «أيها الناس، متاع الدنيا موبئ (ذو وباء مهلك) فتجنبّوا مرعاه.» وقوله: «إزهد في الدنيا يبّصرك الله عوراتها.» وقوله: «و الله إن دنياكم هذه أهون في عيني من عراق خنزير (حشى الخنزير) في يد مجذوم.» وقوله لما طُلب منه وصف الدنيا: «ما أصف من دار أولها عناء و آخرها فناء، في حلالها حساب وفي حرامها عقاب من إستغنى فيها فُتن ومن إفتقر فيها حزن.» وقوله: «عباد الله أوصيكم بالرفض لهذه الدنيا التاركة لكم وإن لم تُحبوا تركها. والمبلية لكم وإن كنتم تُحبون تجديدها.»

وفي مقام آخر يصف الدنيا قائلا: «دار بالبلاء محفوفة وبالغدر معروفة. لا تدوم أحوالها ولا تسلم نُزّالها... العيش فيها مذموم والأمان فيها معدوم.»

كما إستدلوا على تركه وزهده في الدنيا بالأبيات المنسوبة إليه عليه السلام والتي يقول فيها:

فإن تكن الدنيا تُعد نفيسة	فإن ثواب الله أعلى و أنبل
و إن تكن الأرزاق حظا و قسمة	فقلة حرص المرء في الكسب أجمل
و إن تكن الأموال للترك جمعها	فما بال متروك به المرء يبخل
و إن تكن الأبدان للموت أنشأت	فقتل إمرء بالسيف في الله أفضل

إستدّلوا كذلك بما روي عن مأكل ومشرب وملبس أمير المؤمنين عليه حيث أنه لم يُعرف عنه سوى أنه كان زاهدا في أكله و شربه ولبسه وأنه يشتري ثوبين فيطلب من غلامه أن يختار أحسنهما وأنه قال: «رقّعت مدرعتي حتى إستحييت من راقعها.»

كل ما ذكره أؤلئك المؤرخون وما قاله أؤلئك المحدثون صحيح. لقد ذكروا أحاديث صحيحة مسندة. لكنهم مع الأسف الشديد أبرزوا نصف الحقيقة فقط.

فكما قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام تلك الأقوال وعمل تلك الأعمال قال وعمل أيضا عكسها ونقيضها تماما. فعندما سمع رجلا يذم الدنيا قال عليه السلام: «أيها الذام للدنيا، المغتر بغرورها، المخدوع بأباطيلها ثم تذمها. أتغتر بالدنيا ثم تذمها. أنت المتجّرم عليها أم هي المتجرمة عليك؟ متى إستهوتك أم متى غرّتك؟ إن الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار عافية لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزّود منها ودار موعظة لمن إتعظ بها. مسجد أحباء

فمن ذا يذمها وقد آذنت ببينها (أخبرت بزوالها) ونادت بفراقها ونعت نفسها وأهلها.»

وعندما طُلب منه أن يُبين حال من يعمل للدنيا قال عليه السلام: «الناس للدنيا عاملان، عامل عمل للدنيا قد شغلته دنياه عن آخرته يخشى على من يخلفه الفقر ويأمنه على نفسه فيفني عمره في منفعة غيره. وعامل عمل في الدنيا لما بعدها فجاءه الذي له من الدنيا بغير عمل فأحرز الحظين معا وملك الزادين جميعا فأصبح وجيها عند الله لا يسأل الله حاجة فيمنعه.»

في لقاء له عليه السلام مع بعض الصحابة يسمع بعضهم يذم أناسا بالغوا في حبهم للدنيا فيقول عليه السلام: «الناس أبناء الدنيا ولا يلام الرجل على حب أمه.»

وفي مناسبة أخرى يخاطب إبنه محمد بن الحنفية، رضوان الله عليه، فيقول له: «يا بني إني أخاف عليك الفقر فإستعذ بالله منه فإن الفقر منقصة للدين، مدهشة للعقل، داعية للمقت.» وذلك حث صريح على العمل وحب الدنيا.

وكما ذمّ الدنيا شعرا نعتها شعرا أيضا. فها هو سلام الله عليه يُخاطب جابر بن عبد الله الأنصاري قائلا:

ما أحسن الدنيـا و إقبـــالهــا	إذا أطاع الله من نالهــا
مـــن لم يواس الناس من فضلـه	عرّض للإدبار إقبالهــا
فإحـــذر زوال الفضل يـا جابـر	و إعط من دُنياك من سالهـا
فإن ذا العـــرش جزيـل العطـا	يُضعف بالحبة أمثالهـا

فكما صحت روايات الذم صحت كذلك روايات المدح. وهذا ربما يطرح سؤال: هل ذلك دليل تناقض أم أن هناك إشكال حول الروايات نفسها؟ والجواب بالتأكيد لا هذا ولا ذاك. لا وجود لتناقض والروايات كلها صحيحة ومسندة. الذّم لوحده والحث لوحده حصل بسبب أن بعض المؤرخين ركّز على الجانب العبادي للإمام فجاء بروايات وأقوال الإمام الذامة للدنيا والبعض الآخر ركّز على الجانب الفلسفي للإمام فجاء بالروايات المادحة للدنيا. وضاع بين المسعيين جانب مهم من حياة الإمام عليه السلام وهي الوسطية أو ما وصفها هو سلام الله عليه بـ «النمط الأوسط» حيث قال في البيت المنسوب اليه:

نحن نؤُم النمط الأوسطـــا ... لسنا كمن قصّــر أو أفرطـا

الإمام عليه السلام ذمّ من يعبد الدنيا من دون الله ولم يذم الدنيا كزمان ومكان. نهى عليه السلام عن التركيز على الدنيا حتى لا تكون الشغل الشاغل والهدف الرئيسي للإنسان. رفض أن تكون الدنيا الهدف الرئيسي للإنسان. أراد أن يوصل للإنسان حقيقة أن الدنيا ما خلقها خالقها إلا لتكون دار عمل ودار زراعة يحصد الإنسان بعض ثمار زرعه فيها ويحصد غالبيته، بل وأهمه، في الآخرة. إنها وسيلة وطريق وليست غاية أو نهاية مطاف. وهذا ما وضّحه في أحاديث وأقوال وأفعال وأوامر كثيرة، بيّناها في صدر هذه الشمعة.

ذمّه للدنيا لم يكن بهدف حث الناس على عدم العمل في الدنيا، بل على عدم العمل لها لأن العمل لها معناه الأنانية والإبتعاد عن القيم والأخلاق والقضاء على كل خلق كريم وأمة بلا قيم ولا أخلاق لا خير فيها ولا أمل في إصلاحها. ويتجلى ذلك بوضوح شديد في قوله عليه السلام: «إعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا وإعمل لآخرتك كأنك تموت غدا.»

أما الإستدلال بطريقة أكله وشربه ولبسه فهو أيضا إبراز لنصف الحقيقة فقط. لم يكن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فقيرا ولا معوزا، بل كان له دخل يأتيه من كد يده ودخل يأتيه من بيت المال. وكان بإمكانه أن يعيش عيشة الملوك لو أراد. لكنه فضّل إنفاق ما يحصل عليه في سبيل الله والعيش عيشة الكفاف لسببين.

السبب الأول هو تهذيب النفس وترويضها على طاعة الله ومرضاته. أما السبب الثاني فهو عيشة الكفاف التي كان يعيشها غالبية أفراد المجتمع الإسلامي. نفسه الطاهرة المروضة على طاعة الله ومرضاته تأبى أن تعيش عيشة بذخ ومن حولها بطون جائعة وأجسام لا تجد ما يحميها من حر الشمس أو قرص برد الشتاء. فكان يجود بما عنده على الفقراء والمعوزين حتى يتمكن من نشر العدل الإجتماعي في المجتمع. وهذا ما وضّحه و شرحه عليه السلام في كتابه إلى واليه على البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري حيث قال في ذلك الكتاب:

«فَوَاللهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً (ذهبا)، وَلاَ ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً (مالا)، وَلاَ أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْراً. بَلَى! كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكٌ مِنْ كلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّماءُ، فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْم، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ، وَنِعْمَ الْحَكَمُ اللهُ. وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَك وَغَيْرِ فَدَك، وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا فِي غَد جَدَثٌ (القبر)، تَنْقَطِعُ فِي ظُلْمَتِه آثَارُهَا، وَتَغِيبُ أَخْبَارُهَا، وَحُفْرَةٌ لَوْ زِيدَ فِي فُسْحَتِهَا، وَأَوْسَعَتْ يَدَا حَافِرِهَا، لاَضْغَطَهَا الْحَجَرُ وَالْمَدَرُ، وَسَدَّ فُرَجَهَا التُّرَابُ الْمُتَرَاكِمُ، وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الاْكْبَرِ، وَتَثْبُتَ عَلَى جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ. وَلَوْ شِئْتُ لاَهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ، إِلَى مُصَفَّى هذَا الْعَسَلِ، وَلُبَابِ هذَا الْقَمْحِ، وَنَسَائِجِ هذَا الْقَزِّ، وَلكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخَيُّرِ الاْطْعِمَةِ ـ وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوِ بِالْيَمَامَةِ مَنْ لاَطَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلاَ عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ ـ أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى وَأَكْبَادٌ حَرَّى، أَوْ أَكُونَ كَمَا

قَالَ الْقَائِلُ: وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَة × وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَى الْقِدِّ. أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلاَ أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ!»

هذه الكلمات توضح بأن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كان بيده «تبر» أي ذهب و «وفرا» أي مال ولكنه لم يكنزه بل أنفقه. ولا يسقط الذهب والمال على الإنسان من السماء بل يُتحصّل عليه جرّاء سعي وعمل وهذا ما يدل على أن أمير المؤمنين كان يعمل في الدنيا وكان له مردود مالي وفير من ذلك العمل. لكنه عليه السلام رفض أن يأكل لذيذ الطعام ويلبس ناعم الثياب وحوله فقراء لا أكل عندهم ولا لباس لديهم.

لبس خشن الثياب ليس لأنه لا يملك أو لا يستطيع لبس الثياب الناعمة بل ليواسي الطبقة محدودة او معدومة الدخل، وهي الغالبية من الشعب في ذلك الوقت. وضع عليه السلام لكل مكان وزمان مقام وملبس ومأكل. لذلك تراه في مجتمعه الذي يكثر فيه الفقراء يلبس حشن الثياب ويأكل جشب الطعام ليواسي من حوله ويشجع الفقراء على إحترامهم لأنفسهم. لكنه عندما يذهب للقاء شخصيات تفتخر بما تلبسه يلبس أفضل ما عنده، وهذا ما بدا جليا عندما لاقى مرحب الذي كان يفتخر بما يلبس. وهذا أيضا ما كان يعمله كلما أراد الصعود على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم للخطابة. كان لديه الثياب الناعمة والغالية ولكنه لا يلبسها إلا عندما يكون لبسها ضروريا لحفظ الإسلام ودولته وهيبته.

لقد كان سلام الله عليه وسطا في مأكله ومشربه وملبسه ومنطقه وعمله. وسطا في كل شيء وأستاذا ومعلما للوسطية الحقيقية والصحيحة. لم تقتصر وسطيته على الأكل والملبس والمشرب والدنيا والآخرة بل شملت أيضا ممارساته وعمله ومنطقه.

عاش ـ في كنف الدولة الإسلامية أناس من ديانات مختلفة منهم المسيحيين واليهود وغير ذلك. لم يجبرهم الإمام على ترك ديناتهم. تركهم أحرار فيما يعبدون. بل الأكثر من ذلك عندما تقع بينهم أو بينهم وبين بعض جيرانهم من المسلمين خصامات ويأتون إليه ليحكم بينهم يحكم يبين لهم حكم قضاياهم في ديانتهم وحكمها في الإسلام ويُخيرهم أي الحُكمين يريدون. لا يفرض عليهم الحكم الإسلامي، مع أن مركزه يُعطيه الحق لفرض الحكم الإسلامي كون المتخاصمين يعيشون في الدولة الإسلامية.

قضية اليهودي الذي خاصم أمير المؤمنين عليه السلام أيام خلافة عمر أكبر دليل على وسطية الإمام. بعث عمر إلى أمير المؤمنين ولما حضر قال له عمر: يا أبا الحسن، إن هذا اليهودي يدعي أنه باعك درع و لم تدفع ثمنه، فما تقول؟ فأجابه أمير المؤمنين قائلا: ما أنصفت يا عمر، لقد خاطبتني بما أُحب فقلت يا أبا الحسن وخاطبته بما يكره.

إعتذر عمر ثم سأله عما يدعي اليهودي. فأجاب الإمام بأنه صحيح إشترى الدرع من عند اليهودي ولكنه دفع له قيمته. سأله عمر عن الأدلة او الشهود فقال له الإمام بأنه لا يملك أي منها. فحكم عمر لليهودي بالمبلغ.

إنصاع أمير المؤمنين عليه السلام للحكم ووعد بدفع المبلغ. فلما شاهد اليهودي ذلك، إعترف بكذب إدعاءه وطلب العفو من الإمام وقال أنه ما عمل ما عمل إلا نكاية في الإمام بما فعله باليهود عندما فتح حصونهم.

أمر عمر بسجن اليهودي ولكن أمير المؤمنين تدخل وطلب له العفو وإستجاب عمر لطلب الإمام وأطلق سراح اليهودي الذي لم يتمالك من وقع ما رأى من سماحة الإسلام وقادته من البكاء و إشهار إسلامه.

وصاياه سلام الله عليه لإبنيه الحسن والحسين عليهما السلام أيضا دليلا صريحا على وسطية الإمام. فعندما يحثهما على «معاملة الناس» معاملة إن عاشا شُكرا وإن ماتا بالخير ذُكرا، أكبر دليل على وسطيته عليه السلام. لم يحثهما على معاملة المسلمين فقط بل «الناس» وذلك حث على معاملة البشر معاملة واحدة لا فرق بين مسلم وغير مسلم.

من اخلاقه عليه السلام انه لا يتكلم إلا بعد أن يكمل الطرف الآخر، مسلما كان أو غير مسلم حديثه. كونه أول القوم اسلاما وأشجعهم وأعلمهم وأتقاهم وأكرمهم لم يبعده عن الرعية من مسلمين وغير مسلمين ولا عن شؤونهم وشجونهم.

وصلت به الوسطية الى حث الناس على تفعيل حسن الظن بالآخرين والتريث في الحكم عليهم وعلى أقوالهم. يأمر عليه السلام المسلمين بعدم التسرع في الحكم وترك ردة الفعل المتسرعة وان يحاولوا قدر ما استطاعوا على تغليب الحكمة. فلو ان إنسانا تفوه بكلمات تبدوا انها سيئة يجب التريث في الحكم عليها عليه ومحاولة إيجاد مخرج طيب لتلك الكلمات إن أمكن. يقول عليه السلام: «لا تظن بكلمة خرجت من أحد سوء وأنت تجد لها في الخير محتملا (او محملا كما في بعض الروايات).»

وفي مكان آخر يقرن سوء الظن بالظلم فيقول عليه السلام: «ليس من العدل القضاء على الثقة بالظن،» وهي دعوة صريحة وواضحة لعدم التفريط بالثقة بين أفراد المجتمع.

في مقام آخر يوجه عليه السلام دعوة صريحة للتعايش السلمي في المجتمعات وخاصة في المجتمعات الغير إسلامية فيأمر الناس بعدم المواجهة مع الآخرين خاصة إذا كانت إدعاءات الآخرين وأخلاقهم وممارساتهم لا

تتعارض ولا تمس صلب العقيدة والثوابت الشرعية. يقول عله السلام: «مقاربة الناس في أخلاقهم أمن من غوائلهم.» وهي دعوة الى مشاركة المجتمعات الغير إسلامية أخلاقها إذا لم تتعارض مع الثوابت الشرعية لأن في ذلك تقوية للعلاقة وتفاد لمضار المواجهة.

عاش سلام الله عليه عيشة وسطا وحث عليها متخذا من قول الله سبحانه وتعالى «وجعلناكم أمة وسطا» منهجا ودستورا لحياته وتعامله مع الآخرين.

الشمعة الثالثة والخمسون
مجاهدا عرف الجهاد فعرّفه

سؤال ملح يبحث عن إجابة شافية له في زماننا هذا الذي أخذت تختلط فيه الأمور وتُسيس حسب الأهواء والأطماع و المشاريع والأجندات. السؤال هو: هل الجهاد يعني القتال أم إن له معنى مختلف وهل هناك فرق بين الإثنين؟ هذا السؤال الذي مازال البعض يبحث له، وكذلك عن أسئلته الفرعية والمشتقة منه عن إجابة، وضع له أمير المؤمنين عليه السلام إجابة واضحة وصريحة وشافية قبل أكثر من أربعة عشر قرنا مضت.

بحنكته و بُعد رؤآه عرف الإمام بأن الجهاد، وكأي شيء آخر، عرضة للتأويل والتجيير، معرض للتحريف والتزوير والتطاول عليه وإستخدامه إستخداما خاطئا. لذلك وجد عليه السلام ان الواجب يحتم عليه تعريف كل من الجهاد والقتال وتبيان الفرق بين الجهاد والقتال وأحكام كل منهما.

لقد بيّن أمير المؤمنين عليه السلام بأن هناك فرق كبير بين الجهاد والقتال وأن الجهاد أوسع وأشمل من القتال وأن القتال ما هو إلا بند واحد من بنود الجهاد. كما بين عليه السلام بأن ليس كل قتال جهاد. فالجهاد لغة كلمة مشتقة من الجُهد، بضم الجيم، وتعني أن يبذل المجاهد، وهو إسم الفعل، ما في وسعه وطاقته ومقدرته في سبيل الوصول إلى هدفه ومبتغاه، مستخدما في ذلك كل قدراته بما في ذلك قدرته العقلية والفكرية و البلاغية والجسدية والقتالية.

أما القتال فهو الإحتراب ويمكن أن يكون جهادا ويمكن أن يكون غير ذلك. فعلى سبيل المثال فإن قتال الأعداء المعتدين والغاصبين والدفاع عن النفس والعرض والأرض والإسلام هو بالتأكيد جهاد ولكن القتال من أجل السلب وكسب المغانم والتوسع وفرض الآراء والبرامج والأهداف الشخصية ليس بجهاد بل غطرسة وظلم وإعتداء.

لذلك وحتى لا يساء إستخدام الجهاد وتُرتكب المعاصي والآثام والمظالم بإسمه قام عليه السلام بتعريف الجهاد فقال: «وَالْجِهَادُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنكَرِ، وَالصِّدْقِ فِي الْمَوَاطِنِ، وَشَنَآنِ الْفَاسِقِينَ: فَمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ شَدَّ ظُهُورَ الْمُؤمِنِينَ، وَمَنْ نَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ أَرْغَمَ أُنُوفَ الْمُنَافِقِينَ، ومَنْ صَدَقَ فِي الْمَوَاطِنِ قَضَى مَا عَلَيْه، وَمَنْ شَنِىءَ الْفَاسِقِينَ وَغَضِبَ لله (من أجل الله و ي سبيله) غَضِبَ اللهُ لَهُ وَأَرْضَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.»

و الأمر بالمعروف هنا ليس كما يعتقد البعض بأنه إجبار الناس على الإسلام او على الصلاة وإنما إجبارهم على عمل الخير وكل ما فيه صالحهم وصالح مجتمعهم والتخلي عن عمل الشر. الأمر بالمعروف يعني الدعوة الى الأخلاق الفاضلة الكريمة ولعمل كل ما من أجله منعة المجتمع ومكوناته من بشر وحيوانات وجماد.

أما القتال فهو عكس ذلك تماما. فهو في فقه أمير المؤمنين خيار تفاديه يُعتبر من أنبل القيم وأفضل الأعمال. ولكم تردد عليه السلام في إستخدام السلاح ضد خصومه أملا في إستجابتهم لما يحقن دمائهم ودماء المسلمين.

لم يكن القتال في منهج الإمام هدفا بل وسيلة من وسائل الجهاد تأتي في آخر ترتيب تلك الوسائل من ناحية الإستخدام والتطبيق وهو ما يُعرف الآن بـ «الخيار الأخير.» وما كثرة مراسلاته مع معاوية إلا أكبر دليل على رغبته في

أن يعود معاوية إلى رشده ويحقن دماء المسلمين. وكذلك كانت مراسلاته مع خصومه الآخرين.

في صفين إستبطأ أصحابه إذنه لهم في القتال وأخذ بعضهم يشيع بأن عليا لم يأمر بالقتال خشية من الموت. ولما سمع أمير المؤمنين عليه السلام بما يتردد في صفوف جيشه جمع الجيش وخطب فيهم وقال: «أَمَّا قَوْلُكُمْ: أَكُلَّ ذلكَ كَرَاهِيَةَ المَوْتِ؟ فَوَاللهِ مَا أُبَالي دَخَلْتُ إلَى المَوْتِ أَوْ خَرَجَ المَوْتُ إلَيَّ. وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: شَكّاً فِي أَهْلِ الشَّامِ! فَوَاللهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْماً إلاَّ وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بي طَائفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بي، وَتَعْشُوَ إلَى ضَوْئِي، فهُوَ أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلالِهَا، وَإنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا.»

في مناسبة أخرى يطلب منه أحد أصحابه أن يُعّرف القتال ومن يجب قتاله، فيجيبه أمير المؤمنين عليه السلام قائلا: «أَلاَ وَإنِّي أُقَاتِلُ رَجُلَيْنِ: رَجُلاً ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ، وَآخَرَ مَنَعَ الَّذي عَلَيْهِ.»

إذا القتل أو القتال مركب مر لا يلجأ إليه المسلم إلا مضطرا، أما الجهاد فهو كما وصفه أمير المؤمنين عليه السلام «بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، فَتَحَهُ اللهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائه، وَهُوَ لباسُ التَّقْوَى، وَدرْعُ اللهِ الحَصِينَةُ، وَجُنَّتُهُ الوَثِيقَةُ، فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ الذُّلِّ، وَشَمِلَهُ البَلاَءُ، وَدُيِّثَ (ذُلّ) بِالصَّغَارِ وَالقَمَاءَة (الذل)، وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالأَسْهَابِ (ذهاب العقل و عدم التركيز)، وَأُدِيلَ الحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الجِهَادِ، وَسِيمَ الخَسْفَ، وَمُنِعَ النَّصَفَ.» و هذا هو الفرق الكبير، كما بينه أمير المؤمنين عليه السلام. فالجهاد واجب والقتال مركب المضطر وتركه وتفاديه إن أمكن أفضل.

في كل مرة يضطر فيها المسلمين الى القتال والدخول في الحرب يأمر أمير المؤمنين عليه السلام المؤمنين بالتريث قبل إعلان الحرب وإستخدام

كل وسائل الإقناع وإن أَجبروا على الحرب ووجدوا أن لا حل سواها ينفع مع خصومهم يجب أن لا يكونوا هم البادئين بالقتال. فها هو في أحد تعليماته لقادة جيوشه يقول عليه السلام: «لاَ تُقَاتِلُوهُمْ حَتَّى يَبْدَأُوكُمْ، فَإِنَّكُمْ بِحَمْدِ اللهِ عَلَى حُجَّة، وَتَرْكُكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّى يَبْدَأُوكُمْ حُجَّةٌ أُخْرَى لَكُمْ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا كَانَتِ الْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ اللهِ فَلاَ تَقْتُلُوا مُدْبِراً، وَلاَ تُصِيبُوا مُعْوِراً (عجز عن حماية نفسه)، وَلاَ تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيح، لاَ تَهِيجُوا النِّسَاءَ بِأَذىً، وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ، وَسَبَبْنَ أُمَرَاءَكُمْ.»

يواصل عليه السلام إرشاداته وتعليماته للمسلمين في هذا المجال فيقول لهم إن هم أجبروا على القتال فيجب عليهم مقاتلة من يقاتلهم فقط. ففي آداب الحرب والقتال يخاطب عليه السلام أصحابه قائلا: «اتَّقُوا اللهَ في عِبَادِه وَبِلاَدِه، فَإِنَّكُمْ مَسْؤُولُونَ حَتَّى عَنِ الْبِقَاعِ وَالْبَهَائِم، أَطِيعُوا اللهَ وَلاَ تَعْصُوهُ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْخَيْرَ فَخُذُوا بِه، وَإِذَا رَأَيْتُمُ الشَّرَّ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ.» وبذلك نهى عليه السلام من الإضرار بالبيئة في الحرب ومراعاتها، تماما كما يراعى من لم يتقدم للحرب. وهذا ما أصبح يُعرف بتحريم و تجريم حروب الإبادة الجماعية وحروب الأرض المحروقة والقتل العشوائي.

لما عزم عليه السلام على قتال جيش معاوية بعد أن رفضوا كل مساعي الصلح التي بذلها، رفع سلام الله عليه يديه إلى السماء يناشد ربه، وهو العالم بما حدث ولكن لإسماع أفراد الجيشين بكرهه للقتال وأنه ما سعى إليه إلا بعد أن إضطره الخصم إلى ذلك.

قال في دعائه: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ، وَالْجَوِّ الْمَكْفُوفِ، الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضاً لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَجْرىً لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَمُخْتَلَفاً لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ، وَجَعَلْتَ سُكَّانَهُ سِبْطاً مِنْ مَلاَئِكَتِكَ، لاَ يَسْأَمُونَ مِنْ عِبَادَتِكَ. وَرَبَّ هذِهِ الأرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا قَرَاراً لِلأنَامِ، وَمَدْرَجاً لِلْهَوَامِّ وَالأنْعَامِ، وَمَا لاَ يُحْصَى مِمَّا يُرَى وَمَا

لاَ يُرَى. وَرَبَّ الجبَال الرَّوَاسي الَّتي جَعَلْتَهَا للأَرْض أَوْتَاداً، وَللْخَلْق اعْتَماداً. إنْ أَظْهَرْتَنَا عَلَى عَدُوِّنَا فَجَنِّبْنَا الْبَغْيَ وَسَدِّدْنَا للْحَقِّ، وَإنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشهَادَةَ وَاعْصِمْنَا منَ الْفتْنَة.»

و هذا هو منتهى الإخلاص والسمو الأخلاقي، بالإضافة إلى كونه نبذا للقتال كمبدأ وسياسة و برنامجا.

الشمعة الرابعة والخمسون
رؤيـة ولا أروع للمجتمـع المثالي

أولى الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام تنمية المجتمع وروح المواطنة الحقيقية والأخلاق الكريمة الفاضلة جل إهتمامه. علم أن لا صلاح للأمة إلا بصلاح أبنائها ولا قوة لها إلا بقوة وإتحاد أبنائها. لذلك ركّز في جميع أفعاله وأقواله على أهمية الأخلاق والعدل والمساواة والشفافية في المجتمع.

و مع أنه كان دائما يفرغ للقيم والأخلاق الإسلامية جانبا مهما ومساحة واسعة في خطبه وكتبه، إلا أنه عليه السلام وبنظرة ثاقبة لا يُخطئها تفكير عبقري وعظيم مثله رأي أن يضع رؤيته للمجتمع المثالي في وثيقة واحدة يسهل من خلالها الرجوع إليها في أي وقت وأي مكان.

تلك الوثيقة هي عهده الذي عهده لعامله وواليه على مصر الأشتر النخعي. ففي ذلك العهد المعنون كتابيا للأشتر والمخاطب لغة ومعنى للبشر في كل مكان وزمان وضع الأسس الصحيحة والمتينة لبناء مجتمع فاضل يسوده العدل والأمن والإستقرار والرخاء.

ولو لم يكن من تراث لأمير المؤمنين عليه السلام سوى ذلك العهد لكان حريا بأن يكون هو الإمام والخليفة والمرجع والمصدر الذي تؤخذ منه التعليمات وتستنبط منه الأحكام وتُسّن بتوجيهاته القوانين. فذلك العهد بمثابة برنامج عمل لا يستطيع أي ناخب حر إلا أن يعطي الإمام صوته، وبالإبصام عشرا.

ولأهمية ذلك العهد رأينا من الواجب علينا وعلى كل كاتب ومؤلف يتصدر للكتابة عن أمير المؤمنين عليه السلام أن يورده كاملا وحرفيا لأهمية كل حرف وكل كلمة فيه ولضرورته في كل وقت ومكان ولجميع البشر من تاريخ ذلك العهد وحتى قيام يوم الدين.

فإذا كان القرآن والسنة الطاهرة الدستور الذي أنزله الله سبحانه وتعالى وبينه رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلّم وإذا كان نهج البلاغة اللائحة الداخلية للحكم فإن هذا العهد، عهد الإمام الى مالك الأشتر، هو برنامج العمل الذي لا يستغني عنه أي مجتمع. يقول الإمام عليه السلام في ذلك العهد:

«بسم الله الرَّحمن الرَّحيم. هذَا مَا أَمَرَ به عَبْدُ الله عَليٌّ أَميرُ الْمُؤْمنينَ، مَالكَ بْنَ الْحَارث الأَشْتَرَ في عَهْده إلَيْه، حينَ وَلاَّهُ مصْرَ: جِبْوَةَ خَرَاجها، وَجهَادَ عَدُوِّهَا، وَاسْتصْلاَحَ أَهْلهَا، وَعمَارَةَ بلاَدهَا. أَمَرَهُ بتَقْوَى الله، وَإيثَار طَاعَته، وَاتِّبَاع مَا أَمَرَ به في كتَابه: منْ فَرَائضه وَسُنَنه، الَّتي لاَ يَسْعَدُ أَحَدٌ إلاَّ باتِّبَاعهَا، وَلاَ يَشْقَى إلاَّ مَعَ جُحُودهَا وَإضَاعَتهَا، وَأَنْ يَنْصُرَ اللهَ سُبْحَانَهُ بيَده وَقَلْبه وَلسَانه، فَإنَّهُ، جَلَّ اسْمُهُ، قَدْ تَكَفَّلَ بنَصْر مَنْ نَصَرَهُ، وَإعْزَاز مَنْ أَعَزَّهُ. وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْسرَ نَفْسَهُ عنْدَ الشَّهَوَات، وَيَزَعَهَا (يكفها) عنْدَ الْجَمَحَات (رغبات النفس)، فَإنَّ النَّفْسَ أَمَّارَةٌ بالسُّوء، إلاَّ مَا رَحمَ اللهُ.

ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالكُ، أَنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إلَى بلاَد قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ، منْ عَدْل وَجَوْر، وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ منْ أُمُورِكَ فى مثْل مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فيه منْ أُمُور الْوُلاَة قَبْلَكَ، وَيَقُولُونَ فيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فيهمْ، إنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالحينَ بمَا يُجْري اللهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُن عبَاده. فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائر إلَيْكَ ذَخيرَةُ الْعَمَل الصَّالح، فَامْلكْ هَوَاكَ، وَشُحَّ بنَفْسكَ عَمَّا لاَ يَحلُّ لَكَ، فَإنَّ الشُّحَّ بالنَّفْس الإنْصَافُ منْهَا فيمَا أَحْبَبْتَ وَكَرِهْتَ. وَأَشْعرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ للرَّعيَّة، وَالْمَحَبَّةَ

لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلاَ تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ، يَفْرُطُ (يحدث) مِنْهُمُ الزَّلَلُ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ، يُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَإِ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلِ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَ وَالِي الأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ، وَاللهُ فَوْقَ مَنْ وَلاَّكَ! وَقَدِ اسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ، وَابْتَلاَكَ بِهِمْ.

وَلاَ تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ اللهِ (مخالفة شرع الله)، فَإِنَّهُ لاَيَدَيْ (لا قدرة) لَكَ بِنِقْمَتِهِ، وَلاَ غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ. وَلاَ تَنْدَمَنَّ عَلَى عَفْوٍ، وَلاَ تَبْجَحَنَّ بِعُقُوبَةٍ، وَلاَ تُسْرِعَنَّ إِلَى بَادِرَةٍ وَجَدْتَ مِنْهَا مَنْدُوحَةً، وَلاَ تَقُولَنَّ: إِنِّي مُؤَمَّرٌ آمُرُ فَأُطَاعُ، فَإِنَّ ذلِكَ إِدْغَالٌ (إفساد) فِي الْقَلْبِ، وَمَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ، وَتَقَرُّبٌ مِنَ الْغِيَرِ. وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُبَّهَةً أَوْ مَخِيلَةً، فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ اللهِ فَوْقَكَ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لاَ تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّ ذلِكَ يُطَامِنُ (يقلل) إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ (جموحك)، وَيَكُفُّ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ (حدتك)، وَ يَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ!

إِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ (مباراة) اللهِ فِي عَظَمَتِهِ، وَالتَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ، فَإِنَّ اللهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ، وَيُهِينُ كُلَّ مُخْتَالٍ. أَنْصِفِ اللهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ، وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوىً مِنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّكَ إِلاَّ تَفْعَلْ تَظْلِمْ، وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللهِ كَانَ اللهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ، وَكَانَ للهِ حَرْباً حَتَّى يَنْزِعَ وَيَتُوبَ. وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ، فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِينَ، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ.

وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ، وَأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَى الرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَى الْخَاصَّةِ، وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّةِ. وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ، أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَؤُونَةً فِي

الرَّخَاء، وَأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلاَء، وَأَكْرَهَ لِلاْنْصَاف، وَأَسْأَلَ بِالإِلْحَاف (الشدة في السؤال)، وَأَقَلَّ شُكْراً عِنْدَ الأَعْطَاء، وَأَبْطأَ عُذْراً عِنْدَ الْمَنْع، وَأَضْعَفَ صَبْراً عِنْدَ مُلِمَّات الدَّهْر مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّة، وَإِنَّمَا عَمُودُ الدِّين، وَجِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ، وَالْعُدَّةُ لِلأَعْدَاء، الْعَامَّةُ مِنَ الأُمَّة، فَلْيَكُنْ صِغْوُكَ (ميلك) لَهُمْ، وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ. وَلْيَكُنْ أَبْعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ، وَأَشْنَأَهُمْ (أبغضهم) عِنْدَكَ، أَطْلَبُهُمْ لِمَعَائِبِ النَّاس، فَإِنَّ فِي النَّاس عُيُوباً، الْوَالي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا، فَلاَ تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ، وَاللهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ، فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ يَسْتُرِ اللهُ مِنْكَ ما تُحِبُّ سَتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ.

أَطْلِقْ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْد، وَاقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وِتْر، وَتَغَابَ (تغافل) عَنْ كلِّ مَا لاَ يَضِحُ (يكون واضحا) لَكَ، وَلاَ تَعْجَلَنَّ إِلَى تَصْدِيقِ سَاع، فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌّ، وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ. وَلاَ تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلاً يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ، وَيَعِدُكَ الْفَقْرَ، وَلاَ جَبَاناً يُضعِّفُكَ عَنِ الأُمُورِ، وَلاَ حَرِيصاً يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ.

شَرُّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيراً، وَمَنْ شَرِكَهُمْ فِي الآثَام، فَلاَ يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الأَثَمَة، وَإِخْوَانُ الظَّلَمَة، وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلَف مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَاذِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ (ذنوبهم) وَأَوْزَارِهِمْ وَ آثَامِهِمْ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِماً عَلَى ظُلْمِه، وَلاَ آثِماً عَلَى إِثْمِه، أُولَئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَؤُونَةً، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً، وَأَحْنَى عَلَيْكَ عَطْفاً، وَأَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفاً، فَاتَّخِذْ أُولَئِكَ خَاصَّةً لِخَلَوَاتِكَ وَحَفَلاَتِك، ثُمَّ لْيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَكَ، وأَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللهُ لأَوْلِيَائِه، وَاقِعاً ذلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ.

وَالْصَقْ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصِّدْقِ، ثُمَّ رُضْهُمْ (عوّدهم) عَلَى أَلاَّ يُطْرُوكَ وَلاَ

يُبَجِّحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الأَطْرَاءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ، وَتُدْنِي مِنَ الْعِزَّةِ. وَلاَ يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيداً لأَهْلِ الأَحْسَانِ فِي الأَحْسَانِ و تَدْرِيباً لأَهْلِ الأَسَاءَةِ عَلَى الأَسَاءَةِ، وَأَلْزِمْ كُلاًّ مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ. وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ وَالٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَتَخْفِيفِهِ الْمُؤُونَاتِ عَلَيْهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ (عندهم)، فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً (تعبا) طَوِيلاً، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلاَؤُكَ عِنْدَهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بَلاَؤُكَ عِنْدَهُ.

وَلاَ تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هذِهِ الأُمَّةِ، وَاجْتَمَعَتْ بِهَا الأُلْفَةُ، وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ، لاَ تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السُّنَنِ، فَيَكُونَ الأَجْرُ بِمَنْ سَنَّهَا، وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا. وَأَكْثِرْ مُدَارَسَةَ الْعُلَمَاءِ، وَمُنَافَثَةَ (مجالسة) الْحُكَمَاءِ، فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلاَدِكَ، وَإِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لاَ يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلاَّ بِبَعْضٍ، وَلاَ غِنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ: فَمِنْهَا جُنُودُ اللهِ، و مِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ، وَمِنْهَا عُمَّالُ الأَنْصَافِ وَالرِّفْقِ، وَمِنْهَا أَهْلُ الْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ، وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصِّنَاعَاتِ، وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ، وَكُلٌّ قَدْ سَمَّى اللهُ سَهْمَهُ، وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ وَفَرِيضَتِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله عَهْداً مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظاً. فَالْجُنُودُ، بِإِذْنِ اللهِ، حُصُونُ الرَّعِيَّةِ، وَزَيْنُ الْوُلاَةِ، وعِزُّ الدِّينِ، وَسُبُلُ الأَمْنِ، وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلاَّ بِهِمْ. ثُمَّ لاَ قِوَامَ لِلْجُنُودِ إِلاَّ بِمَا يُخْرِجُ اللهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِي يَقْوَوْنَ بِهِ فِي جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا أَصْلَحَهُمْ، وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ.

ثُمَّ لاَ قِوَامَ لهذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ إلاَّ بالصِّنْف الثَّالث منَ القُضَاة وَالعُمَّال وَالكُتَّاب، لمَا يُحْكمُونَ منَ المَعَاقد، ويَجْمَعُونَ منَ المَنَافع، ويُؤْتَمَنُونَ عَلَيْه منْ خَوَاصِّ الأُمُور وعَوَامِّهَا. وَلاَ قِوَامَ لَهُمْ جميعاً إلاَّ بالتُّجَّار وَذوي الصِّنَاعَات، فيمَا يَجْتَمعُونَ عَلَيْه منْ مَرَافقهمْ، وَيُقيمُونَهُ منْ أَسْوَاقهمْ، وَيَكْفُونَهُمْ منَ التَّرَفُّق بأَيْديهمْ ممّا لاَ يَبْلُغُهُ رفْقُ غَيْرهمْ. ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى منْ أَهْل الحَاجَة وَالمَسْكَنَة الَّذينَ يَحقُّ رفْدُهُمْ وَمَعُونَتُهُمْ. وَفي الله لكُلّ سَعَةٌ، وَلكُلٍّ عَلَى الوَالي حَقٌّ بقَدْر مَا يُصْلحُهُ. وَلَيْسَ يَخْرُجُ الوَالي منْ حَقيقَة مَا أَلْزَمَهُ اللهُ منْ ذلكَ إلاَّ بالاهْتمَام وَالاسْتعَانَة بالله، وَتَوْطين نَفْسه عَلَى لُزُوم الحَقِّ، وَالصَّبْر عَلَيْه فيمَا خَفَّ عَلَيْه أَوْ ثَقُلَ.

فَوَلِّ منْ جُنُودكَ أَنْصَحَهُمْ في نَفْسكَ لله وَلرَسُوله وَلامَامكَ، وَأَنْقَاهُمْ جَيْباً، وَأَفْضَلَهُمْ حلْماً ممَّنْ يُبْطِىءُ عَن الغَضَب، وَيَسْتَريحُ إلَى العُذْر، وَيَرْأَفُ بالضُّعَفَاء، وَيَنْبُو عَلَى الأَقْويَاء، وَممَّنْ لاَ يُثيرُهُ العُنْفُ، وَلاَ يَقْعُدُ به الضَّعْفُ. ثُمَّ الْصَقْ بذَوي المُرُوءَات وَالأحْسَاب، وَأَهْل البُيُوتَات الصَّالحَة، وَالسَّوَابق الحَسَنَة، ثُمَّ أَهْل النَّجْدَة وَالشَّجَاعَة، وَالسَّخَاء وَالسَّماحَة، فَإنَّهُمْ جمَاعٌ منَ الكَرَم، وَشُعَبٌ منَ العُرْف. ثُمَّ تَفَقَّدْ منْ أُمُورهمْ مَا يَتَفَقَّدُهُ الوَالدَان منْ وَلَدهمَا، وَلاَ يَتَفَاقَمَنَّ في نَفْسكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ به، وَلاَ تَحْقرَنَّ لُطْفاً تَعَاهَدْتَهُمْ به وَإنْ قَلَّ، فَإنَّهُ دَاعيَةٌ لَهُمْ إلَى بَذْل النَّصيحَة لَكَ، وَحُسْن الظَّنِّ بكَ. وَلاَ تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطيف أُمُورهمْ اتِّكَالاً عَلَى جَسيمهَا، فَإنَّ لليَسير منْ لُطْفكَ مَوْضعاً يَنْتَفعُونَ به، وَللْجَسيم مَوْقعاً لاَ يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ.

وَلْيَكُنْ آثَرُ (أفضل و أعلى منزلة) رُؤوس جُنْدكَ عنْدَكَ مَنْ وَاسَاهُمْ في مَعُونَته، وَأَفْضَلَ عَلَيْهمْ منْ جدَته (غناه) بمَا يَسَعُهُمْ يَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ منْ خُلُوف أَهْليهمْ (من خلّفوه ورائهم من أهليهم)، حَتَّى يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمّاً وَاحداً في جهَاد العَدُوّ، فَإنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهمْ يَعْطفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ. وَإنَّ أَفْضَلَ قُرَّة عَيْن الوُلاَة اسْتقَامَةُ العَدْل في البلاَد، وَظُهُورُ مَوَدَّة الرَّعيَّة، وَإنَّهُ لاَ تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إلاَّ

بِسَلاَمَةِ صُدُورِهِمْ، وَلاَ تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إلاّ بِحِيطَتِهِمْ عَلَى وُلاَةِ أُمُورِهِمْ، وَقِلَّةِ اسْتِثْقَالِ دُوَلِهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِبْطَاءِ انْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ. فَافْسَحْ فِي آمَالِهِمْ، وَوَاصِلْ فِي حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُوالْبَلاَءِ مِنْهُمْ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ تَهُزُّ الشُّجَاعَ، وَتُحَرِّضُ النَّاكِلَ (المتأخر و القاعد)، إِنْ شَاءَ اللّه.

ثُمَّ اعْرِفْ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى، وَلاَ تَضُمَّنَّ بَلاَءَ امْرِىءٍ إِلَى غَيْرِهِ، وَلاَ تُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلاَئِهِ، وَلاَ يَدْعُوَنَّكَ شَرَفُ امْرِىءٍ إِلَى أَنْ تُعْظِمَ مِنْ بَلاَئِهِ مَا كَانَ صَغِيراً، وَلاَضَعَةُ امْرِىءٍ إِلَى أَنْ تَسْتَصْغِرَ مِنْ بَلاَئِهِ مَاكَانَ عَظِيماً. وَارْدُدْ إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ، وَيَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الأُمُورِ، فَقَدْ قَالَ اللّه سبحانه لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ﴾، فَالرَّدُّ إِلَى اللّهِ: الأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ، وَالرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ: الأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرِّقَةِ.

ثُمَّ اخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ، مِمَّنْ لاَ تَضِيقُ بِهِ الأُمُورُ، وَلاَ تُمَحِّكُهُ الْخُصُومُ (الإصرار على الرأي)، وَلاَ يَتَمادَى فِي الزَّلَّةِ، وَلاَ يَحْصَرُ (قوي المنطق) مِنَ الْفَيْءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ، وَلاَ تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ، وَلاَ يَكْتَفِي بِأَدْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ، أَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ، وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ، وَأَقَلَّهُمْ تَبَرُّماً بِمُرَاجَعَةِ الْخَصْمِ، وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكَشُّفِ الأُمُورِ، وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّضَاحِ الْحُكْمِ، مِمَّنْ لاَ يَزْدَهِيهِ إِطْرَاءٌ، وَلاَ يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ، وَأُولئِكَ قَلِيلٌ. ثُمَّ أَكْثِرْ تَعَاهُدَ (التشجيع على مواصلة البحث) قَضَائِهِ، وافْسَحْ لَهُ فِي الْبَذْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ، وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ، وَأَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَا لاَ يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ، لِيَأْمَنَ بِذلِكَ اغْتِيَالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ. فَانْظُرْ فِي ذلِكَ نَظَراً بلِيغاً، فَإِنَّ هذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيراً فِي أَيْدِي الأَشْرَارِ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى، وَتُطْلَبُ بِهِ الدُّنْيَا.

ثُمَّ انْظُرْ فِي أُمُورِ عُمَّالِك، فَاسْتَعْمِلْهُمُ اخْتِبَاراً (إمتحنهم)، وَلاَ تُوَلِّهِمْ مُحَابَاةً وأَثَرَةً، فَإِنَّهُمَا جِمَاعٌ مِنْ شُعَبِ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَة. وَتَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَّجْرِبَةِ وَالْحَيَاء، مِنْ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَة، وَالْقَدَمِ فِي الإِسْلاَمِ الْمُتَقَدِّمَة، فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلاَقاً، وَأَصَحُّ أَعْرَاضاً، وَأَقَلُّ فِي الْمَطَامِعِ إِشْرَافاً، وَأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ الأُمُورِ نَظراً. ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ الأَرْزَاقَ، فَإِنَّ ذلك قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلاَحِ أَنْفُسِهِمْ، وَغِنىً لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ أَوْ ثَلَمُوا أَمَانَتَك.

ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ، وَابْعَث الْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ وَالوَفَاءِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي السِّرِّ لأُمُورِهِمْ حَدْوَةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِعْمَالِ الأَمَانَة، وَالرِّفْقِ بِالرَّعِيَّة. وَتَحَفَّظْ مِنَ الأَعْوَانِ، فَإِنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَى خِيَانَة اجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْه عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ، اكْتَفَيْتَ بذلك شَاهِداً، فَبَسَطْتَ عَلَيْه الْعُقُوبَةَ فِي بَدَنه، وَأَخَذْتَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِه، ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ الْمَذَلَّة، وَ وَسَمْتَهُ بِالْخِيَانَة، وَقَلَّدْتَهُ عَارَ التُّهَمَة.

وَتفَقَّدْ أَمْرَ الْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ، فَإِنَّ فِي صلاَحه وَصلاَحهِمْ صَلاَحاً لِمَنْ سِوَاهُمْ، وَلاَ صَلاَحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلاَّ بِهِمْ، لأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْخَرَاجِ وَأَهْله. وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ الأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظرك فِي اسْتِجْلاَبِ الْخَرَاجِ، لأَنَّ ذَلكَ لاَ يُدْرَكُ إِلاَّ بِالْعِمَارَة، وَمَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَة أَخْرَبَ الْبِلاَدَ، وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلاَّ قَلِيلاً. فَإِنْ شَكَوْا ثِقَلاً أَوْ عِلَّةً، أَو انْقِطَاعَ شِرْبٍ أَوْ بَالَّة، أَوْ إِحَالَةَ أَرْضٍ اغْتَمَرَهَا غَرَقٌ، أَوْ أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ، خَفَّفْتَ عَنْهُمْ بِمَا تَرْجُو أَنْ يَصْلُحَ بِه أَمْرُهُمْ، وَلاَ يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّفْتَ بِه الْمَؤُونَةَ عَنْهُمْ، فَإِنَّهُ ذُخْرٌ يَعُودُونَ بِه عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلاَدكَ، وَتَزْيِينِ وِلاَيَتك، مَعَ اسْتِجْلاَبِكَ حُسْنَ ثَنَائِهِمْ، وَتَبَجُّحِكَ (سرورك) بِاسْتِفَاضَةِ الْعَدْلِ فِيهِمْ، مُعْتَمِداً فَضْلَ قُوَّتِهِمْ، بِمَا ذَخَرْتَ عِنْدَهُمْ مِنْ إِجْمَامِكَ (إراحتك) لَهُمْ، وَالثِّقَةَ مِنْهُمْ بِمَا عَوَّدْتَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ فِي رِفْقِكَ بِهِمْ، فَرُبَّمَا حَدَثَ مِنَ الأُمُورِ مَا إِذَا عَوَّلْتَ

فيه عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدُ احْتَمَلُوهُ طَيِّبَةً أَنْفُسُهُمْ به، فَإِنَّ الْعُمْرَانَ مُحْتَمِلٌ مَا حَمَّلْتَهُ، وَإِنَّمَا يُؤْتَى خَرَابُ الأَرْضِ مِنْ إِعْوَازِ أَهْلِهَا،إِنَّمَا يُعْوِزُ أَهْلُهَا لاشْرَافِ أَنْفُسِ الْوُلاَةِ عَلَى الْجَمْعِ، وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ، وَقِلَّةِ انْتِفَاعِهِمْ بِالْعِبَرِ.

ثُمَّ انْظُرْ فِي حَالِ كُتَّابِكَ، فَوَلِّ عَلَى أُمُورِكَ خَيْرَهُمْ، وَاخْصُصْ رَسَائِلَكَ الَّتِي تُدْخِلُ فِيهَا مَكَائِدَكَ وَأَسْرَارَكَ بِأَجْمَعِهِمْ لِوُجُودِ صَالِحِ الأَخْلاَقِ مِمَّنْ لاَ تُبْطِرُهُ الْكَرَامَةُ، فَيَجْتَرِىءَ بِهَا عَلَيْكَ فِي خِلاَفٍ لَكَ بِحَضْرَةِ مَلأ (جماعة من الناس)، وَلاَ تُقَصِّرُ بِهِ الْغَفْلَةُ عَنْ إِيرَادِ مُكَاتَبَاتِ عُمَّالِكَ عَلَيْكَ، وَإِصْدَارِ جَوَابَاتِهَا عَلَى الصَّوابِ عَنْكَ، وَفِيمَا يَأْخُذُ لَكَ وَيُعْطِي مِنْكَ، وَلاَ يُضْعِفُ عَقْداً اعْتَقَدَهُ لَكَ، وَلاَ يَعْجِزُ عَنْ إِطْلاَقِ مَا عُقِدَ عَلَيْكَ، وَلاَ يَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفْسِهِ فِي الأُمُورِ، فَإِنَّ الْجَاهِلَ بِقَدْرِ نَفْسِهِ يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلَ.

ثُمَّ لاَ يَكُنِ اخْتِيَارُكَ إِيَّاهُمْ عَلَى فِرَاسَتِكَ وَاسْتِنَامَتِكَ (السكون) وَحُسْنِ الظَّنِّ مِنْكَ، فَإِنَّ الرِّجَالَ يَتَعَرَّفُونَ لِفِرَاسَاتِ الْوُلاَةِ بِتَصَنُّعِهِمْ وَحُسْنِ خِدْمَتِهِمْ، لَيْسَ وَرَاءَ ذلِكَ مِنَ النَّصِيحَةِ وَالأَمَانَةِ شَيْءٌ، وَلكِنِ اخْتَبِرْهُمْ بِمَا وُلُّوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ، فَاعْمِدْ لأَحْسَنِهِمْ كَانَ فِي الْعَامَّةِ أَثَراً، وَأَعْرَفِهِمْ بِالأَمَانَةِ وَجْهاً، فَإِنَّ ذلِكَ دَلِيلٌ عَلَى نَصِيحَتِكَ لِلَّهِ وَلِمَنْ وَلِيتَ أَمْرَهُ. وَاجْعَلْ لِرَأْسِ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ رَأْساً مِنْهُمْ، لاَ يَقْهَرُهُ كَبِيرُهَا، وَلاَ يَتَشَتَّتُ عَلَيْهِ كَثِيرُهَا، وَمَهْمَا كَانَ فِي كُتَّابِكَ مِنْ عَيْبٍ فَتَغَابَيْتَ (تغافلت) عَنْهُ أُلْزِمْتَهُ.

ثُمَّ اسْتَوْصِ بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصِّنَاعَاتِ، وَأَوْصِ بِهِمْ خَيْراً: الْمُقِيمِ مِنْهُمْ، وَالْمُضْطَرِبِ بِمَالِهِ (المتردد به بين البلدان)، وَالْمُتَرَفِّقِ بِبَدَنِهِ (المكتسب بما يملكه من بُدن)، فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ الْمَنَافِعِ، وَأَسْبَابُ الْمَرَافِقِ، وَجُلاَّبُهَا مِنَ الْمَبَاعِدِ وَالْمَطَارِحِ (الأماكن البعيدة)، فِي بَرِّكَ وَبَحْرِكَ، وَسَهْلِكَ وَجَبَلِكَ، وَحَيْثُ لاَ يَلْتَئِمُ النَّاسُ لِمَوَاضِعِهَا، وَلاَ يَجْتَرِئُونَ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُمْ سِلْمٌ لاَ تُخَافُ بَائِقَتُهُ (داهيته)، وَصُلْحٌ لاَ تُخْشَى غَائِلَتُهُ، وَتَفَقَّدْ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ وَفِي حَوَاشِي بِلاَدِكَ. وَاعْلَمْ ـ مَعَ ذلِكَ

ـ أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضِيقاً فَاحِشاً، وَشُحّاً قَبِيحاً، وَاحْتِكَاراً لِلْمَنَافِعِ، وَتَحَكُّماً فِي الْبِيَاعَاتِ، وَذلِكَ بَابُ مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ، وَعَيْبٌ عَلَى الْوُلاَةِ، فَامْنَعْ مِنَ الاْحْتِكَارِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وآله) مَنَعَ مِنْهُ. وَلْيَكُنِ الْبَيْعُ بَيْعاً سَمْحاً: بِمَوَازِينِ عَدْلٍ، وَأَسْعَارٍ لاَ تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُبْتَاعِ، فَمَنْ قَارَفَ (خالط) حُكْرَةً (الإحتكار) بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ فَنَكِّلْ (عاقبه)، وَعَاقِبْ فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ.

ثُمَّ اللهَ اللهَ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لاَ حِيلَةَ لَهُمْ وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُحْتَاجِينَ وَأَهْلِ الْبُؤْسَى (شدة الفقر) وَالزَّمْنَى (أرباب العاهات المزمنة)، فَإِنَّ فِي هذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعاً (سائلا) وَمُعْتَرّاً (المحتاج الذي لا يسأل)، وَاحْفَظْ للهِ مَا اسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ، وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسْماً مِنْ بَيْتِ مَالِكَ، وَقِسْماً مِنْ غَلاَّتِ صَوَافِي (أراضي) الاْسْلاَمِ فِي كُلِّ بَلَدٍ، فَإِنَّ لِلاْقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلاْدْنَى، وَكُلٌّ قَدِ اسْتُرْعِيتَ حَقَّهُ، فَلاَ يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطَرٌ، فَإِنَّكَ لاَ تُعْذَرُ بِتَضْيِيعِ التَّافِهَ لاِحْكَامِكَ الْكَثِيرَ الْمُهِمَّ. فَلاَ تُشْخِصْ هَمَّكَ (لا تصرف إهتمامك) عَنْهُمْ، وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ، وَتَفَقَّدْ أُمُورَ مَنْ لاَ يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ مِمَّنْ تَقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ، وَتَحْقِرُهُ الرِّجَالُ، فَفَرِّغْ لاِولئِكَ ثِقَتَكَ مِنْ أَهْلِ الْخَشْيَةِ وَالتَّوَاضُعِ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أُمُورَهُمْ، ثُمَّ اعْمَلْ فِيهِمْ بِالاْعْذَارِ إِلَى اللهِ تَعَالَى يَوْمَ تَلْقَاهُ، فَإِنَّ هؤُلاَءِ مِنْ بَيْنِ الرَّعِيَّةِ أَحْوَجُ إِلَى الاْنْصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَكُلٌّ فَأَعْذِرْ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي تَأْدِيَةِ حَقِّهِ إِلَيْهِ.

وَتَعَهَّدْ أَهْلَ الْيُتْمِ وَذَوِي الرِّقَّةِ فِي السِّنِّ (المتقدمون في السن) مِمَّنْ لاَ حِيلَةَ لَهُ، وَلاَ يَنْصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ نَفْسَهُ، وَذلِكَ عَلَى الْوُلاَةِ ثَقِيلٌ، وَالْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ، وَقَدْ يُخَفِّفُهُ اللهُ عَلَى أَقْوَامٍ طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبَّرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَوَثِقُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ اللهِ لَهُمْ. وَاجْعَلْ لِذَوِي الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْماً تُفَرِّغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ، وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِساً عَامّاً، فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ للهِ الَّذِي خَلَقَكَ، وَتُقْعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ، حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَعْتِعٍ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه و آله يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ: «لَنْ تُقَدَّسَ (تطهر) أُمَّةٌ لاَ يُؤْخَذُ

لِلضَّعِيفِ فيهَا حَقَّهُ منَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ». ثُمَّ احْتَمِلِ الْخُرْقَ مِنْهُمْ وَالْعِيَّ (العجز عن النطق)، وَنَحِّ عَنْكَ الضِّيقَ وَالأَنَفَ ضيّق الصدر و المستكبر)، يَبْسُط الله عَلَيْكَ بِذلكَ أَكْنَافَ رَحْمَته، وَيُوجِبُ لَكَ ثَوَابَ طَاعَته، وَأَعْطِ مَا أَعْطَيْتَ هَنِيئاً، وَامْنَعْ فِي إِجْمَالٍ وَإِعْذَارٍ!

ثُمَّ أُمُورٌ منْ أُمُورِكَ لاَ بُدَّ لَكَ مِنْ مُبَاشَرَتِهَا: مِنْهَا إِجَابَةُ عُمَّالِكَ بِمَا يَعْيَا عَنْهُ كُتَّابُكَ، وَمِنْهَا إِصْدَارُ حَاجَاتِ النَّاسِ عِنْدَ وُرُودِهَا عَلَيْكَ مِمَّا تَحْرَجُ بِهِ صُدُورُ أَعْوَانِكَ. وَأَمْضِ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ، فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيهِ، وَاجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الله تعالى أَفْضَلَ تِلْكَ الْمَوَاقِيتِ، وَأَجْزَلَ تِلْكَ الأَقْسَامِ، وَإِنْ كَانَتْ كُلُّهَا لله إِذَا صَلَحَتْ فيهَا النِّيَّةُ، وَسَلِمَتْ مِنْهَا الرَّعِيَّةُ. وَلْيَكُنْ فِي خَاصَّةِ مَا تُخْلِصُ لله به دِينَكَ: إِقَامَةُ فَرَائِضِهِ الَّتِي هِيَ لَهُ خَاصَّةً، فَأَعْطِ الله من بَدَنِكَ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ، وَوَفِّ مَا تَقَرَّبْتَ بِهِ إِلَى اللهِ مِنْ ذلِكَ كَاملاً غَيْرَ مَثْلُومٍ وَلاَ مَنْقُوصٍ، بَالِغاً مِنْ بَدَنِكَ مَا بَلَغَ.

وَإِذَا قُمْتَ فِي صَلاَتِكَ لِلنَّاسِ، فَلاَ تَكُونَنَّ مُنَفِّراً وَلاَ مُضَيِّعاً، فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ بِهِ الْعِلَّةُ وَلَهُ الْحَاجَةُ. وَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله حِينَ وَجَّهَنِي إِلَى الْيَمَنِ كَيْفَ أُصَلِّي بِهِمْ؟ فَقَالَ: «صَلِّ بِهِمْ كَصَلاَةِ أَضْعَفِهِمْ، وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً».

وَأَمَّا بَعْدَ هذا، فَلاَ تُطَوِّلَنَّ احْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ احْتِجَابَ الْوُلاَةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ، وَقِلَّةُ عِلْمٍ بِالأُمُورِ، وَالاْحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا احْتَجَبُوا دُونَهُ فَيَصْغُرُ عِنْدَهُمُ الْكَبِيرُ، وَيَعْظُمُ الصَّغِيرُ، وَيَقْبُحُ الْحَسَنُ، وَيَحْسُنُ الْقَبِيحُ، وَيُشَابُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ، وَإِنَّمَا الْوَالِي بَشَرٌ لاَ يَعْرِفُ مَا تَوَارَى عَنْهُ النَّاسُ بِهِ مِنَ الأُمُورِ، وَلَيْسَتْ عَلَى الْحَقِّ سِمَاتٌ (علامات) تُعْرَفُ بِهَا ضُرُوبُ الصِّدْقِ مِنَ الْكَذِبِ، وَإِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إِمَّا امْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي الْحَقِّ، فَفِيمَ احْتِجَابُكَ مِنْ وَاجِبِ حَقٍّ تُعْطِيهِ، أَوْ فِعْلٍ كَرِيمٍ تُسْدِيهِ، أَوْ مُبْتَلَىً

بالمَنع، فَمَا أَسْرَعَ كَفَّ النَّاس عَنْ مَسْأَلتك إذَا أَيسُوا منْ بَذْلك! مَعَ أَنَّ أَكْثَر حَاجَات النَّاسِ إِلَيْكَ ما لاَ مَؤُونَة فِيه عَلَيْكَ، مِنْ شَكَاة مَظْلِمَة، أَوْ طَلَب إِنْصاف فِي مُعَامَلَة.

ثُمَّ إنَّ للْوَالي خَاصَّةً وبطَانَةً، فيهِمْ اسْتئْثَارٌ وَتطَاوُلٌ، وَقلَّةُ إِنْصَاف فِي مُعَامَلَة، فَاحْسمْ مَادَّةَ أُولئك بقَطْع أَسْبَاب تلْكَ الأَحْوَال، وَلاَ تُقْطعَنَّ لاَحَد منْ حَاشيتك وَحَامَّتك قَطيعةً، وَلاَ يَطْمَعَنَّ منْكَ فِي اعْتقَاد عُقْدَة، تَضُرُّ بمَنْ يَليهَا منَ النَّاس، فِي شرْب أَوْ عَمَل مُشْتَرَك، يَحْملُونَ مَؤُونَتَهُ عَلَى غَيْرهمْ، فَيَكُونَ مَهْنَأُ ذَلكَ لَهُمْ دُونَكَ، وَعَيْبُهُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَالاخرَة. وَأَلْزِم الْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ منَ الْقَريب وَالْبَعيد، وَكُنْ فِي ذلكَ صَابراً مُحْتَسباً، وَاقعاً ذلكَ منْ قَرَابَتك خَاصَّتك حَيْثُ وَقَعَ، وَابْتَغ عَاقبَتَهُ بمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ منْهُ، فَإنَّ مَغَبَّةَ ذلكَ مَحْمُودَةٌ. وَإنْ ظَنَّت الرَّعيَّةُ بكَ حَيْفاً، فَأَصْحرْ (أبرز) لَهُمْ بعُذْرك، وَاعْدلْ عَنكَ ظُنُونَهُمْ بإِصْحَارِكَ، فَإِنَّ فِي ذلكَ رِيَاضَةً منْكَ لنَفْسكَ، وَرفْقاً برَعيَّتكَ، وَ إعْذَاراً تَبْلُغُ فيه حَاجَتَكَ منْ تَقْويمهِمْ عَلَى الْحَقِّ.

وَلاَ تَدْفَعَنَّ صُلْحاً دَعَاكَ إِلَيْه عَدُوُّكَ لله فيه رضىً، فإنَّ فِي الصُّلْح دَعَةً لجُنُودكَ، وَرَاحَةً منْ هُمُومكَ، وأَمْناً لبلاَدكَ، وَلَكن الْحَذَرَ كُلَّ الْحَذر منْ عَدُوّك بَعْدَ صُلْحه، فَإنَّ الْعَدُوَّ رُبَّمَا قَارَبَ ليَتَغَفَّلَ، فَخُذْ بالْحَزْم، وَاتَّهمْ فِي ذلكَ حُسْنَ الظَّنِّ. وَإنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوّ لَكَ عُقْدَةً، أَوْ أَلْبَسْتَهُ منْكَ ذمَّةً، فَحُطْ عَهْدَكَ بالْوَفَاء، وَارْعَ ذمَّتَكَ بالأَمَانَة، وَاجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أَعْطَيْتَ، فَإنَّهُ لَيْسَ منْ فَرَائض الله عزوجلّ شَيْءٌ النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْه اجْتمَاعاً، مَعَ تَفْريق أَهْوَائهمْ، وَتَشْتيت آرَائهمْ، منَ تَعْظيم الْوَفَاء بالْعُهُود، وَقَدْ لَزمَ ذلكَ الْمُشْركُونَ فيما بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُسْلمينَ لمَا اسْتَوْبَلُوا منْ عَوَاقب الْغَدْر، فَلاَ تَغْدرَنَّ بذمَّتكَ، وَلاَ تَخيسَنَّ (تخونن) بعَهْدكَ، وَلاَ تَخْتلَنَّ (تخادع) عَدُوَّكَ، فَإنَّهُ لاَ يَجْتَرِىءُ عَلَى الله إلاَّ جَاهلٌ شَقيٌّ. وَقَدْ جَعَلَ الله عَهْدَهُ وَذمَّتَهُ أَمْناً أَفْضَاهُ بَيْنَ الْعبَاد برَحْمَته، وَحَريماً (محرّم على غيرهم) يَسْكُنُونَ إِلَى مَنَعَته، ويَسْتَفيضُونَ إِلَى جوَاره، فَلاَ

إدْغَالَ (إفساد)، وَلاَ مُدَالَسَةَ، وَلاَ خِدَاعَ فِيه، وَلاَ تَعْقِدْ عَقْداً تَجُوزُ فيه الْعِلَلُ، وَلاَ تُعَوِّلَنَّ عَلَى لَحْنِ الْقَوْلِ بَعْدَ التَّأْكِيدِ وَالتَّوْثِقَةِ، وَلاَ يَدْعُوَنَّكَ ضِيقُ أَمْرٍ لَزِمَكَ فِيهِ عَهْدُ اللهِ، إلَى طَلَبِ انْفِسَاخِهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، فَإِنَّ صَبْرَكَ عَلَى ضِيقٍ تَرْجُو انْفِرَاجَهُ وَفَضْلَ عَاقِبَتِهِ، خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ تَخَافُ تَبِعَتَهُ، وَأَنْ تُحِيطَ بِكَ مِنَ اللهِ فِيهِ طَلِبَةٌ، لاَتَسْتَقِيلُ فِيهَا دُنْيَاكَ وَلاَ آخِرَتَكَ.

إيَّاكَ وَالدِّمَاءَ وَسَفْكَهَا بِغَيْرِ حِلِّهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى لِنِقْمَةٍ، وَلاَ أَعْظَمَ لِتَبِعَةٍ، وَلاَ أَحْرَى بِزَوَالِ نِعْمَةٍ، وَانْقِطَاعِ مُدَّةٍ، مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا، وَاللهُ سُبْحَانَهُ مُبْتَدِىءٌ بِالْحُكْمِ بَيْنَ الْعِبَادِ، فِيمَا تَسَافَكُوا مِنَ الدِّمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلاَ تُقَوِّيَنَّ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ، فَإِنَّ ذلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَيُوهِنُهُ، بَلْ يُزِيلُهُ وَيَنْقُلُهُ، وَلاَ عُذْرَ لَكَ عِنْدَ اللهِ وَلاَ عِنْدِي فِي قَتْلِ الْعَمْدِ، لاَنَّ فِيهِ قَوَدَ (القصاص) الْبَدَنِ، وَإِنِ ابْتُلِيتَ بِخَطَإٍ وَأَفْرَطَ عَلَيْكَ سَوْطُكَ أَوْ سَيْفُكَ (القتل الخطأ) أَوْ يَدُكَ بِعُقُوبَةٍ، فَإِنَّ فِي الْوَكْزَةِ فَمَا فَوْقَهَا مَقْتَلَةً، فَلاَ تَطْمَحَنَّ بِكَ نَخْوَةُ سُلْطَانِكَ عَنْ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ حَقَّهُمْ.

وَإِيَّاكَ وَالاْعْجَابَ بِنَفْسِكَ، وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا، وَحُبَّ الاْطْرَاءِ، فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ، لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ. وَإِيَّاكَ وَالْمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ، أَوِ التَّزَيُّدَ فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ، أَوْ أَنْ تَعِدَهُمْ فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ، فَإِنَّ الْمَنَّ يُبْطِلُ الاْحْسَانَ، وَالتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ، وَالْخُلْفَ يُوجِبُ الْمَقْتَ عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ، قَالَ اللهُ سبحانه: ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ. ﴾ و إِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ بِالاْمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا، أَوِ التَّسَاقُطَ فِيهَا عِنْدَ إِمْكَانِهَا، أَوِ اللَّجَاجَةَ فِيهَا إِذَا تَنَكَّرَتْ، أَوِ الْوَهْنَ عَنْهَا إِذَا اسْتَوْضَحَتْ، فَضَعْ كُلَّ أَمْرٍ مَوْضِعَهُ، وَأَوْقِعْ كُلَّ عَمَلٍ مَوْقِعَهُ. وَإِيَّاكَ وَالاْسْتِئْثَارَ بِمَا النَّاسُ فِيهِ أُسْوَةٌ، وَالتَّغَابِيَ عَمَّا تُعْنَى بِهِ مِمَّا قَدْ وَضَحَ لِلْعُيُونِ، فَإِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْكَ لِغَيْرِكَ، وَعَمَّا قَلِيلٍ تَنْكَشِفُ عَنْكَ أَغْطِيَةُ الاْمُورِ، وَيُنْتَصَفُ مِنْكَ لِلْمَظْلُومِ، امْلِكْ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ، وَسَوْرَةَ حَدِّكَ، وَسَطْوَةَ يَدِكَ، وَغَرْبَ لِسَانِكَ، وَاحْتَرِسْ مِنْ كُلِّ

ذلكَ بكفِّ البَادرَة (ما يبدر من الإنسان عند الغضب)، وَتَأْخير السَّطْوَة، حَتَّى يَسْكُنَ غضبُكَ فتَمْلكَ الاخْتيَارَ، وَلَنْ تحكُمْ ذلكَ مِنْ نَفْسكَ حَتَّى تُكْثر هُمُومَكَ بذِكْرِ المَعَادِ إلَى رَبِّكَ.

وَالْوَاجبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتذَكَّرَ مَا مَضَى لِمَنْ تَقَدَّمَكَ: مِنْ حُكُومَة عَادلَة، أَوْ سُنَّة فَاضلَة، أَوْ أثَر عَنْ نَبيِّنَا صلى الله عليه وآله أَوْفَرِيضَة فِي كتَاب الله، فَتَقْتَدِيَ بِمَا شَاهَدْتَ ممَّا عَملْنَا به فيهَا، وَتَجْتَهدَ لنَفْسكَ فِي اتِّبَاع مَا عَهدْتُ إلَيْكَ فِي عهْدي هذَا، وَاسْتَوْثَقْتُ به منَ الْحُجَّة لنَفْسي عَلَيْكَ، لكَيْلاَ تَكُونَ لَكَ عَلَّةٌ عنْدَ تَسَرُّع نَفْسكَ إلَى هَوَاهَا، فَلَنْ يَعْصمَ منَ السُّوء وَلاَ يُوَفِّقَ للْخَيْر إلاَّ الله تَعَالَى. وَقَدْ كَانَ فيمَا عَهدَ إلَيَّ رَسُولُهُ عليه السلام فِي وَصَايَاهُ: «تَحْضيضاً عَلَى الصَّلاة وَالزَّكَاة وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»، فَبذَلكَ أَخْتمُ لَكَ مَا عَهدَ، وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بالله العَظيم.

وَأَنَا أَسْأَلُ اللهَ بسَعَة رَحْمَته، وَعَظيم قُدْرَته عَلَى إعْطَاء كُلِّ رَغْبَة، أَنْ يُوَفِّقَني وَإِيَّاكَ لمَا فيه رضَاهُ منَ الاْقَامَة عَلَى الْعُذْر الْوَاضح إلَيْه وَإلَى خَلْقه، مَعَ حُسْن الثَّنَاء فِي الْعبَاد، وَجَميل الاْثَر فِي الْبلاَد، وَتَمَام النِّعْمَة، وَتَضْعيف الْكَرَامَة، وَأَنْ يَخْتمَ لي وَلَكَ بالسَّعَادَة وَالشَّهَادَة، إنَّا إلَيْه رَاغبُونَ، وَالسَّلاَمُ عَلَى رَسُول الله كثيراً.»

الشمعة الخامسة والخمسون
عفى وأصلح وطلب الأجر من الله

لم يكن موقفه سلام الله عليه المتسامح والعاف عن خصومه يوم الجمل وصفين بل وفي كل الحروب والوقائع والمناسبات موقف مرتبط بمناسبة أو حادثة بعينها بل هو نهج إختطه لنفسه منذ أن سمع الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ و من عفى و أصلح فأجره على الله. ﴾ فالسماحة والتسامح والعفو والصلح والإصلاح عناصر قام بها وعليها أسلوبه في الحياة وخلق تميّز به في تعامله مع الناس من مسلمين وغير مسلمين وفي محيطه وخارج محيطه.

فتح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عينيه فرأى مربيه وأباه الروحي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وهو يرد الإساءة بالإحسان ويطلب المغفرة لكل من قدّم إليه الإساءة مهما كانت تلك الإساءة ومهما ثقل وقعها وقسى حملها وصعب تحملها. كان حاضرا ومستمعا جادا يوم طُلب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم أن يدعو على قومه بعد أن زاد أذاهم له، كما فعل من سبقه من الرسل والأنبياء، فوّجه عينيه وقلبه وسمعه نحو الرسول ليعرف جوابه ويسمع دعائه وإذا به يرى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وقد رفع يداه إلى السماء وهو يقول: «اللهم إغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.»

كما أنه عليه السلام حضر فتح مكة وشاهد فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وقراراته بشأن مشركي قريش والذين أذاقوا الرسول الكثير من الأذى والشتم والسباب وشنوا الحروب عليه وساعدوا أعداءه وجيشوا الجيوش

ونصبوا له المكائد والكمائن. رأى كيف قابلهم الرسول بالعفو وقال لهم: «إذهبوا فأنتم الطلقاء.»

إبن بار بأبيه وتلميذ نبيه واثق من وجاهة ورجاحة قول وعمل مدرسه ومقتنع بصحة أقوال وأفعال ذلك الأب والمدرس لا بد له من أن يتخلق بأخلاق ذلك المدرس والمربي والأب. لذلك تراه في كل مناسبة وعندما يُطلب منه قول او فعل او تعليق على أمر من الأمور يبدأ ذلك العمل أو القول أو التعليق بـ سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول كذا أو يفعل كذا أو يأمر بكذا.

كان عليه السلام يقصد بتلك المقدمة توصيل عدة رسائل مهمة إلى السائل أو المستمع أو المشاهد منها بأنه لو كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم موجودا وسُئل هذا السؤال لكان هذا جوابه وهذا موقفه وهذا عمله. من تلك الرسائل أيضا أنه إمتداد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وأن علمه هو علم رسول الله. أما الرسالة الأخرى فهي أنه لن يحكم في المسلمين بغير حكم الله ورسوله ولن يعاملهم بغير ما عاملهم به رسول الله الذي بُعث رحمة للعالمين وليُتمم مكارم الأخلاق وليعامل الناس برقة قلب ورحمة وتسامح.

كان إقتداء علي بن أبي طالب عليه السلام بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم والتحلي بأخلاقه نابع من ثقته وإيمانه بتلك القيم و الأخلاق. فالذي أسلم لله من غير أن يأخذ رأي أبيه لن يقبل بتقليد أو عرف لم يؤمن بوجاهته وصحته.

عرف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بأن التسامح غسيل للقلب، مريح للنفس، باعث للتواضع، ناشر للمحبة والألفة بين الناس، داحر للعداوة والبغضاء وموحد للناس ولجهودهم. عرف أن العفو هو من أعلى درجات التقى وأنه جسر من شأنه وصل ما إنقطع من إتصال بين الناس فعمل على بناء ذلك

الجسر والمحافظة عليه. أولى هذان الخلقان أهمية كبيرة وعمل على نشرهما بين المسلمين.

كان مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير من أشد خصوم الإمام وكان مروان يؤلب معاوية على الإمام وعبد الله بن الزبير يشتم الإمام عل رؤوس الأشهاد في المدينة. والإثنان خططا وقادا معركة الجمل وهي التي عرفت بالفتنة الكبرى التي شقت صفوف المسلمين. بالرغم من كل ما فعلوه وارتكبوه لما هزما في المعركة صفح عنهم ولم يعاقبهم ولم يعاقب أحدا ممن شارك في تلك الفتنة. بل أكثر من ذلك. لما رأى القوم يفرون من المعركة أمر جنوده: «أن لا يتبعوا موليا ولا يجهزوا على جريح ولا يقتلوا مستأسر ومن ألقى سلاحه فهو آمن.»

يكتب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كتابا إلى أحد ولاته، وهو الحارث الهمداني، يحثه على حسن الخلق ويبين له فوائده وهو من أفضل ما كتب في الأخلاق فيفرد لكل خلق بابا خاصا به حتى يأتي على باب الحلم فيقول: «وَاكْظِم الْغَيْظَ، وَاحْلُمْ عِنْدَ الْغَضَبِ، وَتَجاوَزْ عِنْدَ الْمَقْدِرَةِ، وَاصْفَحْ مَعَ الدَّوْلَةِ (أي عندما تكون السلطة بيدك) تَكُنْ لَكَ الْعَاقِبَةُ.»

ويكرر عليه السلام نفس الشيء مع باقي الولاة و المندوبين. أما عامة الناس فخاطبهم عن طريق الموعظة وإعطائهم الحكم الواحدة بعد الأخرى. يقول عليه السلام في بعض حكمه: «الْحِلْمُ وَالاَْنَاةُ تَوْأَمَانِ يُنْتِجُهُمَا عُلُوُّ الْهِمَّةِ.»

أما قادة جيوشه وجنودهم فلهم نصائح خاصة بهم يقول في بعضها: «إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه.» ويقول في نصيحة أخرى: «أَوْلَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقُوبَةِ.»

كما نهى عن الغضب لغير الله وإعتبره مركب الندامة حيث قال: «مَتَى أَشْفِي غَيْظِي إِذَا غَضِبْتُ؟ أَحِينَ أَعْجِزُ عَنِ الانْتِقَام فَيُقَالُ لي: لَوْ صَبَرْتَ؟ أَمْ حِينَ أَقْدِرُ عَلَيْهِ فَيُقَالُ لي: لَوْ عَفَوْتَ.» وقال أيضا: «مَن بَالَغَ فِي الْخُصُومَةِ أَثِمَ، وَمَنْ قَصَّرَ فِيهَا ظُلِمَ، وَلاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ مَنْ خَاصَمَ.»

في تعامله مع الناس أخذ يقابل الإساءة بالإحسان، لا ضعفا منه ولا عجزا عن الرد بمثل إساءاتهم وإنما ترفعا وسموا بروحه عن النزول إلى مستوى ضعاف النفوس. فهو القائل:

ما ودّني أحـــد إلا بذلت لــه ... صفو المودة مني آخر الأبـد
و لا قــلاني و إن كان المسيء بنـا ... إلا دعوت له الرحمن بالرشـد

الشمعة السادسة والخمسون
رحيما راهف الشعور والإحساس

في موضع سابق ذكرنا حادثة المرأة التي فقدت زوجها وإنقطع دخلها والتي مر بها الإمام علي بن أبي طالب فسمع بكاء أطفالها الذين أضر بهم البرد والجوع. فقام بجلب الطعام وبعد أن تم طهيه قام بتلقيم الأطفال حتى شبعوا فناموا. تلك كانت واحدة فقط من حوادث ومعايشات متعددة عاشها أمير المؤمنين عليه السلام الذي تولى أمور المسلمين في عصر كثر فيه الفقراء والمحتاجين وكان واجبه يُحتم عليه مساعدة أؤلئك المحتاجين وقضاء حوائجهم.

في أحدى جولاته التفقدية في السوق يمر بسائل رث الثياب قد أثر الجوع على ملامح وجهه وبدنه. يسأل أحد الباعة ما بال ذلك الفقير على تلك الصورة فيقال له بأنه نصراني عجز عن العمل وليس له ابن أو أهل يعيلونه. دمعت عينا الإمام وقال مخاطبا أهل السوق، والرسالة مرسلة الى كل من يسمعها، اخذتم الجزية منه لما كان مقتدرا وتركتموه لما أصبح محتاجا؟ أمر له بدار بسيطة تؤيه وراتب شهري دائم، مدى الحياة، من بيت مال المسلمين.

كان قلبه ينفطر ألما وحزنا كلما مرّ أو سمع بمعوز أو مريض. لذلك حارب الفقر تماما كما كان يحارب أي عدو للإنسانية وكما كان يحارب أي مرض من الأمراض العضال. عمل بنفسه على مواساة الفقراء وتفقد آحوالهم ومساعدتهم على الخروج من الفاقة و العوز. ولما آلت إليه الخلافة جعل

محاربة الفقر ومساعدة المعوزين على قمة أولوياته. وضع قوانين تحمي الفقراء واليتامى و أمر ولاته ومحصلي الضرائب وجامعي الصدقات بالإهتمام بهذا الجانب الإنساني وحذرهم من مغبة عدم الإهتمام بالفقراء والمساكين وإعتبر أن المال أمانة يجب إيصالها لمستحقيها وهم الفقراء وأن عدم توصيلها لهم يعتبر خيانة للأمانه وللأمة وغشا لها.

في أحد رسائله الى جامعي الصدقات يقول عليه السلام: «وَإِنَّ لَكَ فِي هذه الصَّدَقَة نَصيباً مَفْرُوضاً، وَحَقّاً مَعْلُوماً، وَشُرَكَاءَ أَهْلَ مَسْكَنَة، وَضُعَفَاءَ ذَوِي فَاقَة،إنَّا مُوَفُّوكَ حَقَّكَ، فَوَفِّهِمْ حُقُوقَهُمْ، وَإلاَّ تَفْعَلْ فَإِنَّكَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ خُصُوماً يَوْمَ الْقِيَامَة، وَبُؤْساً لِمَنْ خَصْمُهُ عِنْدَ اللهِ الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ وَالسَّائِلُونَ وَالْمَدْفُوعُونَ وَالْغَارِمُ وَابْنُ السَّبِيلِ! وَمَنِ اسْتَهَانَ بِالاْمَانَة، وَرَتَعَ فِي الْخِيَانَة، وَلَمْ يُنَزِّهْ نَفْسَهُ وَدِينَهُ عَنْهَا، فَقَدْ أَحَلَّ بِنَفْسِه فِي الدُّنْيَا الْخِزْيَ، وَهُوَ فِي الاْخِرَة أَذَلُّ وَأَخْزَى. وَإِنَّ أَعْظَمَ الْخِيَانَة خِيَانَةُ الاُْمَّة، وَأَفْظَعَ الْغِشِّ غِشُّ الاَْئِمَّة، وَالسَّلاَم.»

في كتابه «علي بن ابي طالب» يصف الأستاذ فؤاد أفرام البستاني أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بأنه كبير القلب شديد الإخلاص للإنسان والمجتمع. يقول الأستاذ فؤاد: «لعلي بن ابي طالب شخصية جذابه حامت حولها أقلام الرواة والمؤرخين، واجتهدت في فهمها عقول النقاد والمفكرين، وإهتدت بهديها ميول الزهاد والسالكين وسار تحت لوائها الجم الغفير من المتأدبين ولم تكن الآراء المختلفة والنظريات المتباينة والمجادلات العديدة حوله على كرور الأيام إلا لتزيد الرجل سموا وعقليته بروزا. فمن هذا الرجل العظيم؟ وما هي قيمة رجل الأدب هذا؟ كان كبير القلب، شديد الإخلاص، قوي الإيمان، يذوب غيرة في سبيل الدين الجديد. الحكمة عند علي بن أبي طالب وافرة المعنى، جميلة المبنى، يأخذها عقلية لا لون لها ولا رسم فتمر في مخيلته فإذا هي صورة جميلة تترجرج فيها الحياة.»

قربه من الرسول صلى الله عليه وآله و سلّم لم يبعده عن الناس لا جسما ولا عاطفة ولا إحساسا. كذلك زواجه من خير النساء وكونه أشجع الناس بشهادة الرسول (ص) وأعلمهم ووصي النبي والمقرب اليه وكلها رتب يحق لحاملها وحتى لحامل بعض منها التفاخر والتمايز بين الناس، لم تغير في علي بن ابي طالب ولا في سلوكه وحبه للناس وخاصة الفقراء والمساكين.

حمل على عاتقه مهمة نبيلة وهي جعل الناس من حوله تشعر بأنه واحدا منهم يتألم لآلامهم ويفرح لأفراحهم. يدخل ضرار بن ضمرة الكندي، وهو من معاصري الإمام عليه السلام، على معاوية بن ابي سفيان عندما غصب الخلافة ونقلها الى عاصمته الشام. يرحب به معاوية ويدنيه منه ثم يطلب منه ان يقول في علي ما يرى.

يعتذر ضرار ويطلب من معاوية ان يعفيه ولكن معاوية يصر على طلبه. ولما رأى ضرار ان لا مفر من تلبية طلب معاوية حمد الله وأثنى عليه ثم ذكر النبي فصلى عليه ثم قال: أما علي فقد كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلا ويحكم عدلا، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا و زهرتها ويأنس بالليل ووحشته. كان غزير الدمعة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب. كان فينا كأحدنا، يدنينا إذا أتيناه ويجيبنا إذا سألناه ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه هيبة له. يعظم أهل الدين ويقرب المساكين. لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله.»

الشمعة السابعة والخمسون
مولى كل مسلم ومسلمة

لم يكن إختيار رسول الله صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب علي السلام ليكون مولا لكل مسلم ومسلمة إعتباطا ولا لقرابة ولا لبنوة أو تربية أو مصاهرة. إختاره لإمتلاكه لكل الخصال السامية والأخلاق العالية التي لم تجتمع في شخص غيره، سوى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم. لم يسبقه الى ما هو عليه أحد ولن يلحق به أحد، لا من حيث التمتع بالخصال ولا في جانب العمل بها و طبيقها.

لقد أوجد الإمام سلام الله عليه بينه وبين الخصال الحميدة والأخلاق الكريمة الرفيعة علاقة حب وصلت إلى مستوى عدم إستغناء أحدهما عن الآخر. لا يمكن لأي منهما الإنفصال عن الآخر ولا حتى الإبتعاد عنه، وتلك درجة لم يصل إليها سوى الأنبياء وأوصيائهم.

يرسل رسول الله صلى الله عليه وآله علي بن أبي طالب عليه السلام على رأس وفد إلى بعض المدن لقضاء مهمة رسمية. وكان من جملة الوفد بريدة الأسلمي. يقول بريدة: في الطريق إلى ذلك البلد حدث إختلاف في وجهات النظر بيني وبين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سرعان ما تحول ذلك الإختلاف الى نوع من الجفاء. كتمت ذلك في نفسي وواصلت المهمة تحت قيادة أمير المؤمنين.

يواصل بريدة حديثة: لما رجعنا إلى المدينة بعد إتمام المهمة كان همي هو شكاية علي عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فجئت إلى المسجد النبوي الشريف وبعد أن سلّمت على الرسول ذكرت له ما حدث ونقصت في علي.

لما سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ذلك تغيّر وجهه وغضب ثم قال لي: يا بريدة ألستُ أولى بالمؤمنين من نفسهم؟ فقلت: بلى يا رسول الله. فقال: من كنتُ مولاه فعلي مولاه. ثم قام رسول الله وأخذ بيد علي ورفعها مسمعا كل من في المسجد: ألستم تعلمون بأني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ فقالوا جميعا: بلى يا رسول الله نحن نشهد لأنت أولى بكل مؤمن من نفسه. فقال صلى الله عليه وآله وسلّم: ألا فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه. ورفع بيد علي.

وصلت رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وجوابه إلى بريدة ورده على شكواه وكانت من أبلغ الرسالات وأعمها و أشملها. فبدلا من أن يجيب الرسول بريدة رأى أن يكون الجواب في رسالة يوجهها الرسول إلى المسلمين كافة حتى لا يقعوا فيما وقع فيه بريده آمرا إياهم بإحترام علي بن أبي طالب وقبول ما يأمرهم به وان يأخذوا برأيه وإن خالف رأيهم ويأتمروا بأمره وإن كان ذلك على غير ما يريدون ويرغبون، لأنه أعلمهم وأفقههم وأحكمهم وأقضاهم وأعدلهم وأشجعهم وأولهم إسلاما وأقربهم إلى رسول الله وأنه مولى كل مسلم ومسلمه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم.

لم يكتف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم بما قاله ردا على شكوى بريدة بل أخذ يجدد القول مرة بعد الأخرى وفي مناسبة بعد الأخرى بأن علي بن أبي طالب مولى المسلمين بعد رسول الله. وكان آخر تلك المناسبات والمواطن في غدير خم بعد حجة الوداع.

في سنن بن ماجه ومسند الإمام أحمد أن معاوية بن أبي سفيان كان جالسا في مجلسه وكان كعادته يسب أمير المؤمنين عليه السلام. كان من جملة الحضور في ذلك المسجد سعد بن أبي وقاص فلما إنتهى معاوية من شتمه لأمير المؤمنين نظر إلى سعد وطلب منه أن يفعل نفس الشيء، يسب علي بن أبي طالب، او يزيد عليه. غضب سعد ونظر لمعاوية وقال له: اتقول هذا لرجل سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول فيه «من كنت مولاه فعلي مولاه؟»

يضيف الأمام أحمد في مسنده قائلا: «جمع علي بن أبي طالب الناس في الرحبة ثم قال لهم: أنشد الله كل إمرئ مسلم سمع رسول الله يقول يوم غدير خم ما سمع لما قام وقال ما سمعه. فقام حوالي ثلاثون من الناس فشهدوا جميعهم بأن رسول الله أخذ بيد علي وقال: أتعلمون اني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: نعم يا رسول الله. قال: من كنت مولاه فهذا (رافعا يد علي) مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه.»

وكما قال أهل النثر كلماتهم في الإمام أمير المؤمنين كان للشعراء منذ أن أعلن النبي صلى الله عليه وآله وسلّم ولاية علي وحتى يومنا هذا أبياتهم وقصائدهم في تنصيب الرسول للإمام علي بن أبي طالب مولى لكل مؤمن ومؤمنة. وفي مقدمة أؤلئك الشعراء شاعر الرسول حسّان بن ثابت الذي حضر حدث غدير خم وخصص قصيدة رائعة في تلك المناسبة. ومع أن خطبة الرسول كانت شاملة وتناولت العديد من القضايا إلا أن أبرز القضايا التي تناولتها خطبة الرسول وأهمها، كما يرى ذلك حسان بن ثابت وكثيرون غيره، كانت ولاية علي بن أبي طالب.

فقيام الرسول بتأكيد المناسك والفرائض وأمره للمسلمين بالمحافظة عليها ليس بالأمر الجديد. فمنذ الجهر بالدعوة والرسول يعلم المسلمين فرائض دينهم وشرائع الإسلام ويحثهم على إتباعها. ومع أنها أيضا ليست

المرة الأولى التي يذكر فيها الرسول المسلمين بمكانة علي بن بي طالب كما أنه سبق وان نص على ولايته في مناسبة كثيرة ومتعددة،

إلا أن كل النصوص السابقة، كما يراها حسان والكثير من الشعراء، لم تكن بهذا الشدة في التأكيد ولم تكن في جمع كذلك الجمع الذي جمعه الرسول بعد إنتهاء شعائر آخر حجة له صلى الله عليه وآله وسلم. لذلك رأى حسان بأن الحدث الأهم في تلك الخطبة هو التأكيد على ولاية وإمامة علي بن ابي طالب، وعليه خصص قصيدته لتلك الفقرة الأهم من خطبة الرسول. من بعض ما جاء في قصيدة حسان:

ينـــــــاديهم يوم الغدير نبيهـم ... بخّم و أسمع بالنبي مناديـا
يقول فمن مولاكـــــم ووليـــــكم ... فقالوا و لم يبدوا هناك التعاميا
إلـــــــهك مولانا و أنت ولينـــــا ... و لم تر منّا في الولاية عاصيا
فقـــــــال له قم يا علي فإننـي ... رضيتك من بعدي إماما و هاديا
فمن كنت مـــــــــولاه فهذا وليـه ... فكونوا له أنصار صدق مواليا
هناك دعـــــــا اللهم وال وليـه ... و كن للذي عادى عليا معاديا

الشمعة الثامنة والخمسون
من سبّه فقد سبّ رسول الله

بعد إستشهاده عليه السلام فرح أعداءه ومناوئيه يقدمهم معاوية بن أبي سفيان فأقاموا الأفراح ونصبوا المنابر لسب أمير المؤمنين عليه السلام وخاصة في الشام، عاصمة الخلافة الأموية. أصبح سب الإمام أمير المؤمنين علي بن ابي طالب جزءا من الفريضة اليومية، الصلاة، التي فرضها الله على عباده لتكون صلة بينهم وبين خالقهم تذكرهم بما أمر وأنزل الله من مبادئ وقيم وخاصة فيما يتعلق بالعلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان.

الصلاة التي لا تعتبر صلاة حقيقية إلا إذا امرت بمعروف ونهت عن منكر أصبحت في عهد معاوية لا تعتبر صلاة إلا إذا سُبّ الإمام أمير المؤمنين قبلها وخلالها وبعدها. أمر معاوية المؤذنين أن يسبوا الإمام في الأذان وأئمة الصلاة ان يسبوا الإمام في صلاتهم و خطبهم وجعل عقابا لكل من لم يلتزم بتلك التوجيهات والأوامر.

اعترض على ذلك العمل الشائن الكثير من صحابة الرسول وخاصة أولئك الشجعان مثل حجر بن عدي الكندي، زعيم كندة والصحابي الجليل. وأخذ حجر ينبه المسلمين الى خطورة ما يقوم به معاوية وكيف أنه مناف للأوامر الإلهية وحتى التقاليد والأخلاق العربية. فالخلاف السياسي والعقائدي مهما كبر وتباين لا يجب ان يصل الى درجة الكفر بما جاء به الإسلام وامر به الرسول. وبين حجر للمسلمين من هو علي بن ابي طالب الذي قام الإسلام بسيفه وأخلاقه ومن هو معاوية الطليق بن الطليق. كما بين لهم

كيف ان الخلاف السياسي بين علي وأبابكر وعمر لم يخرج عن كونه خلافا سياسيا وان الطرفان ليس فقط لم يتقاتلا ولم يسب أحدهما الآخر بل أيضا تعاونا على حفظ الإسلام ودولته وضمان حقوق المسلمين على نشر الإسلام ومبادئه وقيمه. وما كان المسلمين بحاجة لأكثر من صعقة حجر الكهربائية ليتنبهوا لخطورة ما يقوم به معاوية واتباعه المغرر بهم وأصحاب المصالح ومن لم يعرفوا من الإسلام إلا إسمه. لذلك عملت صعقة حجر عملها في القوم وخاصة المؤذنين وخطباء المساجد وأخذوا ليس فقط يرفضون أوامر معاوية بل يأمرون الناس بعدم تطبيقها.

علم معاوية بثورة حجر الشعبية والتصحيحية وصداها وإنتشارها بين المسلمين وأحس بخطورة ما يقوم به حجر على سياساته وأهدافه وخاصة فيما يتعلق بتحويل الخلافة الإسلامية الى ملك يتوارثه بنو أمية وزعامة سياسية يجب ان تنحصر في البيت الأموي، تماما كما أعلن أباه ذلك وهو يرفس برجله قبر الحمزة وتماما كما عملت هند عندما بقرت بطن سيد الشهداء الحمزة بن عبد المطلب ولاكت كبده وهددت بالقضاء على رسول الله ورسالته كما تمكنت من القضاء على عمه الحمزة وأشفت غليلها منه ومن الإسلام. فأمر معاوية من يحضر حجرا قسرا الى الشام.

لما أُحضر حجر ومثُل بين يديه أمره بأن يصعد المنبر ويسب أمير المؤمنين عليه السلام. رفض حجر ذلك وقال له: «و الله لا أسبّن شخصا قال فيه رسول الله علي مني وأنا من علي ومن سبّ عليا فقد سبّني ومن سبّني فقد سبّ الله.» وبدلا من ان ينصاع حجر الى تهديد معاوية قابله بتهديد أقسى وأشد منه فقال لمعاوية: «إن أصريت على غيك وعنادك وأمرتني قسرا ان أصعد المنبر فسأصعد ولكن ليس لأسب عليا بل لأبين للعالم من أنت ومن أبوك ومن أمك.»

تمكن الغيضب من معاوية بن أبي سفيان وهدد حجر بالقتل إن لم يُغير رأيه. فأعاد عليه حجر تهديده بفضحه وفضح آل أبي سفيان. فقال له معاوية: إذن تُقتل. فأجاب حجر: أن ألقى الله وهو راض عني وأنت غاضب علي لخير لي من أن ألقاه سابّ له (لأن من سب عليا فقد سب الله) غاضب علي وأنت راض عني.

إنتفخت أوداج معاوية من الغيظ وأمر بقتله. أخذه جلاوزة معاوية إلى الخارج وهو يبتسم فرحا ويقول: الحمد لله الذي ختم لي بلقائه وهو راض عني. ولما صار خارج الدار قتله جلاوزة معاوية ثم سُحب عبر البساتين إلى مرج عذراء في دمشق وترك هناك من غير دفن. فلما جاء الليل وخيّم الظلام جاء جمع من أهالي مرج عذراء ودفنوه سرا في قبره المعروف الآن بمرج عذراء والذي تحول الى إشعاع رسالي وقيمي وأخلاقي يؤمه الناس من جميع أنحاء العالم ليستلهموا معنى الشهامة والإسلام الحقيقي والشجاعة والصلابة على الموقف الحق.

ولم يكن حجر بن عدي هو الوحيد من الصحابة الذين إنزعجوا من تحريف معاوية لمبادئ الإسلام وقيمه ومثله وتعاليمه. هناك الكثير من الصحابة الذين ثاروا ضد فساد معاوية وعلى رأسهم أمهات المؤمنين تقدمهم أم سلمة زوجة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

فلما سمعت أم سلمة بما يقوم به معاوية وما حدث لحجر بعثت إلى مجموعة من صحابة الرسول الذين ما زالوا على وفائهم لنبيهم ورسالته. فلبوا طلبها وجاؤوا إلى منزلها.

يقول أبي عبدالله الجدلي، وهو من الصحابة الذين لبّوا دعوة أم المؤمنين: لما دخلنا وسلّمنا عليها ردت علينا السلام ثم قالت: أيسب رسول

رسول الله صلى الله عليه وآله على مسمع ومرأى منكم وأنتم صامتون؟ قلت لها: سبحان الله معاذ الله أن يحدث ذلك ومن يجرأ على مثل هذا الفعل الشائن؟ فقالت: ألم تسمعوا بسب علي بن أبي طالب؟ قالوا: بلى. قالت: والله لقد سمعت رسول الله يقول: من سبّ عليا فقد سبّني ومن سبني فقد سبّ الله.

خرج الجمع من عند أم المؤمنين كل إلى داره إلا سعد بن مالك. فلقد ذهب من فوره إلى مسجد الرسول فوجد حمع غفير من المسلمين وفيهم من جاء لتوه من الشام. فدخل وسلّم عليهم ثم وجّه سؤاله إلى القادمين من الشام قائلا: ذُكر لي بأنكم تسبون عليا؟ فقالوا: نعم. فقال: معاذ الله، لا تسبوه فلو وضع المنشار على مفرقي على أن أسب عليا ما سببته بعدما سمعت من رسول الله ما سمعت، بأن من سب عليا فقد سبّ رسول الله ومن سبّ رسول الله فقد سبّ الله.

عرف معاوية بأن سب علي بن ابي طالب في المدينة والعراق أمرا غير ممكن وأنه مهما عمل لا يستطيع تغيير موقف الناس من أمير المؤمنين فالناس إما موال لعلي وهؤلاء لا يرضون بل ويحاربون ما يقوم به معاوية او أناس بالرغم من أنهم لا يوالون عليا إلا أنهم سمعوا من رسول الله ما سمعوا في علي وعرفوا مكانة علي ودوره في الدولة الإسلامية ورأوا بأنه من العيب والظلم سب شخص ما قام الإسلام الا بسيفه وعلمه وحلمه وأخلاقه. إعترف معاوية بعجزه وإكتفى بما يحصل في دمشق وأغلق الباب الذي فتحه على نفسه في المدينة والعراق خوفا من أن يحدث ما يعكر مخططاته.

في هذا الصدد يقول ابن عبد ربه الأندلسي (الأموي المشرب) في العقد الفريد: لما مات الحسن بن علي (بن أبي طالب عليه السلام) حج معاوية فدخل المدينة وأراد أن يلعن عليا على منبر رسول الله فقيل له إن ههنا سعد بن أبي وقاص ولا نراه يرضى بهذا فابعث إليه وخذ رأيه. فأرسل معاوية إليه وذكر له

ذلك فقال إن فعلت لأخرجن من المسجد ثم لا أعود إليه. فامسك معاوية عن لعنه حتى مات سعد فلما مات لعنه على المنبر وكتب إلى عماله أن يلعنوه على المنابر ففعلوا فكتبت ام سلمة زوج النبي إلى معاوية كتابا تقول فيه: "إنكم تلعنون الله ورسوله على منابركم وذلك أنكم تعلنون على بن أبي طالب ومن أحبه وأنا اشهد أن الله أحبه ورسوله." فلم يلتفت معاوية إلى كلامها.

الشمعة التاسعة و الخمسون
يقتله أشقى الأشقياء

يقول الصحابي الجليل عمّار بن ياسر رضوان الله عليه: كنت أنا وعلي بن أبي طالب عليه السلام رفيقين في غزوة العشيرة من بطن ينبع، وهي أول غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم. فلّما نزلها رسول الله أقام بها شهرا حيث تم الصلح مع بني مدلج و لفائهم من بني ضمرة. وبعد أن إستقرت الأمور كما أراد الله وتحقق للمسلمين النصر أخذ المسلمون يتعرفون على إخوانهم الجدد وعلى عاداتهم وطباعهم ويقيمون معهم علاقات ودية وأخوية.

يضيف عمّار: نظر إلي علي عليه السلام وقال لي: هل لك يا أبا اليقضان أن نأتي هؤلاء النفر من بني مدلج فننظر كيف يعملون؟ فقلت: ان شئت جئناهم ونظرنا إلى أعمالهم. فقمنا، أنا وعلي، نتجول بين القوم ونتعرف على أعمالهم. وبعد أن مررنا عليهم لجأنا إلى ظل نخل نستريح عنده. فغشينا النوم وما أهبّنا والله إلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يحركنا برجله وقد تترّبنا من تلك البقعة التي نمنا فيها. فنظر الرسول إلى علي وقال له: قم يا أبا تراب، لما رأى عليه من التراب. فقمنا سويا وسلمنا على رسول الله ورحّبنا به.

يواصل عمّار حديثه: نظر رسول الله إلى علي وإلي ثم قال: "ألا أُخبركما بأشقى الناس؟ قلنا بلى يا رسول الله. فقال: "هو أُحيمر ثمود الذي عقر الناقة (ناقة صالح) والذي أشقى منه هو الذي يضربك على هذه." ووضع

يده على جبهة الإمام. ثم أضاف: "حتى يبل هذه من هذه،" وهو يشير إلى لحية الإمام ورأسه.

في المناقب روى ابن شهر آشوب أن عمرو بن ود جرح الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في رأسه عندما إقتتلا وكان الجرح كبيرا وداميا. فلما إنتهت المعركة بين الإمام وعمرو بن ود وقُتل بن ود ورجع الإمام الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبشره بمصرع بن ود وهزيمة أعداء الله ورسوله. نظر رسول الله إلى رأس علي فإذا بها تسيل دما من تلك الضربة التي أثّرت في الرأس.

دعى الرسول الإمام فلما صار إليه أمره بالجلوس أمامه وأخذ يمسح على جرحه بيده الكريمه فتوقف الدم ثم أمر بضمادة فجيئ بها فأخذها وضمّد الجرح. لما توقف الدم أبلغ الرسول الإمام بأنه لا خوف عليه من هذا الجرح فإنه سيشفى منه قريبا لكن الخوف يكون من جرح آخر سيصيبه وهو الجرح الذي يُحدثه سيف "أشقى الأشقياء والذي هو أشقى من عاقر ناقة صالح."

يروي الصدوق وابن طاووس وكثير غيرهم بأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وكعادته مع بداية كل شهر رمضان، خطب الناس وبين لهم فضل وبركات الشهر الكريم. وبعد أن إنتهى من خطبته تقدم إليه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وسأله: يا رسول الله ما أفضل الأعمال في هذه الشهر؟ فقال صلى الله عليه وأله وسلم: يا أبا الحسن، أفضل الأعمال في هذا الشهر الورع عن محارم الله عز وجل.

ثم نظر الرسول الى علي وبكى. فقال له الإمام: ما يبكيك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ فقال: يا علي، أبكي لما يُستحل منك في هذا الشهر، كأني بك وأنت تصلي لربك وقد إنبعث أشقى الأولين والآخرين، شقيق عاقر ناقة صالح،

فيضربك ضربة على قرنك تخضب منها لحيتك. فقال أمير المؤمنين: يا رسول الله، في سلامة من ديني؟ فقال: نعم، يا علي من قتلك فقد قتلني ومن أبغضك فقد أبغضني ومن سبّك فقد سبّني لأنك مني كنفسي، روحك روحي وطينتك من طينتي. إن الله تبارك وتعالى خلقني وإياك وإصطفاني وإياك وإختارني للنبوة وإختارك للإمامة فمن أنكر امامتك فقد أنكر نبوتي. يا علي أنت وصيي وأبو ولدي وزوج إبنتي وخليفتي على أمتي في حياتي وبعد موتي أمرك أمري ونهيك نهي. أقسم بالذي بعثني بالنبوة وجعلني خير البرية إنك الحجة لله على خلقه وأمينه على سره وخليفته على عباده."

لما ضاق الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ذرعا بما وصل إليه حال المسلمين بعد صفين والنهروان وغزو معاوية لمصر وقتله والي الإمام على مصر محمد بن أبي بكر وإحراقه جثته، وبعد أن يئس من إمكانية حشد المسلمين للدفاع عن بيضة الإسلام ووقف بربرية معاوية وأمراءه، إلتفت عليه السلام إليهم وحذّرهم من مغبة التخاذل عن نصرة الإسلام. وبقلب ينفطر ألما وأسا على حال المسلمين وما وصل إليه أمرهم دعى ربه بحرقة قلب وألم بأن يُفرق بينه وبينهم.

وفي إحدى خطبه خاطب القوم قائلا: "أي دار بعد داركم تمنعون؟ ومع أي إمام بعدي تقاتلون؟ أما إنكم ستلقون بعدي ذلا شاملا وسيفا قاطعا واثرة يتخذها الظالم فيكم سنة. أما والله لوددت ان ربي قد أخرجني من بين أظهركم الى رضوانه وان المنية لترصدني فما يمنع اشقاها أن يخضبها" ومسح بيده على رأسه ولحيته وقال: "عهدا عهده إلي النبي الأمي وقد خاب من افترى ونجى من اتقى وصدق بالحسنى."

يدخل عبد الرحمن بن ملجم المرادي يوما على أمير المؤمنين عليه السلام فلما رآه نظر إليه وقال له: أرأيتك إن سألتك عن أمر عندك منه علم

هل تخبرني؟ فقال بن ملجم: نعم. فقال الإمام: أكنت تلاعب الغلمان وتقوم عليهم فكنت إذا جئت فرأوك من بعيد قالوا قد جائنا بن راعية الكلاب. فقال بن ملجم: نعم. فقال الإمام: هل أخبرتك امك انها حملت بك في بعض حيضها؟ تردد قليلا ثم قال: نعم. قال له الإمام: أمررت يوما براهب فلما نظر إليك وقال لك: أشقى من عاقر ناقة ثمود؟ فقال بن ملجم: نعم. فقال له الإمام إنك والله قاتلي. فقال بن ملجم: لا كان ذلك أبدا، فأنا عبد من عبيدك أسبغت عليه من نعمك وخيرك ووفرت له الأمن والأمان، وإن قلبي لمحب لك. ضحك الإمام وقال: عهد عهده لي حبيبي رسول الله والله مصدق وعده رسله.

الشمعة الستـــون
عادل حتى مع قاتله: "ضربة بضربة ولا تمثلوا بالرجل"

لما حان وقت تحقق نبوءة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إنبعث أشقى الأشقياء عبد الرحمن بن ملجم المرادي وتصدى من بين ثلاثة من الخوارج لقتل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام. فها هو و إثنان آخران – البرك بن عبد الله وعمرو بن بكير - من الذين نجوا بجلدهم في معركة النهروان يعاودون الكرة ويعتزمون مواصلة تنفيذ مخططهم الإجرامي الرامي للإستيلاء على الحكم وتشييد دولة حلموا بها بحيث تكون خالية من الإمام ونهجه ومعاوية وملكه. دولة مبنية على رؤيتهم الخاصة بهم للإسلام بحيث لا يكون لعدل علي فيها مكان ومن إستبداد وظلم معاوية هي في أمان.

يقرر الثلاثة الإجتماع في الساحة الموازية لبيت الله الحرام بعد الزوال عندما يتأكدون أن الطريق قد اصبح خال من المارة حيث هو الحال في مثل ذلك الوقت من ظهيرة يوم قائض.

إلتقوا حسب الموعد وأخذوا يتشاورون في كيفية القضاء على الإمام علي بن ابي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص. ولأنهم يعرفون تمام المعرفة، وخاصة بعد هزيمتهم في النهروان، لا يستطيعون القتال وجها لوجه، لا ضد الإمام ولا حتى ضد معاوية وبن العاص وجدوا ان عليهم دراسة الأمر بجدية وإيجاد وسائل وطرق تمكنهم من تحقيق أهدافهم وأطماعهم، مستثنين

المواجهة المباشرة التي يعرفون تماما مآلها ونتائجها وأثارها.

بعد تفكير وتمعن يلتفت أحدهم الى الباقين ويقول: ماذا لو أننا بعنا أنفسنا لله عز وجل فأتينا أئمة الضلال وطلبنا غرتهم (قطعنا رؤوسهم غيلة) وأرحنا البلاد والعباد منهم وثأرنا لإخواننا بصفين والنهروان؟"

أخذ ينظر الواحد منهم في وجه صاحبه كمن وجد ضالته ويتعجب كيف أن تلك الفكرة، فكرة القتل غيلة، لم تخطر على بالهم من قبل ومنذ ان فكروا في التخلص من الثلاثة. فالحراسة على أمير المؤمنين تكاد تكون معدومة لعدم إتخاذه حرسا له وعادة ما يخرج لوحده ليتمكن من تأدية واجبه بالطريقة التي يريدها من غير أن يكون ملتزما بمراعاة صحبة من يصحب، في حال وجد احد معه.

والحراسة على معاوية وبن العاص ضعيفة بسبب إستتباب الأمن في الشام ومعرفة معاوية بأن أهل الشام أصبحوا كالخاتم في إصبعه فهو لذلك، وحسب اعتقاده، ليس بحاجة له بالحراسة القوية او المكثفة. هذا بالإضافة الى عدم ثقة معاوية في الحرّاس فهو ينظر إليهم على أنهم عمال بأجر يعملون لمن يدفع اكثر لذلك فهو لا يأمن جانبهم ولا يثق في ولائهم، كما أنهم قد يكونون الوسيلة لإذاعة الأخبار والأعمال السرية التي يأتي بها ولديه امثلة على ذلك حيث ان أحد حراسه سبق وان فضحه ونشر خبر معاقرته الخمر وتردده على المواخير وأماكن اللذات المحرمة. لتلك الأسباب جميعا إقتصرت حراسته على عدد قليل جدا من الجند المقربين والموالين جدا له.

أخذت مفاجأة الإقتراح منهم مأخذها وشعروا بأنهم وجدوا الحل الذي كان مستعص عليهم. وبعد أن إستفاقوا من وقع المفاجأة أجابوا بصوت واحد بالموافقة على الإقتراح. فقال عبد الرحمن بن ملجم: أنا أكفيكم علي بن أبي

طالب. وقال البرك: أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان. وقال عمرو: وأنا لابن العاص. وتفرقوا بعد ان إتفقوا على أن يضع كل واحد منهم خطته وأن يجتمعوا بعد يومين لمناقشة التفاصيل وعملية التنفيذ.

بعد ثلاثة أيام إجتمعوا ثانية، وفي بيت الله الحرام أيضا، لمناقشة الخطط التي وضعها كل واحد منهم. وبعد تبادل للأراء إتفقوا على أن تكون المهمة هي القتل غيلة للثلاثة وأن يكون التنفيذ في فجر ليلة من ليالي القدر من شهر رمضان ليكون العمل قربة إلى الله تعالى في شهره الكريم وفي ليلة من أفضل الليالي. ثم تعاهدوا وأقسموا على الوفاء بما إتفقوا عليه وعلى عدم التراجع أو النكوص عنه مهما حدث وعلى أن يختبأوا بعد قيامهم بمهامهم لفترة من الزمن يستطلعوا خلالها ردة فعل الشارع الإسلامي ثم يجتمعوا في البيت الحرام ليناقشوا الخطوة القادمة والتي من شأنها إقامة دولتهم التي حلموا بها. ثم تفرقوا بعد ذلك على أن لا يلتقوا ثانية إلا بعد أن ينهي كل واحد منهم ما أوكل إليه.

غادر الثلاثة مكة متجهين إلى مدن وساحات جرائمهم. عبد الرحمن بن ملجم توجه الى الكوفة، عاصمة حكومة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ومقر إقامته، و البرك وعمرو توجهوا الى دمشق عاصمة حكومة معاوية بن أبي سفيان ومستشاره عمرو بن العاص ومقر إقامتهما. ومع أن وجهة البرك وعمرو واحدة إلا أنهما اختارا ان يسافرا كل لحاله وان يسلك كل واحد منهما طريق غير الطريق الذي يسلكه صاحبه، إمعانا في الكتمان وحرصا على سرية الخطة ونجاحها.

لما قرب بن ملجم من الكوفة أخذ يتلفت يمينا وشمالا خوفا من أن يراه أحد. وأخذ يسير متخفيا وهو يستعيد شريط اللقاء الذي حدث بينه وبين الإمام أمير المؤمنين قبل سنوات قليلة عندما كان ضمن وفد أوفده محمد بن أبي بكر

عندما كان والي الإمام على مصر لمقابلة الإمام. في تلك المناسبة نظر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الى بن ملجم وقال له: أنت عبد الرحمن بن ملجم؟ فأجاب: نعم يا أمير المؤمنين وإني لأحبك حبا عظيما. فقال له الإمام: كذبت ما أحببتني فإن الله خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي عام فأسكنها الهواء فما تعارف منها هناك إئتلف في الدنيا و ما تناكر منها إختلف في الدنيا و إن روحي لا تعرف روحك. ثم أدبر عنه وقال: "أريد حياته و يريد قتلي – عذيرك من خليلك من مراد."

ثم سمع له وعامله كما عامل باقي اعضاء الوفد من غير ان يكون لمعرفته بما سيقدم عليه من عمل خطير اي تأثير على معاملته له. بعدها أعطاه حقه من بيت المال، أيضا تماما كما اعطى باقي اعضاء الوفد، وأمره بالإنصراف. ولما هم بن ملجم بالإنصرف قال أمير المؤمنين لإصحابه: إذا سركم أن تنظروا إلى قاتلي فإنظروا إلى هذا.

أخذت تلك الأفكار والأحداث مأخذها من فكر وتفكير عبد الرحمن بن ملجم. وأخذ كلما خطى خطوة لداخل الكوفة زاد إرتعاشا و تيقضا وحذرا وأخذ يلتفت يمنة ويسرة خوفا من أن يراه أحد. فحديث الإمام أمير المؤمنين عليه السلام معه لا بد أنه وصل إلى مسامع عدد كبير من أهالي الكوفة وأصبح الآن معروفا عندهم بأنه هو قاتل الإمام. خشي أن يراه أحد فيقتله خوفا على حياة الإمام او يأخذه عنوة إلى الإمام أو أن يخبر الإمام بوجوده في الكوفة فيأخذ الإمام حذره منه. عندها تفشل خططه و ما قدم إلى الكوفة من أجله. فأخذ لا يخطو خطوة إلا بعد أن يتأكد من خلو الطريق من المارة. يتنقل من زقاق الى زقاق كما يتنقل مجرم عمل جرما ويخاف أن يُقبض عليه.

بينما هو يفكر في أين يختبئ وأي طريق قليل النُظارة يسلك تذكر بأنه لما زار الكوفة آخر مرة نشأت بينه وبين شخصا من تيم الرباب صداقة، هي في

حد ذاتها تصديقا لحديث الأمام أمير المؤمنين عليه السلام عن تلاقي الأرواح الذي حدّث به بن ملجم. فالإثنان من فلول الخوارج الذين نجوا من النهروان بأعجوبة. لذلك كان من السهل على روح وشخص بن ملجم أن تلتقي بروح وشخص ذلك الخارجي الآخر.

تذكر بن ملجم بأنهما تواعدا في آخر لقاء بينهما على أن يصل بعضهما الآخر عندما يتمكنا من ذلك. إرتاح باله قليلا ورأى بأن يذهب إلى صديقه ليختبئ عنده على أن لا يُعلمه ما هو قادم من أجله. فأخذ يسرع الخطى نحو بيت صديقه، مستخدما الممرات المظلمة وقليلة المارة.

طرق بن ملجم باب دار صاحبه فقام صاحبه وفتح الباب ولما رآه رحب به ترحيبا جارا وأدخله الدار. لما توسط الدار وجد إمرأة بوسط الدار حسبها زوجة صديقة فأنزل رأسه إلى الأرض حياء وخجلا. لاحظ صاحب الدار تردد ضيفه فأراد أن يزيح عنه الحرج فقال له: هذه أختنا في الله قطام بنت الأخضر التيمي. رفع ابن ملجم رأسه ونظر إلى الإمرأة وسلّم عليها وجلس. لكنه بمجرد أن رآها بهره جمالها وشغف بحبها. وبقي لا ينزل عينيه عنها، حتى فضحته عيناه وأصبح ما في نفسه معلوما لصديقه ولقطام نفسها.

جلس الثلاثة يتسامرون الى وقت متأخر من الليل ثم إستأذنت قطام وذهبت إلى دارها الملاصقة لدار صاحبها. أما بن ملجم فإنه لم ينم ليلته تلك من شدة تعلق قلبه بقطام لدرجة ان ذلك التعلق أنساه الأمر الذي جاء من أجله، لم تغفُ عيناه حتى الصباح.

لما أصبح الصباح باح لصديقه بما في قلبه من حب قطام وأنه يريد أن يتزوج منها إن لم تكن مرتبطة بأحد. وكان تصريح بن ملجم تصديقا لما شعر به صاحب الدار عندما لاحظ تركيزه عليها. قال له صديقه ومُضيفه بأنه

إنها ليست مرتبطة ولقد تقدم لخطبتها الكثير من أعيان الكوفة ولكنها ردتهم جميعا. وأضاف: لكن لا بأس من المحاولة معها وتوصيل طلبك إليها.

في الليلة الثانية جاءت قطام على عادتها للسهر مع جارها وضيفه عبد الرحمن بن ملجم. وقد لاحظت قطام في الليلة السابقة نظرات بن ملجم لها وعرفت تيهه بها. زادها ذلك إعتدادا بنفسها وأوقد عندها غريزة المرأة من حب للإطراء وولع الرجال بها. فطرقت الباب ولما فتح لها جارها الباب قالت له بأنها تعلم بأن لديه ضيف ولكنها أخذت على السمر معه ولم تستطع البقاء لوحدها بدارها ولكنها مع ذلك هي مستعدة للرجوع إلى دارها إن كان في وجودها بينهم ما يُحرجه أو يُحرج ضيفه.

رحب بها صاحب المنزل وقال لها بأنها لو لم تجئ لذهب هو وصاحبه لدارها. فقالت له: ليتك فعلت ذلك، الأمر ما زال ممكنا إن رغبتما في ذلك. لكنه أصر على دخولها وتأجيل زيارتهم لها لليلة أخرى.

دخلت قطام الدار فوقف بن ملجم للترحيب بها وعيناه تفضحانه وتنبئان بما يخفيه قلبه. لما إستقر بهم الجلوس قال صاحب الدار لقطام: إن لأخانا لديك حاجة. فقالت قطام: حاجة أخاك مقضية إن كنت قادرة على قضائها. فقال لها: إنه يطلبك حليلة له. صمتت برهة قصيرة إستجمعت فيها كياستها التي زعزعتها المفاجأة ثم قالت: عادة تطلب المرأة فترة للإستقصاء والتفكير ولكن بما أن الرجل جاء من قبلك فتكفيني معرفتك به ودعمك لطلبه وتزكيته.

شكرها صاحب الدار على ثقتها فيه ثم سألها: والصداق؟ فقالت: هذا ما كنت أخاف منه عليه. فقال بن ملجم: إطلبي ما تشائين. فقالت: ثلاثة آلاف درهم ووصيفة وخادما وقتل علي بن أبي طالب حتى أخذ ثأر أبي وأخي

اللذان قتلهما بالنهروان. فقال لها: لك كل ما ذكرت ولكن لا طاقة لي بقتل علي وهو من عرفت وخبرت.

لم يكن تردده في قبول قتل الإمام نابعا من عدم رغبة أو كرها لقتل الإمام، فهو ما جاء إلى الكوفة إلا لأجل هذا الغرض، إنما مبعثه رغبته في عدم البوح بهدفه قبل أن يتأكد من مواقف مضيفه ومعشوقته. فاجأه الطلب فأراد أن يعرف المزيد عن حقيقة موقفهما من الإمام وما إذا كانت لديهم خطة معدة لقتله ربما تكون أفضل من خطته أو على الأقل يستفيد منها في تنفيذ خطته. لذلك إعتذر عن طلبها ولكنه لم يرفضه. لم يقل أنه لن يفعل أو لا يرغب في فعل ذلك بل لا مقدرة له على فعل ذلك، رغبة منه في الإستفادة من رأييهما حول كيفية قتل الإمام.

لم تكن قطام بحاجة لمعرفة ما يدور في خلد بن ملجم. فجوابه كان إيجابيا وإن بدى غير ذلك. لذلك رأت ان تستثمر الفرصة وان تخرج المخاوف التي تنتابه من مغبة الإقدام على مثل ذلك العمل من قلبه.

نظرت قطام الى بن ملجم مبتسمة وقالت: إن عليا يخرج تماما من هذا العالم إذا وقف للصلاة. فلا يلتفت يمينا ولا شمالا ولا يشعر بمن حوله. فكل أعضاءه وأحاسيسه تذهب نحو جهة واحدة فقط وهي مناجاة ربه وعبادته. كما أنه لا يخرج للصلاة بحرس ولا سلاح. فما عليك إلا أن تكمن له حتى إذا سجد فتضربه على رأسه ضربة تكون هي القاضية. وأنا مستعدة لتدبير مرافقين ومساعدين لك.

فلما سمع بن ملجم كلامها ارتاح قلبه وقال لها: أود أن أخبرك بخبر كنت أكتمه عنك. إنني ما أتيت هذا المصر إلا من أجل هذا الغرض والأمر. ولكن بعد أن رأيتك تمكنت من قلبي وأصبحت أخاف الموت الذي لم يخفني في

يوم من الأيام، لأنه سيبعدني عنك. فقالت: إن قتلته، وهذا ما أنا متأكدة منه، شفيت قلبي وهنأك العيش معي وإن قُتلت، وهذا ما لا أرى وقوعه، فما عند الله خير لك مني ومن الدنيا وما فيها.

أعجبه كلامها فأجابها بن ملجم إلى ما طلبت ووافق على شروطها. وبعد أن تبادلا الحديث، الذي وبدهائها ومكرها حشته كلاما عاطفيا وغراميا أخذ بقلب بن ملجم بعثت أحد خدمها يستدعي خارجيان آخران هما وردان بن مجالد من تيم الرباب وشبيب بن بحرة وكانا خادمين مخلصين لها تغدق عليهما العطايا والهدايا ويعملان ما تأمرهما. ولما حضرا أخبرتهما بأنها كلفت بن ملجم بعمل يحتاج الى من مساعدتهما من اجل اتمامه وطلبت منهما مساعدة بن ملجم والعمل تحت إمرته وتنفيذ اوامره وكل ما يطلبه منهما من غير إعتراض منهما او سؤال. فوافقا كعادتهما من غير تردد.

قبل فجر التاسع عشر من شهر رمضان سنة أربعين للهجرة ذهب المتآمرون إلى جامع الكوفة حيث يصلي أمير المؤمنين عليه السلام وإختبأوا خلف الإسطوانة التي تلي مصلّى الإمام مباشرة. وعند الفجر خرج الإمام عليه السلام من منزله قاصدا المسجد. فلما وصل المسجد صعد المأذنة وأذن للصلاة ثم بعد أتم أذانه جعل يطوف بين النائمين في المسجد ليوقظهم للصلاة وبعد أن أوقظ الجميع قصد محرابه وأقام الصلاة.

ركع الركعة الأولى ثم سجد السجدة الأولى و قبل أن يرفع رأسه الشريف من سجوده هجم عبد الرحمن المرادي وأتباعه وضربوا الإمام على رأسه وهربوا إلى خارج المسجد. سقط الإمام عليه السلام يخور في دمه وهو يقول: بسم الله وبالله و لى ملة رسول الله صلى الله عليه وآله، فزت ورب الكعبة، هذا ما وعد الله ورسوله وصدق الله وصدق رسوله.

إجتمع المصلين حول الإمام عليه السلام محاولين إنقاذه ولكن الضربة كانت قد وصلت إلى الدماغ وتمكنت منه. ثم جاء أبناءه الحسنان ومحمد عليهم السلام وحملوه إلى داره والناس من حوله غير مصدقين ما حدث لإمامهم. وصلوا إلى الدار وأدخل الإمام إلى الداخل وخرج الإمام الحسن عليه السلام إلى القوم وشكرهم وطلب منهم الإنصراف.

أما المجرمين الثلاثة فقد أُسر بن ملجم وقُتل معاوناه. فبعد أن هربوا من المسجد لقي رجل من أهل الكوفة شبيب بن بحرة وأثار الدماء على ثيابه فأراد أن يمسك به وحاول شبيب الفرار منه ولكنه الرجل تمكن منه وأطاح به أرضا وقتله. أما وردان فهرب إلى منزل بن عم له ولما رآه بن عمه والسيف بيده سأله: لعلك قاتل أمير المؤمنين؟ فأراد أن يقول لا فقال نعم. فأخذ السيف من يده وقتله في حينه. وتعاون جمع من المؤمنين على بن ملجم فأسروه وجاؤوا به إلى أمير المؤمنين فأمر بأسره والإحسان إليه حتى يرى في أمره.

إستدعى الإمام الحسن عليه السلام طبيبا إلى أبيه ولما حضر الطبيب وكشف على الإمام أمير المؤمنين قال له: -إعهد عهدك يا أمير المؤمنين، فقد وصلت الضربة المسمومة إلى الدماغ ولا شفاء منها. فشكره الإمام وإحتسب ذلك عند الله. ثم أخذ يوصي أبناءه بتقوى الله والعدل بين الناس ومساعدة الفقراء والمحتاجين والمحافظة على الفرائض والسنن.

لم ينسى وهو في تلك الحالة أن يوصيهم بإطعام أسيرهم بن ملجم و الإحسان إليه وأن إذا مات فعقابه "ضربة بضربة ولا تمثلوا بالرجل فإني سمعت حبيبي رسول الله يقول إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور." وفي الحادي والعشرين من الشهر الكريم، أي بعد ثلاث ليال، إنتقل إلى جوار ربه وإستراح من جوار الظلم والجور.

بعد مراسم الدفن والعزاء جيء بعبد الرحمن بن ملجم ولما مثل بين يدي الإمام الحسن عليه السلام أمر بضربه ضربة على رأسه، كما أمر أمير المؤمنين عليه السلام. فأخذ إلى الخارج وضرب ضربة كانت هي القاضية.

ذلك ما كان من أمر بن ملجم. أما صاحبيه فإن البرك ضرب معاوية ولكن الضربة وقعت في كتفه ولما أخذ إلى الطبيب قال له الطبيب إن السيف الذي ضُرب به مسموم وأن علاجه هو الكي. فقال معاوية: ألا يوجد علاج غير ذلك. فقال له الطبيب: بلى ولكن الدواء له آثار جانبية سيئة منها قطع النسل. فقال معاوية: أما النار فلا أطيقها وأما النسل ففي يزيد وعبد الله ما تقر عيني وحسبي بهما. فسقي الدواء وشفي من الضربة.

و إستدعى معاوية بعد ذلك البرك فلما مثل بين يديه قال البرك: لك عندي بشارة. فقال معاوية: وما هي؟ قال إن عليا سيقتل في نفس الليلة، فإحتبسني عندك فإن قتل فأنت ولي أمري ولك أن تفعل ما تراه في وإن لم يُقتل أعطيتك العهود والمواثيق على أمضي إليه فأقتله ثم أعود لك. لكن معاوية لم تنفع معه حيلة ولا إستجداء البرك. فقال له: لا حاجة لنا في مساعدتك. خذوه وإقتلوه بسيفه المسموم. فأخذ وقُتل بسيفه.

أما عمرو بن بكير فقد قصد المسجد الذي يصلي فيه عمرو بن العاص وإختبأ فيه. وحدث أن توعك عمرو بن العاص في ذلك اليوم فأمر أحد رجاله يقال له خارجه بن أبي حبيبة أن يُصلي بالناس. فدخل خارجة إلى المسجد للصلاة وبن بكير يعتقد بأنه عمرو بن العاص. فلما ركع قام له بن بكير و ربه بالسيف ضربة مميتة ولكنه قبض عليه وأتي به إلى عمر بن العاص فقتله شر قتلة. ثم ذهب بن العاص إلى خارجة يعوده. فلما رآه خارجة قال: يا أبا عبدالله، ما أراد الملعون غيرك. فقال بن العاص: ولكن الله أراد خارجة.

الشمعة الحادية و الستون
وصاياه دستور حياة وحياة في ظل دستور

في ليلة الحادي والعشرين من شهر رمضان المبارك، أي في الليلة الثالثة لضربة بن ملجم وهي الليلة التي صعدت فيها روحه الطاهرة الى بارئها، جمع أمير المؤمنين عليه السلام أولاده وأهل بيته ثم أدار وجهه فيهم ليراهم رؤية مودع ونعى نفسه الطاهرة إليهم. فلما سمعوا مقولته ارتفع صياحهم وعويلهم. فطلب منهم السكوت والإستماع جيدا لما يقوله.

لما سكتوا أخذ يوصيهم واحدا واحدا ثم أمرهم بإتباع الحسن والحسين عليهم السلام وعمل ما يرياه وبعد ذلك أدار وجهه إليهم جميعا وقال: "الله خليفتي عليكم وهو حسبي ونعم الوكيل. أحسن الله لكم العزاء. ألا وإني منصرف عنكم وراحل في ليلتي هذه ولاحق بحبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما وعدني."

ثم أمر الإمام الحسن بغسله وشرح له كيفية غسله وتكفينه ودفنه قائلا: "إذا أنا مت فغسلني يا أبا محمد (الإمام الحسن) وكفني وحنطني بباقي حنوط جدك رسول الله صلى الله عليه وآله فإنه كافور جاء به جبرئيل من الجنة ثم ضعني على سريري ولا يحمل أحد منكم مقدم السرير (لأنه ستحمله ملائكة السماء) فإذا رأيتم مقدمه قد إرتفع فإرفعوا أنتم مؤخره وإذا رأيتم مقدمه قد أنزل فأنزلوا أنتم مؤخره وحيث ينزل يكون موضع قبري.

ثم صلي علي يا أبا محمد وبعد الصلاة نحّ السرير من موضعه وإحفر قليلا فستجد قبرا محفورا ولحدا منقورا فأضجعني فيه."

بعدها أغمي عليه عليه السلام وبان التعب عليه من كثرة نزف الداء وإنتشار السم إلى باقي جسمه الشريف. وبعد أن أفاق، وجّه وجهه إلى الإمامان الحسن والحسين و قال:

"أوصيكما بتقوى الله وأن لا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ولا تأسفا على شيء منها زوي عنكما وقولا بالحق وإعملا للأجر وكونا للظالم خصما وللمظلوم عونا. أوصيكما وجميع و لدي وأهلي ومن بلغه كتابي بتقوى الله ونظم أمركم وصلاح ذات بينكم فإني سمعت جدكما رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام.

"الله الله في الأيتام فلا تُغّبوا أفواههم (تقطعوا عنهم الطعام) ولا يضيعوا بحضرتكم. والله الله في جيرانكم فإنهم وصية نبيكم ما زال يوصي بهم حتى ظننا أنه سيورثهم. والله الله في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم. والله الله في الصلاة فإنها عمود دينكم. والله الله في بيت ربكم لا تخلوه ما بقيتم فإنه إن تُرك لن تناظروا. والله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم في سبيل الله وعليكم بالتواصل والتبادل وإياكم والتنابذ والتقاطع. لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيُولى عليكم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم.

يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوصون دماء المسلمين خوضا تقولون قُتل أمير المؤمنين. لا تقتلن إلا قاتلي. أنظروا إذا أنا مت من ضربته هذه فإضربوه ضربة بضربة ولا يُمثّل بالرجل فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول إياكم والمُثلة ولو بالكلب العقور."

ثم أغمي عليه مرة أخرى وإرتفع الصياح من الدار. فأمرهم الإمام الحسن بالهدوء والسكوت حتى يرتاح أمير المؤمنين. بعدها أفاق الإمام من غشوته ونظر إلى الإمام الحسن عليه السلام ووجه إليه وصية خاصة قال فيها:

"هذا ما أوصى به علي بن أبي طالب أخو محمد رسول الله صلى الله عليه وآله و ابن عمه وصاحبه. أول وصيتي أني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وخيرته. إختاره بعلمه وارتضاه لخيرته وأن الله باعث من في القبور وسائل الناس عن أعمالهم عالم بما في الصدور. ثم إني أوصيك يا حسن وكفى بك وصيا بما أوصاني به رسول الله صلى الله عليه وأله. فإذا كان ذلك يا بني فالزم بيتك وابك على خطيئتك ولا تكن الدنيا أكبر همك وأوصيك يا بني بالصلاة عند وقتها والزكاة في أهلها عند محلها والصمت عند الشبهة والإقتصاد في العمل والعدل في العطاء والرضا عند الغضب وحسن الجوار وإكرام الضيف ورحمة المجهود وأصحاب البلاء وصلة الرحم وحب المساكين ومجالستهم والتواضع فإنه من أفضل العبادات وقصر الأمل وذكر الموت وازهد في الدنيا فإنك رهين موت وغرض بلاء وصريع سقم.

وأوصيك بخشية الله في سرك وعلانيتك وأنهاك عن التسرع بالقول والفعل. وإذا عرض شيء من أمر الآخرة فإبدأ به. وإذا عرض شيء من أمر الدنيا فتأنّ حتى تصيب رشدك فيه. وإياك و مواطن التهمة والمجلس المظنون به السوء فإن قرين السوء يضر جليسه وكن لله يا بني عاملا وعن الخنا زجورا وبالمعروف آمرا وعن المنكر ناهيا. وآخ الإخوان في الله وأحب الصالح لصلاحه ودار الفاسق عن دينك وأبغضه بقلبك وزايله بأعمالك لئلا تكون مثله. وإياك والجلوس في الطرقات ودع الممارات ومجارات من لا عقل له ولا علم لديه. وإقتصد يا بني في معيشتك واقتصد في عبادتك وعليك فيها بالأمر الدائم الذي تطيقه. وإلزم الصمت تسلم وقدم لنفسك تغنم. واعمل الخير تعلم. وكن لله ذاكرا على كل حال. وإرحم من أهلك الصغير ووقر منهم الكبير. ولا

تأكل طعاما حتى تتصدق منه قبل أكله وعليك بالصوم فإنه زكاة للبدن وجنة لأهله. وجاهد نفسك وإحذر جليسك وإجتنب عدوك وعليك بمجالس الذكر وأكثر من الدعاء فإني لم آلك يا بني نصحا وهذا فراق بيني وبينك. وأوصيك بمحمد خيرا فإنه شقيقك وابن ابيك وقد تعلم حبي له. وأما أخوك الحسين فهو ابن أمك ولا أزيدك الوصاية بذلك. والله خليفتي عليكم وإياه أسأل أن يصلحكم وأن يكف الطغاة البغاة عنكم والصبر الصبر حتى ينزل الله الأمر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم."

تلك كانت آخر وصاياه عليه السلام ولكنها لم تكن الوصية الشاملة الوحيدة. فلقد سبق له وأن قدم وصايا ونصائح عديدة أيام حياته وقبل إستشهاده. وكان أهم تلك الوصايا ما ذكره شعرا موصيا أبناءه عليهم السلام وشارحا لهم طريق الحياة السليمة والمفيدة لهم و لمجتمعهم. ففي إحدى جلساته مع أبناءه إلتفت إلى إبنه الحسن عليه السلام وقال له:

تردّ رداء الصبر عند النوائب ... تنل من جميل الصبر حُسن العواقب
و كن صاحبا للعلم في كل مشهد ... فما الحلم إلا خير خدن و صاحب
و كن حافظا عهد الصديق و راعيا ... تذُق من كمال الحفظ صفو المشارب
و كن شاكرا لله في كل نعمة ... يثيبك على النُعمى جزيل المواهب
و ما المرء إلا حيث يجعل نفسه ... فكن طالبا في الناس أعلى المراتب
و كن طالبا للرزق من باب حلّه ... يُضاعف عليك الرزق من كل جانب
و صُن منك ماء الوجه لا تبذلنه ... و لا تسأل الأرذال فضل الرغائب
و كن موجبا حق الصديق إذا أتى ... إليك ببر صادق منك واجب
و كن حافظا للوالدين و ناصرا ... لجارك ذى التقى و أهل التقارب

وفي يوم آخر ينظر إلى إبنه الإمام الحسين عليه السلام فيقول له ناصحا:

أحسينُ إني واعظ ومؤدب | فإفهم فأنت العاقل المتأدب
وإحفظ وصية والد متحنن | يغدوك بالآداب كي لا تُعطب
أبني إن الرزق مكفول به | فعليك بالإجمال فيما تطلب
لا تجعلن المال كسبك مفردا | و تُقى إلهك فإجعلن ما تكسب
كفل الإله برزق كل بريّة | و المال عارية تجيء و تذهب
و الرزق أسرع من تلفت ناظر | سببا إلى الإنسان حين يُسبب
و من السيول إلى مقر قرارها | و الطير للأوكار حين تصوب
أبني إن الذكر فيه مواعظ | فمن الذي بعظاته يتأدب
فإقرأ كتاب الله جهدك و إتله | فيمن يقوم به هناك و ينصب
بتفكر و تخشع و تقرب | إن المقّرب عنده المتقرب
و اعبد إلهك ذي المعارج مخلصا | و إنصت إلى الأمثال فيما تضرب
و اذا مررت بآية و عظية | تصف العذاب فقف ودمعك يسكب
يا من يعذب من يشاء بعدله | لا تجعلنّي في الذين تُعذب
إني أبوء بعثرتي و خطيئتي | هربا و هل إلا إليك المهرب
و إذا مررت بآية في ذكرها | و صف الوسيلة و النعيم المعجب
فإسال إلهك بالإنابة مخلصا | دار الخلود سؤال من يتقرب
و إجهد لعلك أن تحل بأرضها | و تنال روح مساكن لا تخرب
و تنال عيشا لا إنقطاع لوقته | و تنال ملك كرامة لا يُسلب
بادر هواك إذا هممت بصالح | خوف العواقب أن تجيء فتغلب
و إذا هممت بسيء فإغمض له | و تجنب الأمر الذي يُتجنب
و إخفض جناحك للصديق و كن له | كأب على أولاده يتحدب
و الضيف أكرم ما إستطعت جواره | حتى يُعدّ كوارث يتنسّب

و إجعل صديقك مــن إذا آخيتــه حفظ الإخاء و كان دونك يضرب
و إطلبهم طلب المريض شفاءه و دع الكذوب فليس ممن يُصحب
و إحفظ صديقك في المواكن كلها و عليك بالمرء الذي لا يكذب
و اقل الكذوب و قربه و جواره إن الكذوب ملطخ من يصحب
يعطيك ما فوق المنى بلسانه و يروغ عنك كما يروغ الثعلب
و إحذر ذوى الملق اللئام فإنهم في النائبات عليك من يخطب
يسعون حول المرء ما طمعوا به و إذا نبا دهر جفوا و تغيبوا
و لقد نصحتك إن قبلت نصيحتي و النصح أرخص ما يباع و يوهب

الشمعة الثانية والستون
عمل بصدقة السر صونا لكرامة المحتاج

بعد أن فرغ الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام من دفن أمير المؤمنين عليه السلام رجعا وفي معيّتهما الأهل والأصحاب في موكب جنائزي حزين. كان في مقدمة الموكب الأمام الحسن ثم بقية العائلة والصحب رجالا ونساء. الحزن كان العلامة المرتسمة على وجوههم والألم كان يعصر قلوبهم وشفاههم تلتهج بذكر الله سبحانه وتعالى مؤمنين بقضائه شاكرين نعمائه راجين قبول العمل والصبر على فقد وفراق الغالي.

بينما الموكب يسير في إتجاه الكوفة وصلت إلى آذان الأمام الحسن (ع) همهمة غامضة منبعثة من خربة على جانب الطريق. وكلما تقدم الموكب في السير زادت الهمهمة وضوحا وتبيانا حتى وضح الأمر. إنها تأوهات حزينة تنطلق من غرفة قديمة في بيت متهاو ومظلم. تحرّك الإمام الحسن نحو الخربة وكان الظلام يلّف كل شيء. أمر الموكب أن يقف وسحب قدماه وسط الظلام بحذر شديد خوفا من أن يطأ على شيء أو على أحد حتى وصل إلى مصدر تلك التأوهات الحزينة. حقق النظر وإذا هو بشيخ طاعن في السن قد أخذ الدهر منه مأربه مطروحا في زاوية من الغرفة لا يستطيع الحركة.

تقدّم الإمام الحسن من الشيخ وسأله: ماذا بك يا شيخ؟

أجابه الشيخ بصوت ضعيف مرتعش: أنا رجل عجوز قد فقدت بصري منذ مدة وكان هناك رجل كريم يأتي إلي كل ليلة يخدمني ويأتيني بالماء

والطعام. وبعد أن آكل واسد جوعي يقوم بمساعدتي على الإستحمام ثم يجلس معي يؤانسني ويحدثني ويبدد عني ظلام الوحدة والوحشة. ولكنه إنقطع عني ولم يزرني منذ ثلاثة أيام. ولا أعلم ما حصل له ويخالجني شعور بأن حدثا كبيرا قد حصل له، لأنه كريم والجفاء ليس من طبعه. فهئنذا بالإضافة إلى وحشتي وجوعي أفكّر في مالذي حدث لذلك الشهم الكريم وأتألم خوفا من مكروه ربما قد حدثه، لم أعهد منه القطيعة والجفاء وأنا متأكد بأن ذلك ليس من شيمه.

خفق قلب الإمام الحسن (ع) وقال للرجل: أتستطيع أن تصفه لي؟

فأخذ الشيخ يصف الرجل ويصف حديثه وأسلوبه وكلامه ورائحته الزكية. وكلما ذكر الرجل شيئا من الرجل إزداد خفقان قلب الإمام حتى أنه لم يتمالك ولم يستطيع منع نفسه من البكاء.

تعجّب الرجل من بكاء الإمام وقال له: ما لي أسمع نحيبك وبكائك كلما ذكرت لك صفة من صفات الرجل الكريم. أتعرفه؟ فإزداد نحيب الإمام الحسن (ع) وقال له بعبرة حرقى: نعم يا شيخ إنه أبي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

تعجّب الشيخ من كلام الإمام الحسن وقال: سيدي ومولاي يخدمني كل ليلة وأنا لم أعرفه! أيكون ذلك؟ وكيف خفي علي حسن كلامه وكرم يده وطيب رائحته ولم أستطيع التعرف عليه طول تلك المدة.

وبعد أن فرغ من تأسفه سأل الإمام الحسن: و أين هو الآن وهل تستطيع أن تأخذني إليه؟

إزداد بكاء الإمام الحسن وقال: عظّم الله لك الأجر فيه. فلقد ضربه

عبد الرحمن بن ملجم قبل ثلاثة أيام وتوفى الليلة الماضية وها نحن راجعين من دفنه وهذا سر إنقطاعه عنك في الأيام الثلاثة الماضية.

بكى الرجل بكاء عاليا وأخذ يُسلم على أمير المؤمنين بنحيب أبكى كل من كان حاضرا. هذا والإمام الحسن يحاول تسليته وتصبيره متعهدا بأن يواصل ما كان يعمل والده والرجل مستغرق في البكاء والنحيب سائلا ربه أن يلحقه بأمير المؤمنين.

وفجأة توقف بكاءه وسكن أنينه وخمد صوته. ناداه الإمام الحسن فلم يجبه. حركه فإذا به جثة هامده. قام الإمام الحسن ومن معه بتغسيله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه. ثم واصل سيره الى الكوفة.

الشمعة الثالثة والستون
تراثه الوافر

تعتبر خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وكتبه إلى ولاته وقادة جيوشه وممثليه وأبناءه وحكمه التي وضعها الشريف الرضي رحمه الله في كتاب سمّاه نهج البلاغة تراثا عظيما قدمه الأمام إلى الإنسانية ودوحة شاسعة، وارفة الظلال، زكية الرائحة، نتاجها حلو المذاق، سهل المنال.

خلّف الإمام تلك الدوحة للإنسانية كلها، كل فرد في البشرية له سهم فيها يستطيع الحصول عليه متى ما أراد وكيفما أراد. فتلك الخطب والكتب والحكم حوت من كنوز المعرفة وينابيع الحكمة ما لم يحويه أي تراث بشري قبل الإمام وبالتأكيد لن يحويه أي تراث أو نتاج بشري بعده.

نهج البلاغة هو بالفعل كما وصفه الشريف الرضي في مقدمة النهج: "يتضمّن من عجائب البلاغة، وغرائب الفصاحة، وجواهر العربية، وثواقب الكلم الدينية والدنياوية، ما لا يوجد مجتمعاً في كلام، ولا مجموعَ الاطراف في كتاب، إذ كان أميرالمؤمنين عليه السلام مشرَعَ الفصاحة وموردها، ومنشأ البلاغة ومولدها، ومنه عليه السلام ظهر مكنونها، وعنه أخذت قوانينُها، وعلى أمثلته حذا كلّ قائل خطيب، وبكلامه استعان كلّ واعظ بليغ. ومع ذلك فقد سبق وقصروا، وتقدم وتأخروا، لانّ كلامه عليه السلام الكلامُ الذي عليه مَسْحة من العلم الالهي، وفيه عَبْقَة من الكلام النبوي."

نهج البلاغة هو بالفعل كما عرّفه و وصفه الشيخ محمد عبده، مفتي الديار المصرية الأسبق، وشارح نهج البلاغة حيث يقول: "إن للبلاغة دولة وللفصاحة صولة وإن للأوهام عرامة وللريب دعارة وإن جحافل الخطابة وكتائب الذرابة في عقود النظام وصفوف الإنتظام تنافح بالصفيح الأبلج والقويم الأملج وتمتلج المهج برواضح الحجج، فتفل من دعارة الوساوس وتصيب مقاتل الخوانس. فما أنا إلا والحق منتصر والباطل منكسر ومرج الشك في خمود وهرج الريب في ركود. وأن مدبر تلك الدولة و باسل تلك الصولة هو حامل لوائها الغالب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

ويواصل محمد عبده تقديمه: كنت كلما إنتقلت من موضع إلى موضع (في النهج) أحس بتغيير المشاهد وتحول المعاهد. فتارة كنت أجدني في عالم يعمره من المعاني أرواح عالية، في حلل من العبارات الزاهية، تطوف على النفوس الزاكية وتدنو من القلوب الصافية. توحي إليها رشادها وتقوم منها مرادها وتنفر بها عن مداحض المزال إلى جواد الفضل و الكمال. وطورا كانت تنكسف لي الجمل عن وجوه باسرة و أنياب كاشرة وأرواح في أشباح النمور ومخالب النسور قد تحفزت للوثاب ثم انقضت للإختلاب فخلبت القلوب عن هواها وأخذت الخواطر دون مرماها وإغتالت فاسد الأهواء وباطل الآراء.

"وأحيانا كنت أشهد أن عقلا نورانيا، لا يشبه خلقا جسدانيا، فصل عن الموكب الإلهي واتصل بالروح الإنساني فخلعه عن غاشيات الطبيعة وسما به إلى الملكوت الأعلى ونما به الى مشهد النور الأجلى وسكن به إلى عمار جانب التقديس، بعد إستخلاصه من شوائب التلبيس."

ذلك هو نهج البلاغة كما وصفه عمالقة اللغة والبلاغة و رواد الفكر والفصاحة وأئمة الجمع والجماعة وأرباب العقيدة والتشريع والإفتاء والشريعة. وصفوه بأنه كلام دون كلام الخالق ورسوله وفوق كلام المخلوق في كل عصر

وزمان ودولة. ولو لم يكن لأمير المؤمنين عليه السلام من تركة وتراث سوى نهج البلاغة لكفى به تراثا يعجز أرباب الفكر والسياسة و التشريع أن يأتوا ببعض منه.

لكن تراث الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لم يقتصر على نهج البلاغة فقط. نهج البلاغة كان نتاجه الفكري فقط ولديه نتاج عملي هو الأول من نوعه في الدولة الإسلامية، لم يسبق أمير المؤمنين أحد إليه قبله وهو تخريجه لقادة مجتمع وقادة سياسيين ومفكرين وعلماء وهو ما لم يقم به أحد قبله وما توصلت إليه الأمم إلا بعده وبعد أن أنشأت لها أنظمة مؤسساتية تعليمية وعلمية.

وحتى عندما قامت تلك المؤسسات واستطاعت تخريج العلماء كان الفضل يرجع إلى تلك المؤسسات وليس إلى شخص بعينه لأن الجهد كان مؤسساتي وليس فردي، كما كان في عهد الإمام عليه السلام الذي كان فيه هو المحاضر في الدين واللغة والطب والرياضيات والعلوم والأدب والسياسة والإقتصاد والفضاء وكل فروع المعرفة. لم يكن متخصصاً في علم دون آخر، كما هو الحال في المؤسسات التعليمية التي تلت عصره.

لم نسمع أن أحدا من الخلفاء قبله أو بعده تخرج على يديه علماء أجلاء ورجال مجتمع بارزين مثل عمّار بن ياسر، الصحابي الجليل المبّشر بالجنة، أو المقداد أو حجر بن عدي أو ميثم التمار أو كميل بن زياد أو أبو الأسود الدؤلي، أبو القواعد واللغة، أو حذيفة بن اليمان الذي إقترح على عثمان توحيد قراءة القرآن ليُحصّن القرآن ضد الزيادة أو النقصان جراء القراءات المتعددة وأقر عثمان ذلك الإقتراح وجزاه على إقتراحه خيرا. او قنبر الذي إستدعاه الحجاج بن يوسف الثقفي وطلب منه البراءة من علي بن أبي طالب ومن دينه فما كان من قنبر الا أن قال له: فإذا برأت منه تدلني علي شخص أفضل منه

وإذا برئت من دينه تدلني على دين أفضل من دينه؟ قال له الحجاج: إني قاتلك فإختر أي قتلة تحب. قال له قنبر: قد صيرت ذلك لك. فقال الحجاج: و لم؟ قال له قنبر: لأنك لا تقتلني قتلة إلا قتلتك مثلها.

إهتم بالمرأة كإهتمامه بالرجل

وكما خرّج و أعدّ قادة مجتمع من الرجال خرّج أيضا كوكبة من النساء وأعدهن إعدادا شاملا ليصبحن قادة مجتمع. رأى بأن المجتمع لا يستقييم بتغييب نصفه الآخر فعمل على تفعيل ذلك النصف وإعطائه حقه من المعرفة والمشاركة في بناء المجتمع. فقام بتأهيل كوادر نسائية مهمة لعبن دورا هاما في خدمة المجتمع وخاصة في تعليمه وتثقيفه.

من تلك النساء الفاضلات السيدة الدارمية الحجونية. هذه المرأة الشجاعة والعالمة و المتحدثة اللبقة وقفت ضد طاغية زمانها وقارعته الحجة بالحجة. أرسل إليها معاوية بن أبي سفيان فلما حضرت سألها عن حالها ثم قال لها: أتدرين لم بعثت إليك؟ فأجابت: لا يعلم الغيب الا الله. قال لها معاوية: بعثت إليك لأسألك علام احببت عليا وأبغضتني وواليته و عاديتني؟

قالت له: سألتك ان تعفيني من الإجابة. قال لها: لا أعفيك. قالت له: إني أحببت عليا على عدله في الرعية وقسمه بالسوية وبغضتك على قتالك من هو أولى منك بالأمر وطلبك لما ليس لك بحق وواليت عليا على ما عقد له رسول الله من الولاء وحبه للمساكين وتعظيمه لأهل الدين وعاديتك على سفكك للدماء وجورك في القضاء وحكمك بالهواء.

من تلك النساء أيضا عكرشة بنت الأطرش بن رواحة التي وقفت بين الصفوف في صفين وخطبت حيث يسمعها الجيشان المتحاربان وقالت: "أيها

الناس عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا إهتديتم فإن الجنة لا يرحل عنها من قطنها ولا يهرم من سكنها ولا يموت من دخلها فإبتاعوها بدار لا يدوم نعيمها ولا تنصرم همومها وكونوا قوما مستبصرين في دينهم مستظهرين بالصبر على طلب حقهم. إن معاوية دلف إليكم بعجم العرب غلف القلوب لا يفقهون الإيمان ولايدرون ما الحكمة. دعاهم بالدنيا فأجابوه وإستدعاهم الى الباطل فلبوه. فالله الله عباد الله في دين الله وإياكم و التواكل فإن ذلك ينقض عرى الإسلام ويطفئ نور الحق. هذه بدر الصغرى والعقبة الكبرى. يا معشر المهاجرين والأنصار امضوا على بصيرتكم واصبروا على عزيمتكم."

من تلك النساء أيضا أم سنان بنت خيثمة المذحجية المحدثة والفقيهة والشاعرة التي قالت في أمير المؤمنين عليه السلام:

عزب الرقـــــاد فمقلتي لا ترقـــد	و الليل يصعد بالهموم و يـــورد
يا آل مذحج لا مقـــام فشمـــروا	إن العدو لآل أحمد يقصـــــد
هذا علي كالهـــــــلال تحفـــــه	وسط السماء من الكواكب أسعد
خير الخلائق و ابن عـم محمـــد	إن يهدكم بالنور منه تهتــدوا
ما زال مذ شهد الحروب مظفـرا	و النصر فوق لوائه ما يفقـــد

وقالت في رثاء أمير المؤمنين عليه السلام:

أما هلـــكت أبا الحسين فلم تـــزل	بالحق تعرف هاديا مهديـــا
فإذهب عليك صلاة ربك ما دعـت	فوق العصون حمامة قمريـــا
قد كنت بعد محـــــمد خلفا كمـــا	أوصة إليك بنا فكنت وفيـــا
فاليوم لا خـــــــلف يؤمل بعـــده	هيهات نأمل بعده إنسيـــا

من تلك النساء أيضا سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية التي دخلت على معاوية بن أبي سفيان تخبره عن أعمال واليه بسر بن أرطأة فقالت: هذا

بسر بن أرطأة قدم علينا من قبلك وقتل رجالي وأخذ مالي. و لولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة فإما عزلته عنا فشكرناك وإما لا فعرفناك.

قال لها معاوية: إياي تهددين بقومك والله لقد هممت أن أردك إليه على قتب أشرس فينفذ حكمه فيك.

سكتت قليلا ثم أنشدت:

صـــلى الإله على روح تضمنــه	قبر فأصبح فيه العـدل مدفونـا
قد حالف الحق لا يبغي به بـدلا	فصار بالحق و الإيمان مقرونـا

قال لها معاوية: ومن ذاك؟ فقالت: علي بن أبي طالب. ثم أخبرته بما فعل علي بن أبي طالب عندما جاءت إليه شاكية من بعض ولاته فما كان منه إلا أن بكى ورفع يديه الى السماء وقال: اللهم أنت تعلم إني لم آمرهم بظلم عبادك و لا ترك حقك. وقام بعزل ذلك الوالي ومعاقبته.

لما سمع معاوية مقالتها قال لأحد كتبته: إكتبوا لها بالإنصاف لها والعدل معها. فقالت: ألي خاصة أم لقومي عامة؟ قال معاوية: ما أنت وقومك؟ فقالت: هي والله إذا الفحشاء واللؤم إن لم يكن عدلا شاملا يسعني ويسع قومي. أمر معاوية لها ولقومها ثم قال: هيهات لمّظكم ابن ابي طالب الجرأة على السلطان.

من تلك النساء أيضا بكارة الهلالية المحدثة والفقيهة والشاعرة التي تقول:

قـــد كنت أطمع أن أموت و لا أرى	فوق المنابر من أمية خاطبـا
فالله أخّر مدتـي فتطاولـت حتى	رأيت من الزمان عجائبـا
في كـل يوم للزمان خطيبهـم بيـن	الجميع لآل أحمد عائبـا

و منهم الزرقاء بنت عدي بن غالب التي استدعاها معاوية ولما مثلت بين يديه قال لها بأنها شريكة علي في قتله وسفكه لدماء المسلمين. لما سمعت كلامة تبسمت وقالت: أحسن الله بشارتك وأدام سلامتك. فقال لها: أو يسرك ذلك؟ قالت: نعم والله لقد سررت بالخير فأنى لي بتصديق العمل (أي ان مشاركة علي ما يقوم به هو مشاركة له في السباق الى مرضاة الله). فقال لها معاوية: والله لوفائكم له بعد موته أعجب من حبكم له في حياته.

ومنهم أم الخير بنت الحريش بن سراقة البارقي التي من قوة بلاغتها رفض معاوية محاججتها. وأروى بنت الحارث بن عبد المطلب التي لما تعرض لها عمرو بن العاص بالشتم في مجلس معاوية قالت له: ما أنت والشرف وأمك كانت أشهر امرأة بغي في مكة إدعاك خمسة نفر من قريش فسئلت أمك عنهم فلم تستطع تعيين أحدهم. تدخل عندها مروان بن الحكم وحاول إسكاتها فقالت له: وأنت أيضا يا ابن الزرقاء تتكلم وأنت ببشير بن كلدة أشبه منك بالحكم بن العاص. ثم إلتفتت الى معاوية وقالت: والله ما جرأهم علي إلا أنت. إعتذر منها معاوية وسألها عن حاجتها فقالت له: لا حاجة لي عندك.

تلك فقط نماذج من النساء التي أعدهن الإمام للمشاركة في بناء المجتمع وقد وصلن الى درجة من العلم والفقه لم يصل إليها الكثير من الرجال. ذلك طبعا بالإضافة الى نساء البيت العلوي ونساء الصحابة والتابعين.

أؤلئك، رجالا ونساء، كانوا من أبرز الصحابة الذين وجدوا في صحبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام صحبة للحقيقة وورودا لينابيع المعرفة والعلم فأخذوا على أنفسهم عهدا بأن لا يحيدوا عن نهجه وأن لا يفارقوه أبدا. إن قام قاموا معه وإن قعد قعدوا معه. درسوا في مدرسة الإمام عليه السلام تخرجوا منها علماء لا يفوقهم علما ومعرفة سوى معّلمهم وشجعان لا أشجع منهم إلا فارسهم وقائدهم ومدربهم. ومخلصين لله والرسالة والأمة لا يوجد من هو

أكثر منهم إخلاصا سوى زعيمهم ومعلمهم وقدوتهم وإمامهم. عرفوا الحق فصحبوه ورفضوا صحبة غيره، مهما كانت المغريات والعروض. فكانوا، رجالا ونساء، بحق قادة يفخر المجتمع بقيادتهم له وساسة مخلصين. وقفوا ضد الظلم والطغيان وبذلوا أرواحهم في سبيل الحق ونصرته.

ذلك كان التراث الذي خلّفه أمير المؤمنين عليه السلام وهو تراث لم يسبقه إليه أحد قبله ولم يصل إليه أحد بعده. فنهج البلاغة بقي وسيبقى مرجعا لطلاب المعرفة والبلاغة والفصاحة والحقيقة وتلامذته وأصحابه كانوا وسيبقون منارات علم وشهامة وشموخ للأبد. فبالرغم من تغييب التراب لأرواحهم منذ قرون مضت إلا ان أعمالهم ومناهجهم وسيرهم وانجازاتهم الفكرية والعملية معين لا ينضب يسقي كل وارد له الى لآخر الدهر. أصبحوا أمثلة ورموزا يتمنى المرأ ان يكون مثلهم.

خاتمـــة

سلام الله عليك يا أبا الحسن يا أمير المؤمنين علي بن ابي طالب، السلام عليك وعلى روحك الطاهرة النقية، السلام عليك وعلى نفسك الأبية الزكية المتسامحة العطوفة، السلام عليك بما صبرت وإحتسبت، السلام عليك بما أعطيت وأنصفت، السلام عليك بما جاهدت وسالمت وعاهدت، السلام عليك بما عفوت وسامحت، السلام عليك بما علمت وعلّمت، السلام عليك بما قضيت وعدلت، السلام عليك بكل ما عملت وللبشرية قدمت وشرّعت. السلام عليك وعلى ابن عمك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، السلام عليك وعلى زوجك فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين، السلام عليك وعلى أبناءك الأئمة الطاهرين ورحمة الله وبركاته.

قصيدة "قد قلت للبرق" لإبن أبي الحديد المعتزلي

قد قلت للبـرق الذي شقَّ الدجـــى		فكأن زنجيا هنـــــاك يجـدَّعُ
يا برق إن جئتَ الغريَّ فقـــل لـــه		أتـراك تعلم من بأرضـك مــودعُ
فيك ابن عمرانِ الكليم وبعــــدهُ		عيـــسى يُقفّيه وأحـــمد يتبــعُ
بل فيــك جبريلٌ وميكالٌ وإســـرا		فيـل والملأ المقـَــدَّسِ أجمـــعِ
بل فيك نـــورُ الله جل جلالـــه		لـــذوي البصائر يُستشفُّ ويلمـــعُ
فيك الإمام المرتضى فيك الوصـــي		المجتبى فيك البطـــين الأنـــزعُ
الضَّارب الهـام المقنع في الوغـــى		بالخوف للبهـــم الكمـــاة يُقنّـــعُ
حتى إذا استعـــر الوغى متلظيـا		شـرب الدمــــاء بغلة لا تنقـــع
هـذي الأمـانة لا يقوم بحملهـــا		خلقاءُ هابطة وأطلـــــسُ أرفـعُ
تأبـــى الجبال الشمُّ عن تقليدها		وتضجُّ تيهـــــاءٌ وتشفق برقـعُ
هذا هو النـور الذي عذباتـــــه		كـــــانت بجبهة آدم تتطلّعُ
وشهابُ موسى حيـــث أظلم ليله		رُفــعت لــــــه لألاؤه تتشعشـعُ

يا من ردت له ذكـاءُ ولـم يفزْ لنظيرها من قبل إلا يوشعُ

يا هازم الأحزاب لا يثنيه عن خوض الحمام مدجج ومدرّع

يا قالع الباب الذي عن هزّها عجزت أكفٌّ أربعون وأربع

ما العالم العلويّ إلا تربةٌ فيها لجثتك الشريفة مضجعُ

ما الدهر إلا عبدُك القنُّ الذي بنفوذ أمرك في البرية مولعُ

بل أنت في يوم القيامة حاكمٌ في العالمين وشافعٌ ومشفَّعُ

والله لولا حيدرٌ ما كانت الدنيا ولا جمع البرية مجمعُ

علم الغيوب إليه غير مدافعَ والصبح أبيض مسفر لا يدفعُ

وإليه في يوم المعاد حسابنا وهو الملاذ لنا غداً والمفزعُ

يا من له في أرض قلبي منزلٌ نعم المراد الرحب والمستربعُ

أهواكَ حتى في حشاشة مهجتي نار تشبُّ على هواك وتلذعُ

وتكاد نفسي أن تذوب صبابةً خُلقاً وطبعاً لا كمن يتطبعُ

ولقد علمت بأنه لا بُد من مهديكم وليومه أتوقعُ

يحميه من جند الإله كتائبٌ كاليمّ أقبل زاخراً يتدفعُ

المراجع

- "جلاء العيون" للسيد عبد الله شبّر – المجلّد الأول
- "أمير المؤمنين" للإمام الشيخ محمد جواد الشرّي
- "نهج البلاغة" شرح الشيخ محمد عبده
- "نهج البلاغة" للشريف الرضي
- "خصائص الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب" للحافظ أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي
- "إعلام الورى بأعلام الهدى" تأليف الفضل بن الحسن الطبرسي
- "الإمام علي: أسد الإسلام و قدّيسه" تأليف روكس بن زائد العزيزي
- "الإمام غلي بن أبي طالب" للأستاذ عبدالفتاح عبد المقصود
- "الحكمة في ديوان الإمام علي" لمحسن عقيل
- "ديوان الإمام علي" للدكتور محمد حمود
- "معاجز أهل البيت" لمحسن عقيل
- "قبس من حياة أمير المؤمنين" للسيد جواد شبر
- "أخلاق الإمام علي (ع)" للسيد صادق السيد محمد رضا الخرسان
- "علي بن ابي طالب" لفؤاد أفرام البستاني
- "قصة الكوفة: سيرة الإمام علي (ع)" لعلي نظري منفرد
- "الإمام علي نبراس و متراس" لسليمان كتاني
- "مناظرات الرسول المصطفى (ص) و الإمام علي (ع) مع اليهود" لمحمد علي دخيل

الفهرست

إهــداء ٤

مقدمــة ٥

الشمعة الأولى: ولادة النور في بيت النور ١١

الشمعة الثانية إسمه من شامخ عليا ١٦

الشمعة الثالثة: اللقاء الأول بين النبوة و الإمامة ٢٠

الشمعة الرابعة: من رسول الله كالصنو من الصنو و الذراع من الجسد .. ٢٤

الشمعة الخامسة: هروب إلى الله ورسوله ٢٨

الشمعة السادسة: أول المصّدقين و أصدق المؤمنين "خلقني الله من غير أن يشاور أبا طالب فما حاجتي إلى مشاورته لكي أعبد الله" ٣٢

الشمعة السابعة: مكّسر الأصنام و مزيلها عن بيت الله الحرام ٣٧

الشمعة الثامنة: أخا و وزيرا و ناصرا لرسول الله "ص" ٣٠

الشمعة التاسعة: خير فاد لخير هاد ٤٨

الشمعة العاشرة: زوجاً لسيدة نساء العالمين ٥٢

الشمعة الحادية عشرة: بطل عجزت النساء أن يلدن أشجع منه ٦٢

الشمعة الثانية عشرة: وارث علم الرسول والمبــــين لأمته ما إختلفت فيــــه من بعده.. ٩٠

الشمعة الثالثة عشرة: نفس رسول الله و صفيه و أمينه ٩٥

الشمعة الرابعة عشرة: لا يؤدي عني إلا علي ١٠٢

الشمعة الخامسة عشرة عشرة: عينه الله و رسوله و ليّا و هاديا........... ١٠٧

الشمعة السادسة عشرة: أذهب الله عنه الرجس و طهّره تطهيرا ١١٢

الشمعة السابعة عشرة: باب مدينة علم رسول الله ١١٧

الشمعة الثامنة عشرة: قمة الإخلاص و الحب لله و للرسول.............. ١٢٦

الشمعة التاسعة عشرة: سدّ الرسول كل الأبواب إلا بابه ١٣٣
الشمعة العشرون: سيد البلغاء و إمام الفصحاء ١٣٨
الشمعة الحادية و العشرون: حبّه إيمان و بغضه كفر و نفاق ١٤٤
الشمعة الثانية و العشرون: به خفّف الله عن الناس (آية النجوى) ١٥٣
الشمعة الثالثة و العشرون: أذهب الله عنه الحرّ و البرد و أنزل عليه سكينته ١٥٨
الشمعة الرابعة و العشرون: يُطعم الطعام على حب الله مسكينا و يتيما و أسيرا ١٦٦
الشمعة الخامسة و العشرون: أقام الصلاة و آتى الزكاة و هو راكع ١٧١
الشمعة السادسة و العشرون: إختاره الرسول ليصحح أخطاء بعض الصحابة ١٧٤
الشمعة السابعة و العشرون: وصيا وخليفة مقامه من رسول الله مقام هارون من موسى ١٨٠
الشمعة الثامنة و العشرون: وصي أُجهضت الوصية عليه قسرا ٢٠١
الشمعة التاسعة و العشرون: آخر الناس عهدا برسول الله ٢٠٨
الشمعة الثلاثون: أعطى الأولوية لواجبه دون حقه ٢١٣
الشمعة الحادية و الثلاثون: قمة المعارضة السلمية الصحيحة و الصحية ٢٢٣
الشمعة الثانية و الثلاثون: رفض العمل بغير كتاب الله و سنة رسوله ٢٣٢
الشمعة الثالثة و الثلاثون: يرفض مبدأ الإنقلابات العسكرية ٢٤٠
الشمعة الرابعة و الثلاثون: إستغنى عن الناس و إحتاجت الناس إليه ٢٥١
الشمعة الخامسة و الثلاثون: حاميا للخلافة و الخليفة عثمان ٢٦٢
الشمعة السادسة و الثلاثون: زهد في الخلافة فرغبت فيه ٢٦٨
الشمعة السابعة و الثلاثون: خُص بقتال المارقين و الناكثين و القاسطين .. ٢٧٤
الشمعة الثامنة و الثلاثون: إنتصاراته لا تزيده إلا إيمانا و إنسانية و سماحة ٢٩٢

الشمعة التاسعة و الثلاثون: قاتل على تأويل القرآن كما قاتل الرسول على تنزيـــله ٢٩٧
الشمعة الأربعون: شهم قدر فعفى و ملك فأجزل و أوفى ٣٠٦
الشمعة الحادية و الأربعون: في صفين علي قاتل الفئة الباغية ٣١٣
الشمعة الثانية والأربعون: قائد لخير فرقة من الناس..........................٣٢٢
الشمعة الثالثة و الأربعون: عادِل أثرى القضاء بنماذج قضائية و مرافعات هي الأولى من نوعها ٣٣٤
الشمعة الرابعة و الأربعون: يعمل لخير الإنسان و الإنسانية ٣٤٦
الشمعة الخامسة و الأربعون: حكيما سديد الرأي قوي الفراسة ٣٥٥
الشمعة السادسة و الأربعون: أول من وضع تعريفا و قانونا لحقوق الإنسان ٣٦١
الشمعة السابعة و الأربعون: سياسيا و زعيماً فريداً ٣٦٦
الشمعة الثامنة و الأربعون: له السبق في وضع علم الإقتصاد ٣٧٤
الشمعة التاسعة و الأربعون: مبتكر عظيم ٣٨١
الشمعة الخمسون: أول من أنشأ نظاماً إجتماعياً تكافلياً شاملاً ٣٨٨
الشمعة الحادية و الخمسون: عرف ربّه فعرف كيف يؤدي حقه ٣٩٦
الشمعة الثانية و الخمسون: إمام الوسطية / عمل للدنيا و للآخرة ٤٠٣
الشمعة الثالثة و الخمسون: مجاهداً عرف الجهاد فعرّفــه ٤١٣
الشمعة الرابعة و الخمسون: رؤية و لا أروع للمجتمع المثالي ٤١٨
الشمعة الخامسة و الخمسون: عفى و أصلح و طلب الأجر من الله.......... ٤٣٢
الشمعة السادسة و الخمسون: رحيما راهف الشعور و الإحساس ٤٣٦
الشمعة السابعة و الخمسون: مولى كل مسلم و مسلمة ٤٣٩
الشمعة الثامنة و الخمسون: من سبّه فقد سبّ رسول الله ٤٤٣
الشمعة التاسعة و الخمسون: يقتله أشقى الأشقياء ٤٤٨
الشمعة الستون: عادل حتى مع قاتله: "ضربة بضربة و لا تمثلوا بالرجل" ٤٥٢
الشمعة الحادية و الستون: وصاياه دستور حياة و حياة في ظل دستور..... ٤٦٢

الشمعة الثانية و الستون: عمل بصدقة السر صونا لكرامة المحتاج ٤٦٨
الشمعة الثالثة و الستون: تراثه الوافر ٤٧١
إهتم بالمرأة كإهتمامه بالرجل ٤٧٤
خاتمة ٤٧٩
المراجع ٤٨١
الفهرست ٤٨٢